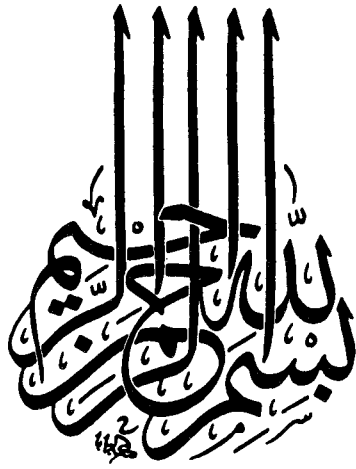


تَمَايُزُ الْبِيَانِ فِي أَمْثَالِ الْقُرْآنِ

تَأَلَّفَ

صَابِرُ حَسَنٍ مُحَمَّدٌ أَبُو سُلَيْمَانَ

الْمُدْرَسُ بِكَلْبِيَّةِ أَصُولِ الدِّينِ - قَسَمِ الْقُرْآنِ وَعِلْمِهِ
بِجَامِعَةِ الْإِمَامِ مُحَمَّدِ بْنِ سَعُودٍ الْإِسْلَامِيَّةِ
بِالرِّيَاضِ



تَعَايُنُ الْبَيِّنَاتِ
فِي
أَمْثَالِ الْقُرْبِ

ح دار عالم الكتب للنشر والتوزيع، ١٤٢١هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

أبو سليمان، صابر حسن

غاية البيان في أمثال القرآن - الرياض

٤٢٠ ص؛ ١٧ × ٢٤ سم

ردمك: ٣ - ٢٦ - ٨٤٠ - ٩٩٦٠

١ - القرآن - أمثال ٢ - القرآن - بلاغة أ - العنوان

ديوي ٢٢٩,٦ ٢١/٢٦١٧

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

١٤٢١هـ - ٢٠٠١م

رقم الإيداع: ٢١/٢٦١٧

ردمك: ٣ - ٢٦ - ٨٤٠ - ٩٩٦٠



دار عالم الكتب

للطباعة والنشر والتوزيع

العليا - غرب مؤسسة التحيلية

ت: ٤٦٥١٦٨٩ - ٤٦٣١٧٢٢

ص.ب.: ٢٤٢٠ - الرياض: ١١٤٤٣

تليفاكس: ٤٦٣١٢٣٢

المملكة العربية السعودية

مقدمة

الحمد لله حمداً يوافي نعمه ويكافىء مزيده، والصلاة والسلام على النبي المختار المبعوث رحمة للعالمين وهداية للمتقين، وقدوة للصالحين نبينا محمداً وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فلما كانت حاجة طلبة العلم والقراء ماسة إلى وضع كتاب في «أمثال القرآن» يبين لهم فيها معرفتها ومدلولاتها ومفهومها الصحيح أقدمت على تأليف كتابي هذا الموسوم بـ «غاية البيان» في أمثال القرآن. والله أسأل أن ينفع به أبناء المسلمين في جميع الأقطار والأمصار، وأن يرزقه القبول ونيل الرضى من كل من نظر فيه بعين الإنصاف والتقدير، وأن يثبني عليه ويثقل به موازين أعماله يوم القيامة، وأن يغفر لي ولوالدي ولشايخي ولأصحاب الحقوق عليّ إنه على كل شيء قدير، وبالإجابة جدير، وهو نعم المولى وهو نعم النصير. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وصلّى الله وسلّم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

مقدمة الكتاب

الحمد لله منزّل الكتاب، ومجرى السحاب. وهازم الأحزاب. والصلاة والسلام على من لا نبي بعده سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن والاه. ودعا بدعوته إلى يوم الدين.

أما بعد:

فإن الحقائق السّامية في معانيها وأهدافها تأخذ صورتها الرائعة إذا صيغت في قالب حسن يقربها إلى الأفهام بقياسها على المعلوم اليقيني، والتمثيل هو القالب الذي يبرز المعاني في صورة حيّة تستقر في الأذهان، وذلك مثل تشبيه الغائب بالحاضر، والمعقول بالمحسوس، وقياس النّظير على النّظير، وكم من معنى جميل أكسبه التّمثيل روعة وجمالاً، فكان ذلك أدعى لتقبّل النّفس له. واقتناع العقل به، وهو من أساليب القرآن الكريم في ضروب بيانه ونواحي إعجازه.

ومن العلماء من أفرد الأمثال في القرآن بالتأليف، ومنهم من عقد لها باباً في كتاب من كتبه، فأفردها بالتأليف أبو الحسن الماوردي^(١)، وعقد لها باباً السيوطي في كتابه «الإتقان» وابن القيم في كتاب أعلام الموقعين حيث تتبّع أمثال القرآن التي تضمّنّت تشبيه الشيء بنظيره، والتّسوية بينهما في الحكم فبلغت بضعة وأربعين مثلاً.

وأخرج البيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ القرآن نزل على خمسة أوجه: حلال، وحرام، ومحكم، ومتشابه، وأمثال فاعملوا بالحلال، واجتنبوا الحرام، واتبعوا المحكم، وآمنوا بالمتشابه، واعتبروا بالأمثال».

قال الماوردي: من أعظم علم القرآن علم أمثاله، والنّاس في غفلة عنه لاشتغالهم بالأمثال وإغفالهم المثلات، والمثل بلا مثل كالفرس بلا لجام، والنّاقة بلا زمام.

(١) هو أبو الحسن بن حبيب الشافعي: صاحب كتاب أدب الدنيا والدين. وكتاب الأحكام السلطانية - ت

وقد عدّه الشّافعيّ مما يجب على المجتهد معرفته من (علوم القرآن) فقال: ثم معرفة ما ضرب فيه من الأمثال الدوالّ على طاعته، المبيّنة لاجتناب معصيته، وترك الغفلة عن الحفظ والازدياد من نوافل الفضل.

وقال الشيخ عزالدّين: إنّما ضرب الله الأمثال في القرآن تذكيراً ووعظاً، فما اشتمل منها على تفاوت ثواب أو على إحباط عمل، أو على مدح أو ذم أو نحوه فإنّه يدلّ على الأحكام. وقال غيره: ضرب الأمثال في القرآن يستفاد منه أمور كثيرة: التذكير والوعظ، والحثُّ والزجر، والاعتبار والتقرير، وتقريب المراد للعقل وتصويره بصورة المحسوس، فإنّ الأمثال تصوّر المعاني بصورة الأشخاص لأنّها أثبت في الأذهان لاستعانة الدّهن فيها بالحواس، ومن ثم كان الغرض من المثل تشبيه الخفي بالجلي، والغائب بالمشاهد، وتأتي أمثال القرآن مشتملة على بيان تفاوت الأجر، وعلى المدح والذّم، وعلى الثّواب والعقاب، وعلى تفخيم الأمر أو تحقيره، وعلى تحقيق أمر أو إبطاله.

قال تعالى: ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ﴾^(١) فامتّن علينا بذلك لما تضمنته من الفوائد.

قال الزركشي في البرهان: ومن حكمته تعليم البيان وهو من خصائص هذه الشريعة.

وقال الزمخشري: التمثيل إنّما يصار إليه لكشف المعاني وإدناء المتوهّم من المشاهد، فإن كان الممثل له عظيماً كان الممثل به مثله، وإن كان حقيراً كان الممثل به كذلك. وقال الأصهباني: لضرب العرب الأمثال واستحضار العلماء النظائر شأن ليس بالخفي في إبراز خفيات الدقائق ورفع الأستار عن الحقائق، تريك المتخيّل في صورة المتحقق، والمتوهّم في معرض المتيقّن، والغائب كأنّه مشاهد، وفي ضرب الأمثال تبكيت للخصم الشّديد الخصومة، وفيه أيضاً من تقرير المقصود مالا يخفى فإنّه يؤثّر في القلوب مالا يؤثّر. وصف الشّيء نفسه، ولذلك أكثر الله تعالى في كتابه وفي سائر كتبه «الأمثال» ومن سور الإنجيل سورة تسمى «الأمثال». وفشت في كلام النبي ﷺ وكلام الأنبياء والحكماء.

(١) سورة إبراهيم: الآية (٤٥)

أهمية استعمال الأمثال: (١)

وللأمثال من الكلام موقع في الأسماع، وتأثير في القلوب، لا يكاد الكلام المرتل يبلغ مبلغها، ولا يؤثر تأثيرها، لأن المعاني بها لائحة، والشواهد بها واضحة، والنفوس بها واقعة، (٢) والقلوب بها واثقة، والعقول لها موافقة.

فلذلك ضرب الله الأمثال في كتابه العزيز، وجعلها من دلائل رسله، وأوضح بها الحجة على خلقه، لأنها في العقول معقولة، وفي القلوب مقبولة، ولها أربعة شروط:

أحدها: صحة التشبيه.

والثاني: أن يكون العلم بها سابقاً، والكلُّ عليها موافقاً

والثالث: أن يُسرَّع وصولها للفهم، ويُعجَّل تصوُّرها في الوهم، من غير ارتياء في استخراجها، ولا كدًّا في استنباطها.

والرابع: أن تناسب حال السامع، لتكون أبلغ تأثيراً، وأحسن موقعاً، فإذا اجتمعت في الأمثال المضروبة هذه الشروط الأربعة، كانت زينة للكلام، وجلاء للمعاني، وتدبيراً للأفهام.

والأمثال: جمع مثل، والمثل والمثل والمثيل: كالتشبه والشبه والشبيه لفظاً ومعنى. والمراد به هنا إبراز المعنى في صورة حسية تكسبه روعة وجمالاً. والمثل بهذا المعنى لا يشترط أن يكون له مورد، كما لا يشترط أن يكون مجازاً مركباً.

وإذا نظرنا إلى أمثال القرآن التي يذكرها المؤلِّفون وجدنا أنهم يوردون الآيات المشتملة على تمثيل حال أمر بحال أمر آخر، سواء أورد هذا التمثيل بطريق الاستعارة، أم بطريق التشبيه الصريح؟ أو الآيات الدالة على معنى رائع بإيجاز، أو التي لم يصح استعمالها فيما يشبه ما وردت فيه؛ فإن الله تعالى ابتدأها دون أن

(١) أدب الدنيا والدين لأبي الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري الماوردي ص ٤٠٤

(٢) تحقيق مصطفى السقا تعليق محمد شريف سكرط: دار إحياء العلوم ببيروت - لبنان الطبعة الأولى سنة

١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

يكون لها مورد من قبل . وأمثال القرآن لا يستقيم حملها على أصل المعنى اللُّغوي الذي هو الشَّبَه والنَّظِير، ولا يجوز حملها على ما يذكر في كتب اللُّغة لدى من أَلْفُوا في الأمثال. إذ ليست أمثال القرآن أقوالاً استعملت على وجه تشبيه مضرِبها بموردها، كما لا يستقيم حملها على معنى الأمثال عند علماء البيان، فمن أمثال القرآن ما ليس باستعارة وما لم يفش استعماله.

فابن القَيِّم يقول في أمثال القرآن: تشبيه شيء بشيء في حكمه، وتقريب المعقول من المحسوس، أو أحد المحسوسين من الآخر، واعتبار أحدهما بالآخر. ويسوق الأمثلة: فنجد أكثرها على طريقة التَّشْبِيهِ الصَّريح كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ...﴾ الآية (١)

وفي الحديث الصَّحيح «إِنَّ مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضًا فَكَانَ مِنْهَا طَائِفَةٌ قَبِلَتِ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتِ الْكَلَّاءَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَ مِنْهَا طَائِفَةٌ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ فَشَرِبَ النَّاسُ وَاسْتَقْوُوا وَزَرَعُوا وَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تَمْسِكُ مَاءً، وَلَا تَنْبِتُ كَلًّا، وَذَلِكَ مَثَلٌ مِنْ فَهْمٍ فِي دِينِ اللَّهِ فَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ، وَمَثَلٌ مِنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسَلْتُ بِهِ»، ومنها ما يجيء على طريقة التَّشْبِيهِ الضَّمْنِي، كقوله تعالى:

﴿وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ أَتُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ...﴾ الآية (٢)

إذ ليس فيه تشبيه صريح، ومنها ما لم يشتمل على تشبيه ولا استعارة كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ...﴾ الآية (٣).

فقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا﴾ قد سمَّاه الله مثلاً وليس فيه استعارة ولا تشبيه.

وأما المثل في الأدب: فهو قول محكي سائر يقصد به تشبيه حال الذي حكي فيه بحال الذي قيل لأجله، أي يشبهه مضرِبُه بمورده، مثل (ربِّ رمية من غير رام) أي

(٢) سورة الحجرات: الآية (١٢)

(١) سورة يونس: الآية (٢٤)

(٣) سورة الحج: الآية (٧٣)

ربّ مصيبة حصلت من رام شأنه أنّه يخطيء، وأوّل من قال هذا الحكم بن يغوث النَّفري، يضرب للمخطيء يصيب أحيانا وعلى هذا فلا بدّ له من مورد يشبه مضره به .

ويطلق المثل على الحال والقصة العجيبة الشّان، وبهذا المعنى فسّر لفظ المثل في كثير من الآيات كقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ الآية (١) أي قصتها وصفتها التي يتعجب منها .

وأشار الزّمخشري إلى هذه المعاني الثلاثة في كشّافه فقال: «والمثل في أصل كلامهم بمعنى المثل والنّظير، ثم قيل للقول السّائر الممثل مضره بمورده مثل، ثم قال: وقد استعير المثل للحال أو القصة أو الصّفة إذا كان لها شأن وفيها غرابة .

وهناك معنى رابع ذهب إليه علماء البيان في تعريف المثل فهو عندهم: المجاز المركّب الذي تكون علاقته المشابهة متى فشا استعماله .

وأصله الاستعارة التّمثيلية كقولك للمتردّد في فعل أمر: (مالي أراك تقدّم رجلا وتؤخّر أخرى؟) .

وتأتى الأمثال في القرآن على ثلاثة أنواع:

- ١- الأمثال المصرّحة .
- ٢- الأمثال الكامنة .
- ٣- الأمثال المرسلة .

النوع الأول: الأمثال المصرّحة:

وهي ما صرّح فيها بلفظ المثل أو ما يدل على التّشبيه . وهي كثيرة في القرآن . نحو: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ (١٧) صُمُّ بَكُمْ عَمِيٌّ فَهُمْ لَا يَرَاجِعُونَ (١٨) أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ...﴾ - إلى قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢) وشبه ذلك مما سيأتي تفصيله في حينه .

(١) سورة محمد: الآية (١٥) .

(٢) سورة البقرة الآيات: (١٧ - ١٨ - ١٩ - ٢٠) .

النوع الثاني: الأمثال الكامنة:

وهي التي لم يصرح فيها بلفظ المثل، ولكنها تدلّ على معان رائعة في إيجاز، يكون لها وقعها إذا نقلت إلى ما يشبهها، ويمثّلون لهذا النوع بأمثلة منها:

قوله تعالى: ﴿لَا فَارِضٌ وَلَا بَكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾^(١)

وقوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾^(٢)

وقوله عز وجل: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾^(٣) وما

جاء على هذا النحو مما سيأتي تفصيله في حينه.

النوع الثالث: الأمثال المرسلّة:

وهي جمل أرسلت إرسالاً من غير تصريح بلفظ التشبيه، فهي آيات جارية مجرى ا. مثال. ومن أمثلة ذلك:

قوله تعالى: ﴿الآن حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾^(٤) ﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾^(٥) ﴿قُضِيَ

الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾^(٦) ونحو ذلك مما سيأتي تفصيله في حينه.

واختلفوا في هذا النوع من الآيات الذي يسمونه إرسال المثل، فما حكم استعماله استعمال الأمثال؟ فراه بعض أهل العلم خروجاً عن أدب القرآن. قال: الرازي في تفسير قوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾^(٧) جرت عادة الناس بأن يمثّلوا بهذه الآية عند التاركة وذلك غير جائز لأنه تعالى: (ما أنزل القرآن ليتمثل به، بل ليتدبر فيه، ثم يعمل بموجبه) ورأى آخرون أنه لا حرج فيما يظهر أن يتمثل الرّجل بالقرآن في مقام الجدّ كأن يأسف أسفا شديداً لنزول كارثة قد تقطعت أسباب كشفها عن الناس فيقول: (ليس لها من دون الله كاشفة) أو يحاوره صاحب مذهب فاسد يحاول استهواؤه إلى باطله فيقول: [لكم دينكم ولي دين]

(١) سورة البقرة: الآية (٦٨)

(٢) سورة الفرقان: الآية (٦٧)

(٣) سورة الإسراء: الآية (١١٠)

(٤) سورة يوسف: الآية (٥١)

(٥) سورة النجم: الآية (٥٨)

(٦) سورة الكافرون: الآية (٦)

(٧) سورة البقرة: الآية (٦٨)

(٨) سورة الإسراء: الآية (١١٠)

(٩) سورة النجم: الآية (٥٨)

(١٠) سورة الكافرون: الآية (٦)

والإثم الكبير في أن يقصد الرجل الى التّظاهر بالبراعة فيتمثل بالقرآن حتى في
مقام الهزل والمزاح.

هذا مما أحببت أن أقدمه للقاريء الكريم قبل الشُّروع في المقصود ليكون على
بصيرة من أمره وبيان حكمة الله في ضرب الأمثال في القرآن الكريم.

وأسأل الله العليّ القدير أن ينفع بهذا الكتاب وأن يأجرني عليه، وأن يغفر لي
ولوالديّ، إنّه وليّ ذلك والقادر عليه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

وصلّى الله على سيّدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أمثال سورة البقرة (مثل المنافقين)

قال تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمُّ بَكْمٍ عُمِيٌّ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾^(١) ومفهوم هذا المثل أن الله سبحانه شبه حالهم باشترائهم الضلالة بالهدى وصيرورتهم بعد البصيرة إلى العمى، بحال من استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله وانتفع بها وأبصر بها ما بين يمينه وشماله، واستأنس بها، فبينما هو على هذا الحال إذ طفئت ناره وصار في ظلمة وخوف، لا يبصر ولا يهتدي وهو مع هذا أصم لا يسمع، أبكم لا ينطق، أعمى لو كان ضياء لما أبصر، فلهذا لا يرجع إلى ما كان عليه قبل ذلك فكذلك هؤلاء المنافقون في استبدالهم الضلالة عوضا عن الهدى واستحبابهم الغي على الرشد، وفي هذا المثل دلالة على أنهم آمنوا ثم كفروا كما أخبر الله تعالى عنهم بأنهم آمنوا ثم كفروا، الآية.

وقال الرازي في تفسيره عن السدي، والتشبيه ههنا في غاية الصحة لأنهم بإيمانهم اكتسبوا أولا نورا ثم بنفاقهم ثانيا أبطلوا ذلك فوقعوا في حيرة عظيمة، فإنه لا حيرة أعظم من حيرة الدين، فوجه هذا المثل بأنهم استضاءوا بما أظهروا من كلمة الإيمان أي في الدنيا ثم أعقبهم ظلمات يوم القيامة، قال ابن جرير: وضح ضرب مثل الجماعة بالواحد كما قال تعالى: ﴿رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي

يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾^(٢) أي كدوران الذي يغشى عليه من الموت. وقال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾^(٣) وقال بعضهم:

تقدير الكلام مثل قصتهم كقصة الذين استوقدوا نارا، وقال بعضهم: المستوقد واحد لجماعة معه، وقال آخرون: الذي هنا بمعنى الذين وعليه قول الشاعر:

وإن الذي حانت بفلج دماؤهم هم القوم كل القوم يا أم خالد

(١) سورة البقرة: الآية (١٧، ١٨).

(٣) سورة الجمعة: الآية (٥)

(٢) سورة الأحزاب: الآية (١٩)

وقد التفت في أثناء المثل من الواحد إلى الجمع في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ صُمُّ بَكْمٌ عُمَىٰ فَهَمُّ لَا يَرْجِعُونَ﴾ وهذا أفصح في الكلام، وأبلغ في النظام، وقوله تعالى: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ أي ذهب عنهم بما ينفعهم وهو النور وأبقى لهم ما يضرهم وهو الإحراق والدخان ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ﴾ وهو ما هم فيه من الشك والكفر والنفاق ﴿لَا يُبْصِرُونَ﴾ لا يهتدون إلى سبيل خير ولا يعرفونها وهم مع ذلك ﴿صُمُّ﴾ لا يسمعون خيرا ﴿بَكْمٌ﴾ لا يتكلمون بما ينفعهم ﴿عُمَىٰ﴾ في ضلالة وعماية البصيرة كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَىٰ الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَىٰ الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (١) فلهذا لا يرجعون إلى ما كانوا عليه من الهداية التي باعوها بالضلالة.

﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (١٩)﴾ يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير (٢) هذا مثل آخر ضربه الله تعالى لضرب آخر من المنافقين وهم قوم يظهر لهم الحق تارة ويشكون تارة أخرى فقلوبهم في حال شكهم وكفرهم وترددهم ﴿كَصَيْبٍ﴾، والصيب المطر قاله ابن مسعود وابن عباس وناس من الصحابة وأبو العالية والحسن البصري وغيرهم.

وقال الضحَّاك هو السحاب والأشهر هو المطر نزل من السماء في حال ظلمات وهي الشكوك والكفر والنفاق، ورعد وهو ما يزعج القلوب من الخوف فإن من شأن المنافقين الخوف الشديد والفرع كما قال تعالى: ﴿يَحْسِبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ (٣) وقال تعالى ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ (٥٦) لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأًا أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مَدْخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ (٤) و﴿البرق﴾ هو ما يلمع في قلوب هؤلاء الضرب من المنافقين في بعض الأحيان من نور الإيمان ولهذا قال: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ أي ولا

(١) سورة الحج: الآية (٤٦).

(٢) سورة البقرة: الآية (١٩)، (٢٠).

(٣) سورة المنافقون: الآية (٤).

(٤) سورة التوبة: الآية (٥٦)، (٥٧).

يجدي عنهم حذرهم شيئاً لأنَّ الله محيط بقدرته وهم تحت مشيئته وإرادته كما قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ (١٧) فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ (١٨) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ (١٩) وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ (٢٠)﴾ بهم ثم قال: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾ أي لشدته وقوته في نفسه وضعف بصائرهم وعدم ثباتها للإيمان، وقال علي بن أبي طليحة عن ابن عباس ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾ يقول: يكاد محكم القرآن يدل على عورات المنافقين، وقال ابن اسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾ أي لشدته ضوء الحق كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا أي كلما ظهر لهم من الإيمان شيء استأنسوا به واتبعوه وتارة تعرض لهم الشكوك أظلمت قلوبهم فوقفوا حائرين، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشْوَ فِيهِ﴾ يقول: كلما أصاب المنافقين من عز الإسلام اطمأنوا إليه، وإذا أصاب الإسلام نكبة قاموا ليرجعوا إلى الكفر كقوله تعالى:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ﴾ (٢) وقال محمد بن إسحاق عن محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس: ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشْوَ فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ أي يعرفون الحق ويتكلمون به فهم من قولهم به على استقامة، فإذا ارتكسوا منه إلى الكفر قاموا أي متحيرين وهكذا قال أبو العالية والحسن البصري وقتادة والربيع بن أنس والنسدي بسنده عن الصحابة وهو أصح وأظهر والله أعلى وأعلم.

وهكذا يكونون يوم القيامة عند ما يعطى الناس النور بحسب إيمانهم فمنهم من يعطى من النور ما يضيء له مسيرة فراسخ وأكثر من ذلك. وأقل من ذلك. ومنهم من يطفأ نوره تارة ويضيء أخرى، ومنهم من يمشي على الصراط تارة ويقف أخرى، ومنهم من يطفأ نوره بالكلية وهم الخالص من المنافقين الذين قال تعالى فيهم: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا

(١) سورة البروج: الآيات (١٧ - ١٨ - ١٩ - ٢٠)

(٢) سورة الحج: الآية (١١)

وراءكم فالتمسوا نوراً» (١) وقال في حق المؤمنين: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّتْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ (٢) الآية وقال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٣).

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ قال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾ قال: لما تركوا الحق بعد معرفته ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ قال ابن عباس: أي إن الله على ما أراد بعباده من نعمة أو عفو قدير. وقال ابن جرير: إنما وصف الله تعالى نفسه بالقدرة على كل شيء في هذا الموضع لأنه حذر المنافقين بأسه وسطوته وأخبرهم أنه بهم محيط، وعلى إذهاب سمعهم وأبصارهم قدير، وذهب ابن جرير ومن تبعه من كثير من المفسرين إلى أن هذين المثليين مضروبان لصنف واحد من المنافقين وتكون (أو) في قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾ بمعنى الواو كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْعَمْنَاهُمْ مِنْهُمَ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ أَوْ تَكُونَ لِلخَيْرِ كُلِّ شَيْءٍ مَثَلًا بَهَذَا وَإِنْ شِئْتَ بِهَذَا قَالَ القرطبي: أو للتساوي مثل جالس الحسن أو ابن سيرين على ما وجهه الزمخشري أن كلا منهما مساو للآخر في إتاحة الجلوس إليه ويكون معناه على قوله سواء ضربت لهم مثلاً بهذا أو بهذا فهو مطابق لحالهم وهذا يكون باعتبار جنس المنافقين فإنهم أصناف ولهم أحوال وصفات كما ذكرها الله تعالى في سورة براءة: ومنهم . . . ومنهم . . . يذكر أحوالهم وصفاتهم وما يعتمدونه من الأفعال والأقوال فجعل هذين المثليين لصنفين منهم أشد مطابقة لأحوالهم وصفاتهم والله أعلى وأعلم، كما ضرب المثليين في سورة النور لصنفي الكفار الدعاة والمقلدين في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ﴾ (٤) إلى أن قال ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ﴾ (٥) الآية كالذي ضربه الله

(١) سورة الحديد: الآية (١٣)

(٢) سورة الحديد: الآية (١٢)

(٣) سورة التحريم: الآية (٨)

(٤) سورة النور الآيات (٣٩ - ٤٠)

مثلاً للذين كفروا بربهم ﴿كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (١).

وكالذي ضربه الله مثلاً لعجز آلهتهم المدعاة عن خلق الذباب ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ (٢).

إنَّ هذه الآيات تشير بأنَّ المنافقين - وربَّما كان اليهود والمشركون - قد وجدوا في هذه المناسبة منفذاً للتشكيك في صدق الوحي بهذا القرآن، بحجة أنَّ ضرب الأمثال هكذا بما فيها من تصغير لهم وسخرية منهم لاتصدر عن الله، وأنَّ الله لا يذكر هذه الأشياء الصَّغيرة كالذباب والعنكبوت في كلامه. . وكان هذا طرفاً من حملة التشكيك واللبلة التي يقوم بها المنافقون واليهود في المدينة، كما كان يقوم بها المشركون في مكة.

فجاءت هذه الآيات دفعاً لهذا الدس، وبيانا لحكمة الله في ضرب الأمثال، وتحذيراً لغير المؤمنين من عاقبة الاستدراج بها، وتطميناً للمؤمنين أن ستريدهم إيماناً. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ (٣) فالله ربُّ الصَّغير والكبير، وخالق البعوضة والفيل، والمعجزة في البعوضة هي ذاتها المعجزة في الفيل.

إنَّها معجزة الحياة. . معجزة السرِّ الخفي الذي لا يعلمه إلاَّ الله، على أنَّ العبرة في المثل ليست في الحجم والشكل، إنَّما الأمثال أدوات للتَّنوير والتَّبصير. وليس في ضرب الأمثال ما يعاب وما من شأنه الاستحياء من ذكره، والله - جلَّت حكمته - يريد بها اختبار القلوب، وامتحان النفوس. وقال أبو جعفر الرَّازي عن الرَّبيع بن أنس في هذه الآية قال: هذا مثل ضربه الله للدُّنيا أنَّ البعوضة تحيا ماجاعت فإذا سمنت ماتت، وكذلك مثل هؤلاء القوم الذين ضرب لهم هذا المثل في القرآن إذا امتلأوا من الدُّنيا أخذهم الله عند ذلك ثم تلا: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ

(٢) سورة الحج: الآية (٧٣).

(١) سورة العنكبوت: الآية (٤١).

(٣) سورة البقرة: الآية (٢٦).

أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴿١﴾ هكذا رواه ابن جرير وغيره. ومعنى الآية أَنَّهُ تَعَالَى أَخْبِرَ أَنَّهُ لَا يَسْتَحْيِي أَي لَا يَسْتَنْكِفُ أَنْ يَضْرِبَ مِثْلًا، مَا أَيِّ مِثْلٍ كَانَ، بِأَيِّ شَيْءٍ صَغِيرًا كَانَ أَوْ كَبِيرًا، وَمَا هُنَا لِلتَّقْلِيلِ وَتَكُونُ الْبِعُوضَةُ إِمَّا مَنْصُوبَةٌ عَلَى الْبَدَلِ كَمَا تَقُولُ لِأَضْرِبَنَّ ضَرْبًا مَا، فَيَصْدُقُ بِأَدْنَى شَيْءٍ، أَوْ عَلَى عَطْفِ الْبَيَانِ، أَوْ تَكُونُ مَانِكْرَةً مَوْصُوفَةً بِبِعُوضَةٍ، وَاخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ أَنَّ مَا مَوْصُولَةٌ وَبِعُوضَةٌ مَعْرَبَةٌ بِإِعْرَابِهَا قَالَ: وَذَلِكَ سَائِعٌ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ أَنَّهُمْ يَعْرَبُونَ صَلَاةَ مَا وَمَنْ بِإِعْرَابِهِمَا لِأَنَّهُمَا يَكُونَانِ مَعْرِفَةَ تَارَةٍ وَنِكْرَةً أُخْرَى كَمَا قَالَ حَسَانُ بْنُ ثَابِتٍ:

يَكْفِي بِنَا فَضْلًا عَلَى مَنْ غَيْرِنَا حَبَّ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ إِيَّانَا

قَالَ: وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ بِعُوضَةٌ مَنْصُوبَةٌ بِحَذْفِ الْجَارِ وَتَقْدِيرِ الْكَلَامِ إِنْ أَلَّاهُ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مِثْلًا مَا بَيْنَ بِعُوضَةٍ إِلَى مَا فَوْقَهَا وَهَذَا الَّذِي اخْتَارَهُ الْكَسَائِيُّ وَالْفَرَّاءُ.

وَقَرِءَ شَاذًا بِالرَّفْعِ قَالَ ابْنُ جَنِّي: وَتَكُونُ صَلَاةُ مَا، وَحَذْفُ الْعَائِدِ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ (٢) أَي عَلَى الَّذِي هُوَ أَحْسَنُ، وَحَكَى سَبِيوِيَه: مَا هُنَا بِالَّذِي قَائِلٌ لَكَ شَيْئًا. أَي بِالَّذِي هُوَ قَائِلٌ لَكَ شَيْئًا شَيْئًا. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ فِيهِ قَوْلَانِ، أَحَدُهُمَا: فَمَا دُونَهَا فِي الصَّغَرِ وَالْحَقَارَةِ كَمَا إِذَا وَصَفَ رَجُلٌ بِاللُّؤْمِ وَالشَّحِّ فَيَقُولُ السَّامِعُ نَعَمْ وَهُوَ فَوْقَ ذَلِكَ - يَعْنِي فِيمَا وَصَفْتَ - وَهَذَا قَوْلُ الْكَسَائِيِّ وَأَبِي عُبَيْدٍ قَالَهُ الرَّازِيُّ وَأَكْثَرُ الْمُحَقِّقِينَ. وَفِي الْحَدِيثِ: «لَوْ أَنَّ الدُّنْيَا تَزَنَ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بِعُوضَةٍ لَمَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ».

وَالثَّانِي: فَمَا فَوْقَهَا لَمَا هُوَ أَكْبَرُ مِنْهَا لِأَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ أَحْقَرُ وَلَا أَصْغَرُ مِنَ الْبِعُوضَةِ، وَيُؤَيِّدُهُ مَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَشَاكُ شَوْكَةً فَمَا فَوْقَهَا إِلَّا كَتَبَ لَهُ بِهَا دَرَجَةٌ وَمَحِيَتْ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةٌ» فَأَخْبِرَ أَنَّهُ لَا يَسْتَصْغِرُ شَيْئًا يَضْرِبُ بِهِ مِثْلًا وَلَوْ كَانَ فِي الْحَقَارَةِ وَالصَّغَرِ كَالْبِعُوضَةِ، كَمَا لَا يَسْتَنْكِفُ عَنْ خَلْقِهَا، كَذَلِكَ لَا يَسْتَنْكِفُ مَنْ ضَرَبَ الْمِثْلَ بِهَا كَمَا ضَرَبَ الْمِثْلَ

(١) سورة الأنعام: الآية (٤٤)

(٢) سورة الأنعام: الآية (١٥٤)

بالذُّباب والعنكبوت . . . وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لِنَاسٍ لِّمَن يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالَمُونَ﴾ (١) وفي القرآن أمثال كثيرة.

قال بعض السلف: إذا سمعت المثل في القرآن فلم أفهمه بكيت على نفسي لأن الله قال: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لِنَاسٍ لِّمَن يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالَمُونَ﴾ ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ ذلك أن إيمانهم بالله يجعلهم يتلقون كل ما يصدر عنه بما يليق بجلاله. وبما يعرفون من حكمته. وقد وهبهم الإيمان نوراً في قلوبهم وحساسية في أرواحهم، وفتحت في مداركهم، واتصلاً بالحكمة الإلهية في كل أمر وفي كل قول يجيئهم من عند الله.

وأما الذين كفروا فيقولون: ﴿مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾ نصب على التَّمييز أو الحال.

وهو سؤال المحجوب عن نور الله وحكمته، المقطوع الصلّة بسنة الله وتدييره. ثم هو في الوقت نفسه سؤال من لا يرجون لله وقاراً، ولا يتأدّب معه الأدب اللائق بالعبد أمام تصرفات الرب، يقولونها في جهل وقصور في صيغة الاعتراض والاستنكار، أو في صورة التشكيك في صدور مثل هذا القول عن الله (٢)، وهنا يجيئهم الجواب الصّارخ الذي ينزل عليهم نزول الصّواعق في صورة التّهديد والتّحذير بما وراء المثل من تقدير وتديير:

﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ واللّه سبحانه - يطلق الابتلاءات والامتحانات تمضي في طريقها، ويتلقاها عباده، كل وفق طبيعته واستعداده، وكل على حسب طريقه ومنهجه الذي اتّخذه لنفسه والابتلاء واحد. ولكن آثاره في النفوس تختلف بحسب اختلاف المنهج والطريق. الشدة تسلط على شتى النفوس، فأما المؤمن الواصل بالله وحكمته ورحمته فتزيده الشدة التجاء إلى الله وتضرعاً وخشية. وأما الفاسق أو المنافق فتزلزله وتزيده من الله بعداً، وتخرجه

(١) سورة العنكبوت: الآية (٤٣)

(٢) انظر: في ظلال القرآن بقلم الشهيد سيد قطب - المجلد الأول (ج ١ - ٤) ص (٥٠ - ٥١)

من الصَّف إخراجاً. والرِّخاء يسلِّط على شتى النَّفوس، فأما المؤمن التَّقِي فيزيده الرِّخاء يقظة وحساسية وشكراً، وأماً الفاسق أو المنافق فتبطره النعمة ويتلفه الرِّخاء ويضله الابتلاء... وهكذا المثل الذي يضربه الله للنَّاس... ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً﴾... ممن لا يحسنون استقبال ما يجيئهم من الله، ﴿وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً﴾ ممن يدركون حكمة الله ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾. الخارجين عن حد الإيمان الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل، ويفسدون في الأرض ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾^(١) فكلُّ عهد بين الله وبين هذا النموذج من الخلق فهو منقوض وكل ما أمر الله به أن يوصل فهو بينهم مقطوع، وكل فساد في الأرض فهو منهم مصنوع، إنَّ صلة هذا النمط من البشر بالله مقطوعة، وإن فطرتهم المنحرفة لا تستقيم على عهد ولا تستمسك بعروة ولا تتورَّع عن فساد. إنهم كالثمرة الفجّة التي انفصلت من شجرة الحياة فتعفنت وفسدت ونبذتها الحياة... ومن ثم يكون ضلالهم بالمثل الذي يهدي المؤمنين وتجيء غوايتهم بالسبب الذي يهتدي به المتقون.

وقال السَّدي في تفسيره بإسناده قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ قال: هو ما عهد إليهم في القرآن فأقروا به ثم كفروا فنقضوه.

وقوله سبحانه: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾. قيل: المراد به صلة الأرحام والقربات ويؤيده قوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾^(٢) ورجَّحه ابن جرير، وقيل: المراد أعمُّ من ذلك فكلُّ ما أمر الله بوصله وفعله فقطعه وتركوه. وقال مقاتل بن حيان في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ قال: في الآخرة وهذا كما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾^(٣) وقال ابن جرير في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ الخاسرون جمع خاسر وهم النَّاقصون أنفسهم حظوظهم بمعصيتهم الله من رحمته كما يخسر الرَّجل في تجارته بأن يضع من رأس ماله في بيعه وكذلك المنافق والكافر خسِر بحرمان

(٢) سورة محمد: الآية (٢٢)

(١) سورة البقرة: الآية (٢٧)

(٣) سورة الرعد: الآية (٢٥)

اللَّهُ إِيَّاهُ رَحِمْتَهُ الَّتِي خَلَقَهَا لِعِبَادِهِ فِي الْقِيَامَةِ أَحْوَجَ مَا كَانُوا إِلَى رَحْمَتِهِ يُقَالُ مِنْهُ خَسِرَ الرَّجُلُ يَخْسِرُ خَسْرًا وَخَسِرَانًا وَخَسَارًا كَمَا قَالَ جَرِيرُ بْنُ عَطِيَّةَ:

أَنْ سَلِيَطًا فِي الْخَسَارِ أَنَّهُ أَوْلَادٌ قَوْمٌ خَلَقُوا أَقْنَةَ

قال تعالى: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بَكْرٌ عَوَانَ بَيْنَ ذَلِكَ فافعلوا ما تؤمرون﴾^(١).

* هذه الآية من الأمثال الكامنة وهي التي لم يصرح فيها بلفظ المثل، ولكنها تدلُّ على معانٍ رائعة في إيجاز يكون لها وقتها إذا نقلت إلى ما يشبهها^(٢).

معاني المفردات:

﴿مَاهِي﴾ أي ما سنّها؟ ﴿قَالَ﴾ أي موسى ﴿إِنَّهُ﴾ أي الله ﴿لَا فَارِضٌ﴾ مسنّةٌ ﴿وَلَا بَكْرٌ﴾ صغيرة ﴿عَوَانَ﴾ نصف ﴿بَيْنَ ذَلِكَ﴾ المذكور من السنين ﴿فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ به من ذبحها.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾^(٣).

معنى ﴿قَسَتْ﴾: أي غلظت وبيست وعست، فكانت القسوة في القلب ذهاب اللين منه والرحمة والخشوع والرقّة. ومعنى قوله: ﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾ يريد بعد إحياء الميت لكم بعضو من أعضاء البقرة، أي هذه آية عظيمة كان يجب على من شاهدها. فشاهد بمشاهدتها من قدرة الله تعالى ما يزيل كلَّ شيء أن يلين قلبه ويخضع. والخطاب ههنا بذلك للجماعة ولم يقل ذلكم: لأنَّ الجماعة تؤدي إلى لفظ الجميع والفريق. فالخطاب في لفظ واحد ومعنى جماعة ويجوز في قوله: ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ﴾ إسكان الهاء^(٤) لأنَّ الفاء (مع هي)، جعلت الكلمة بمنزلة فخذ،

(١) سورة البقرة الآية (٦٨)

(٢) مورد الظمان في علوم القرآن ص (١٦٤) تأليف صابر حسن محمد أبو سليمان ط: الدار السلفية (الهند) الطبعة الأولى سنة (١٤٠٤ هـ) ١٩٨٤ م

(٣) سورة البقرة الآية (٧٤)

(٤) وهي قراءة قالون وأبي عمر والكسائي وهي قراءة ثابتة بطريق التواتر.

فحذف منها الكسرة استثقالا، وروى بعضهم جواز إسكانها وإسكان الياء معها، وأنكر ذلك قوم^(١)، وكذلك ﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾ قالوا لأنَّ كلَّ مضمّر حركته إذا انفرد الفتح نحو: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ﴾^(٢) وكما لاتسكن نون أنا لاتسكن هذه الواو، ومن قرأ ﴿أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ رفع بإثما وهي كأنه قال: أو هي أشدُّ قسوة. ومن نصب فهو خفض في الأصل بمعنى الكاف. ولكن على وزن أفعل لا ينصرف للصفة ووزن الفعل ففتح وهو في موضع جر. وإثما شبه الله عز وجل قلوبهم في القسوة بالحجارة لأنَّ الحجارة غاية في المثل، ولذلك قال الفرزدق^(٣):

أَمَّا الْعَدُو فإِنَّا لَا نَلِينُ لَهُ حَتَّى يَلِينُ لَضَرَسِ الْمَاضِغِ الْحَجَرِ^(٤)
وقال عمرو الطائي^(٥):

مَنْ مُبْلَغٌ عَمْرًا بِأَنَّ الْمَرْءَ لَمْ يَخْلُقْ صَبَارَهُ^(٦)
وحوادث الأيام لاتبقى لها إلا الحجارة
وقال تعالى في صفة جهنم: ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ فحذّر منها، بإعلانه أنّها تأكل الحجارة.

وقال أبو ذؤيب^(٧) الهذلي يصف شدة منازل به من المصيبة بما مثله لصبره وتجلده:

حتى كأي للحوادث مِرْوَةً بصفاء المشرّق كلَّ يومٍ تُقَرَعُ^(٨)

(١) الجمان في تشبيهات القرآن ص (٣٦) وما بعدها تأليف عبدالله الحسين بن نايقا المتوفى سنة (٤٨٥) هـ: تحقيق وضبط ومراجعة الدكتور محمود حسن أبونايجي الشيباني. الطبعة الأولى (سنة ١٤٠٧ هـ) (١٩٨٧ م).

(٢) سورة النازعات: آية (٢٤).

(٣) الفرزدق: شاعر أموي مشهور بالمهاجاة بينه وبين جرير - الأغاني ٦١٥/٢٠.

(٤) البيت في ديوانه ص (٢٤٥). (٥) القائل عمرو بن ملقط الطائي.

(٦) الأغاني ص ١٢٣ / ج ١٩ صباغة الحجارة الشديدة الصلابة، حوادث الأيام الخوالي وويلاتها.

(٧) أبو ذؤيب الهذلي شاعر إسلامي عرف عنه الرثاء لأبنائه الذين ماتوا بالطاعون في أفريقيا.

(٨) راجع الشعر والشعراء. والمفضليات ص ٢٢٤. وجمهرة أشعار العرب.

وقال العذري^(١) مشيراً إلى ما يعانیه من عظم كلفه وشدّة غرامه وشغفه:
ولو أنّ مابى بالحصا فلق الحصا وبالريح لم يُسمع لهنّ هبوب^(٢)
قد أكثر المحدثون في تغزّلهم من تشبيه قلب المحبوب بالحجر كقول مسلم بن
عمر بن عطاء^(٣):

يلين من لا أريد رقته وقلب من أشتهيه كالحجر^(٤)
فأمّا من قصد محض التّشبيه في هذا الباب، واعتمد في أخذه على لفظ
الكتاب، فإنّه وقف دون استيفاء المعنى بمعنى قوله تعالى: ﴿أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ وما تبع
هذا القول من الدلالة عليه والحجّة فيه والتّعليل. وكذلك كل ما ينقله الشعراء
وغيرهم من أرباب البلاغة إلى كلامهم من معاني القرآن، لا يبلغون شأوه، ولا
يُدركون فعّاله، إعجازاً أو إعوازاً. وإبّاءً واقتناعاً، وبين جلّ اسمه كيف كانت
قلوبهم أشدّ قسوة من الحجاره فقال: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا
لَمَا يَشَقُّ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ﴾^(٥) يعني العيون التي لا تكون أنهاراً.
وقيل غزلاً^(٦):

ياشبيهه البدر في الـ حُسْنٍ وفي بُعْدِ المِنَالِ^(٧)
جد فقد تتفجّر الصّخر بالماء الزّلال

ومعنى التّنزِيل بعد أتم وأعم وأوفى وأعلى بقوله تعالى:
﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾^(٨) نحو الجبل الذي تجلّى الله له حين كلّم

(١) العذري هو قيس بن الملوّح الملقب بمجنون بني عامر أكثر شعره في حبيته ليلي العامرية.

(٢) ديوان قيس ص ٥٤.

(٣) مسلم بن عطاء شاعر عباسي وهو راوية بشار بن برد وتلميذه - راجع الأغاني.

(٤) البيت لم أجده في كتب الأدب.

(٥) سورة البقرة: الآية (٧٤).

(٦) القائل لم أجده.

(٧) البيتان: لم أجدهما في كتب الأدب - الزلال: الماء الصّافي.

(٨) سورة البقرة: الآية (٧٤).

موسى عليه السلام. وقال قوم إنَّها أثر الصَّنعة التي تدلُّ على أنَّها مخلوقة والمختار غير هذا، لأنَّ أثر الصَّنعة في جميعها، وإنَّما الهابط منها مجعول عين التَّمييز قال سبحانه:

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ (١).

ودخول (أو) هاهنا لغير معنى الشكِّ ولكنها أو التي تأتي بالإباحة كقول: جالس الحسن (٢) أو ابن سيرين (٣) المعنى هما أهل المجالسة معاً، فإن جالست أحدهما فأنت مصيب، وإن جالستهما معاً فأنت مصيب. فالتأويل: اعلموا أنَّ قلوبها وإن شبهتم قسوتها بالحجارة فأنتم مصيبون، أو بما هو أشدَّ مصيبون. فلا تصلح أن تكون (أو) هاهنا بمعنى الواو.

وقد ورد في القرآن لفظ التشبيه لغير تشبيه كقوله تعالى: في هذه السورة:

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾ (٤) وإنَّما ذلك معطوف على معنى الكلام الأوَّل في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾ (٥) لأنَّه في التقدير: أرايت كالذي حاجَّ إبراهيم في ربِّه أو كالذي مرَّ على قرية، وموضع الكاف نصب بترى فهذا ونحوه لم يقصد ذكره في هذا الكتاب وإنَّما ذكر لمجرد التَّنبيه على أنه ليس داخلاً فيما نحن بصدد الكلام عنه (٦).

قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بِكُمْ عُمِّيٰ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (٧) وإنَّما يقال للصَّحيح البصر الذي لا يُعمل بصره

(١) سورة الحشر: الآية (٢١)

(٢) الحسن: هو الحسن البصري الإمام الزاهد، راجع تقريب التهذيب ١/ ٢٥٠

(٣) ابن سيرين محدث له باع طويلة في تفسير الأحلام، راجع تقريب التهذيب (٤٢٢/٢)

(٤) سورة البقرة: الآية (٢٥٩)

(٥) سورة البقرة. الآية (٢٥٨)

(٦) كتاب الجمان في تشبيهات القرآن ص (٤٥) تأليف عبدالله بن الحسين بن نايقا المتوفى سنة (٤٨٥ هـ) بتحقيق

الدكتور محمود حسن أبو ناجي الشيباني ط: بيروت (لبنان) الطبعة الأولى سنة (١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م)

بتصرف

(٧) سورة البقرة: آية (١٧١)

أعمى لأنه قد حلَّ محلَّ من لا يبصر، وكذلك يقال للسمع الذي لا يقبل أصم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ﴾^(١) كما قال جلَّ شأنه: ﴿أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾^(٢) وأضاف المثل إلى الذين كفروا ثم شبهه بالراعي. ولم يقل كالغنم. لأنَّ المعنى ومثل الذين كفروا فيما يوعظون به كالبهائم التي لاتفقه مايقول الراعي أكثر من الصَّوت، والتقدير: مثل واعظ الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع، والعرب تحذف إذا دلَّ المعنى على ما يريدون، كما قال تعالى: ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾^(٣) أي سقوا حب العجل، فأضمر الحب لأنَّ المعنى معلوم^(٤).

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾^(٥) المثل للتفقه أي مثل تفقه الذين ينفقون وقيل المعنى: ومثل الذين كفروا في دعائهم ألَّهتهم وأوثانهم وهي لاتفقه كمثل الناعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء، وتأويل قوله: ينعق بصوت الغنم وهو النعاق ومنه قول الأخطل^(٦):

فأنعق بضأنكَ ياجرير فإنما منتك نفسك في الخلاء ضلالاً

وتقول العرب: أبله من راعي الضأن، ويقال في المثل: (أجمق من راعي ضأن ثمانين) ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾^(٧) وصفهم بأنهم لا يبصرون بعيونهم ولا يعقلون بقلوبهم، فجعلهم في تركهم الحق وإعراضهم عنه بمنزلة من لا يسمع ولا يعقل.

(١) سورة النمل: آية (٨٠).

(٢) سورة محمد. آية (٢٤).

(٣) سورة البقرة: آية (٩٣).

(٤) كتاب الجمان في تشبيهات القرآن ص (٦٧) تأليف عبدالله بن الحسين بن نايقا بتحقيق الدكتور محمود حسن

أبوناجي الشيباني.

(٥) سورة البقرة (٢٦١).

(٦) الفضل: مرت ترجمته.

(٧) سورة الأعراف: آية (١٧٩).

قال الشاعر^(١):

وكلُّ سيِّئٍ قد وقرتُ عنه أذنى منه وما بي من صمم^(٢)

ثم قال: بل هم أضل. وذلك أن الأنعام تبصر منافعها، ومضارها فتلتزم بعض ماتبصره، وهو لا يعلم أكثرهم أنه معاند فيقدم على النار ونظير هذه الآية قوله في سورة أخرى:

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾^(٣) أي ليس يسمعون ماتقول يا محمد سماع طالب للإفهام بل كسماع الأنعام.

قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سَبِيلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾^(٤) هذا مثل ضربه الله تعالى لتضعيف الثواب لمن أنفق في سبيله وابتغاء مرضاته. وأن الحسنه تضاعف بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف فقال: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قال سعيد ابن جبير: يعني في طاعة الله، وعن ابن عباس: الجهاد والحج يضعف الدرهم فيهما إلى سبعمائة ضعف، ولهذا قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سَبِيلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ﴾ وهذا المثل أبلغ في النفوس من ذكر عدد السبعمائة فإن هذا فيه إشارة إلى أن الأعمال الصالحة ينميها الله عز وجل لأصحابها، كما ينمي الزرع لمن بذره في الأرض الطيبة، وقد وردت السنة بتضعيف الحسنه إلى سبعمائة ضعف. عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «كلُّ عمل ابن آدم يضاعف، الحسنه بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى ماشاء الله، يقول الله: إلا الصوم فإنه لي، وأنا أجزي به» الحديث، وعن ابن عمر رضي الله عنهما: لما نزلت هذه الآية ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قال النبي ﷺ: «ربُّ زد أمتي» قال فأنزل الله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ قال «ربُّ زد أمتي» قال: فأنزل الله: ﴿إِنَّمَا يُوفِي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(٥) رواه أبو حاتم وابن حبان في صحيحه وقوله ههنا: ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ أي بحسب إخلاصه في «عمله» ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ

(١) القائل: لا أعرف القائل.

(٢) البيت لم أجده في كتب الأدب.

(٣) سورة الزمر: آية (١٠).

(٤) سورة البقرة: الآية (٢٦١).

(٥) سورة الفرقان: الآية (٤٤).

وَأَسْعَ عَلِيمٌ ﴿١﴾ أي فضله واسع كثير أكثر من خلقه عليم بمن يستحقّ ومن لا يستحقّ، سبحانه وبحمده.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ (١) فأخبر أن الصدقة تبطل بما يتبعها من المنّ والأذى، فما يفي الصدقة ثواب بخطيئة المن والأذى، ثم قال تعالى: ﴿كَأَلَّذِي يَنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ﴾ أي لا تبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذى كما تبطل صدقة من رآى بها الناس، فأظهر لهم أنه يريد وجه الله، وإنما قصده مدح الناس له أو شهرته بالصفات الجميلة ليشكر بين الناس، أو يقال إنه كريم، ونحو ذلك من المقاصد الدنيوية، مع قطع نظره عن معاملة الله تعالى وابتغاء مرضاته وجزيل ثوابه، ولهذا قال: ﴿وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ ثم ضرب تعالى مثل ذلك المرآئي بإفناقه، قال الضحاك: والذي يتبع نفقته منّا أو أذى، فقال: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ﴾ وهو جمع صفوانة، فمنهم من يقول: الصفوان يستعمل مفرداً أيضاً وهو الصفا، وهو الصخر الأملس، ﴿عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ﴾ وهو المطر الشديد ﴿فَتَرَكَهُ صَلْدًا﴾ أي فترك الوابل ذلك الصفوان صلداً أي أملس يابساً، أي لا شيء عليه من ذلك التراب، بل قد ذهب كله، أي وكذلك أعمال المرآئين تذهب وتضمحل عند الله، وإن ظهر لهم أعمال فيما يرى الناس كالتراب، ولهذا قال: ﴿لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾.

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَشْبِيهًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضَعْفِينَ فَإِن لَّمْ يُمْسِكْهَا وَابِلٌ فَطُلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٢) وهذا مثل المؤمنين المنفقين أموالهم ابتغاء مرضاة الله عنهم في ذلك ﴿وَتَشْبِيهًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي وهم متحققون ومثبتون أن الله سيجزيهم على ذلك أوفر الجزاء، ونظيرها في معنى قوله عليه السلام في الحديث الصحيح المتفق على صحته: «من صام رمضان إيماناً واحتساباً» أي يؤمن أن الله شرعه ويحتسب عند الله ثوابه، قال الشعبي: ﴿وَتَشْبِيهًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ واختاره ابن جرير، وقال مجاهد والحسن: أي يثبتون أين يضعون صدقاتهم.

(١) سورة البقرة: آية (٢٦٤).

(٢) سورة البقرة: الآية (٢٦٥).

وقوله: ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ﴾ أي بستان، بربوة، وهو عند الجمهور: المكان المرتفع من الأرض، وزاد ابن عباس والضحاك: وتجري فيه الأنهار. قال ابن جرير رحمه الله: وفي الربوة ثلاث لغات هن ثلاث قراءات: بضم الراء، وبها قراءة عامة أهل المدينة والحجاز والعراق. (١) وفتحها قراءة بعض أهل الشام، والكوفة (٢) ويقال إنها لغة تميم، وكسر الراء ويذكر أنها قراءة ابن عباس.

وقوله ﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾ وهو المطر الشديد، كما تقدم ﴿فَاتَتْ أَكْلَهَا﴾ أي ثمرتها، ﴿ضِعْفَيْنِ﴾. أي بالنسبة إلى غيرها من الجنان ﴿فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ قال الضحاك: هو الرذاذ وهو اللين من المطر، أي هذه الجنة بهذه الربوة لا تمحل أبداً، لأنها إن لم يصبها وابل فطل وأيا ما كان فهو كفايتها، وكذلك عمل المؤمن لا يبور أبداً، بل يتقبله الله ويكثره وينميه كل عامل بحسبه، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي لا يخفى عليه من أعمال عباده شيء.

﴿أَيُّودُ أَحَدِكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَةٌ ضِعْفَاءُ فَاَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ (٣).

قال البخارى عند تفسير هذه الآية:

..... قال عمر بن الخطاب يوماً لأصحاب النبي ﷺ: فيمن ترون هذه الآية نزلت؟ ﴿أَيُّودُ أَحَدِكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾؟ قالوا: الله أعلم، فغضب عمر، فقال: قولوا نعلم أو لا نعلم، فقال ابن عباس: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين، فقال عمر: يا ابن أخي قل ولا تحقر نفسك، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: ضربت مثلاً بعمل، قال عمر: أي عمل؟ قال ابن عباس: الرجل غني يعمل بطاعة الله، ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصي، حتى أغرق أعماله. وفي هذا الحديث كفاية في تفسير هذه الآية، وتبين ما فيها من المثل بعمل من أحسن العمل أولاً ثم بعد ذلك انعكس سيره فبدل الحسنات بالسيئات عياداً بالله من ذلك، فأبطل بعمله الثاني ما أسلفه فيما تقدم من الصالح، واحتاج إلى شيء

(٢) وهما ابن عامر وعاصم.

(١) وهم: نافع وابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي.

(٣) سورة البقرة: الآية (٢٦٦).

من الأوّل في أضيّق الأحوال، فلم يحصل منه شيئاً وخانه أحوج ما كان إليه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضِعْفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ﴾ وهو الرّيح الشّديدة ﴿فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ﴾ أي أحرقت ثمارها وأباد أشجارها، فأبي حال يكون حاله^(١).

وقد روى ابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس، قال: ضرب الله مثلاً حسناً - وكل أمثاله حسن - قال: ﴿أَيُّودٌ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ يقول ضيعة في شيبته ﴿وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ﴾ وولده وذريته ضعاف عند آخر عمره، فجاءه إعصار فيه نار فاحترق بستانه، لم يكن عنده قوة أن يغرس مثله، ولم يكن عند نسله خير يعودون به عليه، وكذلك الكافر يكون يوم القيامة إذا رُدَّ إلى الله عزَّ وجلَّ، وليس له خير فيستتب، كما ليس لهذا قوة فيغرس مثله بستانه، ولا يجده قدّم لنفسه خيراً يعود عليه، كما لم يغن عن هذا ولده وحرّم أجره عند أفقر ما كان إليه، كما حرّم هذا جنته عندما كان أفقر ما كان إليها عند كبره وضعف ذريته، وهكذا روى الحاكم في مستدركه أن رسول الله ﷺ كان يقول في دعائه: «اللهم اجعل أوسع رزقك عليّ عند كبر سني وانقضاء عمري» ولهذا قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ أي تعتبرون وتفهمون الأمثال والمعاني، وتنزلونها على المراد منها، كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾^(٢).

(١) تفسير القرآن العظيم للإمام الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي المتوفى سنة (٤٧٤ هـ) ج١ ص ٢٨٠ وما بعدها.

(٢) سورة العنكبوت: الآية (٤٣) نفس المصدر السابق.

(سورة آل عمران)

قوله تعالى: ﴿كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (١).

قال الضحاك عن ابن عباس: كصنيع آل فرعون، وكذا روي عن عكرمة ومجاهد وأبي مالك والضحاك وغير واحد، ومنهم من يقول: كسنة آل فرعون، وكفعل آل فرعون، وكشبه آل فرعون. والألفاظ متقاربة، والدأب بالتسكين والتحريك كنهْر ونهْر، هو الصنيع والحال والشأن والأمر والعادة، كما يقال: لا يزال هذا دأبي ودأبك، وقال امرؤ القيس: (٢)

وقفأ بها صحبي على مطيهم يقولون لا تأسف أسي وتجمل (٣)
كذأبك من أم الحويرث قبلها وجارتها أم الرباب بمأسل

والمعنى كعادتك في أم الحويرث حين أهلكت نفسك في حبها (٤) وبكيت دارها ورسمها، والآية تتضمن التشبيه لحال المشركين في اجتهادهم في كفرهم وتظاهرهم على النبي ﷺ، والتكذيب بآيات الله عز وجل بحال آل فرعون في تظاهرهم على موسى عليه السلام وتكذيبهم بآيات الله التي جاء بها (٥).

وقال الله تعالى في سورة أخرى: ﴿كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (٥٢) ذَلِكَ بَأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكْ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٥٣) كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ (٦) تكرير قوله تعالى: هاهنا «كذأب آل فرعون» إنما هو تصريح للقول بالذم بما كانوا عليه من قبح الفعل، ولأنه على نوعين مختلفين من العقاب. وإنما صار التكذيب بآيات

(١) سورة آل عمران الآية (١١)

(٢) امرؤ القيس شاعر جاهلي وهو أمير شعراء الجاهلية وهو صاحب المعلقة المشهورة: «قفانك من ذكرى حبيب ومنزل... إلخ»

(٣) الأبيات في ديوان امرئ القيس ص (١٤٤/١٤٥).

(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج ١ ص (٣٠٧) وانظر كتاب الجمان في تشبيهات القرآن ص (٤٦/٤٧/٤٨)

(٥) انظر كتاب الجمان في تشبيهات القرآن ص (٤٧/٤٨) تأليف عبدالله بن الحسين بن نايقيا.

(٦) سورة الأنفال: الآيات (٥٢، ٥٣، ٥٤) .

الله من أعظم الإجرام، لأنه من أبعدها عن الصواب، لما يتبعه من تضييع حقوق الله تعالى فيما يلزم من طاعته التي لا تصح إلا بآياته التي جاءت بها رسله، والتكذيب نسبة الخبر إلى الكذب، فالكذب بالحق مذموم، والمكذب بالباطل من أجل أنه باطل قد ظهر أمره محمود، فإن قيل لم يجب من تكذيبهم آيات الله عز وجل تعجيل عقوبتهم ولم يجب في غيرهم؟ قيل: لأنه لما لم يكن فيهم من يفلح، وكان في تعجيل عقوبتهم زجر لغيرهم يصلح به وجب تعجيلها لهم^(١).

وقال تعالى في هذه السورة: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٥٩) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَذَا لَهُو الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٢﴾.

إن ﴿مَثَلَ عِيسَى﴾، شأنه الغريب، عند الله ﴿كَمَثَلِ آدَمَ﴾، كشأنه في خلقه من غير أب، وهو من تشبيه الغريب، بالأغرب ليكون أقطع للخصم وأوقع في النفس ﴿خَلَقَهُ﴾ أي آدم أي قاله، ﴿مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ﴾، بشراً، ﴿فَيَكُونُ﴾. أي فكان وكذلك عيسى قال له كن من غير أب فكان، ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي أمر عيسى، ﴿فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ الشاكين فيه، ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ﴾ أي جادلك من النصارى، فيه من بعد ما جاءك من العلم، بأمره، ﴿فَقُلْ﴾، لهم ﴿تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ﴾. فجمعهم ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾، نتصرع في الدعاء ﴿فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ بأن نقول اللهم العن الكاذب في شأن عيسى وقد دعا ﷺ وقد نجران لذلك لما حاجوه فيه فقالوا: حتى ننظر في أمرنا ثم نأتيك

(١) انظر كتاب الجمان في تشبيهات القرآن ص (٤٧، ٤٨) تأليف عبدالله بن الحسين بن نايقا.

(٢) سورة آل عمران: الآيات (٥٩، ٦٠، ٦١، ٦٢، ٦٣).

(٣) انظر تفسير الجلالين: جلال الدين محمد بن أحمد بن محمد المحلي، وجمال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي ص (٥٧، ٥٨).

فقال ذوو رأيهم: لقد عرفتم نبوته وأنه ما باهل قوم نبياً إلا هلكوا فوادعوا الرجل وانصرفوا فأتوا الرسول ﷺ وقد خرج ومعه الحسن والحسين وفاطمة وعلي وقال لهم: إذا دعوت فأمّنوا فأبوا أن يلاعنوا وصالحوه على الجزية. رواه أبو نعيم، وعن ابن عباس قال: لو خرج الذين يباهلون لرجعوا لا يجدون مالا ولا أهلا. وروى: لو خرجوا لاحترقوا. ﴿إِنَّ هَذَا﴾ المذكور ﴿لَهُوَ الْقَصَصُ﴾، الخبر ﴿الْحَقُّ﴾ الذي لاشك فيه ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُ الْعَرْزُ﴾ في ملكه ﴿الْحَكِيمُ﴾، في صنعه ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أعرضوا عن الإيمان ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ فيجازيهم. وفيه وضع الظاهر موضع المضمّر^(١) وهذا ضرب من ضروب البلاغة.

وقال تعالى: في هذه السّورة:

﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتَهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾^(٢). والصّرُّ برد شديد قاله ابن عباس وآخرون. وقال عطاء: برد وجليد، وعن ابن عباس أيضاً ومجاهد ﴿فِيهَا صِرٌّ﴾ أي نار وهو يرجع إلى الأول فإنّ البرد الشّدِيد ولاسيما الجليد يحرق الزّرع والثّمار، كما يحرق الشّيء بالنّار ﴿أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتَهُ﴾ أي فأحرقته، يعني بذلك السّعفة إذا نزلت على حرث قد آن جذاذه أو حصاده، فدمّرتة وأعدمت مافيه من ثمر أو زرع، فذهبت به وأفسدته، وصاحبه أحوج ما كان إليه، فكذلك الكفّار يحرق الله ثواب أعمالهم في هذه الدّنيا وثمرها، كما يذهب ثمرة هذا الحرث بذنوب صاحبه وكذلك هؤلاء بنوها على غير أصل^(٣). وعلى غير أساس ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) سورة آل عمران: الآية (١١٧).

(٣) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣٤٩ وما بعدها.

(سورة الأنعام)

قال تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَىٰ ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَأْمُرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١).

نبه الله نبيه على حجته على مشركي قومه من عبدة الأوثان بقوله: قل يا محمد لهؤلاء العادلين بربهم الأوثان والأنداد الأمرين لك باتباع دينهم وعبادة آلهتهم: أَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ حَجْرًا أَوْ خَشْبًا لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ نَفْعِنَا وَلَا ضَرَرِنَا وَنُدْعُ عِبَادَةَ مِنْ بِيَدِهِ النَّفْعِ وَالضَّرِّ وَالْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ (٢) فَلَا شَكَّ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ وَتَمَيِّزُونَ بَيْنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ خِدْمَةَ مَنْ يَرْجَىٰ نَفْعَهُ وَيَرْهَبُ ضِدَّهُ أَحَقُّ وَأَوْلَىٰ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ﴾ (٣) وَقَوْلُهُ: ﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا﴾ أَي أَدْبَارِنَا لَمْ نَظْفِرْ بِحُجَّةٍ فَيَكُونُ مِثْلُنَا فِي ذَلِكَ مِثْلَ الَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ، وَالِاسْتِهْوَاءُ الدَّعَاءُ إِلَى الْهَوَىٰ وَقِيلَ لِلضَّلَالِ هَوَىٰ لِأَنَّهُ بِمَنْزِلَةِ مَنْ يَمْضِي فِي جِهَةِ السُّفْلِ كَمَا يَقَالُ: أَمْرُهُ فِي سَفَالٍ. قَوْلُهُ: «حَيْرَانٌ» مَنْصُوبٌ عَلَى الْحَالِ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ، فِي حَالِ حَيْرَتِهِ. وَهَذَا مِثْلُ ضَرْبِهِ اللَّهُ تَعَالَى لِمَنْ كَفَرَ بَعْدَ إِيمَانِهِ، وَاتَّبَعَ الشَّيَاطِينُ مِنْ أَهْلِ الشَّرِّ بِاللَّهِ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ كَانُوا فِي حَالِ إِسْلَامِهِ الْمُقِيمِينَ عَلَى الدِّينِ الْحَقِّ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى الَّذِي هُمْ عَلَيْهِ يَقُولُونَ لَهُ: ائْتِنَا، وَهُوَ يَأْبَىٰ ذَلِكَ وَيَتَّبِعُ دَاعِيَ الشَّيْطَانِ وَيَعْبُدُ الْأَلْهَةَ وَالْأَوْثَانَ، فَوَجْهُ التَّشْبِيهِ فِي الْمَثَلِ أَنَّ حَالَ الصَّائِرِ إِلَى الضَّلَالِ بِسُلُوكِهِ غَيْرِ الْمَحْجَّةِ فِي طَرِيقِ بَعْدِ الدَّعَاءِ إِلَى الْهُدَى بِلِزُومِهِ الْحُجَّةَ الَّتِي تُوْدِي إِلَى نَجَاحِهِ (٤). قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَحِمَهُ اللَّهُ (٥): هَذَا مِثْلُ ضَرْبِهِ اللَّهُ تَعَالَى لِلْأَلْهَةِ وَمَنْ يَدْعُو إِلَيْهَا. وَالدَّعَاءُ الَّذِينَ يَدْعُونَ إِلَى اللَّهِ كَمِثْلِ رَجُلٍ ضَلَّ عَنِ الطَّرِيقِ تَائِهًا إِذْ نَادَاهُ مُنَادٌ: يَا فُلَانُ بِنِ فُلَانٍ هَلُمَّ إِلَى الطَّرِيقِ، وَلَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى اتِّبَاعِهِمْ فَإِنْ اتَّبَعَ الدَّاعِيَ الْأَوَّلَ انْطَلَقَ بِهِ حَتَّى يَلْقِيَهُ فِي هَلَكَةٍ، وَإِنْ أَجَابَ أَصْحَابَهُ اهْتَدَى إِلَى

(١) سورة الأنعام: الآية (٧١).

(٢) انظر كتاب الجمان في تشبيهات القرآن ص (١٠٤) وما بعدها تأليف عبد الله بن الحسين بن نايقا.

(٣) سورة الإسراء: الآية (٦٧).

(٤) نفس المصدر السابق.

(٥) ابن عباس صحابي جليل وهو ابن عم الرسول ﷺ وله باع طويل في تفسير القرآن الكريم وعلوم الدين.

الطَّرِيقَ، وإِنَّمَا يَدْعُوهُ الشَّيْطَانُ بِاسْمِهِ وَاسْمِ أَبِيهِ وَجَدِهِ لِيُخَدِعَهُ فَيُضِلُّهُ. وَالشَّيَاطِينُ غِيْلَانُ الْجِنِّ، وَالغُولُ اسْمٌ لِلذَّكْرِ وَالْأُنْثَى قَالَ الْعَنْبَرِيُّ: (١).

وَعُودًا قَفَرٍ ذَكَرَ وَأُنْثَى كَأَنَّ عَلَيْهِمَا قَطَعَ الْبِحَادَ (٢)
وَالغُولُ فِي كَلَامِهِمُ الدَّاهِيَةُ أَيْضاً وَكَذَلِكَ الْحَرْبُ عَلَى التَّشْبِيهِ
قَالَ الشَّاعِرُ (٣):

الْحَرْبُ غُولٌ أَوْ تَشْبَهُ الْغُولُ تَقْلِبُ الْأَوْتَارَ وَالذُّحُولَ (٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زِينٌ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٥)

هَذَا مِثْلُ ضَرْبِهِ اللَّهُ تَعَالَى: لِلْمُؤْمِنِ الَّذِي كَانَ مَيِّتًا، أَيْ فِي ضَلَالَةٍ هَالِكًا حَاتِرًا، فَأَحْيَاهُ اللَّهُ أَيْ أَحْيَا قَلْبَهُ بِالْإِيمَانِ، وَهَدَاهُ لَهُ وَوَفَّقَهُ، لِاتِّبَاعِ سَبِيلِهِ. ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ أَيْ يَهْتَدِي كَيْفَ يَسْلُكُ وَكَيْفَ يَتَصَرَّفُ بِهِ، وَالنُّورُ هُوَ الْقُرْآنُ كَمَا رَوَاهُ الْعَوْفِيُّ، وَابْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ. وَقَالَ السُّدِّيُّ: الْإِسْلَامُ، وَالْكَوْلُ صَحِيحٌ (٦) ﴿كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ أَيْ الْجَهْلَاتِ، وَالْأَهْوَاءُ وَالضَّلَالَاتِ الْمُتَفَرِّقَةَ، ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ أَيْ لَا يَهْتَدِي إِلَى مَنْفَذٍ وَلَا مَخْلَصٍ مِمَّا هُوَ فِيهِ، وَفِي مَسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ خَلْقَهُ فِي ظِلْمَةٍ، ثُمَّ رَشَّ عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِهِ، فَمَنْ أَصَابَهُ ذَلِكَ النُّورُ اهْتَدَى، وَمَنْ أَخْطَأَهُ ضَلَّ» كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٧).

(١) الْعَنْبَرِيُّ: لَهُ تَرْجُمَةٌ فِي الشُّعْرِ وَالشُّعْرَاءِ ص (٢٠٥).

(٢) رَاجِعِ الْحَيَوَانَ لِلْجَاحِظِ ٦/١٥٩.

(٣) الْقَاتِلُ: لَمْ أَجِدِ الْقَاتِلَ.

(٤) الْبَيْتُ لَمْ يَوْجَدْ فِي كُتُبِ الْأَدَبِ، الْأَوْتَارُ جَمْعُ وَتَرٍ وَهُوَ النَّارُ.

(٥) سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ: الْآيَةُ (١٢٢).

(٦) تَفْسِيرُ ابْنِ كَثِيرٍ: ج ٢ ص (١٥٩، ١٦٠).

(٧) سُورَةُ الْبَقَرَةِ: الْآيَةُ (٢٥٧).

وقال تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (١) وقال تعالى: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٢) وقال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ (٦٤) وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ (٦٥) وَلَا الظُّلُّ وَلَا الْحُرُورُ (٦٦) وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ (٦٧) إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ (٣) والآيات في هذا كثيرة، ووجه المناسبة في ضرب المثليين هاهنا بالنور والظلمات ماتقدم في أول السورة ﴿وجعل الظُّلُمَاتِ وَالنُّورِ﴾ وزعم بعضهم أن المراد بهذا المثل رجلان معينان، فقيل عمر بن الخطاب، هو الذي كان ميتاً فأحياه الله، وجعل له نوراً يمشي به في الناس، قيل عمار بن ياسر، وأمّا الذي في الظلمات ليس بخارج منها فهو أبوجهل عمرو بن هشام لعنه الله، والصحيح أن الآية عامة يدخل فيها كل مؤمن وكافر وقوله: ﴿كَذَلِكَ زَيْنٌ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي حسن لهم ما كانوا فيه من الجهالة والضلالة، قدراً من الله وحكمة بالغة لا إله إلا هو وحده لا شريك له.

وقال تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٤).

يقول الله تعالى ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ أي ييسره له وينشطه ويسهله، لذلك فهذه علامات على الخير. كقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّنْ رَبِّهِ﴾ (٥) وقال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانَ وَزَيْنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَهُ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ (٦).

(١) سورة الملك: الآية (٢٢).
 (٢) سورة فاطر: الآيات (١٩، ٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٣).
 (٣) سورة هود: الآية (٢٤).
 (٤) سورة الانعام: الآية (١٢٥).
 (٥) سورة الزمر: الآية (٢٢).
 (٦) سورة الحجرات: الآية ٧.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ (١) أي يوسّع قلبه للتوحيد والإيمان به. وكذا قال أبو مالك وغير واحد وهو ظاهر (٢).

وعن أبي جعفر، قال: سئل رسول الله ﷺ أي المؤمنين أكيس؟ قال «أكثرهم ذكراً للموت وأكثرهم لما بعده استعداداً» قال: وسئل النبي ﷺ عن هذه الآية ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ قالوا: كيف يشرح صدره يارسل الله؟ قال «نور يقذف فيه فينشرح له وينفسح، قالوا: فهل لذلك من أمانة يعرف بها؟ قال «الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل لقاء الموت» وقال ابن جرير: حدثنا هناد. حدثنا قبيصة عن سفيان الثوري، عن عمرو ابن مرة، عن رجل يكتني أبا جعفر كان يسكن المدائن، قال: سئل النبي ﷺ، عن قول الله تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ فذكر نحو ما تقدم.

وعن أبي جعفر. قال: قال رسول الله ﷺ ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ قال رسول الله ﷺ «إذا دخل الإيمان القلب انفسح له القلب وانشرح» قالوا: يارسل الله هل لذلك من أمانة؟ قال: «نعم الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل الموت» وقد رواه ابن جرير عن سوار بن عبد الله العنبري، حدثنا المعتمر بن سليمان، سمعت أبي يحدث عن عبد الله بن مرة، عن أبي جعفر فذكره.

وعن ابن مسعود، قال: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ قالوا: يارسل الله ما هذا الشرح؟ قال «نور يقذف به في القلب» قالوا: يارسل الله فهل لذلك من أمانة تعرف؟ قال «نعم» قالوا: وما هي؟ قال الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل الموت» (٣) وعن أبي عبيدة عن عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ «إذا دخل النور القلب انفسح وانشرح» قالوا: فهل لذلك من علامة يعرف بها؟ قال: «الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل لقاء الموت» وقد رواه من وجه آخر عن ابن مسعود متصلاً مرفوعاً فقال: حدثني ابن سنان القرظي،

(١) نفس المصدر السابق ج٢ ص ١٦١ وما بعدها.

(٢) نفس المصدر السابق ج٢ ص ١٦٢ وما بعدها.

(٣) نفس المصدر السابق والجزء والصفحة.

حدثنا محبوب بن الحسن الهاشمي، عن يونس، عن عبدالرحمن بن عبيد الله بن عتبة، عن عبدالله بن مسعود، عن رسول الله ﷺ قال ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ قالوا: يارسول الله وكيف يشرح صدره؟ قال «يدخل فيه النور فينفسح» قالوا: وهل لذلك علامة يارسول الله؟ قال: «التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل أن ينزل الموت» فهذه طرق لهذا الحديث مرسلة ومتصلة، يشد بعضها بعضاً^(١). والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ قرىء بفتح الضاد وإسكان الياء، والأكثرون (ضيقاً) بتثديد الياء وكسرها، وهما لغتان في هذه الكلمة، وقرأ بعضهم، حرجاً بفتح الحاء وكسر الراء، قيل بمعنى آثم، قاله السدي، وقيل: بمعنى القراءة الأخرى، «حرجاً»، بفتح الحاء والراء، وهو الذي لا يتسع لشيء من الهدى، ولا يخلص إليه شيء ما ينفعه من الإيمان، ولا ينفذ فيه.

وقد سأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجلاً من الأعراب من أهل البادية من مدلج عن الحرجة، فقال هي الشجرة تكون بين الأشجار لا تصل إليها راعية ولا وحشية ولا شيء، فقال عمر رضي الله عنه: كذلك قلب المنافقين لا يصل إليه شيء من الخير. وقال العوفي: عن ابن عباس، يجعل الله عليه الإسلام ضيقاً، والإسلام واسع، وذلك حين يقول ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ يقول: ماجعل عليكم في الإسلام من ضيق، وقال مجاهد والسدي: ضيقاً حرجاً، شاكاً، وقال عطاء الخراساني، ضيقاً حرجاً أي ليس للخير فيه منفذ^(٢)، وقال ابن المبارك عن ابن جريج: ﴿ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ بلا إله إلا الله حتى لا يستطيع أن تدخل قلبه، كأنما يصعد في السماء من شدة ذلك عليه وقال سعيد بن جبير: يجعل صدره ضيقاً حرجاً، قال: لا يجد فيه مسلكاً إلا صعداً. وقال السدي: «كأنما يصعد في السماء» من ضيق صدره.

وقال عطاء الخراساني ﴿كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ﴾ يقول مثله كمثل الذي لا يستطيع أن يصعد إلى السماء، وقال الحكم بن أبان: عن عكرمة عن ابن عباس ﴿كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ﴾ يقول: فكما لا يستطيع ابن آدم أن يبلغ السماء، فكذلك

(١) نفس المصدر السابق والجزء والصفحة.

(٢) نفس المصدر السابق والجزء والصفحة.

لا يستطيع أن يدخل التوحيد والإيمان قلبه، حتى يدخله الله في قلبه، وقال الأوزاعي ﴿كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ﴾ كيف يستطيع من جعل الله صدره ضيقاً أن يكون مسلماً.

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير: وهذا مثل ضربه الله لقلب هذا الكافر^(١) في شدة ضيقه عن وصول الإيمان إليه، يقول: فمثلته في امتناعه من قبول الإيمان وضيقه عن وصوله إليه، مثل امتناعه عن الصعود إلى السماء وعجزه عنه، لأنه ليس في وسعه وطاقته، وقال: في قوله ﴿كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يقول: كما يجعل الله صدر من أراد إضلاله ضيقاً حرجاً كذلك يُسلطُ الله الشيطان عليه وعلى أمثاله: ممن أبي الإيمان بالله ورسوله فيغويه ويصدّه عن سبيل الله، وقال ابن أبي طلحة عن ابن عباس، الرجس الشيطان، وقال مجاهد: الرجس كلُّ ما لا خير فيه، وقال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم: الرجس العذاب ﴿وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَكَّرُونَ﴾ (١٢٦) لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ^(٢) لما ذكر تعالى طريق الضالين عن سبيله الصادين عنها، نبه على شرف ما أرسل به رسوله من الهدى ودين الحق، فقال تعالى:

﴿وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾ منصوب على الحال، أي هذا الدين الذي شرعناه لك يا محمد بما أوحينا إليك هذا القرآن: هو صراط الله المستقيم: وحيل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، رواه أحمد والترمذي بطوله، «قد فصلنا الآيات» أي وضحتها وبيّناها وفسرناها «لقوم يذكرون» أي لمن له فهم ووعي يعقل عن الله ورسوله ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ﴾ وهي الجنة ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي يوم القيامة، وإنما وصف الله الجنة ها هنا بدار السلام، لسلامتهم فيما سلكوه من الصراط المستقيم المقتفي أثر الأنبياء وطرائقهم، فكما سلموا من آفات الاعوجاج أفضوا إلى دار السلام ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُمْ﴾ أي حافظهم وناصرهم ومؤيدهم ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي جزاءً على أعمالهم الصالحة، تولاهم وأثابهم الجنة بمئه وكرمه^(٤).

(١) نفس المصدر السابق والجزء والصفحة.

(٢) سورة الأنعام: الآيات (١٢٦، ١٢٧).

(٣) نفس المصدر السابق والجزء ص (١٦٣).

(سورة الأعراف)

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا﴾ (*) بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكْدًا كَذَلِكَ نَصْرِفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُشْكِرُونَ ﴿١﴾.

﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا﴾ أي منتشرة بين يدي السحاب الحامل للمطر، والنشر خلاف الطي كنشر الثوب بعد طيّه، فلمّا كانت الرِّيح بمنزلة المطوي في امتناع الإدراك ثم صارت تدرك في الآفاق كانت كنشر الثوب بعد طيّه في الإدراك، فاستعير لها الموتى فنشروا أي أحياهم فحيوا قال الأعشى: (٢) وذكر امرأة:

لو أسندت ميتاً إلى نحرها عاش ولم يحمل إلى قابر (٣)
حتى يقول الناس مما رأوا ياعجباً للميت الناشر

وقوله تعالى: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٤) وكذلك قوله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٥) وأنشد محمد بن القاسم (٦) الأنباري عن أحمد بن يحيى لجميل بن معمر (٧) وهو من أبيات المعاني (٨) -

هواك لقلبي يا بشينة كالذي أقام فأحيا الميت وهو دفين
وليس بذئ قفرٍ إلى ذاوٍ وإنَّ ذا لصبتُ بهذا في الحياة ضنين

(١) سورة الأعراف : الآيتان : (٥٧ و٥٨)

(*) قرأها نافع وابن كثير وأبو عمرو بضم النون والشين (نُشْرًا)، وقرأ ابن عامر بضم النون وسكون الشين، وقرأ عاصم بالباء الموحدة المضمومة، وقرأ حمزة والكسائي بفتح النون وسكون الشين.

(٢) الأعشى: هو أحد شعراء الجاهلية الكبار وله معلقة مشهورة. (٣) البيت في ديوانه ص (١٣٩-١٤١)

(٤) سورة الروم : الآية (٥٠)

(٥) سورة الأعراف : الآية (٥٦)

(٦) هو أحد الرواة الثقات في العصر العباسي وله مؤلفات

(٧) جميل بن معمر (جميل بشينة) أحد عشاق العرب في العصر الأموي وكان عذريا ومعظم شعره في بشينة

(٨) البيتان لم يوجد في ديوانه.

يعني الذي أقام فأحيا الميت وهو دفين المطر وهو لا يفتقر إلى النبت والنبات فقير إليه. حدثنا العشاري قال حدثنا عمر بن شاهين قال حدثنا أحمد عيسى قال حدثنا هاشم قال حدثنا يعلى قال حدثنا ابن جراد قال كان النبي ﷺ إذا استقى قال: اللهم أسقنا غيثاً مغيثاً هنيئاً مريئاً توسع به لعبادك تغذي به الضرع وتحيي به الزرع^(١). ومما وصفت الشعراء من خصب الأرض وآثار الغيث بها قول بعض بني سعد:

وخيفاء ألقى الغيثُ فيها ذراعه فسرتِ وساءت كلَّ ماشٍ ومصرم^(٢)
تمشي بها الدرّماء تسحب قضبها كأنَّ بطنَ حبلَى ذاتِ أونينِ تَيمم

يعنى بالماشي صاحب الماشية والمصرم الذي لا مال له، والدرّماء ماء الأرنب، والأونان العدلان. وأحسن الآخر في قوله وذكر راعياً:

راعي ترائك في أكناف ذي أمر زهر الحواشي لا ماء ولا حطب^(٣)
إذا استثار كنوفاً خلّت مابركتُ عليه يندفُ في حافاته العطب^(٤)

الترائك ماتركه الغيث ويريد بزهر الحواشي النور، وقوله لا ماء ولا حطب أي الأرض مخصبة رطبة ليس بها حطب. والكنوف الناقة التي تبرك في كنف الإبل، يقول هي غزيرة ينصب من أحاليلها في مبركها^(٥) ويدلّ بذلك على حسن مرعاها وأهل الصنعة يُسمون هذا التتبع وهو أن يريد الشاعر المعنى فلا يأتي باللفظ الدال عليه، بل بلفظ تابع له، فإذا دلّ التابع أبان عن المتبوع ومن ذلك قول امرئ القيس^(٦):

وتضحى فتيتُ المسك فوق فراشها نؤوم الضحى لم تنتطق بمفضل^(٧)

(١) الحديث في النهاية في غريب الحديث لابن الأثير ٣١٣/٤ وفتح الباري إلى صحيح البخاري ٤٠٨/٢

(٢) البيتان لم يوجدوا في كتب الأدب.

(٣) أكناف: نواحي، جوانب، العطب: القطن

(٤) انظر كتاب الجمال في تشبيهات القرآن ص ٤٥٩ تأليف عبدالله بن الحسين بن ناquia.

(٥) انظر كتاب الجمال في تشبيهات القرآن ص ٤٥٩ تأليف عبدالله بن الحسين بن ناquia.

(٦) القائل امرؤ القيس وقد مرت ترجمته.

(٧) البيت من معلقة امرئ القيس - ديوانه ص (١٥٠)

وإنما أراد أن يذكر ترف هذه المرأة وأن لها من يكفيها فأتى باللفظ لذلك ولم يذكره بلفظه الخاص، وكذلك وصف هذا الشاعر الناقة بالغازاة وهو يشير بذلك إلى وصف الخصب وكثرة الكلاء وجودة المرعى، وقال الطائي^(١) وذكر السحاب وحميد أثره في الأرض:

إذا ما ارتدى بالبرق لم يزل الثرى له تبعاً أو يرتدي الروض بالبقل^(٢)
 سحاباً إذا ألفت على خلفه الصبا يدا قالت الدنيا أتى قاتل المحل
 ترى الأرض تهتزُّ ارتياحاً لوقعه كما ارتاحت البكر الهدى إلى البعل
 إذا انتشرت أعلامه حوله انطوت بطون الثرى منه وشيقاً على حمل^(٣)

وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا﴾ أي حملت الرياح سحاباً ثقالاً أي من كثرة مافيهما من الماء تكون ثقيلة قريبة من الأرض مدلهمة كما قال زيد بن عمرو بن نفيل رحمه الله:

وأسلمت وجهي لمن أسلمت له المزن تحمل عذبا زلالا
 وأسلمت وجهي لمن اسلمت له الأرض تحمل صخرأ ثقالا

وقوله ﴿سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيْتٍ﴾ أي إلى أرض ميتة مجدبة لا نبات فيها كقوله: ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا﴾^(٤) والآية ولهذا قال ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى﴾ أي كما أحينا هذه الأرض بعد موتها كذلك نحيا الأجساد بعد صيرورتها رميماً يوم القيامة ينزل الله سبحانه وتعالى ماءً من السماء فتمطر الأرض أربعين يوماً فتنبت منه الأجساد في قبورها كما ينبت الحب في الأرض وهذا المعنى كثير في القرآن^(٥) يضرب الله مثلا ليوم القيامة بإحياء الأرض بعد موتها ولهذا

(١) الطائي هو أبوتمام شاعر عباسي مرت ترجمته.

(٢) راجع ديوان أبي تمام ص (٢٤٠) والأبيات غير مرتبة.

(٣) نفس المصدر السابق نفس الصفحة.

(٤) سورة يس: الآية (٣٣).

(٥) انظر تفسير ابن كثير ج ٢ ص (٢٠٦-٢٠٧).

قال ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ وقوله ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ أي والأرض الطيبة يخرج نباتها سريعاً حسناً كقوله ﴿وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ (١) ﴿وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ قال مجاهد وغيره كالسبخة ونحوها وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية: هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر (٢) ومن نظائر الآية قوله عز وجل ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ (٣) فوجه التشبيه في إخراج الأموات بإخراج النبات أن المنزلة فيهما واحدة، فالقادر على أحدهما قادر على الآخر في مقتضى العقل واحتج تعالى بذلك على من أنكر حال البعث، كما احتج بابتداء الخلق، فقال جل شأنه: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ وقد وردت الحكاية عنهم مقرونة بالحجة عليهم في قوله تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ (٤) وقال البخاري حدثنا محمد بن العلاء حدثنا حماد بن أسامة عن يزيد بن عبد الله عن أبي بردة عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ «مثل ما بعثني الله به من العلم والهدى كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً فكانت منها طائفة قبلت الماء فأنبتت الكلاً والعشب الكثير وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلاً فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به» رواه مسلم والنسائي من طرق عن أبي أسامة حماد بن أسامة به. تشبيه آخر من هذه السورة قوله عز وجل: ﴿وَأْتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ (٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمَلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرَكُهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٥) النبأ

(١) سورة آل عمران: الآية (٣٧).

(٢) نفس المصدر السابق والجزء والصفحة.

(٣) سورة الزخرف: الآية (١١)

(٤) سورة الإسراء الآية ٥١.

(٥) سورة الأعراف: الآيتان (١٧٥، ١٧٦).

الخبر عن الأمر العظيم يقال لهذا الأمر نبأ ومنه صفة النبي ﷺ ونبأه الله جعله نبياً، ومعنى قوله: فانسلك منها أي خرج ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ﴾ (١) وقوله فأتبعه الشيطان يعني بالتزيين لذلك الضلال حتى مال إليه، وتمسك به. وقيل أتبعه الشيطان كفّار الإنس فكانوا معه على الكفر، وفي الآية دليل على النهي عن تقليد من لا يؤمن عليه الارتداد، والغاوي يعني الخائب من رحمة الله، وأصل الغي الجهل والضلال، قال تعالى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ (٢) ثم قيل للخائب من الظفر بالشيء قد غوى وعلى هذا قول المرقش (٣):

فمن يلق خيراً يحمد الناس أمره ومن يغو لا يعدم على الغي لائم (٤)
والذي أوتي الآيات فانسلك منها بلغم بن ناعق من بني إسرائيل، وقال أمية بن أبي الصلت (٥) الثقفى، وإنما آتاه الله الآيات باللطف له حتى تعلمها وصار بها عالماً فقص الله تعالى قصته ليحذر الناس من مثل حاله، وقال الحسن البصري: آيات الله دينه، وقوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ (٦) أي كنا نحول بينه وبين الكفر فيستحق الرفعة بها، ولكنه أخذ إلى الأرض أي سكن إلى الدنيا وأتبع هواه، وأصل الإخلاق اللزوم على الدوام قال زهير بن أبي سلمى (٧):

لمن الديار غشيتها بالغرقد كالوحي في حجر المسيل المخلد (٨)

واللهت التنفس الشديد الذي يلحق الإنسان من شدة الإعياء وهو في الكلاب طباع، ويستعاد ذلك لمن بهظه أمره وساوره هم أولقيه مكروه كما قال الأزدي (٩)
يمدح رجلاً:

-
- (١) سورة يس: الآية (٣٧).
(٢) سورة طه: الآية (١٢١).
(٣) المرقش: شاعر جاهلي يكثر في شعره الغزل والمديح. راجع الشعر والشعراء ٥٦/١.
(٤) البيت في الشعر والشعراء لابن قتيبة ص (٥٦).
(٥) أمية بن أبي الصلت شاعر جاهلي أدرك الإسلام ولم يسلم راجع الإصابة (١٢٥/١).
(٦) سورة الأعراف: الآية (١٧٦).
(٧) زهير بن أبي سلمى مرت ترجمته.
(٨) البيت في ديوانه ص (٢٦٨).
(٩) لم يوجد ترجمة له في كتب التراجم الأدبية.

لنعم فتى الجلى ومستنبت الندى وملجأ محروب وتفريج لاهث^(١)
عياذ بن عمرو وابن الحليس ابن جابر ابن زيد بن منظور وابن زيد بن وارث

ومعنى التشبيه في الآية أن الكافر التارك لآيات الله العادل عنها الذي لا يصلحه شيء كالكلب في لهثه، ولو دبرته بكل شيء لم تتركه ولم ينزع عنه ولذلك ذكر الشيء وضده فالتقدير كمثل الكلب لاهثاً، ويقال لهث يلهث لهثاً فهو لاهث ولهثان ولهثان ووصف بعض الشعراء كلب الهرش وعبر عن هيئة لهثه بتشبيه أبداع فيه فقال أنشد فيه بعض الأشراف^(٢):

جرى على الناس مستأسدٌ مُدَلٌّ على كلِّ قرنٍ بطل^(٣)
ويرفع في سطوات المصالِ له ذنباً مثل قرنِ الوعلِ

تشبيه آخر من هذه السورة: قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾^(٤) ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾ أي خلقنا وجعلنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس ﴿أي هيأناهم ويعمل أهلها يعملون، فإنه تعالى: لما أراد أن يخلق الخلق علم ما هم عاملون قبل كونهم فكتب ذلك عنده في كتاب قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، كما ورد في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال «إن الله قدر مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء». وفي صحيح مسلم أيضاً: من حديث عائشة بنت طلحة عن خالتها عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها قالت: (٥) دُعِيَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى جَنَازَةِ صَبِيٍّ مِنَ الْأَنْصَارِ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ

(١) البتان لم يعثر عليهما في كتب الأدب.

(٢) القائل بعض الأشراف.

(٣) الآيات غير موجودة.

(٤) سورة الأعراف: الآية (١٧٩).

(٥) انظر تفسير القرآن العظيم ج ٢ ص (٢٤٧) للإمام الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي.

طوبى له عصفور من عصافير الجنة لم يعمل السوء ولم يدركه، فقال رسول الله ﷺ «أو غير ذلك ياعائشة إن الله خلق الجنة وخلق لها أهلاً وهم في أصلاب آبائهم، وخلق النار وخلق لها أهلاً وهم في أصلاب آبائهم»، وفي الصحيحين من حديث ابن مسعود: «ثم يبعث الله إليك الملك فيؤمر بأربع كلمات فيكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أم سعيد» وتقدم أن الله لما استخرج ذرية آدم من صلبه وجعلهم فريقين أصحاب اليمين وأصحاب الشمال قال «هؤلاء للجنة ولا أبالي، وهؤلاء للنار ولا أبالي» والأحاديث في هذا كثيرة ومسألة القدر كبيرة ليس هذا موضع بسطها^(١) وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ وصفهم بأنهم لا يبصرون بعيونهم، ولا يعقلون بقلوبهم، فجعلهم في تركهم الحق وإعراضهم عنه بمنزلة من لا يسمع ولا يعقل^(٢) ونظير هذه الآية قوله في سورة أخرى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾^(٣).

وقوله ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ﴾ أي هؤلاء الذين لا يسمعون الحق ولا يعونونه ولا يبصرون الهدى، كالأنعام السارحة التي لا تنتفع بهذه الحواس منها إلا في الذي يتقيا في ظاهر الحياة الدنيا كقوله: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً﴾ أي ومثلهم في حال دعائهم إلى الإيمان كمثل الأنعام إذا دعاها راعيها لا تسمع إلا صوته، ولا تفقه مايقول. ولهذا قال في هؤلاء ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ﴾ أي من الدواب لأنها قد تستجيب مع ذلك لراعيها إذا أنس بها، وإن لم تفقه كلامه بخلاف هؤلاء^(٤)، ولأنها تفعل ما خلقت له إما بطبعها وإما بتسخيرها بخلاف الكافر، فإنه إنما خلق ليعبد الله ويوحده فكفر بالله وأشرك، ولهذا من أطاع الله من البشر كان أشرف من مثله من الملائكة في معاده، ومن كفر به من البشر كانت الدواب أتم منه، ولهذا قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾.

(١) نفس المصدر السابق والجزء والصفحة.

(٢) انظر كتاب الجمال في تشبيهات ص (٦٥-٦٦).

(٣) سورة الفرقان: الآية (٤٤).

(٤) انظر تفسير القرآن للإمام الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي ص (٢٧٠).

(سورة يونس)

قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا مِثْلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازْبَيَّتْ وَظَنَّ أَهْلِهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْن بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (١) ضرب الله عز وجل مثلاً لزهرة الحياة الدنيا وزينتها وسرعة انقضائها وزوالها، بالنبات الذي أخرج من الأرض، بماء أنزل من السماء، مما يأكل الناس من زروع وثمرات على اختلاف أنواعها وأصنافها، وما تأكل الأنعام من أبّ وقضب وغير ذلك، ﴿ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا ﴾ أي زينتها الفانية، وازينت أي حسنت بما خرج في رباهما من زهور نضرة مختلفة الأشكال والألوان (٢) «ووطن أهلها» الذين زرعوها وغرسوها أنهم قادرون عليها أي على جذاذها وحصادها، فبينما هم كذلك إذ جاءتها صاعقة أو ريح شديدة باردة، فأبيست أوراقها وأتلفت ثمارها، ولهذا قال تعالى: ﴿ أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا ﴾ أي يابساً بعد الخضرة والنضار، كأن لم تغن بالأمس، أي كأنها ما كانت حيناً قبل ذلك. وقال قتادة: كأن لم تغن، كأن لم تنعم، (٣) يقال غني بالمكان إذا أقام به، والمغاني المنازل، وهكذا تمضي الأمور بعد زوالها كأنها لم تكن قال النابغة:

غنيت بذلك إذا هم لك جيرةٌ منها بعطفٍ رسالةٍ وتوددٍ

والتشبيه في الآية أحسن موقعاً، وأبلغ معنى، من جميع ما وصف به حال الدنيا وميل النفوس إليها، مع قلة صحبتها والاستمتاع بلذتها، فكذلك حال النبات والماء في النضارة والحسن ثم العود إلى الجفاف واليبس (٤) وقد ذكرت العرب في أشعارها ما يطيبها، من ذلك إلى نزول الأرض والتجاور بها مدة دوام الخصب، ثم

(١) سورة يونس: الآية (٢٤) .

(٢) تفسير القرآن العظيم للإمام الحافظ أبي الفداء اسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي ج ٢ ص (٣٧٦، ٣٧٥) .

(٣) نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٤) انظر كتاب الجمال في تشبيهات القرآن ص (٦٩) تأليف عبدالله بن الحسين بن نايقا .

ما يكون بعد ذلك من تشعب الجيران، ومفارقة الأوطان عند غور المياه وذهاب الكلاء.

وقيل لأعرابية: أين منزلكم؟ فقالت حيث ينزل الغيث. وكذلك قيل لبعضهم: أين تنزل؟ فقال: حيث يكون الكلاء، وقد أكثر الشعراء من السُّقيا للديار على تصرف حالاتها، من الإقامة بها، والانتقال عنها، وعرفانها إياها وشكرها، كل ذلك ضناً منهم بالأوطان ورغبة عن مفارقة الماء ألف والمحال، إذا كان المطر وما يكون عنه من العشب والكلاء، سبباً لاجتماع الشمل والثام الشعب^(١).

فقال الأول:

سقى ظلل الدار التي أتم بها سحاب وبلى صيف وربيع
وقال الآخر:

لا عهد لي بعد أيام الحمى بهم وعلّ ذاك سقى الله الحمى مطرا
وقال الآخر:

أحب بلاد الله ما بين منعج إلى وفلج أن يصب سحابها
بلاد بها نيظت عليّ تمائي وأول أرض مسّ جلدي ترايبها
وقال ذو الرمة:

ألا فاسلمي يا دارمي على البلا ولازال منهلاً بجرعائك القطر

وقد استعملوا من الاستعارة والتشبيه وضرب المثل بالرياض والنبات في أحوال صرفوا إليها أعنة القول، وسلكوا فيها مذهب البديع من هذا الباب على عادة توسعهم في طرق المعاني وتصرفهم في قصد الأغراض ما يخرج بنا ذكره عن قصد السبيل كنحو ما ذهبوا إليه من وصف الشبيبة ونضارتها وحسن أيام الصبا وغضارتها^(٢) فمن ذلك ما جاء من تشبيه النساء في حسنهن وغضاضة شبابهن كقول الأول وذكر امرأة:

(١) نفس المصدر السابق ص (٧١).

(٢) كتاب الجمال في تشبيهات القرآن ص (٧١، ٧٢، ٧٤) تأليف عبدالله بن الحسين بن نايقا المتوفى سنة (٤٨٥هـ).

فما روضة من رياض القطا
بأحسن منها ولا مُزنةٌ
وقال الأعشى في مثل ذلك (٢):

ماروضة من رياض الحزن معشبةٌ
يضاحك الشمس منها كوكبٌ شَرِقُ
يوماً بأطيب منها نشر رائحةٍ
وقال الآخر:

كأنها روضةٌ منورةٌ
واعتمد الهذلي المبالغة في المعنى بالتبعية فأدرك شأو الإحسان بقوله:

تكاد يدي تندى إذا ما لمستها
وينبت في أعطافها الورق الخضر

ثم قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ﴾، أي نبين الحجج والأدلة ﴿لِقَوْمٍ

يَتَفَكَّرُونَ﴾، فيعتبرون بهذا المثل في زوال الدنيا عن أهلها. سريعاً مع اغترارهم بها،
وتمكنهم وثقتهم بمواعيدها وتلفتها عنهم، فإن من طبعها الهرب ممن طلبها.
والطلب لمن هرب منها، وقد ضرب الله تعالى مثل الدنيا بنبات الأرض في غير آية
من كتابه العزيز، فقال جل شأنه: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ
السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ
مُقْتَدِرًا﴾ (٣) الهشيم النبات الجاف الذي تسفيه الرياح، فأعلم الله تعالى: أن الحياة
الدنيا زائلة، ودليل ذلك: أن الذي مضى منها بمنزلة مالم يكن، وكذا في سورة
الزمر والحديد، يضرب الله بذلك مثل الحياة الدنيا وقال النبي ﷺ: «الدنيا حلوة
خضرة فمن أخذها بحقها بورك له فيها» (٤) يعني غضة حسنة وأصله من خضرة
النبات، وسمي الخضر لأنه كان إذا جلس اخضر ماحوله، ولأبي الطمحان (٥):

(١) الآيات لم توجد في كتب الأدب.

(٢) مرت ترجمته.

(٣) سورة الكهف: الآية (٤٥).

(٤) انظر كتاب الجمان في تشبيهات القرآن ص (٧٩) تأليف عبدالله بن الحسين بن نايقا.

(٥) ابوالطمحان شاعر جاهلي إسلامي كان فاسقاً له شعر في المديح (راجع: الشعر والشعراء ١/٣٨٨، الاغاني

٣٨٢/١٣.

كأني كابلٌ أدنو لصيد (١)
ولست مقيّداً أني بقيدٍ

لزوم العصا تحني عليه الأصابع
أدت كأني كلما قمت راعع

كما أخذ السدار من الهلال (٤)
وأنشدني بعض الأشراف لعبدالله بن المعتز وأنشدنيه محمد بن علي العشاري

وأيامنا تطوى وهن رواحل (٥)
إذا ما تخطت الأمانى باطل
وقال الأصمعي: أول شعر قيل في ذم الدنيا قول ابن حذاق: (٦)

أم هل له من حمام الموت من راق
وأدرجوني كأني طي مخراق
فإنما مالنا للوارث الباقي

إن اللبيب بمثلها لا يخدع
فأقتصد فيه وخذ منه ودع
قد أباد الدهر والدهر خدع

حتتني حانيات الدهر حتى
قريب الخطو يحسب من رأني
وقال لبيد بن ربيعة: (٢)

أليس ورائي إن تراخت منيتي
أخبر أخبار القرون التي خلت
وقال جرير: (٣)

أرى مرّ السنين أخذن مني
وأنشدني بعض الأشراف لعبدالله بن المعتز وأنشدنيه محمد بن علي العشاري

نسير إلى الآجال في كل ساعة
ولم أر مثل الموت حقاً كأنه
وقال الأصمعي: أول شعر قيل في ذم الدنيا قول ابن حذاق: (٦)

هل للفتى من بنات الدهر من واق
قد رجلوني وما رجّلت من شعث
نون عليك ولا تولع بإشفاق
وذكر الحسن البصري . . الدنيا وأنشد (٧)

أحلام نومٍ أو كظليل زائل
أنشدني عبدالله بن بكر لإسماعيل بن القاسم (٨):

إنما الدنيا متاع زائل
عجب للدهر كم من أمم

(١) البيتان في الأغاني ٣٨٢/١٣ .

(٢) مرت ترجمته .

(٣) مرت ترجمته .

(٤) البيت في ديوانه ص ٢٤٢٦ والسدار آخر ليلة من الشهر القمري .

(٥) لم توجد الأبيات في ديوان ابن المعتز . .

(٦) ابن حذاق شاعر جاهلي كان مشهوراً بالرواء .

(٧) الحسن البصري غني عن التعريف والبيت لم يوجد في كتب الأدب .

(٨) الأبيات في ديوانه ص ١٥١ والثاني غير موجود في الديوان .

يا أحمأ الميت الذي شيعه فحنا الترب عليه ورجع
ليت شعري ما تزودت من الزاد ياهذا ليوم المطلع

وقال ابن جرير: حدثني الحارث، حدثنا عبدالعزيز، حدثنا ابن عيينة عن عمرو
ابن دينار عن عبدالرحمن بن أبي بكر بن عبدالرحمن بن الحارث بن هشام قال:
سمعت مروان يعني ابن الحكم يقرأ على المنبر: «وازينت وظن أهلها أنهم قادرون
عليها وما كان ليهلكهم إلا بذنوب أهلها». قال: قد قرأتها وليست في المصحف ،
فقال عباس بن عبدالله بن عباس: هكذا يقرؤها ابن عباس، فأرسلوا إلى ابن
عباس فقال: هكذا أقرأني أبي بن كعب، وهذه قراءة غريبة وكأنها زيدت
للتفسير (١)

(١) تفسير القرآن العظيم للإمام الحافظ أبي الفداء اسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي ج ٢ ص ٣٧٦.

(سورة هود)

قال تعالى: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾^(١) أي السفينة سائرة بهم على وجه الماء الذي قد طبقت جميع الأرض حتى طفت على رؤوس الجبال وارتفع عليها بخمسة عشر ذراعاً، وقيل بثمانين ميلاً. وهذه السفينة جارية على وجه الماء سائرة بإذن الله وتحت كنفه ورعايته وحراسته وامتنانه كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ (١١) لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيهَا أَدْنُ وَأَعْيَةٌ﴾^(٢). وما أشبه ذلك، والجري مر سريع كمر الماء على وجه الأرض والسفينة تجري بالماء، والفرس يجري في عدوه، والموج جمع موجة وهي القطعة العظيمة ترتفع عن جملة الماء الكثير، وأعظم ما يكون ذلك إذا اشتدت الرياح، فدل التشبيه على عظم شأن الأمر من حال الماء من ملامسة الرياح له ومن ذكر الاعتبار، تجري السفينة في هذه الأحوال. ونحو هذا التشبيه قوله تعالى في سورة أخرى: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ اضْرِب بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾^(٣) وقد ورد في التنزيل في صفة موج البحر بالعظم والارتفاع تشبيه آخر وهو قوله تعالى في سورة لقمان: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلِّ﴾^(٤) لأن موج البحر يعظم فيصير كالظلل في ارتفاعه وتغطيته ماتحته. هذا والله أعلى وأعلم.

(١) سورة هود : الآية (٤٢) .

(٢) سورة الحاقة: الآيات (١١، ١٢) .

(٣) سورة الشعراء: الآية (٦٣) .

(٤) سورة لقمان الآية (٣٢) .

(سورة الرعد)

قال تعالى: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطٍ كَفَيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ (١) دعوة الحق قيل الدعوة التي يدعى الله بها على إخلاص الوجدانية، ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ الآية، أي ومثل الذين يعبدون إلهاً أو آلهة غير الله ﴿كَبَاسِطٍ كَفَيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ﴾ قال علي بن أبي طالب: كمثل الذي يتناول الماء من طرف البئر بيده وهو لا يناله أبداً بيده، فكيف يبلغ فاه؟ وقال مجاهد: ﴿كَبَاسِطٍ كَفَيْهِ﴾ يدعو الماء بلسانه ويشير إليه فلا يأتيه أبداً، وقيل: المراد كقباض يده على الماء، فإنه لا يحكم منه على شيء، البسط والنشر والفرس من النظائر ونقيضه القبض والبلوغ والوصول والحقو نظائر يقال بلغ بلوغاً فهو بالغ (٢) والشيء مبلوغ، ومنه البلاغة لأنها تبلغ بالمعنى منتهى البيان. وقال الحسن: كباسط كفيه إلى الماء فمات قبل أن تصل إليه، والعرب تضرب المثل بأن من يسعى فيما لا يدركه كالقباض على الماء قال الشاعر:

فإني وإياكم وشوقاً إليكم كقباض ماء لم تسقه أنامله
وقال الآخر:

فأصبحت مما كان بيني وبينها من الود مثل القباض الماء باليد
وقال الآخر:

وداع دعا هل مجيب إلى الندى فلم يستجبه عند ذاك مجيب
فقلت ادع أخرى وارفع الصوت جهرةً لعل أبا المغوار منك قريب
وقال آخر:

ومن يصحب الدنيا يكن مثل قباض على الماء خاتته فروج الأصابع (٣)

(١) سورة الرعد: الآية (١٤).

(٢) انظر كتاب الجمان في تشبيهات القرآن ص (٩٢، ٩٣) تأليف عبدالله بن الحسين بن نايقيا وانظر تفسير القرآن العظيم للإمام الحافظ أبي الفداء اسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي ج ٢ ص (٤٦٣).

(٣) نفس المصدر السابق ص (٩٣، ٩٤).

ومعنى هذا الكلام أن الذي ييسط يده إلى الماء إما قابضاً وإما متناولاً له من بعد كما أنه لا ينتفع بالماء الذي لم يصل إلى فيه الذي جعله محلاً للشرب، فكذلك هؤلاء المشركون الذين يعبدون مع الله إلهاً غيره. لا ينتفعون بهم أبداً في الدنيا ولا في الآخرة، ولهذا قال ﴿وَمَا دَعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ (١) وقد تضمنت الآية البيان عما يوجهه دعاء الحق للخالق تعالى من الإجابة على شرائط الحكمة بما يكون فوق الأمنية وخيبة الداعي بغيره كخيبة من دعاء الماء من قعر البئر (٢) هذا والله أعلى وأعلم بالصواب.

تشبيه آخر في هذه السورة قال تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حَلِيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ (٣) اشتملت هذه الآية الكريمة على مثلين مضروبين للحق في ثباته وبقائه. والباطل في اضمحلاله وفنائه، فقال تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي مطراً، فسالت أودية بقدرها، أي أخذ كل واد بحسبه، فهذا كبير وسع كثيرا من الماء، وهذا صغير وسع بقدره، وهو إشارة إلى القلوب وتفاوتها، فمنها ما يسع علماً كثيراً، ومنها ما لا يتسع لكثير من العلوم بل يضيق عنها ﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا﴾، أي فجاء على وجه الماء الذي سال في هذه الأودية زيد عال عليه، هذا مثل (٤).

وقوله ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حَلِيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ﴾ الآية، هذا هو المثل الثاني وهو ما يسبك في النار من ذهب أو فضة ابتغاء حلية، أي ليجعل حلية أو نحاساً أو حديداً، فيجعل متاعاً، فإنه يعلوه زيد منه كما يعلو ذلك زيد منه ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾ أي إذا اجتماعاً، لإثبات أن الباطل لا دوام له، كما أن الزيد

(١) انظر تفسير القرآن العظيم ج ٢ ص (٤٩٣) لإسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي.

(٢) انظر كتاب الجمان في تشبيهات القرآن ص (٩٣، ٩٤) تأليف عبدالله بن الحسين بن نايقا.

(٣) سورة الرعد: الآية (١٧).

(٤) انظر تفسير القرآن العظيم للإمام الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي ج ٢ ص (٤٦٤) -

لا يثبت مع الماء ولا مع الذهب والفضة، ونحوهما مما يسبك في النار، بل يذهب ويضمحل، ولهذا قال ﴿فَأَمَّا الزُّبْدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾ أي لا ينتفع به بل يتفرق ويتمزق، ويذهب في جانبي الوادي، ويعلق بالشجر! وتنسفه الرياح، وكذلك خبث الذهب والفضة والحديد والنحاس يذهب ولا يرجع منه شيء ولا يبقى إلا الماء، وذلك الذهب ونحوه ينتفع به، ولهذا قال ﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمُكْتُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ (١)، وقال بعض السلف: كنت إذا قرأت مثلاً من القرآن فلم أفهمه، بكيته على نفسي، لأن الله تعالى يقول ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ (٢) قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ الآية، هذا مثل ضربه الله تعالى، احتملت منه القلوب على قدر يقينها وشكها، فأما الشك فلا ينفع معه العمل، وأما اليقين فينفع الله به أهله وهو قوله ﴿فَأَمَّا الزُّبْدُ﴾ وهو الشك ﴿فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمُكْتُ فِي الْأَرْضِ﴾، وهو اليقين، وكما يجعل الحلي في النار فيؤخذ خالصه ويترك خبثه في النار، فكذلك يقبل الله اليقين ويترك الشك، وقال العوفي عن ابن عباس قوله ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا﴾ يقول: احتمل السيل مافي الوادي من عود ودمنة ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ﴾ فهو الذهب والفضة والحلية والمتاع والنحاس والحديد فللنحاس والحديد خبث، فجعل الله من مثل خبثه كزبد الماء (٣)، فأما ما ينفع الناس فالذهب والفضة، وأما ما ينفع الأرض فما شربت من الماء فأثبتت، فجعل ذلك مثل العمل الصالح يبقى لأهله، والعمل السييء يضمحل عن أهله، كما يذهب هذا الزبد، وكذلك الهدى والحق جاء من عند الله، فمن عمل بالحق كان له وبقي، كما بقي ما ينفع الناس في الأرض، وكذلك الحديد لا يستطيع

(١) سورة العنكبوت: الآية (٤٣).

(٢) نفس المصدر السابق والجزء والصفحة.

(٣) نفس المصدر السابق والجزء والصفحة.

أن يعمل منه سكّين ولا سيف حتى يدخل في النار فتأكل خبثه ويخرج جيده فينتفع به، فكذلك يضمحل الباطل، فإذا كان يوم القيامة وأقيم الناس وعرضت الأعمال، فيزيغ الباطل ويهلك، وينتفع أهل الحق بالحق، وهكذا روي في تفسيرها عن مجاهد والحسن البصري وعطاء وقتادة، وغير واحد من السلف والخلف^(١). وقد ضرب سبحانه وتعالى في أول سورة البقرة للمنافقين مثلين: أحدهما: نارياً، والآخر مائياً وهما قوله: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾ الآية، ثم قال ﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ الآية، وهكذا ضرب للكافرين في سورة النور مثلين [أحدهما] قوله ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ﴾ الآية، والسراب إنما يكون في شدة الحر، ولهذا جاء في الصحيحين: فيقال لليهود يوم القيامة: فما تريدون؟ فيقولون: أي ربنا عطشنا فاسقنا. فيقال: ألا تردون؟ فيردون النار فإذا هي كسراب يطم بعضه بعضاً. ثم قال تعالى في المثل الآخر ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ﴾ الآية، وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال «إن مثل مابعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل غيث أصاب أرضاً فكان منها طائفة قبلت الماء فأنبتت الكلاً والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا، وورعوا، وسقوا، وزرعوا، وأصاب طائفة منها أخرى^(٢)، إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلاً، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه الله بما بعثني ونفع به، فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به» فهذا مثل مائي. وقال في الحديث الآخر الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا عبدالرزاق، حدثنا معمر عن همام بن منبه قال: هذا ماحدثنا أبو هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مثلي ومثلكم كمثل رجل استوقد ناراً فلما أضاءت ماحوله، جعل الفراش وهذه الدواب التي يقعن في النار يقعن فيها، وجعل يحجزهن ويغلبهن فيقتحمن فيها قال: فذلكم مثلي ومثلكم، أنا أخذ بحجزكم عن النار هلم عن النار، فتغلبوني فتقتحمون فيها» وآخر جاء في الصحيحين أيضاً، فهذا مثل ناري.^(٣)

(١) نفس المصدر السابق والجزء والصفحة.

(٢) نفس المصدر السابق والجزء والصفحة.

(٣) نفس المصدر السابق والجزء والصفحة.

(سورة إبراهيم)

قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَأَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾^(١) هذا مثل ضربه الله تعالى لأعمال الكفار الذين عبدوا معه غيره، وكذبوا رسله، وبنوا أعمالهم على غير أساس صحيح، فانهارت وعدموها أحوج ماكانوا إليها، فقال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ﴾ أي مثل أعمالهم يوم القيامة إذا طلبوا ثوابها من الله تعالى؛ لأنهم كانوا يحسبون أنهم كانوا على شيء فلم يجدوا شيئاً، ولا ألقوا حاصلاً إلا كما يتحصل من الرماد إذا اشتدت به الريح العاصفة ﴿فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ أي ذي ريح شديدة عاصفة قوية^(١)، فلم يقدرُوا على شيء من أعمالهم التي كسبوا في الدنيا إلا كما يقدرُونَ على جمع هذا الرماد في هذا اليوم، كقوله تعالى: ﴿وَقَدَّمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾^(٢)، وقوله تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتُهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾^(٣) وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَأَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾^(٤)، كذلك يبيِّن أن العمل يبطل بالمن والأذى كما يبطل بالرياء، وكما يذهب الوابل التراب عن الصفاء أنشد أبو العباس: ^(٥)

لكل أخى مدح ثوابٍ يعده
وليس لمدح الباهلي ثواب^(٦)
مدحت ابن سلم والمديح مهزة
فكان كصفوان عليه تراب^(٧)

(١) انظر تفسير القرآن العظيم ج ٢ ص (٤٨٢، ٤٨٣) للإمام أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي .

(٢) سورة الفرقان: الآية (٢٣) .

(٣) سورة آل عمران: الآية (١١٧) .

(٤) سورة البقرة: الآية (٢٦٤) .

(٥) محمد بن يزيد الأعرابي .

(٦) ثواب: جزاء، صفوان: صخرة ملساء .

(٧) انظر كتاب الجمان في تشبيهات القرآن (ص ٩٥) تأليف عبدالله بن الحسين بن نايقا . بتحقيق الدكتور محمود

حسن أبو ناجي الشيباني وانظر تفسير القرآن العظيم ج ٢ ص (٤٨٢، ٤٨٣) للإمام الحافظ أبي الفداء

إسماعيل بن كثير الدمشقي .

مثل آخر من هذه السورة: قوله عز وجل: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (١) قال ابن جرير (٢): الكلمة الطيبة ذات أصل في القلب تؤتي أكلها كل حين، كلما قالها صعدت إلى السماء ثم جاء خيرها ومنفعتها وقيل: إنه عني بالشجرة الطيبة النخلة، ويشهد لهذا التأويل ما جاء في الأثر من فضيلة النخل. وأن النبي ﷺ بارك فيه وقال: «خير المال سكة مأبورة ومهرة مأبورة» (٢) يعني نخلاً ملقحاً والمهرة المأمورة الكثيرة التاج، يقال أمر القوم إذا أكثروا، وقال بعض العرب: نعم المال باسقات النخل الراسخات في الوحل، المطعمات في المحل (٣)، يعني التي تشرب بعروقها من الأرض. قال النبي ﷺ: «ماسقى منها بعللاً ففيه العشر» والبعل ما شرب بعروقه، قال النابغة:

من الواردات الماء بالقاع تستقى بأذناها قبل استقاء الخناجر

وقال أبو حاتم: من فضيلة النخل أن الله تعالى لم يجعله في بلاد كفر وامانه شيء إلا في بلد إسلام، ونقل عن المرزباني أن قيصر كتب إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه (أن رسلني أخبروني أن قبلكم شجرة كأذان الحمير ثم ينفلق عن مثل اللؤلؤ المنظوم في مثل قضبان الفضة فيصيبون منه مع طيب ريح وطعم كالزمرد الأخضر في مثل قضبان الذهب فيصيبون منه مع ذلك ثم يكون كالياقوت الأحمر والأصفر ثم ينضج فيكون كالفالوذ فهو عصمة للمقيم زاد للمسافر فإن تصدق رسلني فهي شجرة من الجنة) فأجابه عمر: «وهي النخلة التي أنبتها الله على مريم حين نفست بعيسى فاتق الله ولا تجعلن من دونه إلهاً» (٤) (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب)» (٥)

(١) سورة إبراهيم: الآيتان: (٢٤، ٢٥).

(٢) غريب الحديث للزمخشري ٦٠٤/١.

(٣) انظر كتاب الجمال في تشبيهات القرآن ص (٩٦) تأليف عبدالله بن الحسين بن نايقا بتحقيق الدكتور محمود حسن أبو ناجي الشيباني.

(٤) نفس المصدر السابق والجزء ص (٩٧).

(٥) سورة آل عمران: الآية (٥٩).

وقال ذكوان العجلي (١) يصف النخل:

تري الباسقات العمَّ منها كأنها
تدرُّ إذا ما الشول لم يرج قدرها
ومن مستحسن التشبيهات قول كعب بن الأشرف:
ونخيل في قلاعِ جمّةٍ
تخرج الطلح كأشال الأكف
وقول ثعلبة بن عمير الحنفي: (٣)

نمت مثل أعماد السيوف وبرزت
عن الليف بالأعناق قبل مدى الرفض

يقال: رفض النخل إذا انتشر الغدق وقال آخر في حسن تأليفها وتشبيه ليفها: (٤)

جاءت على غراس طيب ماهر
عشرين عشرين بذرع وافر (٥)

تري لها بعد آيار الأبر
مأزراً تطوى على مأزر (٦)

ويقال: من أراد النخل والأرض فليغرس على عشرين ذراعاً وفي مثل الغرس:

تقول النخلة لأختها تباعدي عني وأنا أحمل حملك وحملي، ولعبدالصمد بن المعذل (٧) يصف حمل النخل:

كأنه في ناضر الأغصان
زمردٌ لاح على تيجان (٨)

حتى إذا تمت له شهران
وانسدلت عثاكل القنوان

رأيتُه مختلف الألوان
مثل الأكاليل على الغوانى

وقال عبدالله بن المعتز يصف النخل:

أعددتُ للجار وللعفاة
زوارقاً في المحلِ مطعمات

يظل فيها الطيرُ ناعمات
بألسنٍ كثيرة اللغات

ومن ملّح التشبيهات قول بعض الأعراب:

(١) كعب بن الأشرف أحد رؤساء اليهود في المدينة في العصر الجاهلي.

(٢) راجع معجم الشعراء للمرزباني. (٣) ثعلبة بن عمر الحنفي.

(٤) لم يوجد القاتل (٥) عشرين عشرين أي حفرها على عشرين ذراعاً.

(٦) نفس المصدر السابق ص ٩٨١ وما بعدها.

(٧) شاعر عباسي، الأغاني ١٣/٢ - ٤. (٨) الأبيات في نهاية الأرب ١١/١٢٧.

وتمر كأثواب الزنوج أتوا بها وقد عمّموا بالزبد منها رءوسها
فما زالت الأنياب تُغري بطونها كما فرت الآساد منها فريسها^(١)

قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾^(٢) قيل هي شجرة الحنظل، والحال ظاهر في هذا التأويل والعرب تضرب المثل بمرارة الحنظل وخبث طعمه، فيقولون هو أمرٌ من الشرى. والشرى الحنظل كما يقولون أحلى من الأري وهو العسل قال الشاعر يصف رجلاً:

وله طعمان أريٌّ وشرى وكلا الطعمين قد ذاق كُلاً^(٣)

وقال ذو الرمة يصف شجرة الحنظل:

وفاشية في الأرض تلفي نباتها عواري لا تُكسى دروعاً ولا خمراً^(٤)
إذا ما المطايا سُفنها لم يذقنها وإن كان أعلا نبتها ناعماً نضراً
محملجة الأمراس مُلسٌ متونها سقتها عصارات الثرى نبتت زهراً

وقال النبي ﷺ: «مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأترجة طيب طعمها زكي ريحها، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن مثل الحنظلة مر طعمها كريه ريحها».

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) سورة إبراهيم : الآية (٢٦).

(٣) القائل لم يعثر له على ترجمة.

(٤) راجع الديوان ٣٥٢ - فاشية: شجرة الحنظل، عواري جمع عارية أي بدون ورق، المطايا النوق، محملجة:

شديدة الأحراش وهي الجبال.

(سورة النحل)

قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١) قال العوفي عن ابن عباس: هذا مثل ضربه الله للكافر والمؤمن، وكذا قال قتادة، واختاره ابن جرير، فالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء مثل الكافر، والمرزوق والرزق الحسن، فهو ينفق منه سرًّا وجهراً هو المؤمن، وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد: هو مثل مضروب للوثن وللحق تعالى فهل يستوي هذا وهذا؟ ولما كان الفرق بينهما ظاهراً واضحاً بيئاً لا يجهله إلا كل غبيّ، قال الله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [مثل آخر في هذه السورة:

قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (٢).

قال مجاهد: وهذا أيضاً المراد به الوثن والحق تعالى، يعني أن الوثن أبكم لا يتكلم ولا ينطق بخير ولا بشيء ولا يقدر على شيء بالكلية فلا مقال ولا فعال، وهو مع هذا كلُّ أي عيال وكلفة على مولاه ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُ﴾ أي يبعثه ﴿لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ ولا ينجح مسعاه هل يستوي من هذا صفته ﴿وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ أي بالقسط، فمقاله حق وفعاله مستقيمة ﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، وقيل: الأبكم مولى لعثمان، وبهذا قال السدي وقاتدة وعطاء الخراساني، واختار هذا القول ابن جرير. وقال العوفي عن ابن عباس: هو مثل للكافر والمؤمن أيضاً كما تقدم:

وقال ابن جرير: حدثنا الحسن بن الصباح البزار، حدثنا يحيى بن إسحاق السالحي، حدثنا حماد، حدثنا عبد الله بن عثمان بن خيثم إبراهيم عن عكرمة، عن يعلى بن أمية عن ابن عباس في قوله ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ قال: نزلت في رجل من قريش (٣) وعبده، يعني قوله ﴿عَبْدًا مَمْلُوكًا﴾ الآية،

(١) سورة النحل: الآيتان (٧٥ - ٧٦).

(٢) انظر تفسير القرآن العظيم ج ٢ ص (٢٧٢ - ٢٧٣) لأبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي.

(٣) نفس المصدر السابق ص (٥٣٢).

وفي قوله ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ - إِلَى قَوْلِهِ - وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ قال: هو عثمان بن عفان. قال: والأبكم الذي أينما يوجهه لا يأت بخير، قال: هو مولى لعثمان بن عفان، كان عثمان ينفق عليه ويكلفه ويكفيه المؤونة، وكان الآخر يكره الإسلام ويأباه وينهاه عن الصدقة والمعروف، فنزلت فيهما^(١).
مثل آخر في هذه السورة:

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمَحٍ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾^(٢) الآية، معنى (أو) في قوله: ﴿أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ البيان على أنه على إحدى المنزلتين، إما لمح البصر، وإما أقرب. وقيل هو لشك المخاطب أي كونوا منها على هذا الشك، والتمثيل في الآية أبلغ الأشياء في وصف ما يخبر عنه بمثل هذه الحال من الوحي والسرعة وقرب زمان الكون^(٣). قال الله تعالى في ذكر عرش بلقيس:

﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾^(٤) أي قبل ارتداد الجفن على الجفن. وقد كثر في كلامهم واشتهر على ألسنتهم قولهم: فعل كذا في طرفة عين، ولحظة عين، حتى جعلوا اللحظة كناية عن الوقت من الزمان، في الخفة والسرعة، وقد شبهت الشعراء خفوق البرق، وهو المثل في السرعة كالمح البصر، وقالوا: أومض البرق إذا لاح، وأومض الرجل إذا غمز بعينه، فجعل هذا الوصف مشتركاً بين الحالين، لتناسبهما في السرعة وخفة الحركة، وإنما قرب أمر الساعة لأنه بمنزلة كن فيكون، فمن هاهنا صح أنها كلمح البصر وأقرب وهو معنى قوله أيضاً في موضع آخر: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمَحٍ بِالْبَصَرِ﴾^(٥).

كقوله جل شأنه: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(٦) الآية، وقال ذو الرمة مخبراً بهذه الحال من أمر الله عز وجل:
وعينان قال الله كونا فكانتا فعولان بالألبياب ماتفعول الخمر^(٧)
وقال آخر متعللاً في طلب الرزق برجاء الله تعالى ومخبراً عن سرعة حكمه

(١) نفس المصدر السابق والجزء والصفحة. (٢) سورة النحل: الآية (٧٧).

(٣) انظر كتاب الجمان في تشبيهات القرآن ص (١٠١، ١٠٢) تأليف عبدالله بن الحسين بن نايقا.

(٤) سورة النمل: الآية (٤٠). (٥) سورة القمر: الآية (٥٠).

(٦) سورة النحل: الآية (٤٠). (٧) نفس المصدر السابق.

وحسن قضائه:

لاتضرعن لمخلوقٍ على طمع
واسترزق الله مما في خزائنه
فإن ذاك مضرٌ منك بالدين
فإن ذلك بين الكاف والنون

مثل آخر من هذه السورة:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَقَّضَتْ غَزَلَهُمْ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (١) قال عبدالله بن كثير والسدي: هذه امرأة خرقاء كانت بمكة كلما غزلت شيئاً نقضته بعد انبراهم. وقال مجاهد وقتادة وابن زيد: هذا مثل لمن نقض عهده بعد توكيده، وهذا القول أرجح وأظهر سواء كان بمكة امرأة تنقض غزلها أم لا. وقوله ﴿أَنْكَاثًا﴾ يحتمل أن يكون اسم مصدر (٢) نقضت غزلها أنكاثاً أي أنقضاً، ويحتمل أن يكون بدلاً عن خبر كان، أي لاتكونوا أنكاثاً جمع نكث من ناكث، وقد أنشد الأمير أبو العباس بن عبدالله بن المعتز لنفسه:

وإن الجديدين اللذين تضمنا
فنائني بأحداث إليّ سراع
هما أنهضاني قبل إذ أنا ناشيء
وقد صارعاني بعد أي صراع
كناقضة أمرارها حين أحكمت
قوي الحبل خرقاء اليبدين صناع
وتصدقك الأنباء وإن كنت سائلاً
وحسبك مما لا ترى بسماع

ولهذا قال بعد ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ (٣):
﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾ والدخّل ما أدخل في الشيء على فساد (٣)،
وقيل الدخّل الغل والخديعة والمكر ﴿أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾، أي تحلفون
للناس إذا كانوا أكثر منكم ليطمئنوا إليكم، فإذا أمكنكم الغدر بهم غدرتم،
فنهى الله عن ذلك لئيبه بالأدنى على الأعلى (٤) إذا كان قد نهى عن الغدر

(١) سورة النحل: الآية (٩٢).

(٢) نفس المصدر السابق ص (١٠٣). (٣) نفس المصدر السابق والصفحة.

(٤) تفسير القرآن العظيم لأبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي ص ٣٥٧.

والحالة هذه، فلأن ينهى عنه مع التمكن والقدرة بطريق الأولى. قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ﴾ أي يخبركم الله بالأمر بالوفاء، فالهاء في (به). عائدة على الأمر وتحقيقه، يعاملكم معاملة المختبر ليقع الجزاء بالعمل، وفي الآية دليل على نهى الذين بايعوا رسول الله عن نقض عهده لقوله تعالى: ﴿فَتَنَزَّلْ قَدَمٌ بَعْدَ ثبوتها﴾^(١) - وقد قدمنا^(٢) - ولله الحمد والمنة - في سورة الأنفال قصة معاوية لما كان بينه وبين ملك الروم أمد، فسار معاوية إليهم في آخر الأجل حتى إذا انقضى وهو قريب من بلادهم أغار عليهم، وهم غارون لا يشعرون، فقال له عمر بن عنبسة: الله يامعاوية وفاء لا غدرأ، سمعت رسول الله ﷺ يقول «مَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْمٍ أَجَلٌ فَلَا يَحِلُّنَ عَقْدَةٌ حَتَّى يَنْقُضِي أَمْدَهَا» فرجع معاوية رضي الله عنه بالجيش^(٣) قال ابن عباس (أن تكون أمة هي أربى من أمة) أي أكثر عدداً، وقال مجاهد: كانوا يحالفون الحلفاء فيجدون أكثر منهم وأعز. فينقضون حلف هؤلاء ويحالفون أولئك الذين هم أكثر وأعز لطلب العز بهم فنهوا عن ذلك^(٤).
مثل آخر من هذه السورة:

قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾^(٥) هذا مثل أريد به أهل مكة، فإنها كانت آمنة مطمئنة مستقرة يتخطف الناس من حولها ومن دخلها كان آمناً لا يخاف، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا إِنْ تَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ تَتَخَطَّفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجِبِّي إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا﴾^(٦) وكذا قال هاهنا «يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا» أي هنيئاً سهلاً ﴿مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ﴾ أي جحدت آلاء الله

(١) انظر كتاب الجمال في تشبيهات القرآن ص (١٠٤) تأليف عبدالله بن الحسين بن نايقا بتحقيق الدكتور محمود حسن أبو ناجي الشيباني ..

(٢) الإمام أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي.

(٣) انظر تفسير القرآن العظيم لأبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي ج ٢ ص (٥٣٧)

(٤) المصدر السابق والجزء والصفحة.

(٥) سورة النحل: الآية (١١٢).

(٦) سورة القصص: الآية (٥٨).

عليها وأعظمها بعثة محمد ﷺ إليهم كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا وَنَسَّ الْقُرْآنَ﴾ (١) ولهذا يدلهم الله بحالهم الأولين خلافهما، فقال ﴿فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ أي البسها وأذاقها الجوع بعد أن كان يجيب إليهم ثمرات كل شيء، ويأتيها رزقها رغدا من كل مكان وذلك أنهم استعصوا على رسول الله ﷺ وأبوا إلا خلافه فدعا عليهم بسبع كسبج يوسف، فأصابتهم سنة أذهبت كل شيء لهم، فأكلوا العلهز وهو وبر البعير يخلط بدمه إذا نحروه. وقوله: ﴿الْخَوْفِ﴾ وذلك أنهم بدلوا بأمنهم خوفا من رسول الله ﷺ وأصحابه حين هاجروا إلى المدينة من سطوته وسراياه وجيوشه، وجعل كل ما لهم في دمار وسفال (٢) حتى فتحها الله على رسوله ﷺ وذلك بسبب صنيعهم وبغيهم وتكذيبهم الرسول ﷺ الذي بعثه الله فيهم منهم، وامتن به عليهم في قوله: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ (٣) الآية. وقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ (٤) وقوله ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ (٥١) فأذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون﴾ (٥) وكما أنه انعكس على الكافرين حالهم فخافوا بعد الأمن، وجاعوا بعد الرغد، فبدل الله المؤمنين بعد خوفهم أمناً، ورزقهم بعد العيلة، وجعلهم أمراء الناس وحكامهم وسادتهم وقادتهم وأئمتهم، وهذا الذي قلناه من أن هذا المثل ضرب لأهل مكة قاله العوفي عن ابن عباس، وإليه ذهب مجاهد وقتادة وعبدالرحمن بن زيد بن مسلم، وحكاه مالك عن الزهري رحمهم الله (٦).

(٢) نفس المصدر السابق والجزء ص (٥٤١).

(٤) سورة الطلاق: الآية (١٠).

(٦) نفس المصدر السابق والجزء والصفحة.

(١) سورة إبراهيم: الآيات (٢٨، ٢٩).

(٣) سورة آل عمران: الآية (١٦٤).

(٥) سورة البقرة: الآيات: (١٥١، ١٥٢).

وقال ابن جرير: حدثني ابن عبدالرحيم البرقي . حدثنا ابن أبي مريم، حدثنا نافع بن يزيد، حدثنا عبدالرحمن بن شريح أن عبدالكريم بن الحارث الحضرمي حدثه أنه سمع مشرح بن هاعان يقول: سمعت سليم بن نمير يقول:

صدرنا من الحج مع حفصة زوج النبي ﷺ وعثمان رضي الله عنه محصور بالمدينة، فكانت تسأل عنه ما فعل؟ حتى رأت راكبين فأرسلت إليهما تسألهما فقالا:

قتل . فقالت حفصة: والذي نفسي بيده إنها القرية - تعني المدينة - التي قال الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ﴾^(١) . قال ابن شريح: وأخبرني عبدالله بن المغيرة عمّن حدثه أنه كان يقول إنها المدينة^(٢).

(١) سورة النحل: الآية (١١٢).

(٢) نفس المصدر السابق والجزء والصفحة.

(سورة الكهف)

قال تعالى: ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾^(١) قال ابن عباس: المهل: الماء الغليظ مثل دردي الزيت، وقال عكرمة: هو الشيء الذي انتهى حرّه، وقال آخرون: هو كل شيء أذيب.

وقال قتادة: أذاب ابن مسعود شيئاً من الذهب في أخذود فلما أتماع وأزبد، قال: هذا أشبه شيء بالمهل.. وقال الضحاك ماء جهنم أسود وهي سوداء. وأهلها سود وهذه الأقوال ليس شيء منها ينفي الآخر، فإن المهل يجمع هذه الأوصاف الرذيلة كلها، فهو أسود منتن غليظ حار، ولهذا قال ﴿يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ أي من حره^(٢)، إذا أراد الكافر أن يشربه وقربه من وجهه شواه حتى تسقط جلدة وجهه فيه، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد بإسناده المتقدم في سرادق النار عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ماء كالمهل - قال كعكر الزيت فإذا قرب به إليه سقطت فروة وجهه فيه» وهكذا رواه الترمذي في صفة النار من جامعه عن حديث رشدين بن سعد عن عمرو بن الحارث، عن دراج به ثم قال: لا نعرفه إلا من حديث رشدين، وقد تكلم فيه من قبل حفظه هكذا وقد رواه الإمام أحمد كما تقدم عن حسن الأشيب، عن ابن لهيعة، عن دراج، والله أعلم وقال عبدالله بن المبارك وبقية بن الوليد، عن صفوان بن عمرو، عن عبدالله بن بشر، عن أبي أمامة، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَيَسْقَىٰ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ يَتَجَرَّعُهُ﴾^(٣) قال: «يقرب إليه فيتكرهه، فإذا قرب منه شوي وجهه ووقعت فروة رأسه، فإذا شربه قطع أمعائه، يقول الله تعالى: ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ﴾: قال سعيد بن جبیر: إذا جاع أهل النار^(٤) استغاثوا، فأغثوا بشجرة الزقوم فيأكلون منها، فاجتث جلود وجوههم، فلو أن ماراً مرّ بهم يعرفهم، لعرف جلودهم ووجوههم فيها، ثم يُصب عليهم العطش فيستغيثون، فيغاثون بماء

(١) سورة الكهف: الآية (٢٩).

(٢) انظر تفسير القرآن العظيم للإمام الحافظ إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي ج ٣ ص (٧٨).

(٣) سورة إبراهيم: الآية (١٦).

(٤) نفس المصدر السابق والجزء والصفحة.

كالمهل وهو الذي قد انتهى حره، فإذا أدنوه من أفواههم اشتوى من حره لحوم وجوهم التي قد سقطت عنها الجلود، ولهذا قال تعالى: بعد وصفه هذا الشرب بهذه الصفات الذميمة القبيحة ﴿بئس الشراب﴾ أي بئس هذا الشراب، كما قال في الآية الأخرى ﴿وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم﴾ (١) ﴿وساءت مرتفقاً﴾ أي وساءت النار منزلاً ومقيلاً ومجتمعا وموضعا للارتفاق، كما قال في الآية الأخرى ﴿إنها ساءت مستقراً ومقاماً﴾ (٢).

وأشد محمد بن يزيد للفرزدق حين نسك:

أخاف وراء القبر إن لم يعافني أشد من القبر التهاباً وأضيحا
 إذا جاءني يوم القيامة قائداً عنيفٌ وسواقٍ يسوقُ الفرزدقا
 لقد خاب من أولاد آدم من مشى إلى النار مغلول القلادة أزرقا
 إذا شربوا فيها الحميم رأيتهم يذوبون من حر الحميم تمزقاً
 وقال الهذلي:

ولقد وردت الماء فوق جمامة مثل الفريقة صيقت للمدنف
 فصدرت عنه ظامئاً وتركته يهتر علقته كأن لم يكشف
 والفريقة حلبة تطبخ للنساء مع حبوب فشبه ماء الفريقة بماء ذلك المكان.
 وقال الأعشى:

وأصفر كالحنأ داو جمامه متى ما يذقه فارطو القوم يبصقوا (٣)

مثل آخر من هذه السورة: قوله تعالى: ﴿وأضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعاً﴾ (٣٢) ﴿كلتا الجنتين أتت أكلها ولم تظلم

(١) سورة محمد: الآية (١٥)

(٢) سورة الفرقان: الآية (٦٦) نفس المصدر السابق والجزء والصفحة

(٣) كتاب الجمان في تشبيهات القرآن: ص ١٠٥، ١٠٦، ١٠٧) تأليف عبدالله بن الحسين بن نايقا.

(٤) سورة الكهف: الآية (٣٢).

مَنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا (٣٢) وَكَانَ لَهُ ثَمْرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا (١) يقول تعالى بعد ذكره المشركين المستكبرين عن مجالسة الضعفاء والمساكين من المسلمين، وافتخروا عليهم بأموالهم وأحسابهم، فضرب لهم ولهم مثلاً برجلين جعل الله لأحدهما جنتين، أي بستانين من أعناب، محفوظتين بالنخيل، المحدقة في جنباتهما وفي خلالهما الزروع، وكلٌّ من الأشجار والزروع مثمر مقبل في غاية الجودة، ولهذا قال ﴿كَلِمَاتُ الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أَكْلَهُمَا﴾ أي أخرجت ثمرها، ﴿وَلَمْ تَظَلْمِ مِنْهُ شَيْئًا﴾ أي ولم تنقص منه شيئاً، ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا﴾ أي والأنهار متفرقة فيهما هاهنا وهاهنا (٢)، ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمْرٌ﴾ قيل: المراد به المال.

روي عن ابن عباس ومجاهد وقتادة، وقيل: الثمار، وهو أظهر هاهنا ويؤيده القراءة الأخرى ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمْرٌ﴾ بضم الثاء وإسكان الميم (٣) فيكون جمع ثمرة كخشبة وخشب، وقرأ آخرون بفتح الثاء والميم (٤)، فقال أي صاحب هاتين الجنتين لصاحبه وهو يحاوره، أي يجادله، ويخاصمه ويفتخر عليه ويترأس ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ أي أكثر خدماً وحشماً وولداً. قال قتادة: تلك والله أمنية الفاجر، كثرة المال وعزه النفر. وقوله ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ أي بكفره وتمرده وتكبره وتجبره وإنكاره المعاد ﴿قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ وذلك اغتراراً منه لما رأى فيها من الزروع والثمار والأشجار، والأنهار المطردة في جوانبها وأرجائها، ظن أنها لاتفنى ولا تفرغ ولا تهلك ولا تتلف، وذلك لقلّة عقله، وضعف يقينه بالله، وإعجابه بالحياة الدنيا وزينتها (٥) وكفره بالآخرة، ولهذا قال ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ أي كائنة.

(١) سورة الكهف: الآيات: (٣٢، ٣٣، ٣٤، ٣٥، ٣٦).

(٢) تفسير القرآن العظيم: للإمام الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي.

(٣) قراءة أبي عمرو البصري. (٤) قراءة عاصم، وقرأ الباقون بضم الثاء والميم ص ٣ ص (٧٩، ٨٠، ٨١).

(٥) نفس المصدر السابق والجزء والصفحات.

﴿وَلَيْنِ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لِأَجْدَنِّ خَيْرًا مِنْهَا﴾ (١) مُنْقَلَبًا ﴿أَيِ وَلَيْنِ كَانَ مَعَادُ وَرَجْعَةُ وَمَرَدٌ إِلَى اللَّهِ لِيَكُونَ لِي هُنَاكَ أَحْسَنَ مِنْ هَذَا الْحِظِّ عِنْدَ رَبِّي، وَلَوْلَا كِرَامَتِي عَلَيْهِ مَا أَعْطَانِي هَذَا، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْآخِرَى: ﴿وَلَيْنِ رَجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنْ لِي عِنْدَهُ لِلْحُسْنَى﴾ (٢) وَقَالَ: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِينَ مَا لَمْ يُؤْتِ اللَّهُ إِلَّا مَا يَشَاءُ وَمَا لَهُ مِنْ شَيْءٍ عِندَهُ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٣) أَيِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ تَأَلَّى عَلَى اللَّهِ عِزًّا وَجَلًّا. وَكَانَ سَبَبُ نَزْوِلِهَا فِي الْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ، كَمَا سَيَأْتِي بَيَانُهُ فِي مَوْضِعِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، وَبِهِ الثِّقَةُ وَعَلَيْهِ التَّكْلَانُ (٤) ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا﴾ (٥) ﴿لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ (٦) ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتِكَ قُلْتِ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنْ أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَا لَمْ يُولَدْ﴾ (٧) ﴿فَعَسَىٰ رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ (٨) ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَاهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا﴾ (٩) يَقُولُ تَعَالَى مَخْبِرًا عَمَّا أَجَابَهُ بِهِ صَاحِبُهُ الْمُؤْمِنَ، وَاعْظَا لَهُ وَزَاجِرًا عَمَّا هُوَ فِيهِ مِنَ الْكُفْرِ بِاللَّهِ وَالْإِغْتِرَارِ ﴿أَكْفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ﴾ الْآيَةُ، وَهَذَا إِنْكَارٌ وَتَعْظِيمٌ لِمَا وَقَعَ فِيهِ مِنْ جُحُودِ رَبِّهِ الَّذِي خَلَقَهُ، وَابْتِدَاءُ خَلْقِ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ وَهُوَ آدَمُ، ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾ (١٠) كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ (١١) الْآيَةُ، أَيِ كَيْفَ تَجْحَدُونَ بِرَبِّكُمْ وَدَلَالَتُهُ عَلَيْكُمْ ظَاهِرَةٌ جَلِيَّةٌ، كُلُّ أَحَدٍ يَعْلَمُهَا مِنْ نَفْسِهِ، فَإِنَّهُ مَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ إِلَّا وَيَعْلَمُ أَنَّهُ كَانَ مَعْدُومًا، ثُمَّ وَجَدَ وَلَيْسَ وَجُودُهُ مِنْ نَفْسِهِ (١٢) وَلَا مُسْتَنْدَأٌ إِلَىٰ أَيِّ شَيْءٍ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ، لِأَنَّهُ بِمِثَابَتِهِ، فَعَلِمَ إِسْنَادَ إِيجَادِهِ إِلَىٰ خَالِقِهِ، وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ، وَلِهَذَا قَالَ الْمُؤْمِنُ ﴿لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي﴾ أَيِ لَكِنَ أَنَا لَا أَقُولُ بِمِثَابَتِكَ بَلْ أَعْتَرَفْتُ لِلَّهِ بِالْوَحْدَانِيَّةِ وَالرَّبُوبِيَّةِ،

(١) قرأ أبو عمرو والكوفيون بترك الميم على الإفراد، وقرأ الباقون بإثباتها.

(٢) سورة فصلت: الآية (٥٠).

(٣) سورة مريم: الآية (٧٧).

(٤) انظر تفسير القرآن العظيم للإمام الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي ج ٣ ص (٧٩).

(٥) سورة الكهف: الآيات: (٣٧ - ٤١).

(٦) سورة السجدة: الآية (٨).

(٧) سورة البقرة: الآية (٢٨).

(٨) نفس المصدر السابق والجزء والصفحة.

﴿وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾، أي بل هو الله المعبود وحده لا شريك له. ثم قال: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتِكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنَّ تَرَنَّا أَنَا أَقْلُ مِنْكَ مَا لَوْ وُلِدْنَا﴾ هذا تحضيض وحث على ذلك، أي هلا إذا أعجبتك حين دخلتها ونظرت إليها، حمدت الله على ما أنعم به عليك وأعطاك من المال والولد ما لم يعطه غيرك، وقلت ماشاء الله لا قوة إلا بالله، ولهذا قال بعض السلف: من أعجبه شيء من حاله أو ماله أو ولده، فليقل: ماشاء الله لا قوة إلا بالله، وهذا مأخوذ من هذه الآية الكريمة. وقد روي في حديث مرفوع، أخرجه الحافظ أبو يعلى الموصلي (١) في مسنده: حدثنا جراح بن مخلد، حدثنا عمرو بن يونس، حدثنا عيسى بن عون، حدثنا عبد الملك بن زرارة عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أنعم الله على عبد نعمة من أهل أو مال أو ولد، فيقول ماشاء الله لا قوة إلا بالله، فيرى فيه آفة دون الموت» وكان يتأول هذه الآية ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتِكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ قال الحافظ أبو الفتح الأزدي عيسى بن عون عن عبد الملك بن زرارة عن أنس لا يصح حديثه وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة وحجاج، حدثني شعبة عن عاصم بن عبيد الله عن عبيد مولى أبي رهم، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة؟ لا حول ولا قوة إلا بالله» تفرد به أحمد. وقد ثبت في الصحيح عن أبي موسى الأشعري أن رسول الله ﷺ قال: «ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة؟ لا حول ولا قوة إلا بالله» (٢) وقال الإمام أحمد: حدثنا بكير بن عيسى، حدثنا أبو عوانة عن أبي بلخ عن عمرو بن ميمون قال: قال أبو هريرة: قال لي رسول الله ﷺ «يا أبا هريرة ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة تحت العرش؟ قال: قلت بلى فذاك أبي وأمي. قال: أن تقول لا قوة إلا بالله» وقال أبو بلخ: وأحسب أنه قال: «فإن الله يقول: أسلم عبدي واستسلم» قال: فقلت لعمرو:

قال أبو بلخ: قال عمرو: قلت لأبي هريرة: لا حول ولا قوة إلا بالله، فقال: لا، إنها في سورة الكهف ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتِكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ وقوله ﴿فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ﴾ أي في الدار الآخرة، ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا﴾

(١) نفس المصدر السابق والجزء ص (٨٠، ٨١).

(٢) نفس المصدر السابق والجزء والصفحة.

أي على جنتك في الدنيا التي ظننت أنها لا تبديد ولا تفتنى ﴿حَسْبَانَا مِنَ السَّمَاءِ﴾ . قال ابن عباس والضحاك وقتادة ومالك عن الزهري: أي عذاباً من السماء، والظاهر أنه مطر عظيم مزعج يقلع زرعها وأشجارها، ولهذا قال ﴿فَتُصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ أي بلقاً تراباً أملس لا يثبت فيه قدم، وقال ابن عباس: كالجرز الذي لا يثبت شيئاً^(١)، وقوله: ﴿أَوْ يُصْبِحُ مَآؤَهَا غُورًا﴾ أي غائراً في الأرض، وهو ضد النابع الذي يطلب وجه الأرض، فالغائر يطلب أسفلها، كما قال تعالى ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غُورًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾^(٢) أي جار^(٣) تناله الأيدي والدلاء كمائكم، أي لا يأتي به إلا الله تعالى فكيف تنكرون أن يبعثكم؟ ويستحب أن يقول القاريء عقب ﴿مَعِينٍ﴾: الله رب العالمين، كما ورد في الحديث وتليت هذه الآية عند بعض المتجبرين فقال: تأتي به الفؤوس والمعاول، فذهب ماء عينه وعمي، نعوذ بالله من الجراءة على الله وعلى آياته .

وقال هاهنا ﴿أَوْ يُصْبِحُ مَآؤَهَا غُورًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا﴾

والغور مصدر بمعنى غائر، وهو أبلغ منه، كما قال الشاعر:

تظل جياده نوحاً عليه تقلده أعنتها صفوفاً
بمعنى نائحات عليه .

﴿وَأَحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾^(٤٢) وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا^(٤٣) هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ^(٤) لِلَّهِ الْحَقِّ^(٥) هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا^(٦) يقول تعالى: ﴿وَأَحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾ بأمواله أو بشماره على القول الآخر، والمقصود أنه وقع بهذا الكافر ما كان يحذر مما

(١) نفس المصدر السابق والجزء والصفحة .

(٢) سورة الملك: الآية (٣٠) .

(٣) انظر تفسير الجلالين: ص (٥٥٢) جلال الدين محمد بن أحمد بن محمد المحلي وجلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي .

(٤) قرأ حمزة والكسائي بكسر الواو، وقرأ الباقون بفتحها وهما لغتان بمعنى واحد .

(٥) قرأ أبو عمرو والكسائي برفع القاف على أنها صفة للولاية، أو خبر لمبتدأ محذوف .

(٦) سورة الكهف: الآيات (٤٢، ٤٣، ٤٤) .

خَوْفَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِ مِنْ إِسْرَالِ الْحِسَابِ عَلَى جَنَّتِهِ الَّتِي اغْتَرَبَهَا وَأَلْهَتَهُ عَنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ﴿فَأَصْبَحَ يَقْلِبُ كَفَيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا﴾ وقال قتادة: يصفق كفيه متأسفاً متلهفياً على الأموال التي أذهبها عليها ﴿وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ﴾ أي عشيرة أو ولد (له) كما افتخر بهم واستعزَّ (١) ﴿يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ ﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾ اختلف القراء هاهنا فمنهم من يقف على قوله: ﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا هُنَالِكَ﴾ أي في ذلك الموطن الذي حلَّ به عذاب الله، فلا منقذ له منه، ويبتدئ بقوله ﴿الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾ ومنهم من يقف على ﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ ويبتدئ بقوله ﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾ فأما على قراءة فتح الواو من الولاية، فيكون المعنى هنالك الموالاتة لله، أي هنالك كلُّ أحد مؤمن أو كافر يرجع إلى الله وإلى موالاته والخضوع له إذا وقع العذاب، كقوله ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ (٢) وقوله: إخباراً عن فرعون ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٣) ﴿الآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٤) وأما من كسر الواو من الولاية، فالمعنى . أي هنالك الحكم لله الحق (٥) فعلى قراءة من رفع، الحق فقد تقدّم على أنه على الصفة للولاية ومن خفض فعلى الصفة أيضاً لله عزَّ وجلَّ، كقوله تعالى: ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ (٦) وكقوله: ﴿ثم رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ﴾، الآية، ولهذا قال تعالى: ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا﴾ أي جزاء ﴿وخير عقبا﴾ أي الأعمال التي تكون لله عزَّ وجلَّ، ثوابها خير وعاقبتها حميدة رشيدة كلّها خير .

(١) انظر تفسير القرآن العظيم للإمام الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي ج ٣ ص (٨٠)،

(٢) سورة غافر: الآية (٨٤).

(٣، ٤) سورة يونس: الآيتان: ٩٠، ٩١.

(٥) نفس المصدر السابق والجزء والصفحة.

(٦) سورة الفرقان: الآية (٢٦).

مثل آخر من هذه السورة: قال تعالى: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُم مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ (١).

يقول تعالى: ﴿وَأَضْرِبْ﴾ يامحمد للناس ﴿مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ في زوالها وفنائها وانقضائها ﴿كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ أي مافيها من الحب، فشبَّ وحسن، وعلاه الزهر والنور والنصرة (٢) ثم بعد هذا كله ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا﴾ يابساً ﴿تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ﴾ أي تفرقه وتطرحة ذات اليمين وذات الشمال، ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ أي هو قادر على هذه الحال وهذه الحال، وكثيرا مايضرب الله مثل الحياة الدنيا بهذا المثل، كما قال تعالى في سورة يونس: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ﴾ (٣) الآية، وقال في سورة الزمر: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ (٤) الآية، وقال في سورة الحديد: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾ (٥) الآية، وفي الحديث الصحيح: «الدنيا خضرة حلوة» (٦).

وقوله: ﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا﴾ كقوله ﴿زِينٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ﴾ (٧) الآية.

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (٨) أي الإقبال عليه والتفرغ لعبادته خير لكم من اشتغالكم بهم، والجمع لهم، والشفقة المفرطة عليهم، ولهذا قال: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلًا﴾ (٩) قال ابن

(١) سورة الكهف: الآية (٤٥).

(٢) سورة يونس: الآية (٢٤).

(٣) سورة الحديد: الآية (٢٠).

(٤) سورة آل عمران: الآية (١٤).

(٥) سورة التغابن: الآية (١٥).

(٦) سورة الكهف: الآية (٤٦).

(٧) نفس المصدر السابق والجزء والصفحة.

(٨) سورة الزمر: الآية (٢١).

(٩) نفس المصدر السابق والجزء والصفحة.

عباس وسعيد بن جبير وغير واحد من السلف: الباقيات الصالحات الصلوات الخمس . وقال عطاء بن أبي رباح، وسعيد بن جبير عن ابن عباس: الباقيات الصالحات سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، وهكذا سئل أمير المؤمنين عثمان بن عفان عن الباقيات الصالحات ماهي؟ فقال: هي: لا إله إلا الله، وسبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، رواه الإمام أحمد، إلى غير ذلك من الأقوال^(١).

(١) نفس المصدر السابق والجزء والصفحة .

(سورة الأنبياء)

قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجْلِ لِلْكِتَابِ﴾ (١) الآية، عن ابن عباس قال: يطوي الله السموات السبع بما فيها من الخليقة والأرضين السبع بما فيها من الخليقة يطوي ذلك كله بيمينه يكون ذلك كله في يده بمنزلة خردلة، وقوله: ﴿كَطَيِّ السِّجْلِ لِلْكِتَابِ﴾ قيل المراد بالسجل الكتاب، وقيل المراد بالسجل هاهنا ملك من الملائكة، عن ابن عمر رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجْلِ لِلْكِتَابِ﴾. قال: السجل ملك، فإذا صعد بالاستغفار قال: اكتبها نوراً، وقال السدي في هذه الآية: السجل ملك موكل بالصحف فإذا مات الإنسان رفع كتابه إلى السجل، فطواه ورفعته الى يوم القيامة، والصحيح عن ابن عباس: أن السجل هي الصحيفة، قال علي بن أبي طلحة، والعوفي عنه، ونص على ذلك مجاهد وقتادة وغير واحد (٢)، واختاره ابن جرير لأنه المعروف في اللغة، فعلى هذا يكون معنى الكلام، يوم نطوي السماء كطي السجل للكتاب، أي على الكتاب بمعنى المكتوب، كقوله: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمًا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ (٣) أي على الجبين، وله نظائر في اللغة، والله أعلم بالصواب. وقوله: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ يعني هذا كائن لا محالة يوم يعيد الله الخلائق خلقاً جديداً كما بدأهم هو القادر على إعادتهم، وذلك واجب الوقوع لأنه من جملة وعد الله الذي لا يخلف ولا يبدل، وهو وحده القادر على ذلك، ولهذا قال: ﴿إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾. وقال الإمام أحمد: عن ابن عباس قال: قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة، فقال: «إِنَّكُمْ محشورون إلى الله عز وجل حفاة عراة غرلا، كما بدأنا أول خلق نعيده وعدًّا

(١) سورة الأنبياء: الآية (١٠٤)، وقد قرأ حمزة والكسائي وحفص: (كطي السجل للكتب) بضم الكاف والتاء على إرادة الجمع، وقرأ الباقون (كطي السجل للكتاب) بكسر الكاف وفتح التاء وألف بعدها على إرادة الأفراد، والقراءتان متحدتان في المعنى. لأن الأفراد بمعنى الجمع.

(٢) تفسير القرآن العظيم ج ٣ ص (١٨٩، ١٩٠) للإمام الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي..

(٣) سورة الصافات: الآية (١٠٣).

علينا، إنّا كنا فاعلين» وذكر تمام الحديث، أخرجاه في الصحيحين من حديث شعبة، ذكره البخارى عند هذه الآية في كتابه، وقد روى ليث بن أبي سليم عن مجاهد عن عائشة عن رسول الله ﷺ نحو ذلك، وقال العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ قال: يهلك كل شيء كما كان أول مرة^(١).

وقد استعملت الشعراء اسم الطّي في صفات كثيرة استعارة وتشبيها فمن ذلك قول أبي نواس:

طوى الموت ما بيني وبين محمدٍ وليس لما تطوي المنية ناشرُ

وقال الآخر في الغزل:

إن كان هذا منك حقاً فإنني مداوي الذي بيني بينك بالهجر
ومنصرفٌ عنك انصراف ابن حرة طوى ودهّ والطّي أبقى من النشر^(١)

هذا والله أعلى وأعلم بالصواب.

(١) انظر كتاب الجمال في تشبيهات القرآن ص (١١٦) تأليف عبدالله بن الحسين بن نايقا بتحقيق الدكتور محمود حسن أبونايجي الشيباني.

(سورة الحج)

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾^(١). أي هو تعالى لا يعجل، فإن مقدار ألف سنة عند خلقه كيوم واحد عنده بالنسبة إلى حلمه وجوده وكرمه، لعلمه بأنه على الانتقام قادر، وأنه لا يفوته شيء وأنه أجل وأنظر وأملى، ولهذا قال بعد هذا: ﴿وَكَأَيِّنَ مِنْ قَرْيَةٍ أَمَلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾^(٢) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم خمسمائة عام» ورواه الترمذي والنسائي من حديث الثوري عن محمد بن عمرو به، وقال الترمذي: حسن صحيح. وقد رواه ابن جرير عن أبي هريرة موقوفاً فقال: «حدثني يعقوب، ثنا ابن عليه، ثنا سعيد الجريري عن أبي نضرة عن سمير بن نهار قال: قال أبوهريرة: «يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بمقدار نصف يوم قلت: وما مقدار نصف يوم؟ قال أو ماتقرأ القرآن؟ قلت: بلى^(٣)، قال «وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون» وقال أبو داود في آخر كتاب الملاحم من سننه: حدثنا عمرو بن عثمان، حدثنا أبو المغيرة، حدثنا صفوان عن شريح بن عبيد عن سعد بن أبي وقاص عن النبي ﷺ أنه قال: «إني لأرجو أن لاتعجز أمتي عند ربها أن يؤخرهم نصف يوم».

قيل لسعد: وما نصف يوم؟ قال: خمسمائة سنة وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا عبدالرحمن بن مهدي عن إسرائيل عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس ﴿وَإِنْ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ قال: من الأيام التي خلق الله فيها السموات والأرض. رواه ابن جرير عن ابن يسار بن المهدي، وبه قال مجاهد وعكرمة ونص عليه الإمام أحمد بن حنبل في كتاب الرد على الجهمية^(٤)، وقال مجاهد: هذه الآية كقوله: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ

(١) سورة الحج: الآيتان: ٤٧، ٤٨

(٢) انظر تفسير القرآن العظيم للإمام الحافظ أبي الفداء اسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي ج ٣ ص ٣١٥ -

(٣١٦).

(٤) نفس المصدر السابق والجزء والصفحة.

كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعْدُونَ ﴿١﴾ وهذا كقولهم: أيام الحزن طوال وأيام السرور

قصار، وأنشد بعضهم لشاعر قديم:

مَسَاوُكُ سُكَّرٍ وَالصَّبَاحُ خَسَارٌ نَعِمْتُ وَأَيَّامُ السَّرُورِ قِصَارٌ

وإلى هذا المعنى أشار ذو الرمة بقوله:

وما يومٌ خَرَقَاءَ، الذي فيه نلتقي بنحس على عيني ولا متطاول (٢)

ومن قول الآخر أيضاً:

وقصيرة الأيام ودَّ جليسُها لو دام مجلسُها بفقد حميم (٣)

وقال شبرمة بن الطفيل (٤):

ويوم شديد الحرِّ قصرَ طَوُّه دم الزَّقِّ عنا واصطفاقُ المَزهَرِ

وأحسن جرير بتشبيه قصر اليوم بقوله:

ويوم كإبهامِ القِطَاةِ محببٌ إليَّ صباهُ غَالِبٌ لي باطلُهُ

ويعرض في قول جرير مارواه الأصمعي قال: قرأت على خلف الأحمر شعر

جرير فلما انتهيت إلى قوله:

ويوم كإبهامِ القِطَاةِ محببٌ إليَّ صباهُ غَالِبٌ لي باطلُهُ

رزقنا به الصيدَ الغريرَ ولم يكن كمن نبله محرومةً وحبائلُهُ

فيالك يومٍ خيره قبل شرِّه تغيب وأشيه وأقصر عاذله

فقال: ويله ما منفعة خير يؤول إلى شر؟! فقلت: هكذا قرأت على أبي عمرو

فقال لي: صدقت وكذا قال جرير، وما كان أبو عمرو ليقرئك إلا ماسمع. قلت:

(١) سورة السجدة: الآية (٥).

(٢) البيت في ديوانه ص (٥٧٨)، ورواية الديون هي «وما يوم خرقاء الذي نلتقي به» ونحس بمعنى الشؤم أو التراب الذي يأتي على العين.

(٣) البيت منسوب في حماسة التبريك إلى مجنون بني عامر ٣/٣٠١، أما الشريف المرتضي فقد نسبه في أماليه إلى البشر بن عبدالرحمن الأنصاري ١/٤٩٤.

(٤، ٣) شبرمة بن طفيل من شعراء الحماسة والبيت في حماسة أبي تمام ١/٧٩، الزق: الخمد. اصطفاق المزهرة: أصوات المزهرة.

فكيف كان يجب أن يقول فقال: كان الأولى أن يقول: فيالك يوماً خيره دون شره فاروه هكذا فقد كانت الرواة قديماً تصلح من أشعار القدماء، فقلت لا أرويه بعدها إلا هكذا، قال افعل ذلك، فإن ابن مقبل كان يقول، إننا لنرسل القول في عوجاء فتأتينا بها الرواة وقد أقامتها، قال الأصمعي: فقلت لخلف: أي الرجلين عندك أشعر أجريز أم الأخطل؟ فقال لي: قال الأخطل: (١)

وكم قتلت أروى بلا ترة لها وأروى لفراغ الرجال قتول
يقول إن قتلها إيانا لا دية له ولا عقل. وقال جرير في مثل هذا المعنى:
إن العيون التي في طرفها حورٌ قتلنا ثم لم يُحيين قتلنا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك له وهن أضعف خلق الله أركاناً

فانظركم بين الكلامين في البلاغة، وبين العبارتين في الرشاقة وإنما ذهب جرير إلى أن العيون قتلتها ولم يقد منها ولو أخذ القود منها لكان ذلك كالحياة لمن قتله فنظر في هذا المعنى إلى قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ (٢) قال الأصمعي: فقلت: ففي بيت الأخطل زيادة بقوله: وأروى لفراغ الرجال... فقال: أجل هي زيادة وقول جرير على ذلك أحلى وأحسن إمتاعاً للأسماع، وإنما نقل الأخطل هذا المعنى من قول (أرسطاليس): (٣) «العشق شغل قلب فارغ». وقد أكثر الشعراء في تغزُّلهم من وصف طول اليوم وقصره بقرب المحبوب وبعده كما قاله الخزاعي:

يطولُ اليوم لا ألقاك فيه وعامٌ نلتقي فيه قصير
وقالوا لا يضيرك نأي شهرٍ فقلت لصاحبي فَمَن يضير (٤)
وأنشد بعض أهل البادية:

إني لأحفظُ سرِّكُم ويُسِرُّني لو تعلمين بصالح أن تذكُري
ويكونُ يوم لا يكونُ لك مُرسلاً أو نلتقي فيه عليّ كأشهرٍ

(١) نفس المصدر السابق والصفحة

(٢) سورة البقرة: الآية (١٧٩).

(٣) أرسطاليس: هو أحد فلاسفة اليونان القدماء.

(٤) نفس المصدر السابق والصفحة.

يالتيني ألقى المنيّة بغتة
تُقضى الديون وليس يُنجزُ عاجلاً
إن كان يومٌ لقائكم لم يقدر
هذا الغريمُ لنا وليس بمعسرٍ
وقال الطائي:

أعوامٌ وصل كان يُنسى طولُها
ثم أنبرت أيامٌ هَجِرُ أَرَدَفَتْ
ذكرى النَّوى فكأنَّها أحلامٌ
بجوى أسي فكأنَّها أعوامٌ
ثم انقضت تلك السنونُ وأهلُها
فكأنَّها وكانهم أحلامٌ

والقليل من هذا الجنس ينوب عن الكثير، والإطالة في غيره أولى بهذا الكتاب. وقيل أيضاً في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ﴾ أي في طول آلامها للعباد لصلاح من يصلح منهم، فكأنه ألف سنة لطول الإناة، وقيل أيضاً إن مقدار العذاب في ذلك اليوم لشدته وعظمته كمقدار عذاب ألف سنة من أيام الدنيا على الحقيقة^(١)، وكذلك نعيم الجنة بحسبه، والآية تتضمن مافي استعجال الجاهل بالعذاب من اجتلابه البلاء على نفسه ومافي إمهال الله تعالى العباد للصلاح من اغترار الجهال^(٢).

وعن محمد بن سيرين، عن رجل من أهل الكتاب أسلم قال: إن الله تعالى خلق السموات والأرض في ستة أيام ﴿وَإِنْ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾. قد مضت الستة الأيام واثم في اليوم السابع فمثل ذلك كمثل الحامل إذا دخلت شهرها ففي أي لحظة ولدت كان تماماً^(٣).

مثل آخر من هذه السورة من نوع آخر، هو من نوع الأمثال المرسلة وهي مالم تشتمل على تشبيه ولا استعارة كقوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ [٤٧] مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾^(٤)

(١) نفس المصدر السابق والصفحة.

(٢) انظر كتاب الجمان في تشبيهات القرآن ص (١٢٠).

(٣) انظر تفسير القرآن العظيم ج ٣ - ص ٢١٦.

تأليف الإمام الحافظ أبي الفداء اسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي.

(٤) سورة الحج: الآيتان (٤٧، ٤٨).

يقول تعالى منبهاً على حقارة الأصنام وسخافة عقول عابديها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ﴾ أي لما يعبد الجاهلون بالله المشركون به، ﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ أي أنصتوا وتفهموا ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا﴾ أي لو اجتمع جميع ماتعبدون من الأصنام والأنداد على أن يقدروا على خلق ذباب واحد ماقدروا على ذلك. كما قال الإمام أحمد: حدثنا أسود بن عامر، حدثنا شريك عن عمارة بن القعقاع، عن أبي زرعة، عن أبي هريرة مرفوعاً قال: «ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي، فليخلقوا مثل خلقي ذرة أو ذبابة أو حبة»، وأخرجه صاحبها الصحيح من طريق عمارة عن أبي زرعة عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «قال الله عز وجل: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي، فليخلقوا ذرة، فيخلقوا شعيرة»، ثم قال تعالى أيضاً: ﴿وَإِنْ يَسْأَلُهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَفِيدُوهُ مِنْهُ﴾ أي هم عاجزون عن خلق ذباب واحد، بل أبلغ من ذلك عاجزون عن مقاومته (١) والانتصار منه لو سلبها شيئاً من الذي عليها من الطيب والزعفران ثم أرادت أن تستنقذه منه لما قدرت على ذلك، هذا والذباب من أضعف مخلوقات الله وأحقرها، فكيف يعبدون شركاء لله تعالى؟ هذا أمر مستغرب عبّر عنه بضرب مثل ﴿ضَعْفَ الطَّالِبِ﴾ العابد ﴿وَالْمَطْلُوبِ﴾ المعبود (٢)، وعن ابن عباس: الطالب، الصنم، والمطلوب الذباب، واختاره ابن جرير، وهو ظاهر السياق، ثم قال: ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ أي ما عرفوا قدر الله وعظمته حين عبدوا معه غيره من هذه التي لا تقاوم الذباب لضعفها وعجزها ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ أي هو القوي الذي بقدرته وقوته خلق كل شيء وقوله، ﴿عَزِيزٌ﴾ أي قد عز كل شيء فقهره وغلبه (٣) وهو الواحد القهار، هذا والله أعلى وأعلم بالصواب.

(١) نفس المصدر السابق والجزء ص (٢٢٢، ٢٢٣)...

(٢) انظر تفسير الجلالين: جلال الدين محمد بن أحمد بن محمد المحلي وجمال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي ص (٣٤١) ..

(٣) نفس المصدر السابق والجزء والصفحة ..

(سورة النور)

قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^(١) عن ابن عباس ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يقول: هادي أهل السموات والأرض. وعن ابن عباس أيضا في قوله: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، يدبر الأمر فيها نجومها وشمسها وقمرها. وعن أبي بن كعب في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ﴾ قال هو المؤمن الذي جعل الله الإيمان والقرآن في صدره فضرب الله مثله فقال: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فبدأ بنور نفسه ثم ذكر نور المؤمن فقال: مثل نور من آمن به^(٢)، وقال السدي في قوله: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فبنوره أضاءت السموات والأرض. وفي الحديث الذي رواه محمد بن إسحاق في السيرة عن رسول الله ﷺ أنه قال في دعائه يوم آذاه أهل الطائف: «أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن يحلَّ بي غضبك أو ينزل بي سخطك، لك العتبي حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بالله» وفي الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل يقول: اللهم لك الحمد، أنت نور السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن» الحديث، وقوله تعالى: ﴿مِثْلُ نُورِهِ﴾، في هذا الضمير قولان [أحدهما] أنه عائد إلى الله عز وجل أي مثل هداه في قلب المؤمن قاله ابن عباس (كمشكاة) [والثاني] أن الضمير عائد إلى المؤمن الذي دلَّ عليه سياق الكلام تقديره مثل نور المؤمن الذي في قلبه كمشكاة^(٣)، فشبّه قلب المؤمن وما هو مفطور عليه من الهدى وما يتلقاه من القرآن المطابق لما هو مفطور عليه فشبّه قلب المؤمن في صفاته في

(١) سورة النور: الآية (٣٥).

(٢) انظر تفسير القرآن العظيم للإمام الحافظ ابن كثير القرشي الدمشقي ج ٣ ص (٢٧٢)، وما بعدها.

(٣) نفس المصدر السابق والجزء والصفحة.

نفسه بالقنديل من الزجاج الشفاف الجوهري وما يستمد به من القرآن، والشَّرْع
 بالزيت الجيد الصَّافي المشرق المعتدل الذي لا كدر فيه ولا انحراف، فقوله:
 ﴿كَمِشْكَاةٍ﴾، قال ابن عباس ومجاهد ومحمد بن كعب وغير واحد: هو موضع
 الفتيلة من القنديل هذا هو المشهور ولهذا قال بعده: ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ وهو الذبالة
 التي تضيء، عن ابن عباس أيضا قوله: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ
 فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ وذلك أن اليهود قالوا لمحمد ﷺ كيف يخلص نور الله من دون
 السماء؟ فضرب الله مثل ذلك لنوره فقال تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ
 كَمِشْكَاةٍ﴾، والمشكاة كوة في البيت، قال وهو مثل ضربه الله لطاعته فسمى الله
 طاعته نوراً ثم سماها أنواعاً شتى، وقال ابن أبي نجیح عن مجاهد: هي الكوة
 بلغة الحبشة وزاد بعضهم فقال: المشكاة الكوة التي لا منفذ لها، والقول الأول
 أولى وهو أن المشكاة هي موضع الفتيلة من القنديل ولهذا قال ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾،
 وهو النور الذي في الذبالة، قال أبي بن كعب: المصباح النور وهو القرآن
 والإيمان الذي في صدره، وقال السدي: هو السراج ﴿الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ﴾ أي هذا
 الضوء مشرق في زجاجة صافية، وقال أبي بن كعب وغير واحد وهي نظير قلب
 المؤمن ﴿زُجَاجَةُ الزُّجَاجَةِ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾^(١) وقد قرأ أبو عمرو والكسائي بكسر
 الدال والمد والهمز، وقرأ أبو بكر (شعبة) وحمزة بضم الدال والمد والهمز من
 الدرء وهو الدفع، وذلك أن النجم إذا رُمِيَ به يكون أشدَّ استنارة من سائر
 الأحوال، والعرب تسمي مالا يُعرف من الكواكب دراري، وقرأ الباكون بضم
 الدال وتشديد الياء من غير مد ولا همز، وكلها قراءات ثبتت بطريق التواتر
 الصحيح، من الدر أي كأنها كوكب من درٍّ، فأما تشبيه الزجاج بالكوكب فهي
 زيادة في صفة نور المصباح^(٢) وإضاءته، ومبالغة في نعت إشراقه وتألقه، وقد
 شبهت الشعراء النجوم بالمصابيح، والمصابيح بالنجوم، وأكثروا في تشبيه النجوم
 بالدر، وشبهوا أيضاً الدر بالنجوم، فأما تشبيهه بالمصابيح فكقول امرئ القيس:

(١) نفس المصدر السابق والجزء والصفحة.

(٢) انظر كتاب الجمال في تشبيهات القرآن ص ١٢٣ وما بعدها تأليف عبدالله بن الحسين بن نايقا بتحقيق

الدكتور محمود حسن أبو ناجي الشيباني . .

نظرت إليها والنجوم كأنها مصابيح رهبان تُشبُّ لِقَمَالٍ
وكقول أوطاة بن سهية (١):

ولاح سهيلٌ من بعيدٍ كأنه شهابٌ ينجيه من الريح قابسٌ
وتناول المحدثون هذا التشبيه فقال بعضهم:

والصبح يتلو المشتري فكأنه عريان يمشي في الدجى بسراج
وقال أيضاً في تشبيه الكوكب بالدر:

كأنَّ نجوم الليل في فحمة الدجى رءوس مداري رُكبت في معاجر
واقصر على تشبيه الشعري عبدالعزيز بن عبد بن طاهر فقال:

واعترضت وسط السماء الشعري كأنها ياقوتة في مَدْرَى (٢)
وقد شبه بعض المولدين النجوم والثريا تشبيهاً أبدع فيه فقال:

وترى النجومَ المُشرفات وكأنها ذرُّ العُصابه (٣)
وترى الثريا وسَطَها وكأنها زردُ الذُّوابه (٤)

وقد قال يزيد بن الطثرية في تشبيه نجوم الثريا:

إذا ما الثريا في السماء كأنها جمانٌ وهي من عقده فتبددًا
وقال آخر وذكر امرأة:

أتتنا بليل والنجوم كأنها قلائدٌ درٍ حلَّ عنها نظامُها
وقال الآخر:

ورأيت السماء كالبحرِ إلا أن مرسوبه من الدر طافٍ
وقال أبو العتاهية:

أما ترون الثريانا كأنها عِقْدُ رِيَا

(١) أوطاة بن سهية شاعر عاش في العصر الاسلامي، راجع الشعر والشعراء ١/ ٥٢٢.

(٢) نفس المصدر السابق ص (١٢٤، ١٢٥، ١٢٦).

(٣، ٤) در: جوهر، ذؤابة: خصلة الشعر.

وقال آخر:

وليل رقيق الطَّرتين كأنما ترودُ به الأنفاسُ مسكاً مُضَوَّعاً (١)
كأنَّ الثُّريا فيه درٌّ تقاربتُ مساقطُهُ من سلكه فتجمعا
ولعبدَ بني الحسحاس وذكر امرأة فشبَّه عقود نحرها بنجوم الثُّريا وقرنَ بها تشبيهاً
آخر فقال:

كأنَّ الثُّريا علقت فوق نحره وفي أنفه الشعرى وفي خده القمر (٢)
وتأكيد الوصف بذكر الجمر، والعرب تصفُ الجارية فتشبيهاً بالنار ويقولون
كأنها شعلة نار، وأنشد من أبيات المعاني:

وشعثاء غبراء الفروع منيفة بها توصفُ الحسناء أو هي أجمل (٣)
دعونُ بها أبناء ليل كأنهم وقد أبصروها معطشون قد انهلوا

وقال جميل في تشبيه النار على البعد بالكوكب وتروى لكثير:

رايتُ وأصحابي بأبله موهناً وقد غاب نجمُ الفرقدِ المتصوب
لعزة نارا ما تبسوح كأنها إذا ما رمقناها على الأفق كوكب (٤)

﴿يوقدُ من شجرة مباركة﴾ (٥) قرئ (يوقد) بالياء على إرادة التذكير وعني به
المصباح، وقرئ بالتاء على إرادة التأنيث وعني به الزجاج، وقوله ﴿مباركة﴾ أنه
ليس في الشجر شيء يورق غصنه من أوله إلى آخره مثل الزيتون والرمان.

(١) نفس المصدر السابق والصفحة

(٢) البيت في حماسة أبي تمام ٢٥٢/٢ ونص البيت هكذا:

كأن الثريا علقت في جبينه وفي خده الشعرى وفي وجهه القمر

(٣) البيتان لم يوجد في كتب الأدب - شعثناء: غير مرتبة الشعر، غبراء عليها غبرة، منيفة: طويلة، انهلوا:
شربوا الشرب الأول.

(٤) نفس المصدر السابق والصفحة.

(٥) ففي كلمة (يوقد) ثلاث قراءات هي: بالتاء مفتوحة وفتح الواو والذال والقاف مشدداً بوزن تفعّل، وهي
قراءة ابن كثير وأبي عمرو، وبالتاء مضمومة وإسكان الواو وضم الدال مخففاً وهي لأبي بكر (شعبة) وحمزة
والكسائي، والباقون كذلك إلا أنه بالياء وكلها قراءات ثابتة بطريق التواتر الصحيح....

قال الشاعر:

بُورِكُ المَيْتِ الغَرِيبُ كَمَا بُو رِكِ نُضجُ الرِّمَانِ وَالزَّيْتُونِ

﴿زَيْتُونَةٌ﴾ بدل أو عطف بيان ﴿لَا شَرْقِيَّةٌ وَلَا غَرْبِيَّةٌ﴾ أي لا يسترها عن الشَّمْسِ

في وقت من النهار شيء فهي شرقية غربية، والشَّمْسُ تصيبها بالغداة والعشي، فهو أنضر لها وأجود لزيته، وعن ابن عباس في قوله ﴿زَيْتُونَةٌ لَا شَرْقِيَّةٌ وَلَا غَرْبِيَّةٌ﴾ قال: هي شجرة بالصَّحراء^(١) لا يظلمها شجر ولا جبل ولا كهف ولا يواربها شيء وهو أجود لزيته، وعن عكرمة وسأله رجل عن قوله تعالى: ﴿زَيْتُونَةٌ لَا شَرْقِيَّةٌ وَلَا غَرْبِيَّةٌ﴾ قال: تلك زيتونة بأرض فلاة إذا أشرقت الشَّمْسُ أشرقت عليها فإذا غربت غربت عليها، فذلك أصفى ما يكون من الزَّيْتِ وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿لَا شَرْقِيَّةٌ وَلَا غَرْبِيَّةٌ﴾ قال: ليست بشرقية لانصبها الشَّمْسُ إذا طلعت ولا غربية لانصبها الشَّمْسُ إذا غربت ولكنها شرقية وغربية تصيبها إذا طلعت وإذا غربت. وقال الحسن البصري: لو كانت هذه الشَّجَرَةُ في الأرض لكانت شرقية أو غربية، ولكنه مثل ضربه الله تعالى لنوره، وأولى هذه الأقوال القول الأول وهو أنها في مستوى من الأرض في مكان فسيح باد ظاهر ضاح للشَّمْسِ تفرعه من أول النَّهار إلى آخره ليكون ذلك أصفى لزيته وأطف كما قال غير واحد ممن تقدّم^(٢).

ولهذا قال تعالى: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾

قال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم يعني لضوء إشراق الزَّيْتِ. وقوله تعالى: ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ عن ابن عباس يعني بذلك إيمان العبد وعمله، وقال مجاهد والسدي: يعني نور النَّارِ ونور الزَّيْتِ، وقال أبي بن كعب: ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ فهو يتقلب في خمسة من النور: فكلامه نور، وعمله نور، ومدخله نور، ومخرجه نور، ومصيره إلى نور يوم القيامة إلى الجنة. وعن السدي أيضاً، ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ قال: نور النَّارِ ونور الزَّيْتِ إذا اجتمعا أضاء ولا يضيء واحد بغير صاحبه كذلك

(١) نفس المصدر السابق ص (١٢٧).

(٢) نفس المصدر السابق والجزء ص (٢٢٤).

نور القرآن ونور الإيمان إذا اجتمعا، فلا يكون واحد منهما إلا بصاحبه. وقوله تعالى: ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ أي يرشد الله إلى هدايته من يختاره، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد^(١): عن عبدالله بن عمرو: سمعت رسول الله ﷺ يقول «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ خَلْقَهُ فِي ظِلْمَةٍ ثُمَّ أَلْقَى عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِهِ يَوْمَئِذٍ، فَمَنْ أَصَابَ مِنْ نُورِهِ يَوْمَئِذٍ اهْتَدَى وَمَنْ أَخْطَأَ ضَلَّ فَلِذَلِكَ أَقُولُ: جَفَّ الْقَلَمُ عَلَى عِلْمِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ» وقوله تعالى: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لما ذكر تعالى هذا مثلاً لنور هدايه في قلب المؤمن ختم الآية بقوله: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي هو أعلم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الإضلال. عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «القلوب أربعة: قلب أجرد فيه مثل السراج يزهو، وقلب أغلف مربوط على غلافه، وقلب منكوس، وقلب مصفح، فأما القلب الأجرد: فقلب المؤمن سراج فيه نور، وأما القلب الأغلف فقلب الكافر، وأما القلب المنكوس فقلب المنافق، عَرَفَ ثُمَّ أَنْكَرَ، وأما القلب المصفح فقلب فيه إيمان ونفاق، ومثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدُّها الماء الطيب، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدُّها الدَّمُ والقيح^(٢)، فأبي المدتين غلبت على الأخرى غلبت عليه» إسناده جيد ولم يخرجوه. ﴿فِي بُيُوتٍ أذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ﴾ الآية^(٣) لما ضرب الله تعالى مثل قلب المؤمن وما فيه من الهدى والعلم بالمصباح في الزجاج الصافية المتوقد من زيت طيب وذلك كالقنديل مثلاً، ذكر محلها وهي المساجد التي هي أحب السبقات إلى الله تعالى من الأرض وهي بيوته التي يعبد فيها ويوحَّدُ،^(٤) فقال تعالى: - ﴿فِي بُيُوتٍ أذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذَكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾^(٥).

مثلان آخران من هذه السورة: قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بَاقِيَةٍ

(١) نفس المصدر السابق والجزء والصفحة.

(٥) سورة النور: الآية (٣٦)

يَحْسِبُهُ الظُّمَانُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ (١)

هذان مثلان ضربهما الله تعالى: لنوعي الكفار كما ضرب للمنافقين في أول سورة البقرة مثلين: أحدهما: ناريا، والآخر: مائيا، وكما ضرب لما يقر في القلوب من الهدى والعلم في سورة الرعد مثلين: أحدهما: مائي، والآخر: ناري، وقد تكلمنا على كل منهما في موضعه بما أغنى عن إعادته، ولله الحمد والمنة. فأما الأول من هذين المثلين، فهو للكفار الدعاة إلى كفرهم الذين يحسبون أنهم على شيء من الأعمال والاعتقادات، وليسوا في نفس الأمر على شيء، فمثلهم في ذلك كالسراب الذي يرى في القيعان من الأرض (٢) من بعد كأنه بحر طام، والقيعة: جمع قاع كجار وجيرة، والقاع أيضا واحد القيعان، كما يقال جار وجيران، وهي الأرض المستوية المتسعة المنبسطة وفيه يكون السراب، وإنما يكون ذلك بعد نصف النهار، وأما الآل فإتاما يكون أول النهار يرى كأنه ماء بين السماء والأرض فإذا رأى السراب من هو محتاج إلى الماء يحسبه ماءً قصده ليشرب منه فلما انتهى إليه ﴿لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ فكذلك الكافر يحسب أنه عمل عملاً وأنه قد حصل شيئاً، فإذا وافى الله يوم القيامة وحاسبه عليها ونوقش على أفعاله، لم يجد شيئاً بالكلية قد قبل، إما لعدم الإخلاص، أو لعدم سلوك الشرع، كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ (٣) وقال هاهنا: ﴿وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ وهكذا روي عن أبي بن كعب وابن عباس ومجاهد وقتادة وغير واحد (٤).

وفي الصحيحين أنه يقال يوم القيامة لليهود: ما كنتم تعبدون؟ فيقولون: كنا نعبد عزير بن الله. فيقال: كذبتم ما اتخذ الله من ولد ماذا تبغون؟

(١) سورة النور: الآيات: (٣٩، ٤٠).

(٢) نفس المصدر السابق الجزء ص (٢٧٨ وما بعدها).

(٣) سورة الفرقان: الآية (٢٣).

(٤) نفس المصدر السابق والجزء والصفحة.

فيقولون: يارب عطشنا فاسقنا، فيقال: ألا ترون؟ فتمثل لهم النار كأنها سراب يُحطَّم بعضها بعضاً، فينطلقون فيتهافتون فيها، وهذا المثال مثال لذوي الجهل المركب، فأما أصحاب الجهل البسيط وهم الطماطم الأغشام المقلدون لأنمة الكفر الصم البكم الذين لا يعقلون فمثلهم كما قال تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ﴾ قال قتادة (لجِّي) هو العميق ﴿يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرَاهَا﴾ أي لم يقارب رؤيتها من شدة الظلام، فهذا مثل قلب الكافر الجاهل البسيط، المقلد الذي لا يعرف حال من يقوده، ولا يدري أين يذهب، بل كما يقال في المثل للجاهل أين تذهب؟ قال معهم، قيل: فإلى أين يذهبون؟ قال لا أدري، وعن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿يَغْشَاهُ مَوْجٌ﴾ الآية، يعني بذلك الغشاوة التي على القلب والسمع والبصر^(١) وهي كقوله: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ الآية^(٢) وكقوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ الآية^(٣) وقال أبي بن كعب في قوله تعالى: ﴿ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ فهو يتقلب في خمسة من الظلم فكلامة ظلمة، وعمله ظلمة، ومدخله ظلمة ومخرجه ظلمة، ومصيره يوم القيامة إلى الظلمات إلى النار، وقال السدي والريبع بن أنس نحو ذلك أيضاً. وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُّورٍ﴾ أي من لم يهده الله فهو هالك جاهل، حائر، باثر، كافر، كقوله ﴿من يضل الله فلا هادي له﴾ وهذا في مقابلة ما قاله في مثل المؤمنين: ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾.

فنسأل الله العظيم أن يجعل في قلوبنا نوراً، وعن أيماننا نوراً، وعن شمائلنا نوراً، وأن يعظم لنا نوراً^(٤).

(١) المصدر السابق والجزء والصفحة.

(٢) سورة البقرة: الآية (٧).

(٣) سورة الجاثية: الآية (٢٣).

(٤) نفس المصدر السابق والجزء والصفحة.

قال الطائي:

في ليلة فيها السماء مِضْرَةٌ سوداء مُظْلِمَةٌ كقلب الكافر
وكما وصف جلّ اسمه: النور بأبلغ ما يكون من الوصف، وكذلك وصف
الظلمة فجمع في الوصف بين الليل والسحاب وتراكب أمواج البحر في قوله: (١)
وليل كموج البحر أرخى سُدُولَهُ عَلَيَّ بِأَنْوَاعِ الْهُمُومِ لِيَتَلَى (٢)

(١) انظر الجمان: في تشبيهات القرآن ص (١٣٠).

(٢) البيت في معلقته ولكن رواية البيت في الديوان هكذا:

وليل كموج البحر أرخى سدوله
عليّ بأنواع الهموم لبيتلى

(سورة النمل)

قال تعالى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لُدِّيَ الْمُرْسَلُونَ﴾^(١) الاهتزاز شدة الاضطراب في الحركة وللحيوان حركة تدلّ عليه إذا رئي عليها لاشكّ في أنّه حيوان بها وهي التصرفّ بالنفس مع كون الشّيء على البنية الحيوانية وهذه الحال تنفي ما ادعاه بعض الملاحدة في العصا وأصل العصا الامتناع، ويقال عصى يعصي إذا امتنع.

قال الشاعر يصف السيوف:

تصف السيوفَ وغيرُكمُ يعصى بها يابن القيون^(٢) وذاك فعلُ الصيقل^(٣)

فأمّا قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾^(٤) إلى قوله ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾^(٥)، الثعبان الحية الضخم الطويل، وأصله ثعبت الماء أضعه ثعباً إذا فجرته، فسمي بذلك لأنّه يجري^(٦) كجري الماء عند الانفجار، ومعنى ﴿مُبِينٌ﴾ أي بين أنّه حية، وأمّا تشبيهها بالجان، فالمراد به أنّها في اهتزازها وخفة حركتها وسرعتها كالجان في صورة الثعبان، والإفك والكذب، وذلك أنّهم زعموا أن حبالهم وعصيتهم حيات وإنما قيل إنّهم جعلوا فيها الزئبق لأنّه لا يستقر ولما ألقى موسى عصاه بلعت عصيتهم وحبالهم، قال الشاعر أنشده أبو عبيدة:

أنت عصا موسى التي لم تزل تلقف ما يأفكه الساحر

وقيل في تشبيهها بالجان معنى آخر، وذلك أنّ الحية إذا هرمت صغرت في بدنها وخفّت في حركتها، فكان المراد أنّها في صورة الثعبان القديم الذي قد تضاءل جسمه، ولطفت أجزاؤه وهو أعظم للآية وأغرب في المعجزة، قال الشاعر يصف الحية:

(١) سورة النمل: الآية (١٠).

(٢، ٣) القيون مفردا قين وهو الحداد، الصيقل: السيف

(٤، ٥) سورة الأعراف: الآيات: من (١٠٧) إلى (١١٧) وسورة الشعراء: آية (٣٢) وسورة القصص: آية (٣١)

(٦) الجمان في تشبيهات القرآن ص (١٣٠، ١٣١) تأليف عبدالله بن الحسين بن نايقا. تحقيق الدكتور محمود حسن أبو ناجي الشيباني.

داهيةٌ قد صعَّرت من الكبر
 كأنها قد ذهبت بها الفكرُ
 مهرومة الشدقين حواء النَّظْرُ
 وفي نحو هذه الصفة قول أعرابي قديم:
 لاهمَّ كان أبو عمرو ظَلَمَ
 كمية من حنشٍ أعمى أَصَمَ
 فكلما أفضل فيه الجوعُ شَمَ
 وهم يصفونها في العموم بالضؤولة واللطافة إذا بالغوا في صفتها كما في قول
 النابغة:
 فبتُّ كأنني ساورتني ضئيلةٌ
 من الرُقشِ في أنيابها السَّمُّ ناقعٌ (٤)
 إلا أن التأويل المأثور في الآية ماتقدّم وقد شبهت الشعراء الحيات وآثارها بالحبال
 والعصي ونحو ذلك قول الشاعر:
 ومن حنش لا يجيب الرُّقاة
 أصمّ سميعٌ طويلُ السُّبابِ
 وقال آخر:
 كأنّ مزاحف الحيات منها
 وقال ذو الرمة - وذكر ناقة - :
 رجيعَةٌ أسفارٍ كأنّ زقاقها
 شجاعٌ على يُسرى الذراعين مطرق

(١) الأبيات غير منسوبة لقائل، والكلمات: خفر: حياء، الإطراق: الصمت، الشتر انقلاب.

(٢) انظر الجمان في تشبيهات القرآن ص ١٣٠، ١٣١، ١٣٢، ١٣٣، تأليف عبدالله بن الحسين بن نايقا.

(٣) حنش: ثعبان.

(٤) ضئيلة: حية، ناقع: شديد السم.

(٥) الرشا: الحيل.

(٦) السياط: جمع سوط وهو أداة لضرب الحيوان.

مثل آخر من هذه السورة: قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ (١) يريد أن الجبال من هول ذلك اليوم وما ظهر من أمر الله فيه تزول عن مواضعها، فلا يكون لها قرار ولا ثبات فأخبر بذلك عن شدة الأمر عند النفخ في الصور، وبعث الأموات من القبور، والصور عند أهل اللغة جمع صورة ينفخ فيها روحها فتحيا (٢) وجاء في التفسير أن الصور قرن ينفخ فيه إسرافيل والله أعلى وأعلم بالصواب، وعلى هذه تكون الجبال آيلة عن مواضعها بذلك النفخ حتى تمر مرة السحاب أن تزول عن أماكنها وتصير هذه الجبال الشامخة كالعهن في الخفة والذهاب قال تعالى: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ (٣) وقوله: ﴿تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾ أي تراها كأنها ثابتة باقية على ما كانت عليه، قال الأعشى يصف امرأة بوقار المشي والحركة:

كأن مشيتها من بيت جارتها مر السحابة لا ريث ولا عجل

وأراد الآخر وصف هذه الحال فقال وغير التشبيه:

مآلك لا تذكر أو تزور حوراء بين حاجبيها نور (٤)

تمشي كما يطرد الغدير

وهو من قول امرئ القيس: سمو حباب الماء حالاً على حال (٥)

وأنشدت لبعض المحدثين: في صفة رقاص:

إذا اختلس الخطا واهتز لينا رأيت لرقصه سحراً مبيناً

تري الحركات منه بلا سكون فتحسبها لختها سكوناً

(١) سورة النمل: الآية (٨٨).

(٢) نفس المصدر السابق والصفحة.

(٣) سورة القارعة: الآية (٥)

(٤) حوراء من الإحورار وهو شدة سواد العين مع شدة بياضها، يطرد يسير بنظام.

(٥) تمام البيت كما ورد في ديوانه ص ١٦١.

سمو حباب الماء حالاً على حال

سموت إليها بعد ما نام أهلها

وقال ابن مقبل:

يهززن للمشي أوصالاً منعمةً هزَّ الجنوب ضحى عيدان نيرينا
يمشين هيل النقا مالت جوانبه ينهال حيناً وينهائ الندى حيناً^(١)

يقال هلتُ الشيء فانهال والمصدر الهيل وفي الحديث: «كيلوا ولا تهيلوا»^(٢).

قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرُجُّفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾^(٣) وقد

شبهت الناقة ونحوها في سرعة السير بالسحابة، قال لبيد - وذكر ناقته - :

فلها هبابٌ في الزمام كأنها صهباءُ راح مع العشي جهامها^(٤)

الصهباء السحابة القليلة الماء فهي لخفتها سريعة.

(١) نفس المصدر السابق ص (١٣٤ ، ١٣٥).

(٢) النهاية لابن الأثير ٣٨٨/٥.

(٣) سورة المزمل: الآية (١٤).

(٤) البيت في ديوانه ص (٤-٣) والبيت في الديوان هكذا:

فلها هباب في الزمام كأنها صهباء خف مع الجنوب جهامها

(سورة العنكبوت)

قال الله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١)﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤٢) وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿١﴾

هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله، الاتخاذ افتعال من الأخذ، والعنكبوت يذكر ويؤنث قال الشاعر:

على هطَّالهم فيهم بيوتٌ كأن العنكبوت هو ابتناها

وتجمع العنكبوت على عناكب، ويقال فيه العنكباء ومعنى الآية:

أن من عبد غير الله فقد اتخذ ولياً من دونه يرجو نصره ورزقه، ويتمسك به في الشدائد، وهو لا ينفعه ولا يضره، وكان في اتخاذ ذلك كالعنكبوت في اتخاذها بيتاً لا يجنبها من شيء ولا يكتنُّها من حر ولا برد^(٤) قال الفرزدق في هجاء جرير ويفخر عليه:

إِنَّ الَّذِي سَمَكَ السَّمَاءَ بَنَى لَنَا بَيْتاً دَعَائِمُهُ أَعَزُّ وَأَطْوَلُ
بَيْتاً زَرَارَةً مَحْتَبٍ بِفَنَائِهِ وَمَجْنَشَعٌ وَأَبْوَالِ الْفَوَارِسِ نَهْشَلُ
لَا يَحْتَبِي بِفَنَاءِ بَيْتِكَ مِثْلُهُمْ أِبْدأُ إِذَا عَدَّ الْفِعَالُ الْأَفْضَلُ
ضَرَبْتُ عَلَيْكَ الْعَنْكَبُوتُ بِنَسْجِهَا وَقَضَى عَلَيْكَ بِهِ الْكِتَابَ الْمُنْزَلُ

فهم في ذلك كبيت العنكبوت في ضعفه ووهنه، فليس في أيدي هؤلاء من آلهتهم، إلا كمن يتمسك ببيت العنكبوت في ضعفه ووهنه، فإنه لا يجدي عنه شيئاً، فلو علموا هذا الحال لما اتخذوا من دون الله أولياء.

(١) سورة العنكبوت: الآيات: (٤١، ٤٢، ٤٣).

(٤) انظر الجمان في تشبيهات القرآن ص (١٤٨، ١٤٩) تأليف عبدالله بن الحسين بن نايقا.

(تنبيه)

لايجوز تعدّي أمثلة القرآن، ولذلك أنكر على الحريري في قوله في مقامته الخامسة عشرة^(١) «فأدخلني بيتاً أخرج^(٢) من التابوت، وأوهى من بيت العنكبوت» فأبي معنى أبلغ من معنى أكده الله من ستة أوجه، حيث قال: ﴿وَأَنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ﴾ فأدخل إنَّ، وبنى أفعال التفضيل، وبناء من الوهن، وأضافه إلى الجمع، وعرف الجمع باللام، وأتى في خبر إنَّ باللام: وقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا﴾^(٣) وكان اللائق بالحريري ألا يتجاوز هذه المبالغة وما بعد تمثيل الله تمثيل، وقول الله أقوم وأوضح سبيلاً، ولكن قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةٌ﴾ وقد ضرب النبي ﷺ مثلاً لما دون ذلك فقال: «لو كانت الدنيا ترن عند الله جناح بعوضة^(٤)» وكذلك قول بعضهم:

ولو أنَّ مابي من جوى وصبابة على حمل لم يبق في النار خالد
غفر الله له، والله تعالى يقول: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾^(٥) فقد جعل ولوج الجمل في السمَّ غاية لنفي دخولهم الجنة، وتلك غاية لا توجد فلا يزال دخولهم الجنة منفيًا، وهذا الشاعر وصف جسمه بالتحول، بما يناقض الآية. ومن هذا جرت مناظرة بين أبي العباس أحمد بن سريح^(٦) ومحمد ابن داود الظاهري^(٧) قال أبو العباس له: أنت تقول بالظاهر وتنكر القياس، فما

(١) البرهان في علوم القرآن للإمام بدر الدين الزركشي ج ١ ص (٤٨٤) وما بعدها تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم. الطبعة الأولى سنة ١٣٧٦ هـ ١٩٥٧ م طبع دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه

(٢) أضيقت

(٣) سورة الأنعام: الآية (١٥٢)

(٤) نقله السيوطي في الجامع الصغير ٢: ٢٢١ عن الترمذي ولفظه فيه: لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ماسقى الكافر منها شربة ماء

(٥) سورة الأعراف: الآية (٤٠)

(٦) هو القاضي أحمد بن عمر بن سريح أبو العباس البغدادي، الشافعي، شيخ المذهب، وحامل لوائه، ذكره

السبكي وأورد المناظرة التي قامت بينه وبين داود الظاهري في طبقات الشافعية ٢: ٨٧

(٧) هو أبو بكر محمد بن داود بن علي بن خلف الأصبهاني المعروف بالظاهري، الفقيه الأديب الشاعر.

تقول في قوله الله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (١) فمن يعمل مثقال نصف ذرة ما حكمه؟ فسكت محمد طويلاً وقال: أبلغني ريفي، قال له أبو العباس: قد أبلغتكَ دجلة، قال: أنظرنني ساعة، قال: أنظرتك إلى قيام الساعة، وافترقا، ولم يكن بينهما غير ذلك.

وقال بعضهم: وهذا من مغالطات ابن سريح وعدم تصور ابن داود، لأن الذرة ليس لها أبعاد فتمثل بالنصف والربع وغير ذلك من الأجزاء، ولهذا قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ (٢) فذكر سبحانه مالا يتخيل في الوهم أجزاءه، ولا يدرك تفرقه (٣).

وقال ذو الرمة - يذكر دلوأ أرسلها في ركبه -:

فجاءت بنسجٍ من صناعٍ ضعيفةٍ تنوش كأخلاق الشفوف ذعالبه (٤)
هي أنسجته وحدها أو تعاونت على نسجه بين الشياب عناكبه

ومن مستحسن تشبيهاته التي تدخل في هذا الباب قوله في وصف الظليم:

وبيض رفعنا بالضحى عن متونها سماوة جويد كالحباء المقوص (٥)
هجوم عليها نفسه غير أنه متى يرم في عينيه بالشخص تنهض
يصرف للأصوات من كل جانب سماحاً كبيت العنكبوت المغمص

وقال الحكمي وذكر الخمر:

(١) سورة الزلزلة: الآيتان (٧، ٨).

(٢) سورة النساء: الآية (٤٠).

(٣) نفس المصدر السابق والجزء والصفحة.

(٤) الكلمات: الشفوف مارق من الملابس، الذعالب المتمزق من الشياب.

(٥) الأبيات في ديوانه ص (٤١٤).

هَتَكَتُ عَنْهَا وَاللَّيْلُ مَنْسَدٌ مُهْلَهَلَ النَّسِجَ مَا لَهُ هُدْبٌ (١)
 مِنْ نَسِجٍ خَرَقَاءَ لَا يُشَدُّ لَهَا أَحْيَاةٌ فِي الثَّرَى وَلَا طُنْبُ

وقال البحرى وناسب بين نسج العنكبوت وبين الغرض في تشبيهه جنس من
 الثياب (٢):

أَيْنَ الدُّبِّيُّ الَّذِي سَمَدَتْ لَهُ أَيْدِي النَّسَاءِ فَجَاءَ طَوْعَ الْمُغْزَلِ (٣)
 وَالشَّرْبُ إِذْ يَحْكِي بَرَقَةَ نَسِجِهِ نَسِجَ الْعِنَاكِبِ فِي الْمَكَانِ الْمَهْمَلِ
 عَدَلَ الْهَوَاءِ إِذْ صَفَّتْ أَقْطَارُهُ وَأَرْقَهُ نَسْمُ الْخَرِيفِ الْمَقْبَلِ
 فَكَأَنَّهُ عَرَضَ يَقُومُ بِنَفْسِهِ فِي غَيْرِ مَا جَسَمَ لَهُ مُتَقَبَلِ

وهذا بخلاف المسلم المؤمن قلبه لله وهو مع ذلك يحسن العمل في اتباع
 الشرع (٤) فإنه متمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها لقوتها وثباتها. ثم قال متوعداً
 لمن عبد غيره وأشرك به، إنه تعالى يعلم ما هم عليه من الأعمال ويعلم علم اليقين
 ما يشركون به من الأنداد، وسيجزئهم وصفهم، إنه حكيم عليم، ثم قال
 تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ أي وما يفهما ويتدبرها إلا
 الراسخون في العلم المتضلعون منه.

عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: عقلتُ عن رسول الله ﷺ ألف
 مثل، وهذه منقبة عظيمة لعمرو بن العاص رضي الله عنه حيث يقول الله تعالى:
 ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾. وقال: عن عمرو بن مرة
 قال: ما مررتُ بآية من كتاب الله لا أعرفها إلا أحزني، لأنني سمعت الله تعالى
 يقول: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ (٥).

(١) الحكيم: هو أبو نواس الحسن بن هانئ والبيتان في ديوانه ص (١٠١).

(٢) الجمان في تشبيهات القرآن: ص (١٤٨، ١٤٩).

(٣) اللبيقي: ثياب منسوبة إلى دبيق.

(٤) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير القرشي الدمشقي ج ٣ ص (٣٨٧).

(٥) نفس المصدر السابق والجزء والصفحة.

(سورة الروم)

قال تعالى: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (١)

عن ابن عباس كقوله تعالى: ﴿ليس كمثله شيء﴾ (٢) وقال قتادة: مثله أنه لا إله إلا هو ولا ربَّ غيره، وقال مثل هذا ابن جرير. وقد أنشد بعض المفسرين عند ذكر هذه الآية لبعض أهل المعارف:

إذا سكن الغدير على صفاء وجنَّب أن يحركه النسيم
يرى فيه السماء بلا امتراء كذاك الشمس تبدو والنجوم
كذاك قلوب أرباب التَّجَلِّي يرى في صفوها الله العظيم

وهو العزيز الذي لا يغالب ولا يمانع بل قد غلب كل شيء، وقهر كل شيء بقدرته وسلطانه، الحكيم في أقواله وأفعاله شرعاً وقدرأً، وعن مالك في تفسيره المروي عنه عن محمد بن المنكدر في قوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ قال: لا إله إلا الله.

مثل آخر من هذه السورة:

قال تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٨) بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِّنْ نَّاصِرِينَ﴾ (٣) هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين به، العابدين معه غيره الجاعلين له شركاء وهم مع ذلك معترفون أن شركاءه من الأصنام والأنداد عبيد له، ملك له، كما كانوا يقولون: لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك. فقال تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي تشهدونه وتفهمونه من أنفسكم ﴿هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ أي يرضى أحدكم أن

(٢) نفس المصدر السابق والجزء والصفحة.

(١) سورة الروم: الآية (٢٧).

(٣) سورة الروم الآيتان: (٢٨، ٢٩).

يكون عبده شريكاً له في ماله فهو وهو فيه على السواء ﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ أي تخافون أن يقاسموكم الأموال. قال بعضهم: إن مملوكك لا تخاف أن يقاسمك مالك. وليس له ذاك، كذلك الله لا شريك له، (١) والمعنى أن أحدكم يأنف من ذلك، فكيف تجعلون لله الأنداد من خلقه؟ وهذا كقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ (٢) أي من البنات حيث جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً، وجعلوها بنات الله، وقد كان أحدهم إذا بشر بالأنثى ﴿ظَلَّ وَجْهَهُ مُسَوِّدًا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (٥٨) يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ﴿٣﴾ فهم يأنفون من البنات، وجعلوا الملائكة بنات الله، فنسبوا إليه ما لا يرتضونه لأنفسهم. فهذا أغلظ الكفر، وهكذا في المقام جعلوا له شركاء من عبده وخلقه. وأحدهم يأبى غاية الإباء ويأنف غاية الأنفة من ذلك، أن يكون عبده شريكه في ماله يساويه فيه ولو شاء لقاسمه عليه - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً - (٤) عن ابن عباس قال: كان يلبي أهل الشرك: لبيك اللهم لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك. فأنزل الله تعالى: ﴿هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾. ولما كان التنبية بمثل هذا المثل على براءته تعالى ونزاهته عن ذلك بطريق الأولى والأحرى. قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ثم قال تعالى مبيناً أن المشركين إنما عبدوا غيره سفهاً من أنفسهم وجهلاً: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي المشركون ﴿أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي في عبادتهم الأنداد بغير علم، ﴿فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ أي فلا أحد يهديهم إذا كتب الله إضلالهم ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ أي ليس لهم من قدرة الله منقذ ولا مجير ولا محيد لهم عنه، لأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن. هذا والله أعلى وأعلم بالصواب.

(١) انظر تفسير القرآن العظيم للإمام الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي ج ٣ ص (٤٠٣).

(٢) سورة النحل الآية (٦٢).

(٣) سورة النحل: الآيتان: (٥٨، ٥٩).

(٤) نفس المصدر السابق والجزء والصفحة.

(سورة الأحزاب)

قال تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (١٨) أَشْحَةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِالْسِّنَةِ حِدَادٍ أَشْحَةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١﴾ يخبر تعالى عن إحاطة علمه بالمعوقين لغيرهم عن شهود الحرب والقائلين لإخوانهم أي أصحابهم وعشرائهم وخلطائهم ﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ إلى مانحن فيه من الإقامة في الظلال والثمار، وهم مع ذلك ﴿لَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أشْحَةً عليكم، أي في الغنائم، ﴿٢﴾ ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ يعني قوما من المنافقين، كان النبي ﷺ إذا أمرهم بالقتال وأن يستعدوا له نظروا إليه شاخصة أبصارهم متغيرة ألوانهم ﴿٣﴾ فشبهم في خوفهم من الحرب بالخائف من الموت أي ينظرون إليك يامحمد إذا أمرتهم بأخذ الأهبة للحرب كما ينظر المغشي عليه من الموت وهذا التمثيل أبلغ في وصف الخائف من جميع الأوصاف وأوقع التشبيهات لمثل هذا الحال. وقال النابغة في نحو ذلك من تشبيه حال الخائف وذكر امرأة:

نظرت إليك بحاجة لم تقضها نظرت المريض إلى وجوه العود

أي نظرت نظر خائف وأرادت كلامك فلم تقدر على ذلك وهو حاجتها.
قال العقيلي:

أردن الكلام فاتقت من رقيها فما كان إلا إيماؤها بالحواجب

(١) سورة الأحزاب: الآيتان (١٨، ١٩)

(٢) انظر تفسير القرآن العظيم للإمام الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي ج ٣ ص (٤٤٣).

(٣) الجمان في تشبيهات القرآن تأليف عبدالله بن الحسين بن نايقا (ص ١٥٠، ومابعد).

وأخذ ابن الرومي لفظ النَّابِغَةِ فقال في تشبيه الشَّمْسِ عند غروبها وأغرب في الوصف:

إِذَا رَنَّقَتْ شَمْسُ الْأَصِيلِ وَتَقَضَّتْ عَلَى الْأَفْقِ الْغُرْبِيَّ وَرَسَاءً مُزْعَزَعًا
وَوَدَّعَتْ الدُّنْيَا لِتَقْضِي نَجْبَهَا وَشَوْلَ بَاقِي عُمْرِهَا فَتَشْعُشَعَا (١)
وَلَا حَظَّتْ النُّوَّارَ وَهِيَ مَرِيضَةٌ وَقَدْ وَضَعَتْ خَدًّا إِلَى الْأَرْضِ أَضْرَعًا
كَمَا لَاحَظَتْ عَوَادَهُ عَيْنٌ مُدْنِفٍ تَوَجَّعَ مِنْ أَوْصَابِهِ مَا تَوَجَّعَا

﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِاللِّسَانِ حِدَادٍ﴾ أي فإذا كان الأمن تكلموا كلاماً بليغاً فصيحاً عالياً، وادَّعوا لأنفسهم المقامات العالية في الشجاعة والنَّجْدَةِ، وهم يكذبون في ذلك، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: (سَلَقُوكُمْ)، أي استقبلوكم. وقال قتادة: أمَّا عند الغنيمة فأشح قوم وأسوأه مقاسمة: أعطونا أعطونا قد شهدنا معكم، أمَّا عند البأس فأجبن قوم وأخذلهم للحق، وهم مع ذلك أشحَّة على الخير، أي ليس فيهم خير قد جمعوا الجبن والكذب وقلة الخير، فهم كما قال في أمثالهم الشاعر:

أفي السلم أعيار جفاء وغلظة وفي الحرب أمثال النساء العوارك

أي في حالة المسألة كأنهم الحمر، والأعيار جمع غير وهو الحمار، وفي الحرب كأنهم النساء الحيض ولهذا قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَمْ يُمْنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ أي سهلاً هيناً عنده (٢).

(١) انظر الجمان في تشبيهات القرآن تأليف عبدالله بن الحسين بن نايقا (ص ١٥٠، ١٥١) تحقيق الدكتور محمود حسن أبو ناجي الشيباني.

(٢) انظر تفسير القرآن العظيم للإمام الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي ج ٣ ص (٤٤٣).

قوله تعالى: ﴿يَحْسُبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾^(١) وهذا أيضا من صفاتهم القبيحة في الجبن والخور والخوف ﴿يَحْسُبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا﴾، بل هم قريب منهم وإن لهم عودة إليهم ﴿وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ﴾ أي ويودون إذا جاءت الأحزاب أنهم لا يكونون حاضرين معكم في المدينة، بل في البادية يسألون عن أخباركم وما كان من أمركم مع عدوكم ﴿وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي ولو كانوا بين أظهركم لما قاتلوا معكم إلا قليلا لكثرة جنهم وذلهم وضعف يقينهم^(٢). والله أعلى وأعلم بالصواب.

(١) سورة الأحزاب: الآية (٢٠).

(٢) نفس المصدر السابق والجزء والصفحة.

(سورة سبأ)

قوله تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبٍ وَتَمَائِيلٍ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشُّكُورُ﴾^(١) المحارِب شريف البيت ولذلك سمي المحراب الذي يُصَلَّى فيه لأنه أشرف موضع في الدَّار. قوله تعالى: ﴿كَالْجَوَابِ﴾ أكثر القراء على الوقف بغير ياء، وكان الأصل الوقف بالياء^(٢) إلا أن الكسرة تنوب عنها، فكانت بغير ألف ولام والوقف عليها بغير ياء؛ فأدخلت الألف واللام وترك الكلام على ما كان عليه قبل دخولهما، والجوابي جمع جابية وهي الحوض الكبير، قال الأعشى:

نَفَى الذَّمَّ عَنْ آلِ الْمُحَلَّقِ جِفَنَةً كَجَابِيَةِ الشَّيْخِ الْعِرَاقِيِّ تَفَلَّقُ
تَرَى الْقَوْمَ شَارِعِينَ وَتَحْتَهُمْ مِّنَ النَّسْلِ وَلِدَاءً مَعَ الْقَوْمِ زَرَدَقُ^(٣)

﴿وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ﴾ أي ثابتات في أماكنها لا تتحرك ولا تتحول عن أماكنها لعظمتها^(٤) ويستشهد به في وصف أنية من اتصف بالكرم وكثرة الوفود إلى مائدته والإصابة من طعامه. (٥)

وقوله ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا﴾ أي وقلنا لهم: اعملوا شكراً على ما أنعم به عليكم في الدين والدنيا، وشكراً مصدر من غير الفعل، أو أنه مفعول به، وعلى

(١) سورة سبأ: الآية (١٣)

(٢) قرأ ابن كثير بالياء في الحاليين (الوصل والوقف) وقرأ أبو عمرو وورش بالياء في الوصل دون الوقف، وقرأ الباقون بحذف الياء في الحاليين وهم (قالون وابن عامر وعاصم وحمة والكسائي) ..

(٣) الجمان في تشبيهات القرآن تأليف عبد الله بن الحسين بن نايقا (١٥١) ومابعدھا.

(٤) انظر تفسير القرآن العظيم للإمام الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي المكي ج٣ ص (٢٤٢، ٢٤٣)

(٥) وانظر الشواهد والأمثال في القرآن الكريم تأليف الفريق يحيى عبد الله المعلمي ٢ (٢٥٦).

كلا التقديرين فيه دلالة على أَنَّ الشكر يكون بالفعل كما يكون بالقول والنية، كما قال الشاعر:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة يدي ولساني والضمير المحجبا

وقد كان آل داود عليهم السلام كذلك قائمين بشكر الله تعالى قولاً وعملاً، عن ثابت البناني قال: كان داود عليه السلام قد جزأ على أهله وولده ونسائه الصلاة، فكان لا تأتي عليهم ساعة من الليل والنهار إلا وإنسان من آل داود قائم يُصَلِّي، فغمرتهم هذه الآية ﴿اعملوا آل داود شكراً﴾ وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن أحب الصلاة إلى الله تعالى صلاة داود، كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه، وأحب الصيام إلى الله تعالى صيام داود، كان يصوم يوماً ويفطر يوماً، ولا يفر إذا لاقى»^(١) عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قالت أم سليمان بن داود عليهم السلام، لسليمان: يا بني لا تكثر النوم بالليل، فإن كثرة النوم بالليل تترك الرجل فقيراً يوم القيامة»^(٢) وقوله: ﴿وقليل من عبادي الشكور﴾ بيان تقصير الناس أو أكثرهم في شكر الله سبحانه وتعالى على ما أنعم به عليهم من نعم سابغة وافرة.^(٣)

قال لبيد بن ربيعة:

ويكللون إذا الرياحُ تناوحتُ شُرْعاً تمدّ شوارعاً أيتامُها
وقال سويد بن أبي كاهل:

وإذا هاجمتُ شمالاً أطعموا في قدورٍ مُشَبَّعاتٍ لم تُجَعْ
وجفان كالجوابي ملئتُ من سميناتِ الذري فيها تُرَعْ
وقال أبوخراس الهذلي:

كابي الرّمادِ وعَظِيمُ القِدرِ جَفَنَتُهُ حين الشتاء كحوضِ المنهلِ اللِّقفِ^(٤)

(١) المصدر السابق والجزء والصفحة.

(٢) نفس المصدر السابق والجزء والصفحة.

(٣) الشواهد والأمثال في القرآن الكريم ص (٢٥٦).

(٤) حوض المنهل: حوض الإبل العطاش، اللقف: السريع العجل في الأمور.

وقال ذو الرّمة:

فما مربعُ الجيران إلا جِفَانُكُمْ
لهنَّ إذا أصبحن فيهم أحفَةً
رجال ترى أبناءهم يخبِطُونَهَا
بأيديهم خبِطَ الرباع الجوابيا^(١)

وقال حسّان بن ثابت:

لنا الجفنانُ الغرُّ يلمعنَ في الدُّجى
وأسيافنا يقطرن من نجدة دَمًا^(٢)

وقال لآخر وذكر قوما:

ثِفَالُ الجفانِ والحلومِ رَحَاهُمْ
رحى الماءِ يكتالون كَيْلاً عَدَمَما^(٣)

قال أبو عبيدة: كان لعبدالله بن جدعان^(٤) جفنة يأكل منها القائم والراكب. وقد ذكر ذلك المدائني وذكر أنه وقع فيها صبي فغرق وذكر الكلبي وغيره قال: أصابت قريشاً أزمةٌ فخرج هاشم بن عبد مناف بالغرائر تحمل الإبل من الكعك وجمع ذلك في الجفان وطبخ لحوم الإبل فصبها عليه فكان أول خصبهم فخرج أمية بن عبد شمس يتكلف بعض ذلك فعجز عنه فسخرت منه رجالات قريش^(٥) فدعاه ذلك إلى منافرة هاشم فأبى هاشم المنافرة لفضله وسنه حتى دمّرت قريش فأبى إلا على أن ينفي المنفّر من الحرم عشر سنين فنافره على ذلك ، فقدم هشام عليه فقال بعض شعراء قريش:

(١) انظر المصدر السابق:

(٢) الجفان جمع جفنة: وعاء، يلمعن: يظهر لهن لمعان، يقطرن: يسكبْنَ

(٣) جفان: جمع جفنة وهي قصعة يوضع فيها الطعام، العذمذم غير الدقيق.

(٤) عبدالله بن جدعان التيمي أحد أشراف قريش في الجاهلية وقد مدحه كثير من الشعراء منهم أمية بن أبي

الصلت حيث يقول فيه: أذكر حاجتي أم قد كفاني
حياؤك إن شمتك الحياء

(٥) نفس المصدر السابق.

تَكَلَّفَ هَاشِمٌ مَاضِقًا عَنْهُ
أَتَاهُم بِالغَرَائِرِ مَتَأَقَاتٍ
فَأَوْسَعَ أَهْلَ مَكَّةَ مِنْ ثَرِيدٍ
وَوَظَلَ القَوْمَ بَيْنَ مَكَلَّلَاتٍ
وَفِي هَاشِمٍ يَقُولُ ابْنُ الزَّبْعَرِيِّ: (١)

لَه فِي فَنَاءِ البَيْتِ دَهْمَاءُ جَوْنَةٌ
بَقِيَّةُ قَدَرٍ مِنْ قَدُورٍ تُوَوَّرِثُ
يَظِلُّ الإِمَاءُ يَبْتَدِرْنَ قَدِيحَهَا

وقال الفرزدق:

بَعَثْتُ لَهُ دَهْمَاءَ لَيْسَتْ بَلْقَحَةٌ
كَأَنَّ المَحَالَ الغَرَافَ فِي حَجَلَاتِهَا
غَضُوبًا لِحِزُومِ النِّعَامَةِ أَجْمَشَتْ
مَحْضَرَّةٌ لَا يُجْعَلُ لِلسُّتْرِ دُونَهَا

وقال بعض الأسديين:

وَسُودَاءٌ لَا تُكْسَى الرِّقَاعَ نَبِيلَةٌ
إِذَا مَا قَرِينَاهَا قَرَاهَا تَضَمَّنَتْ

وقال آخر وذكر ضيفا:

نَصَبْنَا لَهُ جَوْفَاءَ ذَاتِ ضَبَابَةٍ
فَإِنْ شِئْتَ أَثُونِيكَ فِي الحِيِّ مُكْرَمًا

وَأَعْيَا أَنْ يَقُومَ بِهِ ابْنُ بَيْضِ
مِنْ أَرْضِ الشَّامِ بِالبَرِّ النَّقِيضِ
أَشَابَ الخَبِزَ بِاللَّحْمِ الغَرِيضِ
مِنْ الشَّيْزِيِّ جَوَانِبِهَا تَفِيضِ

تَلَقَّمُ أَوْصَالَ الجَزُورِ العِرَاعِرِ
لَأَلِّ الجَلَّاحِ كَابِرًا بَعْدَ كَابِرِ
كَمَا ابْتَدَرَتْ سَعَةَ مِيَاهِ قِرَاقِرِ

تَدْرَ إِذَا مَا هَبَّ عَسَّ عَقِيمُهَا (٢)
عِذَارِي بَدَتْ لَمَّا أَصِيبَ حَمِيمُهَا
بِأَجْوَازِ خَشْبٍ زَالَ عَنْهَا هَشِيمُهَا
إِذَا المَرَضِعُ العُوجَاءُ بَرِيمُهَا

لَهَا عِنْدَ فَرَاتِ العِشْيَاتِ أَزْمَلُ
جَرِي مِنْ عِدَاهَا أَوْ تَزِيدُ فَتَفْضَلُ

مِنْ الدُّهْمِ مِبْطَانًا طَوِيلًا رَكُودُهَا (٣)
وَإِنْ شِئْتَ بَلْغَنَّاكَ أَرْضًا تُرِيدُهَا

(١) ابن الزبيري كان من شعراء المشركين ثم أسلم وحسن إسلامه .

(٢) اللقحة: الناقة الحلوب، الدهماء: القدر، الحيزوم: الصدر .

(٣) جوفاء: ناقة ضامرة، أثونيك: أفتاك بيننا، بلغناك: أوصلناك .

وقال آخر وذكر ضيفاً:

وقُمتُ بنصلِ والبركُ هاجدٌ
فأغصصته الطولى سناماً وخيرها
وباتتُ رحابُ جونةٌ من لحامها
وقال مسكين الدارميُّ:

كأنَّ قدورَ قومي كلَّ يومٍ
كأنَّ الموقدين بها جمالٌ
بأيديهم مغارفٌ من حديدٍ
وقال آخر:

وقدِرَ كجوف الليل أجمشتُ غُلَّها
ونحوه في الإفراط قول الآخر:
ترى الباذلَ التحتيَّ فوقِ خِوانه
وقال عمرو بن أحمر:

ودهُمُ تصادينَا الولائد جِلَّةٌ
ترى كُملَ هرجا لجوج لهمة
لها لَغَطٌ جَنَحَ الظلام كأنَّه
إذا ركدتُ حَولَ البيوت كأنَّها
إذا جهلتُ إخوانها لم تُحَلِّمَ (٣)
زفوفَ بكو النَّابِ هَوَجَاءَ غَيْلِمَ (٤)
عجارفُ غَيْثِ رَائِحِ متَهزِّمِ
ترى الآلَ يجرى عن قنابل صِيمِ

يقول: ألا ترى الإهالة تجري من هذه القدرِ كما يجري السراب عن متون الخليل؟ وقال أبوذؤيب:

(١) البرك: جمع من الإبل، هاجد: نائم، هازورة: الناقة الكبيرة في حجمها.

(٢) نفس المصدر السابق ص (١٥٤، ١٥٥).

(٣) الولائد: جمع وليدة وهي الأمة، جِلَّةٌ: عظيمة القدر، الهرجاب: الطويلة، الزفوف: السريع في السير.

(٤) نفس المصدر السابق ص (١٥٦، ١٥٧، ١٥٨).

إذا ما سماء الناس قلَّ قَطَارُهَا
نضارٌ إذا لم ينتقدْها نُعَارُهَا

لنا صِرْمٌ يَنْحَرْنَ فِي كُلِّ شَتْوَةٍ
وسود من الصيْدَانِ مِنْهَا مَذَانِبٌ

وقال آخر:

إذا المحل لم يرجعْ بَعُودَيْنِ حَاطِبِهِ (١)

تَجِيْشُ بِأَوْصَالِ الْجَزُورِ قُدُورُنَا

وأشْد الجبلي للرقاشي:

تناول بعض الأقربين الأَقْصِيَا
لها فاستقلَّتْ فَوْقَهُنَّ أُنَافِيَا

لنا من عَطَاءِ اللَّهِ دِهْمَاءُ جَوْنَةٍ
جعلنا الآلَ وَالرَّجَامَ وَطَخْفَةَ

وللفرزديق يهجو عقبة بن جبار المنقري:

على الجُفُوفِ بَكَتْ قَدْرُ ابْنِ جِبَارٍ (٢)
ولا رأتْ بَعْدَ نَارِ الْكَبِيرِ مِنْ نَارِ

لو أن قَدْرًا بَكَتْ مِنْ طُولِ مَحَبْسِهَا
ما مَسَّهَا دَسْمٌ مُذْ فُضَّ مَعْدِنِهَا

ولأبي نواس في قَدْرِ الرَّقَاشِيِّ:

ويتزلها عفواً بغير جفال (٣)
لأخْرَجْتَ مَا فِيهَا بَعُودَ خِلَالِ

يَغْضُ بِحِيْزُومِ الْبَعُوضَةِ صَدْرَهَا
ولو جتَّتها ملأئى عَيْبِطًا مَجْدَلًا

وقال أيضاً: سأل يحيى بن خالد أبا الحرب حمير عن طعام رجل فقال أمأ مائدته فمقته وأمأ صحافه فمنقورة من حب الخشخاش وبين الرغبة والرغيف نقل جوزة وبين اللون واللون فترة نبي، قال فمن عصيره قال الكرام الكائنون، ونقيض هذه الحكاية ماحدثنيه سالم بن حسن عن ابن خلاد قال: سئل رغبة بن مصقلة عن مآدبة حضرها فقال: أتينا بخوان كأنه جونة من الأرض ورقاق كأذان

(١) أوصال: قطع من اللحم، الجزور: الناقة السمينة.

(٢) نفس المصدر والصفحات.

(٣) الحيزوم: الصدر، الجفال: الرغوة أو ما فار من القدر.

الفيلة وجرجير كأذان المعزى ثم أتينا بساكنة الماء كأنَّ ظهرها طائر قرطاس وبفالوذ
رعديد كأنَّ الزئبق والجادي^(١) ينبعان من خلاله ترى النقش من تحته.

وقال ابن جدعان: (٢)

له بفناء مَكَّة مشمعلٌ وآخرُ فوق كعبته ينادي^(٣)
إلى رُدْحٍ مِنَ الشَّيزَى^(٤) عليها لباب البرِّ يُلبَكُ بالشَّهادِ

العرب تسمي كلَّ بيتٍ مَرَبَّعٍ كعبةً ومنه كعبة نجران وكان أول من اتخذ بيتاً من
لحاء حميد بن زهير أحمد بن أسد عبدالعزى وكانوا في الجاهلية لا يبتنون بيتاً
مربّعاً تعظيماً للكعبة.

(١) نفس المصدر السابق ص (٥٧، ٥٨).

(٢) البيتان لامية بن أبي الصلت وكان أثيراً لعبدالله بن جدعان يمدحه وينال عطاءه.

(٣) الشمعل: السريع في الحركة، رُدْح: الواسعة، الشَّيزَى خشب متين تصنع منه القدور.

(٤) نفس المصدر السابق ونفس الصفحات.

(سورة فاطر)

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ (١)

كثيراً ما يستدلّ سبحانه على المعاد بإحيائه الأرض بعد موتها، كما في أول سورة الحج ينبه عباده أن يعتبروا بهذا على ذلك فإنّ الأرض تكون ميّنة هامدة لانبات فيها، فإذا أرسل إليها السحاب يحمل الماء وأنزله عليها ﴿اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج﴾ كذلك الأجساد إذا أراد الله تعالى بعثها ونشورها، أنزل من تحت العرش مطراً يعم الأرض جميعاً، ونبتت الأجساد في قبورها كما تنبت الحبة في الأرض، ولهذا جاء في الصحيح: «كلّ ابن آدم يبلى إلا عجب الذنب، منه خلق ومنه يركب» ولهذا قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ وتقدم في سورة الحج حديث أبي رزين: قلتُ: يارسول الله كيف يحيى الله الموتى؟ وما آية ذلك في خلقه؟ (٢) قال ﷺ: «يا أبا رزين أما مررت بوادي قومك محلاً ثم مررت به يهتز أخضر» قلتُ: بلى، قال ﷺ: «فكذلك يحيى الله الموتى».

مثل آخر في هذه السورة: قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ (٢٦) وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ (٢٥) وَلَا الظُّلُّ وَلَا الْحُرُورُ (٢١) وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ (٢٢) إِنَّ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ (٣) يقول تعالى: كما لا تستوي هذه الأشياء المتباينة المختلفة كالأعمى والبصير لا يستويان، بل بينهما فرق وبون كثير، وكما لا تستوي الظلمات ولا النور، ولا الظل ولا الحرور، كذلك لا تستوي الأحياء ولا الأموات، وهذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمنين وهم الأحياء، وللكافرين وهم الأموات (٤) كقوله تعالى: ﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ

(١) سورة فاطر: الآية (٩).

(٢) انظر تفسير القرآن العظيم للإمام الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي ج ٣ ص (٥١١).

(٣) سورة فاطر: الآيات: (١٩، ٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٣).

(٤) نفس المصدر السابق والجزء ص (٥١٤) وما بعدها.

نوراً يمشى به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها» (١) وقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ (٢) فالْمؤمن بصير سميع في نور يمشى على صراط مستقيم في الدنيا والآخرة حتى يستقر به الحال في الجنات ذات الظلال والعيون، والكافر أعمى وأصم في ظلمات يمشى لا خروج له منها، بل هويته في غيّه وضلاله في الدنيا والآخرة حتى يفضى به ذلك إلى الحرور والسموم والحميم، ﴿وظِلٌّ مِّنْ يَحْمُومٍ﴾ (٤٣) لا باردٍ ولا كريم» (٣) وقوله تعالى: ﴿إِن اللّٰه يسمِع من يشاء﴾ أي يهديهم إلى سماع الحجّة وقبولها والانقياد لها. ﴿وما أنت بمسمع من في القبور﴾ أي كما لا ينتفع الأموات بعد موتهم وصيرورتهم إلى قبورهم وهم كفار بالهداية والدعوة إليها، كذلك هؤلاء المشركون الذين كتب عليهم الشقاوة لا حيلة لك فيهم ولا تستطيع هدايتهم ﴿إن أنت إلا نذير﴾ أي إنما عليك البلاغ والإنذار (٤)، والله يضل من يشاء ويهدي من يشاء وفي هذا المثل المتضمن لآياته الأربع قد وضع المثل به موضع المثل له تأكيداً للمثالة. هذا والله أعلى وأعلم بالصواب.

(١) سورة الأنعام: الآية (١٢٢).

(٢) سورة هود: الآية (٢٥).

(٣) سورة الواقعة: الآيتان: (٤٣، ٤٤).

(٤) نفس المصدر السابق والجزء والصفحة.

(سورة يس)

قال تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ (١) قرىء بنصبه ورفعه، أما نصبه فعلى تقدير فعل يفسره الفعل المذكور بعده والمعنى قدرنا القمر قدرناه، (٢) والرفع على أنه معطوف على ﴿وآية لهم﴾ ويجوز أن يكون على الابتداء، وقدرنا الخبر (٣) ﴿مَنَازِلَ﴾ أي جعلناه يسير سيرا آخر يستدل به على مضيّ الشهور، كما أن الشمس يعرف بها الليل والنهار، كما قال سبحانه ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ (٤) وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ﴾ (٥) الآية، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ (٦) فجعل الشمس لها ضوء يخصصها، والقمر له نور يخصصه، وفاوت بين سير هذه وهذا، فالشمس تطلع كل يوم وتغرب في آخره على ضوء واحد، ولكن تتقل في مطالعها ومغاريها صيفا وشتاء، يطول بسبب ذلك النهار ويقصر الليل، ثم يطول الليل ويقصر النهار، وجعل سلطانها بالنهار فهي كوكب نهاري، وأما القمر فقدره منازل يطلع في أول ليلة من الشهر ضئلا قليل النور، ثم يزداد نورا في الليلة الثانية ويرتفع منزلة، ثم كلما ارتفع ازداد ضياءً. وإن كان مقتبسا من الشمس حتى يتكامل نوره في الليلة الرابعة عشرة، ثم يشرع في النقصان إلى آخر الشهر حتى

(١) سورة يس: الآية (٣٩).

(٢) وهي قراءة ابن عامر وعاصم وحزمة والكسائي.

(٣) وهي قراءة الباقرين وهم: نافع وابن كثير وأبو عمرو.

(٤) سورة البقرة: الآية (١٨٩).

(٥) سورة يونس: الآية (٥).

انظر تفسير القرآن العظيم للإمام الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي ج٣ ص ٥٣٣ وما بعدها.

(٦) سورة الإسراء الآية (١٢)

يصير كالعرجون القديم . قال ابن عباس رضي الله عنهما : وهو أصل العذق^(١) وقال مجاهد : العرجون القديم أي العذق اليابس يعني ابن عباس رضي الله عنهما أصل العنقود من الرطب إذا عتق ويس وانحنى ، وكذا قال غيرهما ، ثم بعد هذا يديه الله تعالى جديداً أول الشهر الآخر ، والعرب تسمي كل ثلاث ليال من الشهر باسم باعتبار القمر ، فيسمون الثلاث الأولى غرر ، واللواتي بعدها نقل واللواتي بعدها تسع ، لأن أحرهن التاسعة في اللواتي بعدها عشر ، لأن أولهن العاشرة ، واللواتي بعدهن البيض ، لأن ضوء القمر فيهن إلى آخرهن ، واللواتي بعدهن درع جمع درعاء ، لأن أولهن أسود لتأخر القمر في أولهن منه ، ومنه الشاة الدرعاء وهي التي رأسها أسود ، وبعدهن ثلاث ظلم ، ثم ثلاث حنادس ، وثلاث دأدى ، وثلاث محاق لانحاق القمر أول الشهر فيهن . وكان أبو عبيدة رضي الله عنه ينكر التسع والعشر . وكذا قال في كتاب غريب المصنف . وقوله تعالى : ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾^(٢) قال مجاهد : لكل منهما حدٌ لا يعدوه ولا يقصر دونه ،^(٣) إذا جاء سلطان هذا ذهب هذا ، وإذا ذهب سلطان هذا جاء سلطان هذا ، قوله تعالى : ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ قال : ذلك ليلة الهلال عن عبد الله بن المبارك أنه قال : إن للريح جناحاً ، وإن القمر يأوي إلى غلاف من الماء . عن أبي صالح : لا يدرك هذا ضوء هذا ، ولا هذا ضوء هذا وقال عكرمة في قوله سبحانه : ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ يعني أن لكل منهما سلطاناً ، فلا ينبغي للشمس أن تطلع بالليل . وقوله تعالى : ﴿وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ يقول : لا ينبغي إذا كان الليل أن يكون ليل آخر حتى يكون النهار ، فسلطان الشمس بالنهار وسلطان القمر بالليل ، وقال الضحاك : لا يذهب الليل من هاهنا حتى يجيء النهار من هاهنا ، وأوماً بيده إلى المشرق ، وقال مجاهد : ﴿وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ يطلبان حثيثين ينسلخ أحدهما من الآخر ، والمعنى في هذا أنه لا فترة بين الليل والنهار ،

(١) نفس المصدر السابق والجزء والصفحة .

(٢) سورة يس : الآية (٤٠) .

(٣) نفس المصدر السابق والجزء والصفحة .

بل كل منهما يعقب الآخر بلا مهلة ولا تراخ^(١) لأنَّهما مسخران دائبين يتطالبان طلباً حثيثاً. وقوله تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ يعنى الليل والنَّهار والشمس والقمر كلهم يسبحون بمعنى أنهم يدورون في فلك السماء، قاله ابن عباس وغير واحد من السلف. (٢) وإنما سمي فلکاً لاستدارته ومنه فلکة المغزل، وقال مجاهد: الفلك كحديدة الرحي، أو كفلكة المغزل، لا يدور المغزل إلا بها، ولا تدور إلا به. وفلك ثدي المرأة، قال الشاعر:

بعيدات مهوى كل فرطٍ عقدنه يطأف الحشا تحت الشدي الفوالك^(٣)

وقد شبهت الشعراء القمر في أول طلوعه فأكثرت ولم تأت بتشبيه القرآن مع استقصائها وبحثها في ذلك وطلب الآخر التقدّم على الأول واعتماد كل منهم الإغراب في القول والزيادة في التشبيه على غيره حتى تشبهه بعض العرب بقلامه الظفر فقال:

كأن ابن منزلتها جانحاً قسيطٌ لدى الأفق من خنصر^(٤)
وزاد الآخر في معنى التشبيه فقال:

ولا قمرٌ إلا صغيرٌ كأنه قلامه أظفور الفتاة المخضب^(٥)
وقال العباسي في هذا التشبيه وذكر زائراً:

ولاح ضوء هلالٍ كاد يفضحه مثل القلامه قد قُدت من الظفر

(١) نفس المصدر السابق والجزء والصفحة.

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) انظر الجمان في تشبيهات القرآن تأليف عبدالله بن الحسين بن نايقا تحقيق الدكتور محمود حسن أبونايجي الشيباني ص (١٥٩).

(٤) ابن منزلتها: الهلال، جانحاً: منحرفاً شاذاً.

(٥) المخضب: المزين بالحناء.

وقال بعض العرب في غير هذا التشبيه وأحسن

لقد سرّني أن الهلال غُدِيَّةٌ بدا وهو محقور الخيال رقيق^(١)
طواه مرورَ الدهرِ حتى كأنه عَنانٌ لواه باليدين رقيق

وللمحدثين فيه تشبيهات مخترعة منها قول ابن المعتز:

انظر إليه كزورقٍ من فبْضَةٍ قد أنقلتهُ حمولةً من عنبرِ
وقوله أيضاً:

وقد بدتُ فوق الهلالِ كُرِيَّةٌ كهامةِ الأسودِ شابتُ لِحيتَهُ
وقوله أيضاً:

في ليلةٍ أكلَ المَحَاقِ هِلَالَهَا حتى تبدأً مثلَ وقْفِ العَاجِ
وقال الآخر:

ما للهلالِ ناحلاً في المغرب كالنُّونِ إذا حُطَّ بماءِ الذهبِ

وقد شبهوا أنضاء الركائب بالأهلة فقال بعض العرب وهو من أبيات المعاني:
ضَمِنْتُ لَهُمْ أَرْمَاقَهُمْ أَسَارَهَا وَجَرُمُوهَا كَأَهْلَةَ المَحْلِ

يصف قوماً اقتظوا إبلهم فشربوا ما في كروشها بعد ما أنضأها السير^(٢)
وقال ذو الرمة:

أَمَلْتُ بِنَا وَالعَيْسِ حَسْرَى كَأَنَّهَا أَهْلَةٌ مَحَلٌّ زَالٌ عَنْهَا قَتَامُهَا^(٣)

(١) غُدِيَّةٌ: أول النهار، لواء: بيرق، عنان: حبل. دقيق: رقيق.

(٢) انظر الجمان في تشبيهات القرآن تأليف عبدالله بن الحسين بن نايقا تحقيق الدكتور محمود حسن أبو نواجي الشيباني ص (١٨٦-١٨٧-١٨٨).

(٣) العيس: الإبل البيضاء وهي خيار الإبل قال الشاعر:

كالعيس في البيداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمول

وقال أيضاً في تشبيه النوى بالأهلة:

فلم يَدْرِ إلا الله ما هيَّجتْ لنا أهلةً آتاءَ الديارِ وشامُها (١)

وقال جرير يذكر ما أبلتْ السنون من جديده وحنّت من عوده حتى عاد كالهلال وأحسن:

أي مَر السنين أَخَذْنَ مني كما أَخَذَ السَّرارُ من الهلال (٢)

فأما تشبيههم الوجوه بالأهلة والقمران فمشهود كثير في أشعارهم ومنه قول ذي الرمة:

كأنَّ الناسَ حينَ يمرُّ حتى هوائقَ لم تكن تدع الحجالا
قياماً ينظرون إلى بلالٍ رفاقِ الحجِّ أبصرتِ الهالالا

ويستحسن القول الأول:

بيضاء أنسه الحديث كأنها قمرٌ توسَّطَ جُنحَ ليلٍ مُبرِدٍ

ومن بليغ الكلام وأخصره قول بعض العرب وقد خلا بمن أحبه: «ما زال القمر يرينها حتى إذا غاب أرتنيه»، وأخذ ذلك البحري فقال:

أضرتْ بضوءِ البدرِ والبدرُ طالعٌ وقامتْ قوَامُ البدرِ لما تغيباً

إلا أن قول الأعرابي أسبق وأحذق، أنشده أحمد بن يحيى: (٣)

إذا احتجبتْ لم يكفك البدرُ دونها ويكفيك منها البدرُ إن فُقد البدرُ

(١) جمع شامة وهي ما يبقى بعد نزول المطر، وآتاء جمع نوى وهي الحاجز، أهيجت: أثار.

(٢) السرار: آخر ليلة من الشهر.

(٣) أحمد بن يحيى أحد رواة الأدب في العصر العباسي.

قال عليُّ بن الجهم: قلتُ لجارية لي: نجعل الليلة مجلسنا في القمر، فقالت: ما أولعك بالجمع بين الضرائر.

قال ابن محمد التَّميمي يمدح المستعين^(١):

وقائلةٍ والليل قد نَشَرَ الدُّجَى فغشَّى به ما بين سهلٍ وقرْدٍ
أرى بارقاً يبدو من الجوسق الذي به حلٌّ ميزانُ النبيِّ محمد
فظلَّ عذارى الجزع ينظمن حوله ظفارية الجَزَع الذي لم يُسَرِّدِ
فقلتُ هو البدرُ الذي تعرفينه وإلا يكن فالنورُ من وجهِ أحمدِ

عن بعض المحدثين أيضاً:

ومأخوذة بالطرف من كلِّ جانبٍ مُقسِّمة بين الظنون الكواذبِ
لها منظرٌ لو كان للبدر مثله تأخَّر كبراً عن جوار الكواكبِ

وقد عكسوا التَّشبيه أيضاً في هذا الباب فقال الآخر:

والبدرُ في أفق السماء كأنَّه وجهٌ أحاط به قِناعُ أزرقُ

وقال ابن المعتز في المعنى وجمع بين تشبيهين إلا أنه أورد ذلك في بيتين:

وكأنَّ البدرَ لَمَّا لا حَ من تحت الثُّريا
مَلِكٌ أقبلَ في تا جِ يُفدَى ويُحيَا

وقد قرن تشبيه الهلال بتشبيه الثريا أيضاً في غير هذا المعنى فجمع بين تشبيهين

في بيت فقال: (٢)

(١) المستعين: خليفة عباسي.

(٢) انظر الجمان في تشبيهات القرآن ص (١٧٨-١٧٩).

تبدو الثرياً كفاغرٍ شرهٍ يفتح فاه لأكل عنقود^(١)

وأهل العلم بالشعر مجمعون على أنه أحسن التشبيه ما يقابل به تشبيهان
بمشبهين وأن أحدا لم يقل أحسن من قول امرئ القيس:

كَانَ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْبًا وَيَابَسًا لَدَى وَكْرِهَا العَنَابُ والحشْفُ البَالِي

وحكي أن بشّارا قال: ما زلتُ مذ سمعتُ امرأ القيس أزاول أن أقابل شبيهين
بتشبيهين حتى قلت:

كَانَ مِثَارَ النَّقْعِ فَوْقَ رءِوسِنَا وَأَسِيافِنَا لَيْلٌ تَهَاوَى كَوَاكِبُهُ

(١) شره: نهم، عنقود: هو عنقود العنب.

(سورة الصافات)

قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عَيْنٍ (٤٨) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ (٢) وصف نساء أهل الجنة بأنهن قاصرات الطرف، أي عفيفات لا ينظرن إلى غير أزواجهن، قاله ابن عباس رضي الله عنهما (٢).

وقوله تعالى: ﴿عَيْنٍ﴾ قال مقاتل: العين: الحسان الأوجه. وعين حوراء: شديدة السواد، نقيّة البياض، طويلة الأهداب مع سوادها، كاملة الحسن، ولا تسمى المرأة حوراء حتى يكون مع حور عينها بياض لون الجسد، فوصفهن بالبياض والحسن والملاحة كما قال: ﴿خيرات حسان﴾ فالبياض في ألوانهن، والحسن في وجوههن، والملاحة في عيونهن، وقد وصف الله سبحانه نساء أهل الجنة بأحسن الصفات، ودلّ بما وصف بما سكت عنه (٣) قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ يعني مصون لم تمسه الأيدي، وقال السدي: البيض في عشه مكنون، وقال سعيد بن جبير: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ يعني بطن البيض، وقال عطاء هو السحاء الذي يكون بين قشرته العليا ولباب البيضة، وقال السدي: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ يقول: بياض البياض حين نزع قشرته واختاره ابن جرير لقوله: ﴿مَكْنُونٌ﴾، قال والقشرة العليا يمسها جناح الطير والعش وتناولها الأيدي بخلاف داخلها والله أعلم.

عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله، أخبرني عن قول الله عز وجل: ﴿حورعين﴾ قال «العين الضخام العيون شفر الحوراء بمنزلة جناح النسر» قلت: يا رسول الله، أخبرني عن قول الله عز وجل ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ رقتهن كرقّة الجلد التي رأسها في داخل البيضة التي تلي القشر. (٤)

عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «أنا أول الناس خروجاً إذا

(١) سورة الصافات: الآيتان: (٤٨، ٤٩).

(٢) انظر تفسير القرآن العظيم للإمام الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي ج ٤ ص (٨٧) ط: دار المفيد - بيروت - لبنان الطبعة الأولى سنة ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م.

(٣) البيان في اقسام القرآن . لشمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية المتوفى سنة (٧٥٢هـ) ط: دار الكتاب العربي.

(٤) انظر تفسير القرآن العظيم للإمام الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي ج ٤ ص (٧، ٨).

بعثوا، وأنا خطيبهم إذا وفدوا، وأنا مبشرهم إذا حزنوا، وأنا شفيعهم إذا حبسوا،
لواء الحمد يومئذ بيدي، أنا أكرم ولد آدم على الله عز وجل ولا فخر، يطوف عليّ
ألف خادم كأنهن البيض المكنون. أو اللؤلؤ المكنون»^(١) وقد تناقل الشعراء هذا
التشبيه، فقال العبادي:

كدمى العاج في المحاريب أو كالبيض في الروض زهره مُستتيرٌ

وقد استحسّن هذا البيت جماعة من أصحاب المعاني وذكروا فيه أنه شبه ألوان
التياب التي عليهن بأنوار نور الرياض، وزهوة حمرة وصفرته وجعل البيض في
الروض ليكون أحسن له وكذلك قالت الأوسية أحسن الأشياء القصور البيض في
الحدائق الخضراء إلا أنه لم يوصف البيض في هذا الباب بأحسن ولا أجمع
معاني^(٢) الوصف مما نطق به التنزيل، فإن لفظة «مكنون» متضمنة معنى السلامة
والخلوص من جميع الشوائب التي تنقص رونقه، وتشين بياضه وتكشف بهاءه،
وهذه زيادة على ما ذكره الشاعر لأنّ نساء الجنة غنيات عن الوصف الذي أشار
بالتشبيه إذا كانت الجنة أنضر من الروض حسناً وأبهى منظرأً وعلى إثارة الشعراء من
تشبيه النساء بالبيض ووصفه بما يدل على حال المشبه به فما أتوا ببلاغة تشبيهه
القرآن، ولا قدروا على نقل لفظه من هذا المكان، وقد أطلوا وأقصروا، وأوردوا
وأصنروا فقال زهير:

أو بيضة الأدحي بات شعارها كنف النعمة جوجو وهواء^(٣)

وقال الآخر:

أو بيضة بالوعي من فوق مطرق يجللها رق الجناح ظليم^(٤)
بأحسن منها يوم قالت بدلها كأنك مذخنت الفراق سقيم^(٥)

(١) نفس المصدر السابق والجزء والصفحة.

(٢) انظر الجمان في تشبيهات القرآن تأليف عبد الله بن الحسين بن نايقا ص (١٩١، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٤).

(٣) الشعراء: الرداء، كنف الشيء: ناصيته وظله، الجوجو. الخيزوم، الأدحي: المكان الذي تضع النعمة بيضها
عنده، كنف النعمة: جناحها.

(٤) انعفاء: الريش الصغير أو الزغب الدقيق، الظليم: ذكر النعمة، سقيم: مريض.

(٥) نفس المصدر السابق والصفحات.

وقال المخيل وذكر امرأة أيضا :-

وثرْيُكَ وَجَهًا كَالوَذِيلَةِ لَا
أَوْ بِيضَةِ الدَّعْصِ التِّي وَضَعْتَ
نَسَفْتَ فَرَائِنَهَا وَأَدْفَأَهَا
وقال ابن ميادة في مثله :

كَأَنَّهَا وَهِيَ عَلَى طِيئِهَا
بِيضَةٌ أَدْحَى لَهَا حَاضِرٌ
فِي رَوْضَةٍ خَضِرَاءَ مُوسُومَةٍ
أَقْلَعُ عَنْهَا وَهِيَ فِي رَادِهَا
وقال عبد بني الحسحاس :

فَمَا لَيْلَةٌ بِيضَةٌ بَاتَ الظَّلِيمُ بِحَقِّهَا
وَيَجْعَلُهَا بَيْنَ الجَنَاحِ وَرَدْفِهِ
وَيَرْفَعُ عَنْهَا وَهِيَ بِيضَاءُ طَلَّةٌ
بِأَحْسَنِ مِنْهَا يَوْمَ قَالَتْ أَرَائِحُ
ويرفع عنها جُوجُؤًا متجافيا (٣)
ويفرشها وشفأ من الزق وافيأ (٤)
وقد صادفتُ قرناً من الشمس ضاحيا
مع الركب أم ثاوٍ لدينا ليأليا

وأول من نطق بهذا التشبيه من الشعراء امرؤ القيس في قوله :

كَيْكِرِ المِقَانَةَ البِيضِ بَصْفَرَةٍ
غَذَاهَا نَمِيرُ المَاءِ غَيْرَ مُحَلَّلِ

(١) الوذيلة: الصحيفة. جهم: عابس.

(٢) طيئها: رائحتها الزكية، المسك والعنبر: نوعان من الطيب، موسومة: معلّمة.

(٣) الظليم: ذكر النعامة، ثاوٍ: مقيم: طلة: مبتلة بالماء، الركب: المسافرون.

(٤) نفس المصدر السابق والصفحات.

وهو من الهجئة والكلفة وتعسف العبارة على ماتراه، فأما قوله:
(وبيضة خدر لايرام خباؤها) فهو من باب الاستعارة وقد كنى ذو الرمة عن
البيض بصفة النساء فقال:

ويبيض رفعنا بالضحي عن متونها سماء مجون كالجناء المقوض (١)
وقال ذو الرمة أيضا يُشبهُ البيض بالنجوم:

يُغادرُ في الأدحى بيضاً كأنه نُجومُ الثريا لاح بين السحاب

وعكس ابن المعتز هذا التشبيه فقال:

وترى الثريا في السماء كأنها بيضات أدحى يلحن بفرد (٢)

والشعر في هذا البيت كثير جدا وحسبك مابلغك المحل .

مثل آخر من هذه السورة:

قال تعالى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ (٣)

قال ابن عباس كان لأهل مكة جبال قبيحة المنظر كانوا يسمونها رؤوس الشياطين لقبحها إذا نظروا إليها فشبه لهم ثمر الزقوم في المنظر بتلك الجبال، وإنما شبهها ﴿رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ وإن لم تكن معروفة عند المخاطبين لأنه قد استقر في النفوس أن الشياطين قبيحة المنظر (٤)، ويجوز أيضاً حمل ذلك على مذهب العرب في تسميتهم كل ما يستفظعونه شيطانا (٥)، وتشبيهم بالشياطين على سبيل التهويل قال الشاعر:

(١) والبيض: بيض النعام، جون. أسود وهو ذكر النعام، المقوض: المهتم.

(٢) نفس المصدر السابق والصفحات.

(٣) سورة الصافات: الآيتان: (٦٤، ٦٥)

(٤) تفسير القرآن العظيم للإمام الحافظ أبي الفداء اسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي ج ٤ ص (١٠).

(٥) نفس المصدر السابق ص (١٩٥).

(ماليلة الفقير إلا شيطان)^(١) الفقير بئر معروفة قال امرؤ القيس وذكر رجلا:

أَيَقْتَلُنِي وَالْمَشْرَفِي مُضَاجِعِي وَمَسْنُونَةٌ زَرَقٌ كَأَيَابِ أَعْوَالِ

ولما ذكر الله تعالى شجرة الزقوم افتنن بذكرها المشركون فقال بعضهم: النار تأكل الشجر فكيف ينبت فيها الشجر فلذلك قال سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾^(٢) يعني الملعون أكلها وقال عز وجل في سورة أخرى: ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزُّقُومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾^(٣) وقال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يَكُلُونَ مِنْهَا فَمَا لَيْسَ مِنْهَا الْبُطُونُ﴾^(٤) الزقوم: كل ما أكل بتكره شديد ولهذا يقال: قد ترقم هذا الطعام ترقماً أي هو في حكم ما أكله بتكره شديد لأنه يحشو به فمه ويأكله بشره فيه ومن هاهنا غلط بعض المشركين فأتى بتمر وزبد وقال: ما نعرف الزقوم إلا هذا فتزقّموا أي املاؤا به أفواهكم^(٥). المهل: الشيء يذاب حتى يسيل بالنار، وهو مهل لأنه يمهل في النار حتى يذوب وهم يصفون كل مدموم من الطعام بأنه يغلي في البطن كأكل الربا والغصب ونحوه وكذلك يقولون الحقد يغلي في قلبه، والعداوة تغلي في صدره على سبيل الاستعارة قال الشاعر:

وَأَلَدُّ ذِي حَنْقٍ عَلَيَّ كَأَنَّمَا تَغْلِي عِدَاوَةٌ صَدْرِهِ فِي مِرْجَلٍ^(٦)

وقرأ ابن كثير وابن عامر وحفص عن عاصم (يغلي) بالياء على التذكير وقرأ الباقر بالتاء على التأنيث^(٧).

(١) نفس المصدر السابق ص (١٩٥).

(٢) سورة الإسراء: الآية (٦٠).

(٣) سورة الدخان: الآيات: (٤٣، ٤٤، ٤٥، ٤٦).

(٤) سورة الصافات: الآية (٦٦).

(٥) نفس المصدر السابق والصفحة.

(٦) ألد: شديد العداوة، حنق: غضب شديد، المرجل، القدر

(٧) نفس المصدر السابق والصفحة.

(سورة الزمر)

قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانَتْ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَئِكَ الْأَلْبَابُ﴾ (١) يقول الله عز وجل: آمن هو صفته كمن أشرك بالله وجعل له أنداداً، لا يستون عند الله كما قال تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ (٢) وقال تعالى «هاهنا» آمن هو قانت آناء الليل ساجداً، وقائماً أي في حال سجوده وفي حال قيامه ولهذا استدل بهذه الآية من ذهب إلى أن القنوت هو الخشوع في الصلاة ليس هو القائم وحده كما ذهب إليه آخرون. عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: القانت المطيع لله عز وجل ورسوله ﷺ وقال ابن عباس وغير واحد من السلف: ﴿آنَاءَ اللَّيْلِ﴾ جوف الليل. وقال الثوري عن منصور: بلغنا أن ذلك بين المغرب والعشاء (٣)، وقال الحسن وقتادة ﴿آنَاءَ اللَّيْلِ﴾ أوله وأوسطه وآخره. وقوله تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ أي في حال عبادته خائف، راج ولا بد في العبادة من هذا وهذا وأن يكون الخوف في مدة الحياة هو الغالب ولهذا قال تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ فإذا كان عند الاحتضار فليكن الرجاء هو الغالب عليه، عن أنس رضي الله عنه قال: دخل رسول الله ﷺ على رجل وهو في الموت فقال له: «كيف تجددك؟» فقال: أرجو وأخاف، فقال رسول الله ﷺ «لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الوطن إلا أعطاه الله عز وجل الذي يرجو وأمنه الذي يخافه» رواه الترمذي والنسائي في اليوم واللييلة وابن ماجه.

وقال الترمذي: غريب، وقد رواه بعضهم عن ثابت بن أنس مرسلاً.

عن ابن عمر رضي الله عنهما يقرأ: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانَتْ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ قال ابن عمر: ذاك عثمان بن عفان رضي الله عنه، وإنما قال

(١) سورة الزمر: الآية (٩). (٢) سورة آل عمران: الآية (١١٣).

(٣) تفسير القرآن العظيم للإمام الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي ج ٤ ص (٤٢، ٤٣).

ابن عمر رضي الله عنهما^(١) ذلك لكثرة صلاة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه بالليل وقراءته حتى أنه قرأ القرآن في ركعة كما روى ذلك أبو عبيدة عنه رضي الله تعالى عنه، وقال الشاعر:

ضحوا بأشمط عنوان السجود به يقطع الليل تسيحاً وقرآناً

وقال الإمام أحمد: كتب إليّ الربيع بن نافع عن تميم الداري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «من قرأ بمائة آية في ليلة كتب له قنوت ليلة» وكذا رواه النسائي في اليوم واللييلة وقوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾. أي هل يستوي هذا والذي قبله، ممن جعل الله أنداداً ليضلّ عن سبيله ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ أي إنما يعلم الفرق بين هذا وهذا من له لب وهو العقل، والله أعلى وأعلم بالصواب.
مثل آخر من هذه السورة:

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيَجُ فُتْرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾^(٢)
يخبر تعالى أن أصل الماء في الأرض من السماء كما قال عز وجل ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾^(٣) فإذا أنزل الماء من السماء كمن في الأرض ثم يصرفه تعالى: في أجزاء الأرض كما يشاء وينبعه عيوناً ما بين صغار وكبار بحسب الحاجة إليها ولهذا قال تعالى: ﴿فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ﴾.

عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ﴾ قال: ليس في الأرض ماء إلا نزل من السماء ولكن عروق في الأرض تغيره فذلك قوله تعالى:

(١) نفس المصدر السابق والجزء والصفحة.

(٢) سورة الزمر الآية: (٢١).

(٣) انظر تفسير القرآن العظيم للإمام الحافظ أبي الفداء اسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي . .

﴿فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ﴾ فمن سرّه أن يعود الملح عذباً فليصعده^(١)، وكذا قال سعيد بن جبير وعامر الشعبي أن كلّ ماء في الأرض فأصله من السماء، وقال سعيد أيضاً: أصله من الثلج يعني أن الثلج يتراكم على الجبال فيسكن في قرارها فتنبع العيون من أسافلها، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ أي ثم يخرج بالماء النازل والنابع من الأرض زرعاً مختلفاً ألوانه أي أشكاله وطعمومه وروائحهم ومنافعه ﴿ثُمَّ يَهِيحُ﴾ أي بعد نضارته وشبابه يكتهل فتراه مصفراً قد خالطه اليبس ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا﴾ أي ثم يعود يابساً يتحطم، ﴿إِن فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لَأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أي الذين يتذكرون بهذا فيعتبرون إلى أن الدنيا هكذا تكون خضرة نضرة حسناء، ثم تعود عجوزاً شوهاء، والشابّ يعود شيخاً هرمًا كبيراً ضعيفاً وبعد ذلك كله الموت^(٢)، فالسعيد من كان حاله بعده إلى خير، وكثيراً ما يضرب الله تعالى: ﴿مِثْلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾^(٣) وقوله: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾^(٤) أي هل يستوي ومن هو قاسي القلب بعيد من الحق كقوله تعالى: ﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾^(٥)، ولهذا قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلنَّاسِ لِقَاسِيَةِ قُلُوبِهِمْ مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾^(٦) أي فلا تلين عند ذكره ولا تخشع ولا تعي ولا تفهم ﴿أولئك في ضلال مبين﴾.

هذان مثلان آخران من هذه السورة:

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾^(٧) يقول تعالى: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ويفزع فيقال له ولأمثاله من الظالمين، ﴿ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ كمن يأتي آمناً يوم القيامة كما قال عز وجل ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ

(١) انظر تفسير القرآن العظيم للإمام الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي.

(٢) نفس المصدر السابق والجزء والصفحة.

(٣) سورة الكهف: الآية (٤٥).

(٤) سورة الزمر: الآية (٢٢).

(٥) سورة الأنعام: الآية (١٢٢).

(٦) سورة الزمر: الآية (٢٤).

(٧) سورة الزمر: الآية (٢٢).

صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١﴾ وقال جل شأنه ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ (٢) وقال تبارك وتعالى: ﴿أَفَمَنْ يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (٣) واكتفى في هذه الآية بأحد القسمين عن الآخر كقول الشاعر:

فما أدري إذا يَمَّمْتُ أَرْضاً أريد الخير أيهما يلينى (٤)
يعني الخير والشر.

قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٥) هذا مثل ضربه الله سبحانه للمشرك والموحد، فالمشرك بمنزلة عبد تملكه جماعة (٦) مشتركين في خدمته لا يمكنه رضاهم أجمعين، والموحد لما كان يعبد الله وحده فمثلُه كمثل عبد رجل واحد قد سلم له وعلم مقاصده (وعرف الطريق) إلى مرضاته فهو في راحة من تشاحن الخلطاء فيه بل هو سالم لمالكة من غير منازع فيه مع رافة مالكة به، ورحمته له وشفقته عليه، وإحسانه إليه وتوليته بمصالحه، فهل يستوي هذان العبدان؟! وهذا من أبلغ الأمثال؛ فإن الخالص للملك واحد مستحق من معونته وإحسانه والتفاتة إليه، وقيامه بمصالحه مالا يستحقه صاحب الشركاء المتشاكسين (٧) فأين هذا من هذا؟ قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وغير واحد: هذه الآية ضربت مثلاً للمشرك والمخلص، ولما كان هذا المثل ظاهراً بيناً جلياً قال ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي على إقامة الحجة عليهم ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي فلماذا يشركون بالله (٨).

(١) سورة الملك: الآية (٢٢).

(٢) سورة الزمر: الآية (٢٩).

(٣) سورة الزمر: الآية (٢٩) ضرب الله سبحانه وتعالى المثل في هذه الآية الكريمة لبيّن الفرق الكبير والبون الشاسع بين الخالص لجهة واحدة وبين مرتبط بجهات مختلفة، كالموحد والمشرك والمخلص والمنافق (ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) (متشاكسون) مختلفون عسيرون أي متنازعون صعبة أخلاقهم: والشكس هو صعب الخلق جمعه (شكس) (سَلَمًا) خالصاً. الجواب نعم لا يستوى المستقل والمشارك فإن بينهما تفاوتاً عظيماً في السلوك والتصرف والاستقلال والمنزلة. فالمشرك منحط في هذه الأمور ونحوها عن الموحد، والمنافق بعيد فيها كل البعد عن مقام المخلص.

(٧) انظر الأمثال في القرآن الكريم لابن قسيم الجوزية رحمه الله تحقيق سعيد محمد نمر الخطيب ص (٢٦٠)،

(٢٦١) الناشر دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت - لبنان.

(٨) تفسير القرآن العظيم للإمام الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي ج ٤ ص (٤٧)...

مثل آخر من هذه السورة: قال تعالى: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلُوبَهُمْ أَوْ لَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ (٤٣) قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٤٤) وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (١) يقول تعالى ذاماً للمشركين في اتخاذهم شفعا من دون الله وهم الأصنام والأنداد التي اتخذوها من تلقاء أنفسهم بلا دليل ولا برهان حداهم على ذلك وهي لا تملك شيئاً من الأمر بل وليس لها عقل تعقل به، ولا سمع تسمع به، ولا بصر تبصر به بل هي جمادات أسوأ من الحيوان بكثير، ثم قال: قل - أي يا محمد - لهؤلاء الزاعمين أن ما اتخذوه شفعا لهم عند الله تعالى: أخبرهم أن الشفاعة لا تنفع عند الله إلا لمن ارتضاه وأذن له فمرجعها كلها إليه ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾ (٢) ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي هو المتصرف في جميع ذلك ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي يوم القيامة فيحكم بينكم بعدله ويجزي كلأ بعمله، ثم قال تعالى ذاماً للمشركين أيضاً: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾ أي إذا قيل لا إله إلا الله وحده ﴿اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ قال مجاهد: «اشمأزت» انقبضت، وقال السدي: نفرت، وقال قتادة: كفرت واستكبرت، وقال مالك عن زيد بن أسلم: استكبرت، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٣) أي عن المتابعة والانقياد لها فقلوبهم لا تقبل الخير ومن لم يقبل الخير يقبل الشر ولذلك قال تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ أي من الأصنام والأنداد، قال مجاهد: ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ أي يفرحون ويسرون (٤) هذا والله أعلى وأعلم بالصواب.

(١) سورة الزمر: الآيات: (٤٣، ٤٤، ٤٥).

(٢) المصدر السابق ج ٤ ص (٥٠).

(٣، ٤) نفس المصدر السابق والجزء والصفحة.

(سورة غافر)

وقع في هذه السورة أمثال كثيرة معظمها من أنواع الأمثال الكامنة وهي التي لم يصرح فيها بلفظ المثل، ولكنها تدل على معان رائعة في إيجاز، يكون لها وقعها إذا نقلت إلى ما يشبهها ويمثلون لهذا النوع بأمثلة منها قوله تعالى: ﴿لَا فَارِضٌ وَلَا بَكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾^(١) وقوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾^(٢) وقوله: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافَتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾^(٣) وقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾^(٤) إلى غير ما هنالك^(٥) وقد اخترت منها ثلاثة أمثال فقط، وهي من قبيل الأمثال المصراحة، وهي ما صرح فيها بلفظ المثل، أو ما يدل على التشبيه، وهي كثيرة في القرآن، وهي ما يأتي^(٦):

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلِ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾^(٧).

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلِ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ يعني أهل مصر وقد بعث الله فيهم رسولا من قبل موسى عليه السلام، وهو يوسف عليه السلام كان عزيز أهل مصر وكان رسولا يدعو إلى الله تعالى أمته بالقسط فما أطاعوه تلك الطاعة إلا بمجرد الوزارة والجاه الدنيوي ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ أي يستم فقلتم طامعين: ﴿لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ وذلك لكفرهم وتكذيبهم ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾ أي كحالكم هذا يكون حال من يضلله الله لإسرافه في أفعاله وارتباب قلبه^(٨).

هذان مثالان آخران اخترناهما من هذه السورة:

- (١) سورة البقرة: الآية (٦٨).
 (٢) سورة الفرقان: الآية (٦٧).
 (٣) سورة الإسراء: الآية (١١٠).
 (٤) سورة الإسراء: الآية (٢٩).
 (٥) انظر مورد الظمان في علوم القرآن. تأليف صابر حسن محمد أبو سليمان ص (١٣٤، ١٣٥). ط: الدار السلفية - الهند - الطبعة الأولى، سنة الطبع (١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م).
 (٦) سورة غافر: الآية (٣٤).
 (٨) انظر تفسير القرآن العظيم للإمام الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي ج ٤ ص (٧٠)، (٧١).

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ (١)

قوله: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ﴾ أي الذين يدفعون الحق بالباطل ويجادلون بالحجج بغير دليل وحجة معهم من الله تعالى فإنَّ الله عزَّ وجل يمقت على ذلك أشدَّ المقت ولهذا قال تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي والمؤمنون أيضاً يبغضون من تكون هذه صفته، فإنَّ من كانت هذه صفته يطبع الله على قلبه فلا يعرف بعد ذلك معروفاً ولا ينكر منكراً ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ﴾ أي على اتباع الحق ﴿جَبَّارٍ﴾ وروى ابن أبي حاتم عن عكرمة وحكي عن الشعبي أنهما قالا: لا يكون الإنسان جبَّاراً حتى يقتل نَفْسَيْنِ، وقال أبو عمران الجوني وقتادة: آية الجبار القتل بغير حق، والله تعالى أعلى وأعلم بالصواب.

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانَ ابْنِ لِي صِرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (٣٥) أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعُ إِلَى اللَّهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زَيْنٌ لِفِرْعَوْنَ سَوْءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ (٢).

يقول تعالى مخبراً عن فرعون وعتوه وتمرده وافتراءه في تكذيبه موسى عليه السلام أنه أمر وزيره هامان أن يبني له صرحاً وهو القصر العالى المنيف الشاهق وكان اتخاذه من الأجر المضروب من الطين المشوي كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانَ ابْنِ لِي صِرْحًا﴾ ولهذا قال إبراهيم النخعي: كانوا يكرهون البناء بالأجر، وأن يجعلوه في قبورهم رواه ابن أبي حاتم، وقوله: ﴿لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ﴾

(١) سورة غافر: الآية (٣٥).

(٢) سورة غافر: الآيتان: ٣٦، ٣٧.

إلخ قال سعيد بن جبير وأبو صالح، أبواب السماء، وقيل طرق السموات، ﴿فَأَطَّلَعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾، وهذا من كفره وتمرده أنه كذب موسى عليه السلام في أن الله عزَّ وجلَّ أرسله إليه، قال الله تعالى:

﴿وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سَوْءَ عَمَلِهِ وَصَدُّ عَنِ السَّبِيلِ﴾ أي بصنعه هذا الذي أراد أن يوهم به الرعية أنه يعمل شيئاً يتوصل به إلى تكذيب موسى عليه السلام، ولهذا قال: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: يعني إلا في خسار^(١).

(١) نفس المصدر السابق والجزء والصفحة.

(سورة فصلت)

قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (١)

قوله: «وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ» ف (لا) مزيدة مؤكدة، قوله:

﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي ادفع السيئة بالتي هي أحسن، قال الشاعر:

حي بني الأضغان تَسْبِ عَقُولَهُمْ تَحِيَّتَكَ الْحُسْنَى فَقَدْ تُرْقِعُ النَّعْلُ

الحسنة يعني المداراة، والسَّيِّئَةُ يعني الغلظة، فأدب الله عباده هذا الأدب الرفيع وقال النبي ﷺ: «إنكم لم تَسْعُوا الناس بأموالكم فَسَعُوهم بأخلاقكم» وقال ﷺ: «جئت بالحنيفية السهلة» وقال له رجل: يارسول الله، أوصني قال: لا تغضب» قال: زدني قال: «لا مزيد»، ومن كلام أكثر لولده: (يأبني ألق عدوك بحسن البشر وأخف عنه ما في الصدور)، وقال سالم بن وابصة في ابن عم له وكان يعاديه ويعتدي عليه، فلم يزل سالم يداريه وينزع عن قلبه حتى عاد إلى مودته: (٢)

داريتُ صَدْرًا مَبِينًا نُمَلَّةً حَقْدًا منه وَقَلَّمْتُ أَظْفَارًا بِلَا قَلَمٍ

فأصبحتُ قَوْسَةً دُونِي مَوْثِرَةً تَرْمِي عَدُوِي جَهْلًا غَيْرَ مُكْتَمِ

وقال عمر بن ذر: إني لا أكافئ من عصى الله في أكثر من أن أطيع الله فيه، ومرَّ الشعبي بقوم ينتقصونه فأنشد قول كثير:

هنيئاً مريئاً غير داءٍ مخامرٍ لعزّةٍ من أعراضنا ما استحلت

وأسمعه يوماً رجلاً كلاماً فقال له: إن كنت صادقاً فغفر الله لي وإن كنت كاذباً فغفر الله لك، وحكي أن رجلاً شتم الحسن البصري رحمه الله وأربا فقال

(١) سورة فصلت: الآية (٣٤).

(٢) انظر الجمان في تشبيهات القرآن تأليف عبدالله بن الحسين بن نايقا بتحقيق الدكتور محمود حسن أبو ناجي الشيباني ص (١٩٥، ١٩٦، ١٩٧).

الحسن: أما أنت فما أبقيت شيئاً وما يعلم الله أكثر. وقال الأحنف بن قيس: رب حلم قد تجرعته مخافة ما هو أشدُّ منه. وكان يقول: وجدتُ الحلم أنصر لي من الرِّجال، وقال يوماً، تعلّمتُ الحلم من قيس بن عاصم المنقري^(١) بينما هو قاعد بفنائه محتب بكسائه أت جماعة منهم مقتول ومكتوف^(٢)، فقيل: هذا ابنك قتله ابن أحيك فوالله ما حلَّ حبوته حتى فرغ من كلامه ثم التفت الى ابن له في المجلس فقال: قم فأطلق عن ابن عمك وواد أخاك واحمل إلى أمه مائة من الإبل فإنها غريبة ثم أنشأ يقول:

إني امرؤ لا يطأ حسبي دَسَّ يَغْتَرُهُ وَلَا أَفْـنَنُ
 مِن مَنَقَرٍ فِي بَيْتٍ مَكْرَمَةٍ وَالغُصْنُ يَنْبْتُ حَوْلَهُ الْغُصْنُ
 خُطْبَاءُ حِينَ يَقُولُ قَائِلُهُمْ بِيضُ الْوَجْهِهِ أَعْفَى لُسْنُ
 لَا يَفْطِنُونَ لَعِيبِ جَارِهِمْ وَهُمْ لِحِفْظِ جَوَارِهِ فُطْنُ

ثم أقبل على القاتل فقال له: قَتَلْتَ قرابتك وقطعت رحمك وأقللت عددك لا يبعد الله غيرك.

وفي قيس بن عاصم يقول الشاعر:
 عليك سلامُ الله قيسَ بنِ عاصمٍ ورحمتهُ ما شاء أن يترحمًا
 تحية من ألبسته ثوبَ نعمة إذا زارَ عن شحطِ بلادك سلماً
 فلم يكُ قيسُ هلِكهُ هلكٌ واحدٌ ولكنَّه بنيانُ قومٍ تهدمًا^(٣)

وكان الأحنف يقول: اختلفنا إلى قيس بن عاصم في الحلم كما يختلف الفقهاء إلى الفقه وحدثني عبيد الله بن بكر قال: كان المشمس بن معاوية عم الأحنف

(١) قيس بن عاصم المنقري سيد بني تميم وقد قال عنه الرسول ﷺ: «هذا سيد أهل الدير»، وكان يضرب به المثل الأعلى في السماحة والحلم وكريم الأخلاق.

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) نفس المصدر السابق ص (١٩٨، ١٩٩).

يفضل على الأحنف فأمره أبو موسى ، أن يقسم خيلاً في بني تميم فقسمها فقال رجل من بني سعد: ما منعك أن تعطيني فرساً ووثب إليه فهرش وجهه فقام إليه القوم ليأخذوه فقال: إني لا أعان على واحد ثم انطلق به إلى أبي موسى فلما رآه سأله عما بوجهه فقال: دع هذا ولكن ابن عمي فأحمله على فرس ففعل . وحدثني العشاري بإسناده عن أبي هريرة أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ يستعينه في دم فأعطاه شيئاً وقال: (هلا أحسنتُ إليك) فقال الأعرابي لا ولا أجملت فغضب بعض المسلمين وهموا به فأشار إليهم النبي ﷺ (أن كفوا) عنه وقام إلى منزله ودعا الأعرابي فزاده شيئاً ثم قال: (هلا أحسنتُ إليك) قال نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً^(١) فقال النبي ﷺ «إنك جئتنا فأعطيناك وقلت ما قلت وفي أنفس أصحابي عليك من ذلك شيء فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي ليذهب ما في صدورهم ما فيها عليك» فلما جاء الأعرابي قال رسول الله ﷺ: «إن صاحبكم سأل فأعطيناه وقال ما قال وقد دعونا فأعطيناه فرضي كذلك» قال: نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً فقال النبي ﷺ:

«إن مثلي ومثل هذا الأعرابي مثل رجل شردت ناقته فاتبعها الناس فلم يزيدها إلا نفوراً فقال صاحب الناقة خلوا بيني وبين ناقتي فأنا أرفق بها ثم أخذها من تمام الأرض هوبي هوبي حتى جاءت فاستجابت وشد رحلها واستوى عليها، وإني لو أطعتم حيث قال ما قال فقتلته دخل النار» وفي هذا ونحوه من فعل الرسول ﷺ تمثيل للكافة في استعمال المداراة والدفع بالحسنى وكانت الغلظة غالبية على طباع القوم والحلم في خاصتهم ورؤسائهم دون^(٢) عامتهم وسوقتهم في الآية للمقاربة، وإنما أكد الصفة بتعديد اللفظ دلالة على قوة السبب في وقوع التشبيه وحضاً على استعماله والأخذ بمثاله .

ثم قال عز وجل: ﴿وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾^(٣) أي وما يقبل هذه الوصية ويعمل بها إلا من صبر على ذلك فإنه يشق على النفوس ﴿وما يلقاها إلا ذو حظ

(٢) نفس المصدر السابق .

(١) نفس المصدر السابق . .

(٣) سورة فصلت : الآية ٣٥ .

عظيم ﴿ أي ذو نصيب وافر من السعادة في الدنيا والآخرة، عن ابن عباس في تفسير هذه الآية: أمر الله المؤمنين بالصبر عند الغضب والحلم عند الجهل والعفو عند الإساءة فإذا فعلوا ذلك عصمهم الله من الشيطان وخضع لهم عدوهم كأنه ولي حميم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (١) أي إن شيطان الإنس ربما يندفع بالإحسان إليه، فأما شيطان الجن فإنه لا حيلة فيه إذا وسوس إلا الاستعاذة بخالقه الذي سلطه عليك، فإذا استعذت بالله والتجأت إليه كفَّهُ عنك، وردَّ كيده، وقد كان رسول الله ﷺ إذا قام إلى الصلاة يقول: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه» (٢).

مثلان آخران من هذه السورة: قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٣).

يقول تعالى منبهاً خلقه على قدرته التامة وأنه على كل شيء قدير، وقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ أي على قدرته على إعادة الموتى، ﴿إِنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً﴾ أي هامة لا نبات فيها بل هي ميتة ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ﴾ أي أخرجت من جميع ألوان الزروع والثمار ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَلْحَدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفُونَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمَنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٤) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ (٤١) لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيم حميد ﴿٤٢﴾ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَد قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَدُوٌّ مَغْفِرَةٌ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٌ﴾ (٤).

(١) سورة فصلت: الآية ٣٦.

(٢) انظر تفسير القرآن العظيم للإمام الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي ج ٤ ص (٩٠).

(٣) سورة فصلت: الآية: ٣٩.

(٤) سورة فصلت: الآيات: (٤٠، ٤١، ٤٢، ٤٣).

انظر المصدر السابق ص (٩٠، ٩١).

قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ قال ابن عباس: الإلحاد وضع الكلام على غير مواضعه. وقال قتادة وغير واحد: هو الكفر، وقوله سبحانه: ﴿لَا يَخْفُونَ عَلَيْنَا﴾ فيه تهديد شديد ووعيد أكيد أي أنه تعالى عالم بمن يلحد في آياته وأسمائه وصفاته وسيجزيه على ذلك بالعقوبة والنكال ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي أيستوي هذا وهذا؟ لا يستويان. ثم قال عز وجل تهديداً للكفرة ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ قال مجاهد وغيره: وعيد أي من خير أو شر إنه عالم بكم وبصير بأعمالكم ولهذا قال: ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ثم قال جل جلاله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ قال الضحاك وغيره هو القرآن ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ أي منيع الجناح لا يرام أن يأتي أحد بمثله ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ أي ليس للبطلان إليه سبيل لأنه منزل من رب العالمين ولهذا قال ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ أي حكيم في أقواله وأفعاله حميد بمعنى محمود أي في جميع ما يأمر به وينهى عنه^(١) الجميع محمودة عواقبه وغاياته. ثم قال عز وجل: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾ قال قتادة وغير واحد: ما يقال لك من التكذيب إلا كما قد قيل للرسل. من قبلك فكما كُذِّبَتْ كُذِّبُوا وكما صبروا على أذى قومهم لهم فاصبر أنت على أذى قومك لك. وهذا اختيار ابن جرير وغيره. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ أي لمن تاب إليه ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي لمن استمر على كفره وطغيانه وعناده وشقاقه ومخالفته، عن سعيد بن المسيب قال: نزلت هذه الآية ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ قال رسول الله ﷺ: «لولا عفو الله وتجاوزه ما هنا أحداً العيش، ولولا وعيده وعقابه لاتَّكَلَّ كُلُّ أَحَدٍ»^(٢).

(١) المصدر السابق.

(٢) نفس المصدر السابق.

(سورة الشورى)

قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (٣٢)﴾ إِنَّ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣٣) أَوْ يُوقِعُهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ (٣٤) وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَّحِيصٍ ﴿١﴾ يقول تعالى: «ومن آياته الدالة على قدرته الباهرة وسلطانه تسخيره البحر لتجري فيه الفلك بأمره وهي الجواري في البحر كالأعلام أي كالجبال، قال مجاهد وغيره: أي هذه كالجبال في البر بمعنى أنها ثابتات لا تززعها الرياح بل تساعد على سيرها ﴿إِنَّ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ﴾ أي التي تسير في البحر بالسفن لو شاء لسكنها حتى لا تحرك السفن بل تبقى راكدة لاتبجاء ولا تذهب بل واقفة على ظهره أي على وجه الماء ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ أي في الشدائد (٢) ﴿شَكُورٍ﴾ في الرخاء، أي أن في تسخيره البحر وإجرائه في الهواء بقدر ما يحتاجون إليه لسيرهم لدلالات على نعمه تعالى على خلقه لكل صبار أي في الشدائد شكور في الرخاء. وقوله عزَّ وجلَّ ﴿أَوْ يُوقِعُهُنَّ بِمَا كَسَبُوا﴾ أي ولو شاء لأهلك السفن وغرقها بذنوب أهلها الذين هم راكبون فيها ﴿وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ﴾ أي من ذنوبهم ولو أخذهم بجميع ذنوبهم لأهلك كلَّ من ركب في البحر. وقال بعض علماء التفسير معنى قوله تعالى: ﴿أَوْ يُوقِعُهُنَّ بِمَا كَسَبُوا﴾ أي لو شاء لأرسل الرياح قوية عاتية فأخذت السفن وأحالتها عن مسارها الصحيح فصرفتھا ذات اليمين، أو ذات الشمال آبهة لا تسير على طريق ولا إلى جهة أو مقصد، وهذا القول يتضمن هلاكها وهو مناسب للأول وهو أنه تعالى لو شاء لسكنَّ الرياح لقواه فشردت وأبقت وهلكت، ولكن من لطفه ورحمته أنه يرسله بحسب الحاجة كما يرسل المطر بقدر الكفاية (٣).

(١) سورة الشورى: الآيات: (٣٢)، (٣٣)، (٣٤)، (٣٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم للإمام الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي ج ٤ ص (١٠٤)، (١٠٥).

(٣) نفس المصدر السابق.

ولو أنزله كثيراً جداً لهدم البنیان أو قليلاً لما أنبت الزرع والثمار حتى إنه يرسل إلى مثل بلاد مصر سبيحاً من أرض أخرى غيرها لأنهم لا يحتاجون إلى مطر ولو أنزل عليهم لهدم بنيانهم وأسقط جدرانهم، وقوله تعالى: ﴿ويعلم الذين يجادلون في آياتنا مالهم من محيص﴾ أي لا محيد لهم عن بأسنا ونقمتنا فإنهم مقهورون بقدرتنا.

هذا والله أعلى وأعلم بالصواب.

(سورة الزخرف)

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ (١١)
 وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ (١٢) لَتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ
 ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرْنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ
 ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ (١) قوله: ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾ أي بحسب
 الكفاية لزروعكم وثماركم وشربكم لأنفسكم ولأنعامكم. وقوله: ﴿فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً
 مَيِّتًا﴾ أي أرضاً ميتة، فلما جاءها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، ثم
 نبه تعالى بإحياء الأرض على إحياء الأجساد يوم المعاد بعد موتها، فقال ﴿كَذَلِكَ
 تُخْرَجُونَ﴾ ثم قال عز وجل: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ أي مما تنبت الأرض من
 سائر الأصناف من نبات وزروع وأزاهير وغير ذلك. ومن الحيوانات على اختلاف
 أجناسها (٢) وأصنافها ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ﴾ أي السفن ﴿وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ أي
 ذللها لكم وسخرها ويسرها لأكلكم لحومها وشربكم ألبانها وركوبكم ظهورها،
 ولهذا قال جلَّ وعلا ﴿لَتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ﴾ أي لتستووا متمكنين مرتفعين ﴿عَلَى
 ظُهُورِهِ﴾ أي على ظهر هذا الجنس ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ﴾ أي فيما سخر لكم ﴿إِذَا
 اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرْنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ أي مقاومين، ولولا
 تسخير الله لنا هذا ما قدرنا عليه. قال ابن عباس رضي الله عنهما: مقرنين، أي
 مطيقين، ﴿وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ أي لصائرون إليه بعد مماتنا وإليه المسير الأكبر،
 وهذا من باب التنبيه بسير الدنيا على سير الآخرة، كما نبه بالزاد الدنيوي على
 الزاد الآخروي في قوله تعالى ﴿وتزودوا فإن خير الزاد التقوى﴾ وباللباس الدنيوي
 على الآخروي في قوله تعالى: ﴿وريشاً ولباساً التقوى ذلك خير﴾ (٣)

(١) سورة الزخرف: الآيات: (١١، ١٢، ١٣، ١٤).

(٢) تفسير القرآن العظيم لأبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي ج ٤ ص (١١٠، ١١١).

(٣) نفس المصدر السابق.

(سورة الدخان)

قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزُّقُومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾ (١) يقول تعالى: مخبراً عما يعذب به الكافرين الجاحدين للقائه: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزُّقُومِ طَعَامُ الْأَثِيمِ﴾ أي في قوله وفعله، وهو الكافر وذكر غير واحد أنه أبو الدرداء كان يقرئ رجلاً ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزُّقُومِ طَعَامُ الْأَثِيمِ﴾ فقال: طعام اليتيم، فقال أبو الدرداء رضي الله عنه: قل إن شجرة الزقوم طعام الفاجر أي ليس له طعام من غيرها، قال مجاهد: ولو وقعت قطرة منها في الأرض لأفسدت على أهل الأرض معاشهم، وقد تقدّم نحوه مرفوعاً، وقوله: ﴿كَالْمُهْلِ﴾ قالوا: كعكر الزيت ﴿يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾ أي من حرارتها ورداءتها (٢) وقوله ﴿خُدُوهُ فَاغْتَلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ (٣) وقوله ﴿خُدُوهُ﴾ أي الكافر، وقد ورد أنه تعالى إذا قال للزبانية: خذوه. ابتدره سبعون ألفاً منهم، وقوله: ﴿فَاغْتَلُوهُ﴾ أي سَوْقُوهُ سَجَباً ودفعاً في ظهره، قال مجاهد: ﴿خُدُوهُ فَاغْتَلُوهُ﴾ أي خذوه فادفعوه، وقال الفرزدق: ليس الكرام بناحليك أباهم حتى تُرد إلى عطية تعتلُ

﴿إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ أي وسطها ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾ كقوله سبحانه وتعالى ﴿يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾ (٤) وقد تقدّم أن الملك يضربه بمقمعة من حديد، فتفتح دماغه ثم يصب الحميم على رأسه فينزل في بدنه، فيلست ما في بطنه من أمعائه حتى تمرق من كعبيه، أعاذنا الله تعالى من ذلك (٥) وقوله: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ أي قولوا له ذلك على وجه

(١) سورة الدخان: الآيات: (٤٣، ٤٤، ٤٥، ٤٦).

(٢) انظر تفسير القرآن العظيم للإمام الجليل أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي ج ٤ ص (١٣١).

(٣) سورة الدخان: الآيات: (٤٧، ٤٨، ٤٩، ٥٠).

(٤) سورة الحج: الآيتان: (١٩، ٢٠).

(٥) نفس المصدر السابق.

والتوبيخ، وقال الضحّاك عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: أي لست بعزيز ولا كريم. وقد قال الأموي في مغازيه: عن عكرمة قال: لقي رسول الله ﷺ أبا جهل لعنه الله فقال: «إن الله تعالى أمرني أن أقول لك: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾» (١) قال: فترع ثوبه من يده وقال: ما تستطيع لي أنت ولا صاحبك من شيء ولقد علمت أنني أمنع أهل البطحاء وأنا العزيز الكريم، قال فقتله الله تعالى يوم بدر وأذله وعيره بكلمته وأنزل ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكذِّبُونَ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ (٢) ولهذا قال تعالى: هاهنا: (٣) ﴿إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾.

(١) سورة القيامة: الآيات: (٣٤، ٣٥).

(٢) سورة الطور: الآيات: (١٣، ١٤، ١٥).

(٣) نفس المصدر السابق.

(سورة الجاثية)

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (٢١) وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (١) يقول تعالى: لا يستوي المؤمنون والكافرون كما قال عز وجل: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ (٢) وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ أي وكسبوا ﴿أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ أي نسويهم بهم في الدنيا والآخرة ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي ساء ماظنوا بنا وبعد لنا أن نسوي بين الأبرار والفجار في الدار الآخرة وفي هذه الدار. عن أبي ذر رضي الله عنه قال: إن الله تعالى بنى دينه على أربعة أركان، فمن صبر عليهن ولم يعمل بهن لقي الله من الفاسقين، قيل: وما هن يا أبا ذر؟ قال يسلم حلال الله لله، وحرام الله لله، وأمر الله لله (٣) ونهى الله لله لا يؤتمن عليهن إلا الله، قال أبو القاسم عليه السلام «كما أنه لا يجتني من الشوك العنب كذلك لا ينال الفجار منازل الأبرار» هذا حديث غريب من هذا الوجه

عن مسروق أن تميما الداري قام ليلة حتى أصبح يردد هذه الآية، ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ولهذا قال تعالى ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ وقال عز وجل: ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أي بالعدل ﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

مثل آخر من هذه السورة: قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ عَشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٤) قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ أي إنما يأتمر بهواه، فما رآه حسناً فعله وما

(٢) سورة الحشر: الآية (٢٠).

(١) سورة الجاثية: الآيتان: (٢١، ٢٢).

(٤) سورة الجاثية: الآية (٢٣).

(٣) المصدر السابق ص (١٣٥).

رآه قبيحاً تركه وهذا قد يستدل به على المعتزلة في قولهم بالتَّحسين والتَّقييح
 العقلين، وعن مالك فيما روي عنه من التفسير، لايهوى شيئاً إلا عبده^(١). وقوله
 ﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ يحتمل قولين: أحدهما وأضله الله لعلمه أنه يستحق ذلك،
 والآخر وأضله الله بعد بلوغ العلم إليه وقيام الحجّة عليه. والثاني يستلزم الأوّل
 ولا ينعكس ﴿وَوَخَّمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ أي فلا يسمع ما ينفعه
 ولا يعي شيئاً يهتدي به ولا يرى حجة يستضيء بها ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَهْدِيهِ
 مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ كقوله تعالى: ﴿مَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ
 يَعْمَهُونَ﴾^(٢).

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٨٦).

(سورة الأحقاف)

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ (١).

قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ﴾ أي لما رأوا العذاب مستقبلهم، اعتقدوا أنه عارض ممطر، ففرحوا واستبشروا به وقد كانوا محلين محتاجين إلى المطر. قال الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي هو العذاب الذي قلتم، ﴿فَأَتَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٢)، ﴿تَدْمِرُ﴾ أي تحرب ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ من بلادهم مما من شأنه الخراب ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ أي بإذن الله لها في ذلك كقوله سبحانه وتعالى: ﴿مَا تَدْرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتَهُ كَالرِّمِيمِ﴾ (٣) أي كالشيء البالي ولهذا قال عز وجل: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾ أي قد بادوا كلهم عن آخرهم ولم تبق لهم باقية (٤) ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي هذا حكمنا فيمن كذب رسلنا وخالف أمرنا.

(١) سورة الأحقاف: الآيتان (٢٤، ٢٥).

(٢) سورة الأحقاف: الآية (٢٢).

(٣) سورة الذاريات: الآية (٤٢).

(٤) تفسير القرآن العظيم: للإمام الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي ج ٤ ص (١٤٥).

(سورة محمد)

قول تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بِالْهَمِّ * ذَلِكَ بَأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾ (١).

يقول تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي بآيات الله ﴿وَصَدُّوا﴾ غيرهم، ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي أبطلها وأذهبها ولم يجعل لها ثواباً ولا جزاء كقوله تعالى: ﴿وَقَدَّمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّتُورًا﴾ (٢) ثم قال جل وعلا ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي آمنت قلوبهم وسرائرهم وانقادت لشرع الله جوارحهم وبواطنهم وظواهرهم ﴿وَأَمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ عطف خاص على عام وهو دليل على أنه شرط في صحة الإيمان بعد بعثته ﷺ (٣) وقوله: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ جملة معترضة حسنة ولهذا قال جلَّ جلاله ﴿كَفَرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بِالْهَمِّ﴾.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: أي أمرهم. وقال مجاهد: شأنهم. وقال قتادة وابن زيد: حالهم والكل متقارب. وقد جاء في حديث تميم العاطس «يهديكُم الله ويصلح بالكم» ثم قال عز وجل: ﴿ذَلِكَ بَأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ﴾ أي إنما أبطلنا أعمال الكفار. وتجاوزنا عن سيئات الأبرار، وأصلحنا شؤونهم لأن الذين كفروا اتبعوا الباطل أي اختاروا الباطل على الحق ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾، ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾ أي يبين لهم مآل أعمالهم، وما يصيرون إليه في معادهم (٤) والله سبحانه وتعالى أعلى وأعلم بالصواب.

ثلاثة أمثال أخرى من هذه السورة: قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

(١) سورة محمد: الآيات: (١، ٢، ٣).

(٢) سورة الفرقان: الآية (٢٣).

(٣) تفسير القرآن العظيم للإمام الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي ج ٤ ص (١٥٥).

(٤) نفس المصدر السابق والجزء والصفحة.

الصَّالِحَاتِ جَنَاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴿١﴾

قوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي يوم القيامة، وقوله عز وجل: ﴿أَوَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾ معنى تشبيهم بالأنعام في الأكل التخسيس لهم والازدراء بهم في هذه الحال ووصفهم بالجهل والدناءة، وأنهم يأكلون للشهوة والنهم كالبهائم وذلك أن الأكل على ضربين: أكل نهمة وأكل حكمة، فأكل النهمة للشهوة فقط، وأكل الحكمة للشهوة والمصلحة والعرب تمدح بقلة الأكل وخفة الرزء كما تدم بالرغب والبطنة والشهوة، قال الشاعر يصف رجلاً:

تراه خَمِيصَ الْبَطْنِ وَالزَّادِ حَاضِرٌ عَتِيدٌ وَيَغْدُو فِي الْقَمِيصِ الْمَقْدَدِ (٢)

وقال الآخر: (٣)

تَكْفِيهِ حِزَّةٌ فَلَيْذٌ إِنْ أَلِمَّ بِهَا مِنْ الشَّوَاءِ وَيُرْوِي شَرْبَهُ الْغَمْرِ (٤)
وَأُنشِدُ الْأَصْمَعِي لِبَعْضِهِمْ:

إِذَا مَا امْتَدَّقْنَا كُلَّ يَوْمِينَ مَدَّقَةً لِحَمْسِ تُمَيْرَاتٍ صَغَارٍ كَوَانِزِ (٥)
فَنَحْنُ مَلُوكُ النَّاسِ خِصْباً وَنِعْمَةً وَنَحْنُ رِجَالُ الْحَرْبِ عِنْدَ الشَّهَازِ

ومما يجري في كلامهم كالمثل قولهم: «البطنة تذهب بالفطنة»، وقال بعضهم:

الشبع داعية البشم والبشم داعية للسقم، وقال الحارث بن كلدة (٦): خير الدواء اللزوم، وشر الدواء إدخال الطعام على الطعام، ووصى بعضهم ولده فقال يا بني عودٌ نفسك الأثرة ومجاهدة الشهوة ولا تنهش نهش السباع ولا تخضم خضم البراذين ولا تدمن الأكل إدمان النعاج ولا تلقم لقم الجمال إن الله جعلك إنساناً

(١) سورة محمد: الآية (١٢)

(٢) الجمان في تشبيهات القرآن تأليف عبدالله بن الحسين بن نايقا بتحقيق الدكتور محمود حسن أبو ناجي الشيباني ص (١٩٩، ٢٠٠).

(٣، ٤) الحزوة: القطعة من اللحم، فلذ كبد البعير، الغمر: وعاء صغير

(٥) امتدقنا: أكلنا التمر المبلول بالماء، كوانز: سمينات، الشهاز: المعارك.

(٦) الحارث بن كلدة طيب العرب في الجاهلية .

فلا تجعل نفسك بهيمة واحذر سرعة الكظة^(١) وسرف البطنة، فقد قال بعض الحكماء^(٢): إذا كنت بطيئاً فعد نفسك مع الزمن»، وقال الأصمعي: بلغني أن الحسن قال إن قوماً لبسوا هذه المطارف العتاق، والعمائم الرقاق، وأوسعوا دورهم وضيّقوا قبورهم، وأسمنوا دوابهم، وأهزلوا دينهم، طعام أحدهم غصب، وخادمه سخره، يتكئ على شماله، ويأكل من غير ماله حتى إذا أدركته الكظة قال: يا جارية هاتي حاطوماً، ويلك هل تحطم إلا دينك. أين مساكينك، أين يتامك، أين ما أمرك الله به أين . . أين . .

وقال عروة بن الورد^(٣) يخاطب رجلاً من قومه:

إنى امرؤ عافي إنائي شَرَكَةٌ وأنت امرؤ عافي إنائك واحد
أتهزأ مني أن سمنتَ وأن تَرَى بجسمي شحوب الحقِّ والحقُّ جَاهِدُ
أقسّم جسمي في جسوم كثيرة وأحسُّ قراحِ الماءِ والماءُ باردُ^(٤)
وقال الآخر:

أبيتُ هَضِيمَ الكَشْحِ مضطمر الحَشَا من الجوعِ أحشى الدَّم أن أتضلعا^(٥)
ومثله قول الآخر:

لقد كنت أختار القِرَى طَاوِي الحَشَا محافظةً من أن يُقال لئيم^(٦)
وقال الآخر يُخاطبُ زوجته^(٧):

إذا ما صنعت الزادَ فالتمسي له أكيلاً فإني لستُ أكله وحدي^(٨)
أخاً طارقاً أو جَارِ بَيْتِ فإِنني أخاف مَذَمَاتِ الأحاديثِ من بعدي

(١) الكظة: امتلاء البطن بالطعام .

(٢) نفس المصدر السابق .

(٣) عروة بن الورد زعيم الصعاليك في الجاهلية، وهو من عبس .

(٤) نفس المصدر السابق

(٥) هضم: خميص البطن، الكشح: جانب البطن .

(٦) القري: الجوع، ومحافظة: مخافة الانهزام بالبخل .

(٧) القائل قيس بن عاصم المنقري ويضرب به المثل في الحلم .

(٨) أكيل: صيغة تأتي على معنى فاعل تارة، ومعنى مفعول تارة أخرى مثل ذبيح أي مذبح، وقتيل أي

مقتول، وأكيل هنا بمعنى أكل .

وقولهم في هذا الباب كثير مشهور، والعلة، هي هنا في التمدُّح بزهادة الأكل والاقتصاد فيه، من جهة الرغبة منهم في نذل الزاد والأنفة من الاستئثار به دون الطارق والجار والتذكر بالطوى من حال ذوي الحاجة ما ينسيه الشعب والبطنة،

وقال يحيى بن معاذ: الزُّهد ثلاثة أشياء القلّة والخلوة والجوع، وكان يقول جوع التوايين تجربة وجوع الزاهدين سياسة وجوع الصديقين تكريمة^(١)، وكان أبو القاسم الجنيد يقول:

ما أخذنا التصوف عن القيل والقال، لكن عن الجوع وترك الدنيا وقطع المألوفات. وكان داود بن نصير الطائي يأكل الخبز اليابس فقيل له: كيف تشتهي مثل هذا؟ فقال: أدعه حتى أشتهيه، وكان يشرب الماء في الصيف من دون مقير فقيل له: لو بردت ماءك فقال: إذا شربت الماء البارد في الصيف فمتى أشتهي الموت.

وقال عمر بن الخطاب وهو السابق إلى هذه الآية والآخذ بأدب الآية والدليل في هذه السبيل، وقد حضر بعض الوفد طعامه:

إنى قد أرى تعزيركم ولو شئت لكنت أطيبكم طعاماً، وأرقم عيشاً والله ما أجهل عن كراكر وأسمنه وعن صلاتق ولكن وجدت الله تعالى غير قوماً بأمر فعلوه فقال: «أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا»^(٢)، ومن كلام النبي ﷺ مما ضربه مثلاً لمتاع الدنيا قوله عليه السلام: «إِنَّ مِمَّا يَنْبَغُ الرَّبِيعُ لِمَا يَقْتُلُ حَبْطًا أَوْ يَلْمُ الْحَبْطَ أَنْ تَأْكُلَ الدَّابَّةُ حَتَّى يَسْتَفْخَ بَطْنُهَا وَتَمْرُضَ» وسمّى الحارث بن مازن بن عمير وابن تميم الحبّط^(٣) لأنّه أصابه مثل ذلك في سفر وبنوه يسمون الحبّطات والنسبة إليه حبّطي تخفيفاً لاجتماع الكسرات - فأراد ﷺ أن الماشية يروقها المرعى فربما أكلت فوق طورها فحبّطت وكان في دعائه عليه السلام يقول: «أعوذ بك من الجشع والهلع» فقد بين الله تعالى بقوله: «إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ

(١) المصدر السابق ص (٢٠١، ٢٠٢).

(٢) سورة الأحقاف: الآية: (٢٠). (٣) نفس المصدر السابق ص (٢٠٩، ٢١٠).

مشوى لهم ﴿ أنه تبارك وتعالى حبا بالجنة من أخذ فيما ذكرناه بأدب الكتاب والسنة (١) .

قوله تعالى: ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ (٢) ويستشهد بهذه الآية الكريمة في بيان أنه لا يستوي من يعمل عملاً على علم صحيح وبقين وفهم، ومن يعمل عملاً مبنياً على مجرد الهوى والاستحسان الزائف المبني على الوهم والخيال (٣) .

قال الله عز وجل: ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴾ (٤) .

قوله: ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ ﴾ قال عكرمة «مثل الجنة» أي نعتها ﴿ فيها أنهارٌ من ماءٍ غير آسنٍ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما يعني غير متغير. وقال قتادة وغير واحد، غير منتن (٥)، والعرب تقول: أسن الماء إذا تغير ريحه، وفي حديث مرفوع أوردته ابن أبي حاتم: «غير آسن» يعني الصافي الذي لا كدر فيه. عن مسروق قال: قال عبد الله رضي الله عنه: أنهار الجنة تفجر من جبل من مسك ﴿ أنهارٌ من لبنٍ لم يتغير طعمه ﴾ أي بل في غاية البياض والحلاوة واللدسومة، وفي حديث مرفوع «لم يخرج من ضرع الماشية»، ﴿ وأنهارٌ من خمرٍ لذةٍ للشاربين ﴾ أي ليست كريهة الطعم والرائحة كخمر الدنيا بل حسنة المنظر والطعم والرائحة والفعل ﴿ لا فيها غولٌ ولا هم عنها ينزفون ﴾ (٦)، ﴿ لا يصدعون عنها ولا ينزفون ﴾ (٧) ﴿ بيضاء لذة للشاربين ﴾ (٨) وفي حديث مرفوع «لم يعصرها الرجال بأقدامهم» ﴿ وأنهارٌ من عسلٍ مصفى ﴾ أي وهو في

(١) نفس المصدر السابق والجزء والصفحة . (٢) سورة محمد: الآية (١٥) .

(٣) انظر الشواهد والأمثال في القرآن الكريم تأليف الفريق يحى عبدالله المعلمي .

(٤) تفسير القرآن العظيم للإمام الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي ج ٤ ص (١٥٨) وما

بعدها ..

(٦) سورة الواقعة: الآية (١٩) .

(٥) سورة الصافات: الآية (٤٧) .

(٨) نفس المصدر السابق والجزء والصفحة .

(٧) سورة الصافات: الآية (٤٦) .

غاية الصفاء وحسن اللون والطعم والريح وفي حديث مرفوع «لم يخرج من بطون النَّحْلِ»^(١).

عن حكيم بن معاوية عن أبيه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «في الجنة بحر اللبن وبحر الماء وبحر العسل وبحر الخمر، ثم تشقق الأنهار منها بعد» ورواه الترمذي في صفة الجنة عن محمد بن يسار عن يزيد بن هارون، عن سعيد بن أبي إيَّاس الحريري وقال: حسن صحيح. عن أبي بكر بن عبدالله بن قيس عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ «هذه الأنهار تشخب من جنة عدن في جوبة ثم تصدع بعد أنهاراً» وفي الصحيح: «إذا سألتم الله تعالى فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة ومنه تفرج أنهار الجنة وفوقه عرش الرحمن» عن عاصم بن لقيط قال: إن لقيط بن عامر خرج وافداً إلى رسول الله ﷺ قلت: يا رسول الله فعلام نطلع من الجنة؟ قال ﷺ «على أنهار عسل مصفى، وأنهار خمر مابها من صداع ولا ندامة، أنهار من لبن لم يتغير طعمه، وماء غير آسن»^(٢)، وفاكهة . . . وأزواج مطهرة» قلت: يا رسول الله أو لنا فيها أزواج مصلاحات؟ قال «الصالحات للصالحين تلذونهن مثل لذاتكم في الدنيا ويلذونكم، غير أن لاتوالد» عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لعلكم تظنون أن أنهار الجنة تجري في أهدود في الأرض والله إنها لتجري سائحة على وجه الأرض، حافات قباب اللؤلؤ وطينها المسك الأذفر، وقد رواه أبو بكر بن مردويه من حديث مهدي بن حكيم عن يزيد بن هارون مرفوعاً.

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ كقوله عز وجل:

﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ﴾^(٣) وقوله تبارك وتعالى: ﴿فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾^(٤) وقوله: ﴿ومغفرة من ربهم﴾ أي مع ذلك كله وقوله ﴿كمن هو خالد في النار﴾ أي هؤلاء الذين ذكرنا منزلتهم من الجنة، ﴿كمن هو خالد في النار﴾؟

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) نفس المصدر السابق والجزء والصفحة.

(٣) سورة الدخان: الآية (٥٥).

(٤) سورة الرحمن: الآية (٥٢).

ليس هؤلاء كهؤلاء، وليس من هو في الدرجات كمن هو في الدرجات، ﴿وسقوا ماءً حميماً﴾ أي حاراً شديداً لا يطاق حره. ﴿فقطع أمعاءهم﴾ أي قطع ما في بطونهم من الأمعاء والأحشاء^(١)، عياداً بالله تعالى من ذلك. هذا والله أعلى وأعلم بالصواب.

(١) نفس المصدر السابق والجزء والصفحة.

(سورة الفتح)

قوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ (١).

قوله ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ﴾ الأنفة من الشيء ﴿حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ بدل من ﴿الْحَمِيَّةَ﴾ وهي صددهم النبي ﷺ وأصحابه عن المسجد الحرام (٢)، والاستشهاد بضرب المثل في هذه الآية هو وصف ما قد يأتيه بعض البداءة والجفافة من تعصب أعمى. وتداع إلى الشر بدون عقل ولا روية إلا حمية لبعضهم كحمية الجاهلية (٣)، قوله: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ فصالحوهم على أن يعودوا من قابل ولم يلحقهم من الحمية مالحق الكفار حتى يقاتلوهم ﴿وَأَلْزَمَهُمْ﴾ أي المؤمنين ﴿كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ لا إله إلا الله محمد رسول الله وأضيفت إلى التقوى لأنها سببها ﴿وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا﴾ بالكلمة من الكفار ﴿وَأَهْلَهَا﴾ عطف تفسيري (٤) إثبات استحقاق بعض الناس لما نالوا من مكانة مرموقة وثروة عظيمة وغير ذلك مما يسر به من يحصل عليه (٥) ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ أي لم يزل متصفاً بذلك.

مثل آخر من هذه السورة: قال الله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ (٦) يخبر تعالى عن محمد ﷺ أنه رسوله حقاً بلا شك ولا

(١) سورة الفتح: الآية (٢٦).

(٢) تفسير الجلالين: جلال الدين محمد بن أحمد بن محمد المحلي وجلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي ص (٥١٤).

(٣) الشواهد والأمثال في القرآن الكريم، الفريق يحيى عبدالله المعلمي ص (٢٩٦).

(٤، ٥) نفس المصدرين السابقين.

(٦) سورة الفتح: الآية (٢٩).

ريب فقال: ﴿محمد رسول الله﴾ وهذا مبتدأ وخبر، وهو مشتمل على كل وصف جميل، ثم ثنى بالثناء على أصحابه رضي الله عنهم فقال: ﴿والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾ كما قال سبحانه: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (١) وهذه صفة المؤمنين (٢) أن يكون أحدهم شديداً عنيفاً على الكفار، رحيماً برأ بالأخيار، غضوباً عبوساً في وجه الكافر، ضحوكاً بشوشاً في وجه أخيه المؤمن كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلظَةً﴾ (٣) وقال النبي ﷺ «مثل المؤمن في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر» وقال ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً». وشبك ﷺ بين أصابعه، كلا الحديثين في الصحيح.

وقال سبحانه ﴿تَرَاهُمْ رُكْعًا سَجْدًا يَتَّغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ وصفهم بكثرة العمل وكثرة الصلاة وهي خير الأعمال، ووصفهم بالإخلاص فيها لله عز وجل والاحتساب عند الله تعالى جزيل الثواب وهو الجنة المشتملة على فضل الله عز وجل، وهو سعة الرزق عليهم (٤) ورضاه تعالى عنهم، وهو أكبر من الأول كما قال جل وعلا: ﴿ورضوان من الله أكبر﴾ وقوله جل جلاله: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِمَّنْ أَتَى السُّجُودَ﴾ عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ﴾ يعني السمات الحسن. وقال مجاهد وغير واحد: يعني الخشوع والتواضع.

عن مجاهد ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِمَّنْ أَتَى السُّجُودَ﴾ قال: الخشوع. قلت: ما كنت أراه إلا هذا الأثر في الوجه. فقال: ربما كان بين عيني من هو أقسى قلباً من فرعون. وقال السدي: الصلاة تحسن وجوههم، وقال بعض السلف: من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار، وقد أسنده ابن ماجه في سننه عن إسماعيل بن محمد الصالح عن ثابت بن موسى عن شريك، عن الأعمش عن أبي سفيان عن

(١) سورة المائدة: الآية (٥٤).

(٢) تفسير القرآن العظيم للإمام الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي ج ٤ ص (١٥٣).

(٣) سورة التوبة: الآية (١٢٣) ..

(٤) نفس المصدر السابق والجزء والصفحة.

جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من كثرت صلواته بالليل حسن وجهه بالنهار» والصحيح أنه موقوف^(١) وقال بعضهم: إن للحسنة نوراً في القلب وضياءً في الوجه وسعة في الرزق ومحبة في قلوب الناس. وقال أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه: ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله تعالى على صفحات وجهه وفتلات لسانه، والغرض أن الشيء الكامن في النفس يظهر على صفحات الوجه، فالمؤمن إذا كانت سريرته صحيحة مع الله تعالى أصلح الله عز وجل ظاهره للناس، كما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: من أصلح سريرته أصلح الله تعالى علانيته. عن جندب بن سفيان البجلي رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «ما أسر أحد سريرة إلا ألبسه الله تعالى رداءها، إن خيراً فخير وإن شراً فشر» العرزمي متروك. عن أبي سعيد رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال «لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة لخرج عمله للناس كائناً ما كان»^(٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «إن الهدى الصالح والسمت الصالح والاقتصاد جزء من خمسة وعشرين جزءاً من النبوة» ورواه أبو داود عن عبدالله بن محمد النفيلي عن زهير به، فالصحابه رضي الله عنهم خلصت نياتهم وحسنت أعمالهم فكل من نظر إليهم أعجبه في سمتهم وهديهم. وقال مالك رضي الله عنه: بلغني أن النصاري كانوا إذا رأوا الصحابة رضي الله عنهم الذين فتحوا الشام يقولون: والله لهؤلاء خير من الحوارين فيما بلغنا، وصدقوا في ذلك فإن هذه الأمة معظمة في الكتب المتقدمة، وأعظمها وأفضلها أصحاب رسول الله ﷺ، وقد نوه الله تبارك وتعالى بذكرهم في الكتب المنزلة والأخبار المتداولة^(٣)، ولهذا قال سبحانه وتعالى ها هنا: ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ﴾. ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سَوَاقِهِ يُعْجَبُ الزَّرْعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾، ﴿أَخْرَجَ شَطْأَهُ﴾ الشطاء النسب يخرج في جوانب النسب ومنه شاطئ النهر، جانبه يقال أشطأ الزرع فهو مشطىء إذا أفرخ في جوانبه والشكير أيضا من نظائر الشطاء

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) نفس المصدر السابق ص (١٨٤).

وهو النبت في جوانب النبت ويستعار في الريش كقول الحكمي^(١) وقد استشهد
 بشعره في كلام العرب دون غيره من المحدثين لفصاحته وصحة روايته:
 طَوَّتْ لَيْلَتَيْنِ الْقَوْتَ عَنِ ذِي ضَرُورَةٍ أَزْيَغِبُ لَمْ يَنْبِتْ عَلَيْهِ شَكِيرٌ
 قوله: «فآزره» أي آزر صغاره كباره فاستوى بعضه مع بعض حتى قوي واشتد
 قال الأسود بن يعفر:

ولقد غدوتُ لعازبٍ متحفِّزٍ أَحْوَى المذانبِ مونتقِ الروادِ
 جادت سواريه وآزر نَبْتَهُ نَقاً مِنَ الصَّفْرَاءِ وَالزَّبَادِ
 فإذا صار كذلك فهو متناقل قال أبو عبيدة:

أنشرت الأرض وأمشرت إذا بدأت بإخراج النبات
 ونضج الشجر إذا بدأ بإخراج الورق قال أبو طالب بن عبدالمطلب^(٢).

ليت شعري مسافرٌ ابنُ أبي عمرو وليت يقولها المحزونُ
 بُورِكَ المَيْتُ الغريبُ كما بُورِكَ نَضِجِ الرُّمَانِ وَالزَيْتُونِ

فإذا غطى النبات الأرض قيل قد استحلست فإذا أبلغ والتف قيل استأسد فإذا آزر
 صغاره وكباره قيل تناثل . . أنشدنا الأمير أبو محمد لسعيد بن حميد يصف تمايل
 النبات في هذه الحال:

حركته الريحُ فاعتدل النبتُ ومالت طوألُه بالقصارِ
 عائذُ بعضه ببعضٍ كقومٍ في عتابٍ مُكرِّرٍ وأعتذارِ

قوله تعالى: ﴿فَاسْتَعْلَظْ﴾ أي طلب الغلظ، والسوق جمع ساق وهو حامل
 الشجرة، وسوق الزرع عوده الذي يقوم عليه، وهذا مثل ضربه الله تعالى للنبيِّ

(١) الحكمي شاعر عباسي اشتهر بوصف الصيد وهو الحسن بن هانيء وكنيته أبو نواس وفي المخطوطة كتبت
 خطأ الحطمي والبيت في ديوانه ص ١٩٧ .

(٢) انظر الجمان في تشبيهات القرآن . تأليف عبدالله بن الحسين بن نايقا . ص (٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١١) .

ﷺ إذا خرج وحدد ثم قوي بالأصحاب وكانت قريش تقول إن محمداً صنبور، والصنبور النخلة يرق أسفلها وينجرد كربها^(١) يقال صنبر النخل إذا صار كذلك فشبوه ﷺ بالنخلة في هذه الحالة نفاء له بالضعف وقلة الإخوان - فأكذب الله ظنونهم فيه وشبهه في الآية بعكس ذلك التشبيه . وقد وهم أبو عبيد في هذا الحديث ما لا وجه له وأخذ عليه ابن قتيبة فيه غير موضع الأخذ وخالفاً صواب التأويل فذكر أن الصنبور النخلة تخرج في أصل النخلة تغرس قال: قال الأصمعي: الصنبور النخلة تبقى مفردة ويدق أسفلها قال: وقول الأصمعي أعجب إلى يعنون أنه مفرد ليس له ولد ولا أخ فإذا مات انقطع ذكره وليس في التشبيه في النخلة على تلك الصفة أو غيرها ما يدل على انقطاع الذكر ولا اختصاص الولد والأخ بهذا القول، وإنما الوجه في الحديث ما ذكرناه بدليل الآية، وأما ابن قتيبة فإنه صوب قول أبي عبيد في تفسير الصنبور قال وإنما أراد أن محمداً ناشيء حدث^(٢) بمنزلة الصنبور الذي يخرج في أصل النخلة يقولون فكيف تتبعه المشائخ والكبراء وهو كذلك وهذا تأويل غير صحيح، لأن القوم أبوا اتباعه جحداً لما جاء به لأنهم صدقوه ولم يدخلوا تحت دعوته من أجل أنه ناشيء حدث، وعلى أن النبي ﷺ بعث حين بلغ أشده وبلغ الأربعين وإنما الناشيء الذي لم يخرج وجهه ولم يسود شعره قال أبو زيد يقال للغلام إذا راهف جحوش ثم يافع على غير قياس فإذا شارف الاحتلام فهو كوكب ثم هو ناشيء ثم طائر بعد ذلك إذا خرج شعره، والذي ذكره القتيبي غلط قبيح في اللفظ والتأويل والتشبيه في الآية من أوقع التشبيهات وأوضحها وأبلغ التمثيلات وأفصحها وقد نقلت العرب كثيراً من أوصاف النبات والشجر إلى أوصاف وأطرد ذلك في كلامهم لوقوع المناسبة بين الحالتين ويحسن ذلك بحسن التشبيهات والاستعارات في هذا الباب^(٣) فقالوا: فلان كريم المغرس وعريق الحسب، وما أنجب عوده وأزكى نباته وقال الله تعالى في ذكر مريم: ﴿فتقبلها ربها بقبول حسن﴾ وقال جل جلاله: ﴿والله أنبتكم من

(١) المصدر السابق.

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق .

الأرض نباتاً ﴿ وقال النبي ﷺ في قوم يخرجون من النار فينبتون كما تنبت الحبة في جميل السيل قال الكلبي: مر مروان بن الحاكم سنة بُويع له على ماء لبني جزء عليه زرارة بن جزء وهو شيخ كبير فقال: كيف أنتم آل جزء؟ فقال: بخير، أنبتنا الله فأحسن نباتنا ثم حصد فأحسن حصادنا وكانوا هلكوا في الجهاد بالروم. وقال الشاعر يمدح رجلاً:

وأبوا اليتامى ينبتون فناءه نبت الربيع بكالىء معشاب

وقالوا غلام أمرد إذا كان عاري الوجه من الشعر، قال الأعشى: (١)

وأرى الغواني لا يواصلن أمراً فقد الشبابُ وقد يصلن الأمردا

وأخذ المعنى أبو تمام فقال وأحسن عبارته:

أحلى الرجال من النساء من كان أشبههم بهنَّ خُدوداً (٢)

وقال ابن حيان بن حنظلة:

وإذا دعوتُ بني جديلة جاني مُردُّ على جردِ المُتونِ طِوالٍ (٣)

والأمرد مأخوذ من الشجرة المرءاء وهي العارية من الورق ومنه قولهم: شيطان مرید أي عار، معناه قد عرى من الخير ومن ذلك قيل بناء ممرّد أي مملس وفي التنزيل: ﴿ قَالَ إِنَّهُ صَرَحَ مُمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ﴾ (٤) هذا وفيما ذكرناه من هذا الفصل كفاية لما أردناه وشاهد فيما قدمناه، ومما ورد من كلام النبي صلى الله عليه وسلم من التشبيهات بالنبات، قوله عليه السلام: «مثل المؤمن مثل الخامة من الزرع تميلها الريح مرة كذا، ومرة كذا ومثل المنافق مثل الأرزة المجذبة على الأرض يكون انجعاها مرة» (٥)، قال أبو عبيد: الأرز شجر معروف بالشام وهو الصنوبر بالعراق،

(١) الغواني: النساء، يواصلن: يرغبن في الأمرد: الذي لا شعر في وجهه.

(٢) المصدر السابق ص (٢١٣).

(٣) مرد: جمع أمرد وهو الشاب الذي لا شعر في وجهه، وجرّد خيل قوية.

(٤) سورة النمل الآية (٤٤).

(٥) رواه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة، راجع الفتح الكبير.

المجذبة الثابتة في الأرض فشبهه المؤمن بالخامة تميلها الريح لأنه مرزأ في نفسه وأهله، والكافر كالأرزة التي لا تميلها الريح فهو لا يرزأ شيئاً حتى يموت والانجفاف الانقلاع (١).

وقوله عليه السلام في الرَّحْم: «شجنة من الله» (٢) يعني قرابة مشتبكة كاشتباك العروق ومنه في المثل: الحديث ذو شجون، يراد اتصال بعضه ببعض والشجنة كالغصن تكون من الشجرة ويقال شجنة، والمثل لضبة (٣) بن أد وكان قد خرج ابنه في طلب إبل لهما فرجع سعد ولم يرجع سعيد، وكان إذا رأى شخصاً قال: أسعد أم سعيد؟ (٤) فصارت كلمته مثلاً ثم بينما يسير مع الحارث بن كعب في الشهر الحرام إذ أتيا على مكان فقال الحارث: لقيت ها هنا فتى قتله وأخذت منه السيف وإذا صحيفة سعيد فقال ضبة: أرنيه فناوله فقال عندها: «الحديث ذو شجون» (٥) وضرب الحارث فقتله فقبل له: تقتل في الشهر الحرام؟ فقال: «سبق السيف العذل» (٦) فصارت كلمته الثالثة أيضاً مثلاً وفيه يقول الفرزدق:

فلا تأمنن الحرب إن استعارها كضبة إذ قال الحديث شجون (٧)

قوله عليه السلام: «مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأترجة ريحها طيب وطعمها طيب، والمؤمن الذي لا يقرأ القرآن كالتمرة طعمها طيب ولا ريح لها ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن مثل الريحانة ريحها طيب ولا طعم لها والمنافق الذي لا يقرأ القرآن كالخنظلة ريحها كريهة وطعمها خبيث» (٨). وقد مدح بعض المحدثين قوماً فشبهم بشجر الأترج على معنى كلام النبي ﷺ فقال:

(١) المصدر السابق (٢٢٤ . ٢٢٥).

(٢) رواه البخاري من حديث عائشة فتح الباري ١/٣٤٣.

(٣) رجل جاهلي قال هذا المثل عندما ضل أحد بنيه، راجع مجمع الأمثال للميداني ١/٢٥.

(٤) المثل في مجمع الأمثال للميداني ٢/١٣٥.

(٥) ذو شجون: ذو طرق، دروب: متعددة، مجمع الأمثال ١/٤٩.

(٦) سبق السيف العذل مثل مجمع الأمثال ٢/٤٥٠.

(٧) المصدر السابق والصفحة.

(٨) أخرجه البخاري من حديث أبي سلم فتح الباري ٩/١٤٩.

كُلُّ الخِلالِ التي فيكم مناقبكم تشابهت منكم الأخلاقُ والخلقُ
كأنكم شجرُ الأترجِ طابَ معاً أصلاً وفرعاً وطابَ الحملُ والورقُ

واسم المنافق مأخوذ من نافقاء اليربوع لأنه يطن غير ما يظهر، قال الشاعر يذكر حال النفاق والتباسها ويخاطب نفسه كالواعظ لها:

خَلَّ النِّفاقَ لأهلِهِ وَعَليكَ فالتمس الطَّريقا
وارغبُ بِنَفسِكَ أَنْ تَرى إِلا عَدُوًّا أو صَديقاً^(١)

وإنما شبه عليه السلام قارئ القرآن من المنافقين بالريحانة لأنه ظاهر حسن لا يعمل بحسنه وكذلك الريحانة لا تدلّ على طعم ينتفع به، ثم بالغ في ذمّ المنافق الذي لا يقرأ القرآن فشبهه بالحنظلة ظاهراً وباطناً في ريحها وطعمها يريد أنه لو فاح ريحه لكان كريها قال أبو العتاهية:

أحسَنَ اللّهَ بِناءً أَنْ الخَطايا لا تُفُوحُ
فإذا المُستور مِنّا بين ثوبيه فضُوحُ

ونعود إلى ذكر الآية في قوله عز وجل (٢): ﴿ذلك مثلهم في التوراة﴾ أي ذلك وصفهم فيها، ﴿ومثلهم في الإنجيل﴾: أي وصفهم في الإنجيل ﴿كزرع أخرج شطأه﴾ الشَّطْءُ: فرخ الزرع والنخل.

وشطء الزرع نباته وفراخه فوصف أصحاب محمد ﷺ في التوراة رسمته صورة تعبيرية كلامية أبرز فيها مايلي (٣):

أولاً: شدة بأسهم في قتال الذين كفروا، وهذا الوصف يلاحظ فيه أنهم أبطال أشداء مؤمنون مستعلون بقوتهم وبأسهم على الكفار.

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) نفس المصدر السابق ص (٢٢٦، ٢٢٧).

(٣) الأمثال القرآنية دراسة وتحليل وتصنيف ورسم لأصولها وقواعدها ومناهجها تأملات عبد الرحمن حسن حنيفة الميداني ص (١٨، ١٩).

ثانياً: رحمتهم العظيمة وتواضعهم فيما بينهم، وهذا الوصف يلاحظ فيه صورة التعاطف والتآخي والتواضع فيما بينهم.

ثالثاً: عبادتهم الكثيرة المخلصة لله تعالى، فهم ركع سجود يدعون الله تعالى أن يهبهم من فضله في الدنيا والآخرة، وأن يسبل عليهم رضوانه، ويلاحظ في هذا الوصف مشهد عبادتهم في الصلوات والدعاء.

أمّا وصفهم في الإنجيل فقد جاء على شكل مثل تشبيهي من الزرع وقد صور هذا المثل التشبيهي نشأتهم، وغماءهم، وتكاثرهم، وتأزرهم، ووحدة جماعتهم^(١). ومن هذه الآية انتزع الإمام مالك رحمه الله تعالى، في رواية عنه بتكفير الروافض الذين يبغضون الصحابة رضي الله عنهم قال: لأنهم يغيظونهم ومن غاظ الصحابة رضي الله عنهم فهو كافر لهذه الآية، ووافق طائفة من العلماء رضي الله عنهم على ذلك، والأحاديث في فضل الصحابة رضي الله عنهم والنهي عن التعرض لهم بمساويهم كثيرة، ويكفيهم ثناء الله عليهم ورضاه عنهم، ثم قال تبارك وتعالى: ﴿وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرًا عظيمًا﴾ من هذه لبيان الجنس، ﴿مغفرة﴾ أي لذنوبهم ﴿وأجرًا عظيمًا﴾ أي ثواباً جزيلاً ورزقاً كريماً. ووعد الله حق وصدق لا يخلف ولا يبدل، وكل من اقتضى أثر الصحابة رضي الله عنهم فهو في حكمهم، ولهم الفضل والسبق والكمال الذي لا يلحقهم فيه أحد من هذه الأمة، رضي الله عنهم وأرضاهم وجعل جنات الفردوس مأواهم، وقد فعل^(٢)، قال مسلم في صحيحه: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده... الحديث».

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) تفسير القرآن العظيم للإمام الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي ج ٤ ص (١٨٤).

سورة الحجرات

قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١)، وهذا من أحسن القياس التمثيلي فإنه شبه تمزيق عرض الأخ بتمزيق لحمه، ولما كان المغتاب يمزق عرض أخيه في غيبته كان بمنزلة من يقطع لحمه في حال غيبة رُوحه عنه بالموت، ولما كان المغتاب عاجزاً عن دفعه بنفسه يكون غائباً عن ذمِّه كان بمنزلة الميت الذي يقطع لحمه، ولا يستطيع أن يدفع عن نفسه، ولما كان مقتضى الأخوة التراحم والتناصر معلق عليها المغتاب ضد مقتضاها من الذم والعيب والظعن كان ذلك نظير (٢) تقطيعه لحم أخيه، والأخوة الصادقة تقتضي حفظه وصيانته والذب عنه، ولما كان المغتاب متفكِّهاً بغيبته وذمه متحلياً بذلك شبه بأكل لحم أخيه (٣) بعد تقطيعه ولما كان المغتاب محبباً لذلك معجباً به شبه بمن يحب أكل لحم أخيه ميتاً، ومحبه لذلك، قدر زائد على مجرد أكله كما أن أكله قدر زائد على تمزيقه فتأمل هذا التشبيه والتَّمثيل، وحسن موقعه، ومطابقتها المعقول فيه للمحسوس، وتأمل إخباره عنهم بكراهة أكل لحم الأخ ميتاً، ووصفهم بذلك في آخر الآية والإنكار عليهم أولها أن يحب أحدهم ذلك، فكما أن هذا مكروه في طباعهم فكيف يحبون ما هو مثله ونظيره، وعقوبته أشد من هذا، فاحتج عليهم بما كرهوا على ما أحبوه، وشبه لهم ما يحبونه بما هو أكره شيء إليهم وهم أشد شيء نفرة عنه فهذا يوجب العقل والفطرة والحكمة أن يكون أشد شيء نفرة عما هو نظيره ومشبهه (٤) كما قال ﷺ في العائد في هبته: «كالكلب يقيه ثم يرجع في قيئه» وثبت في الصحاح والحسان والمسانيد (٥)

(١) سورة الحجرات: الآية (١٢) .

(٢) بمنزلة . .

(٣) متمتعاً بعرض أخيه مستمتعاً به .

(٤) انظر الأمثال في القرآن الكريم لابن قيم الجوزية، ص (٤٢٤، ٢٢٥، ٢٢٦) تحقيق سعيد محمد عمر الخطيب،

الناشر دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت - لبنان .

(٥) نفس المصدر السابق .

من غير وجه أنه ﷺ قال في خطبة الوداع «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا»، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كلُّ المسلم على المسلم حرام ماله وعرضه ودمه، حسب امرئٍ من الشرِّ أن يحقِّر أخاه المسلم»^(١) عن أبي بردة البلوي قال: قال ﷺ: «يامعشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان في قلبه، لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من يتبع عوراتهم يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه في بيته»^(٢)

وقد روي من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه قال: خطبنا رسول الله ﷺ حتى أسمع العواتق في بيوتها - أو قال - في خُدُورِها، فقال: «يامعشر من آمن بلسانه، لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فإنه من يتبع عورة أخيه يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه في جوف بيته»^(٣)

(١) رواه الترمذي عن عبيد أسباط بن محمد عن أبيه به وقال: حسن غريب.

(٢) تفرد به أبو داود.

(٣) نفس المصدر السابق.

(سورة ق)

قال الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ * وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ * رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مِثْلًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ (١). قوله سبحانه ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا﴾، أي نافعاً ﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ﴾ أي حدائق من بساتين ونحوها، ﴿وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ وهو الزرع الذي يراد لحبه وادخاره ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ﴾ أي طوالاً شاهقات، قال ابن عباس رضي الله عنهما وغير واحد من السلف: الباسقات، الطوال ﴿لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾ أي منضود ﴿رِزْقًا لِلْعِبَادِ﴾ أي للخلق، ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً﴾ وهي الأرض التي كانت هامدة، فلما نزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، من أزاهير وغير ذلك، مما يحار الطرف في حسنها، وذلك بعد ما كانت لا نبات بها فأصبحت تهتز خضراء يانعة، فهذا مثال للبعث بعد الموت والهلاك (٢)، كذلك يحيي الله الموتى، وهذه المشاهد من عظيم قدرته بالحس أعظم مما أنكره الجاحدون للبعث، كقوله عز وجل: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ (٣) وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْزُبْ عَنْهُمُ خَلْقُهُمْ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٤).

وقوله سبحانه: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْك تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٥).

(١) سورة ق : الآيات : (٩ ، ١٠ ، ١١) .

(٢) نفس المصدر السابق ص (١٩٩) .

(٣) سورة غافر الآية : (٥٧) .

(٤) سورة الاحقاف الآية (٣٣) .

(٥) سورة فصلت : الآية (٣٩) .

نفس المصدر السابق والجزء والصفحة .

(سورة الذاريات)

قال تعالى: ﴿فَرَّابِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾^(١) أقسم سبحانه نفسه وأكد الإخبار بهذا القسم، ثم أكد بتشبيهه بالأمر المحقق الذي لا يشك فيه ذو حاسة سليمة^(٢)، قرأ الجمهور بنصب «مثل» على تقدير: كمثل نطقكم. مازائدة. كذا قال بعض الكوفيين إنّه منصوب بنزع الخافض. وقال الزجاج والفرّاء: يجوز أن ينتصب على التوكيد: أي لحق حقاً مثل نطقكم. قال المازني: إن «مثل» مع «ما» بمنزلة شيء واحد فبني على الفتح. قال سيبويه: مبني لإضافته إلى غير متمكّن، واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم. وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر والأعمش «مثل» بالرفع على أنه صفة لحق، لأن مثل نكرة وإن أضيف فهي لا تتعرّف بالإضافة كغير. ورجّح قول المازني أبو عليّ الفارسي، قال مثله قول حميد: ^(٣) «ويحا لمن لم يدر ما هنّ ويحما» فبني ويح مع ما ولم يلحقه التنوين، ^(٤) قال ابن عباس رضي الله عنهما: يريد إنه لحق واقع، كما أنّكم تنطقون. قال الفرّاء: إنّه لحق كما أنّ الأدمي ناطق، وقال الزّجاج: هذا كما تقول في الكلام: إن هذا لحق كما أنّك هاهنا. قلت: ^(٥) وفي الحديث «إنّه لحق كما أنّك هاهنا»، فشبه سبحانه تحقيق ما أخبر به بتحقيق نطق الأدمي ووجوده. الواحد منا يعرف أنه ناطق (ضرورة)، ولا يحتاج نطقه إلى استدلال على وجوده، ولا يخالجه شك في أنّه ناطق. فكذلك ما أخبر الله عنه من أمر التوحيد، النية، والمعاد، وأسمائه، وصفاته حق ثابت في نفس الأمر، يشبه بثبوت نطقكم ووجوده. وهذا باب يعرفه الناس في كلامهم. بقول أحدهم: هذا حق مثل الشمس.

(١) سورة الذاريات: الآية: (٢٤).

(٢) البيان في أقسام القرآن للعلامة شمس الدين محمد بن أبي بكر المعرف بابن قيم الجوزية ص (٢٦٨).

(٣) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في علم التفسير تأليف محمد بن علي بن محمد الشوكاني ج ٥ ص (٨٥، ٨٦) ط ١ دار المعرفة. بيروت - لبنان. سنة الطبع لم توضح.

(٤) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في علم التفسير تأليف محمد بن علي بن محمد الشوكاني ج ٥ ص (٨٦).

(٥) ابن القيم الجوزية: ص (٢٦٩).

وأفصح الشَّاعر عن هذا بقوله:

وليس يصحُّ في الأذهان شيء إذا احتاج النَّهار إلى دليل^(١)
وها هنا أمر ينبغي التَّفطن له، وهو أن الرَّبَّ تعالى شهد بصَّحة ما أخبر به، وهو
أصدق الصادقين. وأقسم عليه، وأبرَّ المقسمين وأكده بشبيهه بالواقع الذي لا يقبل
الشكُّ بوجه. وأقام عليه من الأدلَّة العيانية والبرهانية ما جعله معانياً مشاهداً
بالبصائر، وإن لم يُعاین بالأبصار. ومع ذلك فأكثر النَّفوس في غفلة عنه لا تستعد
له، ولا تأخذ له أهبة، المستعدَّة له الآخذ له أهبة لا يعطيه حقَّه منهم إلا الفرد بعد
الفرد، فأكثر الخلق لا ينظرون في المراد من إيجادهم وإخراجهم إلى هذه الدار،
ولا يتفكرون في قلة مقامهم في دار الغرور، ولا في رحيلهم وانتقالهم عنها، ولا
إلى أين يرحلون؟ وأين يستقرون؟ قد ملكهم الحس، وقل نصيبهم من العقل،
وشملتهم الغفلة، وغرَّتهم الأمانى وكان أحدهم لا يبعث ولا يسأل وكان مع كل
منهم توقيع من الله: فلان بن فلان بالأمان من عذابه، والفوز بجزيل ثوابه.

فأما اللذات الحسيَّة والشهوات النفسية كيفما حصلت فإنَّهم حصلوها، ومن أيَّ
وجه لاحت أخذوها ما هم به مطالبون. ويعمرون ما هم عنه منتقلون. ويخربون
ما هم إليه صائرون. هم عن الآخرة هم غافلون. ألهتهم شهوات نفوسهم فلا
ينظرون في مصالحها. ولا يأخذون في جمع زادها في سفرها ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسَاهُمْ
أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾^(٢) والعجب كل العجب من غفلة مَنْ تُعدُّ عليه
لحظاته، وتُحصى عليه أنفاسه ومطايا الليل والنَّهار تُسرع به، ولا يتفكر إلى أين
يحمل، ولا إلى أي منزل ينقل؟

وكيف تنام العين وهي قريرة ولم تدر في أيِّ المحلِّين تنزل؟
إذا نزل بأحدهم الموت قلق لخراب ذاته، وذهاب لذاته، لا لما سبق من جنائياته،
ولا لسوء منقلبه بعد مماته^(٤) فإنَّ خطرت على أحدهم خطرة من ذلك اعتمد العفو

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) سورة «الحشر» الآية: (١٩).

(٤) نفس المصدر السابق: ص (٢٧٠).

أو الرِّحمة، وكان يتيقن أن ذلك نصيبه ولا بد. فلو أن العاقل، أحضر ذهنه ما استحضر عقله، وسار بفكره، وأمعن النظر، وتأمل الآيات، لفهم المراد من إيجاده، ولنظرت عين الرَّاحل إلى الطريق، ولأخذ المسافر في التزوّد، والمريض في التداوى، والحازم ما يجوز أن تأتي. فما الظنُّ بأمر متيقن، كما أنه لصدق إيمانهم وقوة إيقانهم، وكأنهم يُعاينون الأمر، فأضحت ربوع الإيمان من أهلها خالية، ومعالمه على عروشها خاوية. قال ابن وهب: أخبرني مسلم بن عليّ، عن الأوزاعي، قال: كان السلف إذا طلع الفجر أو قبله كأنما على رءوسهم الطير مقبلين على أنفسهم، حتى لو أن حبيباً لأحدهم غاب عنه حيناً ثم قدم كما التفت إليه، فلا يزالون كذلك إلى طلوع الشمس. ثم يقوم بعضهم إلى بعض. فيتخلّفون بأول ما يقتضون فيه أمر معادهم، وما هم صائرون إليه. ثم يأخذون في الفقه (١).

قال الله تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ العَقِيمَ * مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرِّمِيمِ﴾ (٢)، أي وفي عاد أيضاً آية أخرى على ما تقدّم من قوله، وفي موسى، والعقيم التي لا يكون معها لقح ولا تأتي بمطر، وإنما هي ريح الإهلاك، والريميم الورق الجاف المتحطّم وهو الهشيم أيضاً قال الطائي (٣):

أصبحت روضة الشباب هشيماً وغدّت ريحُه البليل عقيماً (٥)

ومعنى التشبيه في الآية أن الريح جعلت ما أتت عليه في الخفة والذهاب كالريميم لشدة عصفها وإسراع مرورها، ويروى عن النبي ﷺ قال: «نُصِرْتُ بالصَّبَا وأُهْلِكَتُ عادٌ بالدبور» (٥)، ولبعض الشعراء (٦) يهجو رجلاً:

(١) نفس المصدر السابق. (٢) سورة «الذاريات» الآيات (٤١، ٤٢).

(٣) الطائي: هو أبو تمام حبيب بن أوس الطائي والبيت في الديوان ص ١٤٦ ولكن نص البيت على الشكل التالي:

أصبحت روضة الشباب هشيماً وغدّت ريحُه البليل سموماً
وروضة: بستان، هشيماً: محطمة، غدّت: صارت، بليل: طيب.

(٤) روضة الشباب: نضارته وغضارته، هشيم: محطم مكسر، بليل: الطيب.

(٥) أخرجه البخاري ومسلم وأحمد في المسند في غريب الحديث ٩٨ / ٢.

(٦) الجمان في تشبيهات القرآن تأليف عبد الله بن الحسين بن نايقا ص (٢٢٧، ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣٠).

لو كُنْتَ ماءً لم تكن طَهُوراً أو كُنْتَ غيماً لم تكن مَطِيراً
أو كُنْتَ ريحاً كانت الدُّبُوراً أو كُنْتَ برداً كُنْتَ زمهريراً
أو كُنْتَ أرضاً كُنْتَ أرضاً بُوراً أو كُنْتَ مخاً كُنْتَ مخاً ريراً^(١)

والدبور تأتي من دُبُر الكعبة والقبول من تلقائها - والشمال من شمال الكعبة والجنوب من تلقائها والبكاء كل ربح خالفت هذه الأربع ومن أسماء الدبور محوة لا تنصرف، أشد أبو زيد^(٢):

قد بَكَرَتْ محوة بالعجاج ودمَّرتُ بقيَّةَ الزُّجاجِ
الزجاج حاشية الإبل وضعافها وسميت الصبا القبول لمقابلتها الدبور ومن أسمائها أيرورير وأيروهير ومن أسماء الشمال الجريباء، ونسج ومسج ومن أسماء الجنوب الأزيب والتعامي والهييف إذا هفت بحر قال ذو الرمة: ^(٣)

وصوح البقل ناجيجٌ وتجيءُ به هيح يمانيةٌ في مرَّها نكبٌ^(٤)
ويقال إنَّ الجنوب أثر ما تستميل من الصبا وقد دلَّ على ذلك قول الشاعر:

وريح تبوع الشمس يمتُّ نحوها ليُشفي ما بي من سُقامِ هبوبها
تبدت صبا ثم استدارت ضحيةً جنوباً فماذا هيجت لي جنوبها
ويقال للريح أول ما تبدو بشدة النَّافحة والرقراقة التي لها زفرة أي صوت والمجفلة والجافة السريعة والسَّهول والسيهوج والسَّهوج الشديدة والهجوم التي تشتد حتى تقلع الثمام والبيوت والحجوج الشديدة المر والدروج التي تدرج من مؤخرها ترى لها مثل الذيل في الرمل قال شيبث بن البرصاء^(٥):

(١) الدبور: الريح المهلكة، زمهرير البرد، الرير: الفاسد من كل شيء.
(٢) أبو زيد أحد الرواة المشهورين في العصر العباسي وله عدة مؤلفات، راجع بغية الوعاة للسيوطي ٤٥/٢.
(٣) نفس المصدر السابق.
(٤) صوح أي ييس، ناجيج: الرياح الشديدة.
(٥) الإخفاض والحدوج الإبل مع رحالها.

فلم تذرِفِ العِينانِ حتَّى تَحْمَلْتِ مع الصبِحِ إخفاضٌ لَهم وِحدوِجٌ
وحتَّى رأيتِ الحَيَّ يسفِي ديارَهم مَزَعزَعَةٌ جَنحُ الظلامِ دروِجٌ^(١)

وقيل إنَّ المراد بقوله تعالى: ﴿كَالرَّمِيمِ﴾ العظم البالي المنسحق يقال رَمَّ العظم
يَرُمُّ رَمًّا ورَمِيمًا إذا نخر وبلى والرَّمة العظم ومنه الحديث أنه «نهى ﷺ عن
الاستنجاء بالروث والرَّمة»^(٢)، وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي
الْعُظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾^(٣). ولما نزلت هذه الآية أتى أبي بن خلف^(٤) إلى النبي ﷺ بعظم
بال فجعل يفتُّه ويقول: أترى الله يا محمد يحيي هذه بعد أن رمَّت؟!، وقال
الشاعر^(٥):

وإنك لو ناديتَه وهو ميِّتٌ أجاب ولو أنَّ العظامَ رَمِيمٌ^(٦)
وقولهم جاء بالطم والرَّم، قيل فيه إنَّ الطم ما حملة الماء والرَّم ما حملته الريح
والوجه الأول أحسن في التشبيه^(٧).

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) أخرجه البخارى من حديث أبي هريرة ٢٠٥/١..

(٣) سورة يس: آية: (٧٨).

(٤) أبي بن خلف أحد مشركي قريش والمعادين للدعوة الإسلامية.

(٥) القائل لم يوجد.

(٦) رميم: فاسدة متنته.

(٧) نفس المصدر السابق.

(سورة الطور)

قال تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ * وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلَ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ * فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَّانَا عَذَابَ السَّمُومِ * إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾^(١) قوله تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ وصف سبحانه وتعالى: خدمهم الطائفين عليهم في الجنة بأنهم كاللؤلؤ في بياضهم، و﴿المَكْنُونُ﴾: المصون الذي لا تدنسه الأيدي، فلم تذهب الخدمة تلك المحاسن، وذلك اللون والصفاء والبهجة، بل مع انتصابهم لخدمتهم كأنهم لؤلؤ مكنون، ووصفهم في موضع آخر ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنثورًا﴾^(٢) ففي ذكره المنثور، إشارة إلى تفرقهم في حوائج ساداتهم وخدمتهم، وذهابهم، ومجيئهم، وسعة المكان^(٣)، بحيث لا يحتاجون أن ينضم بعضهم إلى بعض فيه لضيقه. وقوله: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ أي أقبلوا يتحادثون ويتساءلون عن أعمالهم وأحوالهم في الدنيا، وهذا كما يتحدث أهل الشراب على شرابهم إذا أخذ فيهم الشراب بما كان من أمرهم^(٤).

ثم ذكر سبحانه ما يتحدثون به هناك وأنهم يقولون: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلَ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ أي كنا خائفين في محل الأمن بين الأهل والأقارب والعشائر فأوصلنا ذلك الخوف والإشفاق إلى أن من الله علينا، فأمننا مما نخاف ﴿وَوَقَّانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ وهذا ضد حال الشقي الذي كان في أهله مسروراً: فهذا كان مسروراً مع إساءته. وهؤلاء كانوا مشفقين مع إحسانهم. فبدل الله سبحانه إشفاقهم بأعظم الأمن، وبدل أمن أولئك بأعظم المخاوف^(٥).

(١) «سورة الطور» الآيات: (٢٤، ٢٥، ٢٦، ٢٧، ٢٨).

(٢) سورة الإنسان: الآية: (١٩).

(٣) التبيان في أقسام القرآن. للعلامة شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية ص (١٧٤).

(٤) تفسير القرآن العظيم: للإمام الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي ج ٤ ص (٢٠٨).

(٥) التبيان في أقسام القرآن. للعلامة شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية ص (١٧٤).

﴿فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ أي فتصدق علينا وأجارنا مما نخاف، ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ ثم أخبر عن حالهم في الدنيا، وأنهم كانوا يعبدون الله فيها. فأوصلتهم عبادته وحده إلى قربه وجواره، ومحل كرامته، والذي جمع لهم ذلك كله برُّه ورحمته، فإنه هو البر الرحيم، فهذا هو المقسم عليه بتلك الأقسام الخمسة في أول السورة^(١). هذا والله أعلى وأعلم بالصواب.

(١) نفس المصدر السابق.

(سورة النجم)

قوله تبارك وتعالى: ﴿فَاعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اهْتَدَىٰ﴾ (١)

قوله: ﴿فَاعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا﴾ أي أعرض عن الذي أعرض عن الحق وهجره. وقوله: ﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي وإنما أكثر همه ومبلغ علمه الدنيا، وهذا وصف حال من هم على جانب يسير ضئيل من العلم ويتظاهرون بمعرفة الكثير. فذاك هو غاية مالا خير فيه، ولهذا قال تعالى: ﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ أي طلب الدنيا والسعي لها هو غاية ما وصلوا إليه. وقد روى الإمام أحمد عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ «الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له» وفي الدعاء المأثور «اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا، ولا مبلغ علمنا» وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اهْتَدَىٰ﴾ أي هو الخالق لجميع المخلوقات والعالم بمصالح عباده، وهو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء، وذلك كله عن قدرته وعلمه وحكمته وهو العادل الذي لا يجور أبداً في شرعه ولا في قدره (٢).

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ (٣)، قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ يستشهد به في وصف حال أفاضل الناس الذين لا يأتون الكبائر ولا يمارسون الفواحش، كما يستشهد به في بيان أن مقارفة الصغائر من الآثام بدون إصرارٍ على ذلك ولا تعمد له لا يتناقض مع الاتصاف بالفضيلة؛ وذلك توسعة للناس ورفعاً للجرج عنهم واعترافاً بقصور الإنسان عن الكمال، وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ يمكن

(١) سورة النجم: الآيتان: (٢٩، ٣٠).

(٢) تفسير القرآن العظيم للإمام الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي ج ٤ ص (٢٢٩).

(٣) «سورة النجم» الآية: (٣٢).

الاستشهاد به وربما كان ذلك إردافاً للاستشهاد السابق وإشاعة للأمل في نفوس المؤمنين بسعة حلم الله ومغفرته لعباده، وقوله: ﴿فَلَا تَرْكُوا أَنْفُسَكُمْ﴾^(١).

يستشهد به في النهي عن تزكية النفس وإبراز محاسنها والمبالغة في ذلك وأدعاء الفضائل وتبرئة النفس من النقائص، فالإنسان العاقل لا يليق به أن يمدح نفسه أو يزيها وإنما يترك ذلك لغيره ممن يعرف حقيقته، ويمكن تكملة الاستشهاد بتلاوة ما بقي من الآية الكريمة وهو قوله تبارك وتعالى:

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ تأكيداً لحقيقة أن الله سبحانه وتعالى يعرف حقيقة الإنسان ولو صور نفسه بغيرها^(٢).

(١) الشواهد والأمثال في القرآن الكريم. للفريق يحيى عبد الله المعلمي ص (٣٠٥) دار الاعتصام.

(٢) نفس المصدر السابق.

(سورة القمر)

قوله تعالى: ﴿خُشَعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ﴾ (١) شبه الناس في وقت البعث بالجراد المنتشر، كما شبههم بالفراش المبعوث لأنهم يومئذ يموج بعضهم في بعض.

قوله: ﴿خُشَعًا﴾، منصوب على الحال وقرئت ﴿خَاشِعًا أَبْصَارُهُمْ﴾ (٢) وقرأ ابن مسعود: «خاشعة أبصارهم» (٣) ويجوز في أسماء الفاعلين إذا تقدمت على الجماعة التوحيد والتذكير، ويجوز أيضاً التوحيد والتأنيث لتأنيث الجماعة، ويجوز الجمع تقول: مررت بشباب حسن أوجههم، وحسان أوجههم، وحسنة أوجههم قال الشاعر:

وشبابٍ حسنٍ أوجهُهُم من إيادِ بن نزارِ بن معدٍ

وأما قوله: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ (٤) فالفراش ما تراه كصغار البق يتهافت في النار وهذا التشبيه كالأول (٥).

وفى نحو ذلك يقول أبو كبير الهذلي: وأتى له بهذا الاختصار وما يدل على المراد من الكثرة في هذا اللفظ الوجيز أنشدنيه الأسدي:

لا يجفلون عن المضاف ولو رأوا أولى الوعاوي كالغطاطِ المقبل (٦)
يقولون إذا رأوا أعداءهم حملوا عليهم كالغطاط إذا طار وهو طائر كالقطا وقال امرؤ القيس وذكر الخليل:

فهن أرسلال كمثلِ الدُّبَا أو كقطا كاظمةِ الناهلِ (٧)

وقال إياس بن قبيصة (٨) الطائي وذكر ابن قتيبة:

-
- (١) سورة القمر: الآية (٧).
(٢) قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي (خاشعا) أي بفتح الخاء وألف بعدها فشين مكسورة مخففة، وقرأ الباقون بضم الخاء بعدها شين مفتوحة مشددة.
(٣) فإنها وإن كانت قراءة شاذة. إلا أن لها وجهاً عند علماء النحو.
(٤) سورة القارة الآية (٤).
(٥) انظر: الجمان في تشبيهات القرآن. تأليف: عبد الله بن الحسين بن نايقا ص (٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٢).
(٦) يجفلون: يقرون، المضاف: المكان الذي يأتي إليه الضيوف، الوعاوي: أول المغيبين، الغطاط: القطا.
(٧) كاظمة: المكان الذي يكثر فيه الجراد، الناهل: أول الشارين الماء.
(٨) إياس بن قبيصة عامل كرى على عين النمر وكان له دور بارز في الشجاعة يوم ذى قار.

ومبثوثة بثَّ الدُّبَّا مسبطرةً رددت على بطائنها من سراعها^(١).
وقال الأعشى وذكر قوماً:

متى منهم أدعُ ناصري تأتِ مِنْهُمْ كراديس مأمونٌ عليَّ خذُولُها^(٢)
رعالاً كأقساطِ الجرادِ تخيلُهُمْ علوبٌ إذا سارت سريعٌ نُزُولُها

وقال أبو جندب الهذلي:

على حنقٍ صحبتهم بمغيرةٍ كرجل الدُّبَّا الصيفيَّ أصبح سائماً^(٣)
وقال أبو خراش: في معنى آخر من هذا التشبيه:

تري طالبي الحاجاتِ يَغشونُ بآبَهُ سراعاً كما تهوى إلى أدها النَّخلُ^(٤)
ومنه أخذ المحدث قوله:

تري الناس أفواجاً إلى باب دارِهِ كأنَّهُم رجلا دبا وجراد

مثل آخر من هذه السورة، قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصراً فِي
يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ (١٩) تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾^(٥).

«كأنهم». هاهنا في موضع نصب على الحال. المعنى: تنزع الناس مشبهين بالنخل
المنقعر، وهو المقطوع من أصوله وكانت الريح تكبهم على وجوههم. والنخل
تذكر وتؤنث، يقال هذا نخل، وهذه نخل، فقال: منقعر على التذكير، وقوله:
﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾^(٦) على التأنيث^(٧).

والهاء في قوله: ﴿فِيهَا﴾ عائدة على الريح التي أهلكتهم، وقوله: ﴿أَعْجَازُ

(١) مبثوثة: مشتتة، الرمي: الجراد، مسبطة: طويلة.

(٢) وندل كأقساط في الديوان كأمثال الكراديس جمع كردوس الخيل.

(٣) حنق: غضب، بمغيرة: هي الخيل، سائماً: متشرا.

(٤) يغشون: يأتون، أدمى: اسم موضع، تهوى: تسقط وتتنزل.

(٥) سورة القمر: الآيتان: (١٩، ٢٠).

(٦) «سورة الحاقة» الآية (٧).

(٧) نفس المصدر السابق.

نَخْلٌ»، أي أصول نخل. وما جاء في الشعر في نحو هذا التشبيه على تفاوت الموازنة بينه وبين لفظ القرآن، وانحطاطه إلى حال الهجنة واللكنة بالقياس إلى تلك الفصاحة قول امرئ القيس:

حتى تركناهم لَدَى مَعْرَكٍ أَرَجْلُهُمُ كَالْحَسْبِ السَّائِلِ
ونظم يحيى بن خالد^(١) لفظ القرآن في شعر كتبه إلى الرشيد حين نكب البرامكة فقال يخاطبه ويذكر حالهم:

عَمَّتْهُمُ لَكَ سَخِطَةٌ لَمْ تُبْقِ مِنْهُمْ بَاقِيَهُ
فَكَأَنَّهُمْ مَمَّا بِهِمْ أَعْجَازُ نَخْلِ خَاوِيَهُ

فأجاب الرشيد: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً﴾^(٢) الآية، وأما قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ فالصرصر الشديد البرد^(٣) قال الشاعر يذكر رجلا:

يصفقه أنفٌ من الريحِ بارِدٌ ونكباءٌ ليلٍ من جُمادَى وَصَرْصَرٍ^(٤)

والأصل صر، وصرصر متكرر في البرد كما تقول صر الشيء وصل إذا سمعت غير مكرر، فإذا أردت الصوت تكرر قلت صرصر وصلصل.

مثل آخر من هذه السورة، قوله سبحانه: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾^(٥) الهشيم: ما يبس من الورق وتكسر وتحطم أي فكانوا كالهشيم الذي يجمعه صاحب الحظيرة، أي قد انتهى إلى غاية الجفاف حتى بلغ إلى أن يجمع ليوقد، وقد ذكرت الشعراء في وصف فناء الناس ودثور الأمم نحو من هذا التشبيه كقول عدي بن زيد^(٥) العبادي:

(١) هو يحيى بن خالد البرمكي صديق هارون الرشيد وأحد المقربين له وكان يسامره في ليال عديدة لرواية الأشعار والأخبار الأدبية.

(٢) المصدر السابق (٢٣٣).

(٣) سورة النحل: الآية (١٢).

(٤) سورة القمر: آية: (٣١).

(٥) عدي بن زيد العبادي شاعر جاهلي مشهور برثاء الممالك، كان يعيش في الحيرة بالعراق.

ثم أضحوا كأنهم ورقٌ جَفَّ فآلوتُ بِهِ الصَّبَا والدُّبُورُ^(١)
وهذا البيت مستحسن عند جماعة من الرواة وذكر أصحاب المعاني أنه كُنِيَ عن
الصبا والدُّبُورِ عن اخترامِ المنية^(٢)

ومن أحسن ما قيل في هلاك الأمم وفناء القرون الأول قول الأسود بن يعفر:
ماذا أؤمِّلُ بعد آلٍ مَحَرَّقٍ تركُوا منازلَهُم وبعَدَ إيادِ^(٣)
أهلُ الخورنقِ والسديرِ وبارقِ والقصرِ ذي الشرفاتِ من سندانِ
أرضٍ تخيَّرها لطيبٍ مقيلها جرتِ الرياحُ على محلِّ ديارِهِم
كعبُ بنُ قامَةَ وابنُ أمِّ دؤادِ فكأنَّما كانوا على ميعادِ
ولقد غَنَوًا فيه بأنعمِ عيشةٍ في ظلِّ مُلكٍ ثابتِ الأوتادِ
نزلوا بأنقرةٍ يسيلُ عليهمُ ماءُ الفراتِ يَجِيءُ من أطوادِ
فإذا النعيمُ وكلُّ مايلهُي بِهِ يوماً يصيرُ إلى بلىٍ ونفادِ

وقد سلك المولدون طريق الأوائل في وصف هذه الحال وكلِّ مُقَصِّرٍ عن بلاغة
الكتاب، وذهب إلى الإطالة والإسهاب، وربما أخذ بعضهم لفظ التنزيل وهو مع
ذلك إلى النكول والتقصير^(٤) إذعاناً من الخواطر بالعجز عن إدراك شأوه ومعارضة
بلاغته، أشدني بعض الشيوخ لابن منذر^(٥) في أبيات:

وَأرأنا كالزراعِ يحصدُهُ الدَّهْرُ فَمِنَ بَيْنِ قائِمٍ وَحَصِيدِ
وهو من قوله تعالى: ﴿ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد﴾ فأتى
بلفظ القرآن وخذلته القرينة عن استيفاء المعنى لأنه هناك أتم وأعم وأوفى وأبلغ إذ
دل على ذهاب من ذهب من القوم وذهاب مساكنهم وما يتبع ذلك مما يذكره،

(١) الصبا: ريح طيبة، والدُّبُور: ريح مهلكة.

(٢) نفس المصدر السابق ص (٢٣٣، ٢٣٤).

(٣) غنوا: أقاموا، أنقرة: بلد في بلاد الروم، أطواد: جبال، بلى: هلاك، نفاد: انتهاء النعيم.

(٤) نفس المصدر السابق: (ص ٢٣٧، ٢٣٨).

(٥) ابن منذر شاعر عباسي بدأ زاهدا ثم خليعا منهتكا، راجع الأغاني ٩/١٨.

ويطول شرحه، وحدثني أبي رحمه الله قال: لما خلع يزيد^(١) بن المهلب ودعا إلى نفسه أيام يزيد^(٢) بن عبد الملك ندب له أخاه مسلمة والعباس بن الوليد فواقعه بالعقر من أرض بابل فقتلاه، وجماعة من أصحابه وحملت رؤوسهم إلى الشام واستؤسر حبيب بن المهلب فلما وصل إلى يزيد حبسه وشهر الرؤوس بالشام^(٣)، ومكث حبيب محبوساً إلى أيام هشام فقال: إنه أنفذ إليه رؤوس آل المهلب وقال أتعرف هذه قال نعم هذه رؤوس قوم زرعتهم الطاعة وحصدتهم المعصية فأعجبه قوله فأفرج عنه.

مثل آخر من هذه السورة، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَّمَحٍ بِالبَصْرِ (٥٠)﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٤﴾ وهذا إخبار من الله تعالى: عن نفوذ مشيئته في خلقه، كما أخبرنا بنفوذ قدره فيهم فقال: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَّمَحٍ بِالبَصْرِ﴾ أي إنما نأمر بالشيء مرة واحدة لانحتاج إلى تأكيده بثانية، فيكون ذلك الذي نأمر به حاصلاً موجوداً كلمح البصر، بمعنى أنه لا يتأخر طرفه عين، وما أحسن ما قال بعض الشعراء:

إذ ما أراد الله أمراً فإتّما يقول له كن قوله فيكون

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ﴾ يعني أمثالكم وسلفكم من الأمم السابقة المكذبين بالرسول ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ أي فهل من متعظ بما أخزى الله أولئك وقدر لهم من العذاب، كما قال تعالى ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِّن قَبْلُ﴾^(٥) وقوله تعالى ﴿وكل شيء فعلوه في الزبر﴾^(٦).

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) نفس المصدر السابق.

(٤) «سورة القمر» الآيتان: (٥٠، ٥١).

(٥) «سورة سبأ» الآية: (٥٤).

(٦) انظر تفسير القرآن العظيم للإمام الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي ج ٤ ص (٢٤١)،

(٢٤٢).

أى مكتوب عليهم في الكتب التي بأيدي الملائكة عليهم السلام «وكل صغير وكبير» أي من أعمالهم ﴿مستطراً﴾، أي مجموع عليهم ومسطر في صحائفهم، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها. عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان يقول: «يا عائشة إياك ومحقرات الذنوب فإن لها من الله طالباً» ورواه النسائي وابن ماجه، ووثقه أحمد وابن معين وأبو حاتم وغيرهم. وقد رواه الحافظ ابن عساكر في ترجمة سعيد بن مسلم هذا من وجه آخر. ثم قال سعيد: فحدثت بهذا الحديث عامر بن هشام فقال لي: ويحك ياسعيد بن مسلم لقد حدثني سليمان بن المغيرة أنه عمل ذنباً فاستصغره فأتاه آت في منامه فقال له يا سليمان:

لا تحقرن من الذنوب صغيراً	إن الصغير غداً يعود كبيراً
إن الصغير ولو تقادم عهده	عند الإله مُسَطَّرٌ تسطيراً
فازجر هواك عن البطالة لاتكن	صعب القياد وشمراً تشميراً
إن المحب إذا أحب إلهه	طار الفؤاد وألهم التفكيراً
فاسأل هدايتك الإله بنية	فكفى بربك هادياً ونصيراً ^(١)

(١) نفس المصدر السابق.

(سورة الرحمن)

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾^(١) أي هو في بيسه كالفخار، يقال صل الشيء وصلصل إذا سمعت صوته بعضه مع بعض قال جرير ويذكر الزبير:

لو كان لبس خيله بجبالنا سمعت من وقع الحديد صليلاً^(٢)

وقال في موضع آخر: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ﴾^(٣) وقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾^(٤) وقال: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ﴾^(٥) وهذه الأشياء مختلفة الألفاظ في المعنى، راجعة إلى أصل واحد. فأصل الطين التراب ثم تحوّل الطين فصار كالحمى المسنون ثم انتقل فصار صلصالاً كالفخار وليس في ذلك تناقض يوجب الالتباس وقال بعض الشعراء:

الناس من جهة التمثيل أكفأ أبوهم آدم والأم حواء^(٦)
فإن لم يكن لهم من أصلهم نسب يفاخرون به فالطين والماء

ومن هذا الشعر نقل ابن المعتز قوله أنشدناه العشاري:

وحسبك من نسب صورة تخبر أنك من آدم

والمسنون المصبوب، وقيل المتغير الرائحة وقيل الصلصال أيضاً المتغير من صل اللحم كأنه صلال فقلب إحدى اللامين وقرأ بعضهم: ﴿وَقَالُوا أَأُنذَارٌ لَنَا فِي الْأَرْضِ﴾^(٧) بالصاد المهملة على المعنى الذي ذكرناه وقيل أيضاً في قوله تعالى:

(١) «سورة الرحمن» الآية (١٤).

(٢) الأبيات في ديوان جرير ص ٤٥٥، ورواية الديوان هكذا:

لو كنت حين غررت بين بيوتنا سمعت من صوت الحديد صليلاً

(٣) سورة الصافات الآية: (١١).

(٤) سورة الحجر: الآية (٢٦).

(٥) سورة آل عمران: الآية (٥٩).

(٦) الجمان في تشبيهات القرآن. تأليف عبد الله بن الحسين بن نايقا. ص (٢٤٥، ٢٤٦، ٢٤٧).

(٧) وهذه قراءة شاذة، ويستدل بها على النحو، وجمهور الفقهاء على العمل بها في كثير من الأحكام الفقهية والتفسير. سورة السجدة: الآية (١٠).

﴿كالفخار﴾ أي انتقله من حال إلى حال كانتقال الطين إلى الفخار وقد ضرب الله المثل لإنشاء الخلق وأقام الحجة في ذلك بما ينتقل عن الطين إلى جنس آخر، فقال جلَّ شأنه: ﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بِنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩) وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾^(١) فالجبال في أحد الوجهين معطوفة على قوله: ﴿مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ وعلى ذلك يكون المعنى في قوله: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّنْ طِينٍ﴾^(٧) أي منتقلة عن الطين وفي الخبر أنها حجارة على حجر منها مكتوب اسم صاحبه الذي يقع على رأسه فذلك قوله: ﴿مَسُومَةٌ﴾، وإلى هذا ذهب قوم في تفسير. ﴿سَجِيلٌ﴾، إلى أنه معرب أصله بالفارسية (سئل كل) والوجه الآخر في قوله: ﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ بإضمار فعل يفسره الفعل المذكور بعده، وقد أشار الراجز إلى الوجه الأول بقوله:

تسألني عن السنين كم لى فقلت لو عمّرتُ عمرَ الحلس^(٣)
أو عمرَ نوحِ زمنِ الفطحلِ والصخرِ مبتلُّ كطينِ الوحلِ

وأما قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾ فإن نصارى أهل نجران قدم وفدهم على النبي ﷺ وفيهم السيد والعاقب وهما يومئذ سيدا أهل نجران فقالوا: يامحمد فيم تشتم صاحبنا وتزعم أنه عبد فقال عليه السلام أجل هو عبد الله وكلمته ألقاها إلى مريم^(٤) فقالوا: إن كنت صادقا فأرنا عبداً يحيي الموتى ويبريء الأكمه والأبرص ويخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيرا لكنه هو الله فسكت عليه السلام حتى أنزل الله تعالى:

(١) سورة «النازعات» الآيات: (٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣٠، ٣١، ٣٢).

نفس المصدر السابق.

(٢) «سورة الذاريات» الآية: (٣٣).

(٣) الحلس: ولد الضب.

(٤) نفس المصدر السابق.

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (٥٩) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ (١) فلما أصبحوا عادوا فقرأ عليهم الآيات فقالوا: ما نعرف ما تقول فلما أبوا عرض عليهم الملائكة فقبلوا ذلك فواعدهم رسول الله ﷺ فانصرف السيد والعاقب ليغدوا إليه فمرّ على رجل منهم كان منكرا فأخبراه فقال: ما صنعتما شيئا والله لئن كان نبيا لا يغضببه الله فيكم ولئن كان ملكا استعبدتكم العرب قالوا: فما الرأي قال: توافياه لموعده فإذا عرض عليكم الملائكة (٢) فقولوا نعوذ بالله فغدا رسول الله ﷺ وفاطمة والحسن والحسين فقال: هل لكما فيما أتعدنا عليه قالوا: نعوذ بالله، قال: فالإسلام فأبيا قال: فالجزية فقبلا الجزية وتركوا الملائكة (٣).

مثال آخر من هذه السورة، قال الله تعالى: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ (٤) الجواري السفن، المنشآت المرفوعات الشراع ويقرأ المنشآت (٥) بكسر الشين على معنى الحاملات الرافعات الشراع، والفتح أجود والأعلام الجبال قال الشاعر: (إذا قطعنا علما بدا علم) (٦) وإنما شبه الله تعالى: سفن البحر بالأعلام لأنه أراد المراكب الكبار التي تقطع البحر وهي أشبه شيء بالجبال، والدليل على حُسْنِ وقوع هذا التشبيه وصحته أن يصح العكس وقلب المشبه بالمشبه به، فَمِمَّنْ عكس هذا التشبيه ذو الرمة فقال وذكر مسير الراكب في مجهول الفلاة:

(١) «سورة آل عمران» الآيات: (٥٩، ٦٠، ٦١، ٦٢).

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) نفس المصدر السابق.

(٤) «سورة الرحمن» الآية: (٢٤).

(٥) قرأ حمزة وأبو بكر (شعبة) بالكسر في أحد وجهيه. وقرأ الباقون بالفتح معهم شعبة في ثانيه.

(٦) القائل جرير وقام البيت:

حتى تناهينا إلى الحكم

إذا قطعنا علما بدا علم

بأرض ترى فيها الحُبَارَى كأنَّهَا قَرَارُ مَوْجٍ غَضَّ بِالسَّاجِ قِيرَهَا
مُلَجَّجَةً فِي الْمَاءِ تَعْلُو حُبَابَهُ جَاجَتْهَا السَّفَلَى وَتَطْفُو سَطُورَهَا^(١)

ونظير التشبيه في الآية قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾^(٢).

مثل آخر من هذه السورة: قوله تعالى: ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾^(٣) الانشقاق انفكاك ما كان على شدة الالتصاق فالسَّمَاءُ تشق وتصبح حمراء كالوردة ثم تجري «كالدِّهَانِ» أي وهذه الوردة المثل تشبه، الدهان، والدِّهَانُ جمع مفردة الدَّهْنُ، وهو يجمع أيضاً على أَدِهَانٍ. ولعلَّ في وصف الوردة بأنها تشبه الدِّهَانِ دلالةً مقصودةً تتحقق بالجمع ولا تتحقق بالمفرد، أي تشبه أنواع الدهن، الذي يوجد منه ما هو سائل رقيق، وما هو كثيف أخف سيولة، وما هو قريب من درجة التماسك بنفسه. وهكذا تظهر السماء للناظرين يومئذ. وهذه الصورة للسماء يومئذ ناتجة عما يحدث فيها من حركة تشبه الدوامة في البحر، فهي تمور موراً، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾^(٤). فإذا ضممننا إلى هذه الحركة. اللون الأحمر النحاسي^(٥) الذي دل عليه قول تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ﴾^(٦) كان الناظر لها من بعد يراها كوردة حمراء كبرى مصنوعة من أنواع الدَّهْنِ، تتحرك أوراقها الذائبة، ويموج بعضها في بعض، وهذه الصورة هي التي رسمها قوله تعالى: ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ إي والله، حقاً. إنها لدقة في التصوير بالغة مع إيجاز في اللفظ متناه.

مثل آخر من هذه السورة: قوله تعالى: ﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِئِنَّ أَنْسَ قُلُوبُهُمْ وَلَا جَانٌ (٥٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٧) كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾^(٧).
﴿لَمْ يَطْمِئِنَّ﴾: أي لم يمسسهنَّ. ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ أي هن في صفاء

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) سورة الشورى: الآية: (٣٢).

(٣) «سورة الرحمن» الآية: (٣٧).

(٤) «سورة الطور» الآية: (٩).

(٥) الأمثال القرآنية: تأملات: عبد الرحمن حسن حنيفة الميداني ص (١٣٣) وما بعدها ط: دار القلم. دمشق - بيروت. الطبعة الأولى سنة (١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م).

(٦) «سورة المعارج» الآية: (٨).

(٧) «سورة الرحمن» الآيات: (٥٦، ٥٧، ٥٨).

الياقوت وحسنه، والياقوت: من الحجارة الكريمة الشفافة، وفيه ذو اللون الأحمر والأبيض. المرجان صغار اللؤلؤ، وهي أشد بياضاً من كباره. أي فموطن الحمرة الجميلة فيهن كلون الياقوت، ومواطن البياض الجميل فيهن كلون صغار اللؤلؤ^(١).

ففي هذه النصوص ضرب الله أمثلة لجوانب من حُسن الحور العين في الجنة. فَلَونُ بشراتهنَّ يشبه لون اللؤلؤ المحفوظ المصون لصاحبه، ويشبه لون البَيض المحفوظ المصون من الأوساخ. ومواطن جمال اللون الأحمر من أجسادهنَّ كوجناتهنَّ وشفاهنَّ يشبه لونها لون الياقوت الأحمر.

ووصفهنَّ الله بأنهنَّ عفيفات قاصرات الطرف لا ينظرن إلى غير أزواجهنَّ. وبأنهنَّ واسعات العيون جميلاتها. وبأنهنَّ أبكار لم يمسنَّهنَّ قبل من هُنَّ له من المؤمنين إنس ولا جان^(٢).

والمعنى أنه شَبَّهنَّ بالمرجان ليدلَّ ذلك على تشبيهنَّ بالياقوت الأحمر وهو أحسن الياقوت وقد قال بشار:

هِجانٌ عليها حُمْرةٌ في بياضِها تروقُ بها العينين والحسنُ أحمرُّ

وأحسن ما شَبَّه احمرار اللون بالياقوت كما قال أبو نواس في تشبيه الخمر^(٣) حين وصفا لونها:

كأس إذا تحدرتُ في حلقِ شاربِها أخذته حُمُرُها في العين والخذُ
فالخمر ياقوتةٌ والكأسُ لؤلؤةٌ من كفِّ جاريةٍ ممشوقة القدُّ

وقد شبَّهت العرب النساء في حسنهنَّ بالياقوت وتسميتهن باسمه أيضاً وأنشد الخليل بن أحمد^(٤):

(١) نفس المصدر السابق ص (١٣٥).

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) الجمالان في تشبيهات القرآن. تأليف عبد الله بن الحسين بن نايقا ص (٢٥٠، ٢٥١).

(٤) الخليل بن أحمد الفراهيدي علم من أعلام الرواية والأدب العربي ومخترع علم العروض.

إِنَّمَا الذَّلْفَاءُ يَاقُوتَةٌ أُخْرِجَتْ مِنْ كَيْسِ دَهْقَانَ
أُنشَدْنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْقَاسِمِ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ طَاهِرٍ وَعَتَمَدَ لِفِظِ الْقُرْآنِ
فَقَالَ:

هِيَ كَالدَّرَةِ الْمَصُونَةِ حُسْنًا فِي صِفَاءِ الْيَاقُوتِ وَالْمَرْجَانِ
وَقَالُوا فِي أَسْمَاءِ النَّسَاءِ يَاقُوتَةٌ كَمَا قَالُوا فِي تَسْمِيَتِهِنَّ لَوْلُؤَةٌ وَمَرْجَانَةٌ وَذَلِكَ مِثْلُ
مَا ذَكَرُوا فِي وَصْفِ زَيْتِهِنَّ كَقَوْلِ النَّابِغَةِ:

بِالدَّرِّ وَالْيَاقُوتِ زَيْنَ نَحْرُهَا وَمِفْصَلٍ مِنْ لَوْلُؤٍ وَزَبْرَجِدٍ^(١)
وَأُنشَدَنِي بَعْضُ الشَّامِيِّينَ بَيْتًا غَرِيبَ الصَّنْعَةِ لِمُحَدِّثٍ^(٢).

يَاقُوتٌ يَاقُوتَ رُوحِي رُوحِي بِرَاحٍ بِرَاحٍ
وَيَاقُوتٌ مَنَادِي مَرخَمٍ بِحَذْفِ آخِرِهِ^(٢).

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) نفس المصدر السابق.

(سورة الواقعة)

قال تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ (٢٢) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (٢٣) جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١)
 قرأ الجمهور ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ برفعهما عطفًا على ولدان. أو على تقدير مبتدأ: أي
 نساؤهم، حور عيين، أو على تقدير خبر: أي ولهم حور عيين، وقرأ حمزة
 والكسائي: بجرهما عطفًا على أكواب. قال الزجاج: وجائز أن يكون معطوفًا على
 جنّات: أي هم في جنّات وفي حور على تقدير مضاف محذوف: أي وفي معاشره
 حور. قال الفراء: في توجيه العطف على أكواب إنه يجوز الجرّ على الإبتاع في
 اللفظ وإن اختلفا في المعنى، لأنّ الحور لا يطاق بهنّ، كما في قول الشاعر:

إذا ما الغايات برزن يوماً وزجّجنّ الحواجب والعيونا

والعين لا تزجّج وإنّما تكحلّ، ومن هذا قول الشاعر: «علفتها تبناً وماء بارداً»
 وقول الآخر: «مقلّداً سيفاً ورمحاً» قال قطرب: هو معطوف على الأكواب
 والأباريق من غير حمل على المعنى. قال: ولا ينكر أن يطاق عليهم بالحور:
 ويكون لهم في ذلك لذة^(٢). وقرأ الأشهب العقيلي والنخعي وعيسى بن عمر
 بنصبهما على تقدير إضمار فعل، كأنّه قيل: ويزوجون حورا عينا، أو يعطون،
 وهذا الوجه جائز لغة لا قراءة هذا من ناحية، ومخالفته لرسم المصحف من ناحية
 أخرى. ورجح أبو عبيد وأبو حاتم قراءة الجمهور. ثم شبههنّ سبحانه باللؤلؤ
 المكنون، وهو الذي لم تمسه الأيدي ولا وقع عليه الغبار، فهو أشدّ ما يكون
 صفاء^(٣)، مثال لألوان بشرتهنّ ونعومتها بصفة تقريبية مع وجود الفارق العظيم بين
 المثل له والممثل به. ونظير هذا ما جاء في وصف الولدان المخلّدين، وهم خدّم
 المؤمنين في الجنة، قال تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا
 مَّنثورًا﴾^(٤) فضرب الله مثلاً لألوان بشرتهنّ ونعومتها، ولمشهد توزّعهم في الجنة

(١) «سورة الواقعة» الآيات: (٢٢، ٢٣، ٢٤).

(٢) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير. تأليف محمد بن علي بن محمد الشوكاني ج ٥ ص (١٥٠). ط: دار المعرفة - بيروت - لبنان. سنة الطبع لم توضح.

(٣) نفس المصدر السابق.

(٤) سورة «الإنسان» الآية: (١٩).

للخدمة، باللؤلؤ المنثور، وهو مثل تقريبي، والحقيقة أعظم من ذلك وأرفع^(١). وانتصاب جزاء في قوله ﴿جَزَاءٌ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ على أنه مفعول لأجله: أي يفعل بهم ذلك كله للجزاء بأعمالهم. ويجوز أن يكون مصدرا مؤكداً لفعل محذوف: أي يجزون جزاء، وقد تقدم تفسير الحور العين في سورة الطور وغيرها. أي هذا الذي أتحفناهم به مجازاة لهم على ما أحسنوا من العمل.

مثل آخر من هذه السورة، قال تعالى: ﴿فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ (٥٤) فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهَيْمِ (٥٥) هَذَا نَزَّلْنَاهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾^(٤) قوله: ﴿فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ﴾ الضمير، في، عليه. عائد إلى ﴿الزقوم﴾ والحميم الماء الذي قد بلغ حره إلى الغاية، والمعنى: فشاربون على الزقوم عقب أكله من الماء الحار. ويجوز أن يعود الضمير إلى شجر لأنه يذكر ويؤنث. ويجوز أن يعود إلى الأكل المدلول عليه بقوله ﴿لَا تَكُلُونَ﴾ ﴿فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهَيْمِ﴾ قرأ الجمهور ﴿شُرْبَ الْهَيْمِ﴾ بفتح الشين، وقرأ نافع وعاصم وحمزة بضمها، وقرىء شاذاً بكسرها، وهي لغات. قال أبو زيد: سمعت العرب تقول بضم الشين وفتحها وكسرها. قال المبرد: الفتح على أصل المصدر، والضم اسم المصدر، ﴿والهيم﴾: الإبل العطاش التي لا تُروى لداء يصيبها^(٣). وهذه الجملة بيان لما قبلها: أي لا يكون شربكم شرباً معتاداً بل يكون مثل شرب الهيم التي تعطش ولا تروى بشرب الماء. ومفرد الهيم أهيم، والأنثى هيماء قال قيس بن الملوّح:

يقال به داء الهيام أصابه وقد علمتُ نفسي مكانَ شِفائيا

وقال الضحّاك وغير واحد: الهيم الأرض السهلة ذات الرمل والمعنى أنهم يشربون كما تشرب هذه الأرض الماء ولا يظهر له فيها أثر. قال في الصحاح: الهيام بالضم: أشد العطش، والهيام كالجنون من العشق، والهيام: داء يأخذ الإبل تهيم

(١) الامثال القرآنية: تأملات: حسن حنيفة الميداني ص (٤١).

(٢) سورة الواقعة: الآيات: (٥٤، ٥٥، ٥٦).

(٣) فتح القدير. الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير تأليف محمد بن علي بن محمد الشوكاني ج ٥ ص (١٥٤، ١٥٥). ط: دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت - لبنان.

في الأرض لاترعى، يقال ناقة هيماء، والهيماء أيضاً: المفازة لا ماء بها، والهيام بالفتح: الرمل الذي لا يتماسك في اليد للينه. والجمع هيم مثل قذال وقذل، والهيام بالكسر الإبل العطاش. ﴿ هَذَا نَزَّلَهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ وقد تقدّم أنّ النزل ما يعدّ للضيف، ويكون أول ما يأكله، وهو يوم الدين يوم الجزاء وهو يوم القيامة، والمعنى: أنّ ما ذكر من شجر الزقوم وشراب الحميم^(١).

هو الذي يعدّ لهم ويأكلونه يوم القيامة، وفي هذا تهكّم بهم، لأنّ النزل هو ما يعدّ للأضياف تكريمة لهم، ومثل هذا قوله - فبشرهم بعذاب أليم مثل آخر من هذه السورة: قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ اليَقِينِ ﴾ (٥) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ (٢) أخبر الله تعالى: أنّ القرآن والرسول ﴿ حَقُّ اليَقِينِ ﴾ فقليل: هو من باب إضافة الموصوف إلى صفته، أي الحق اليقين، نحو مسجد الجامع، وهذا موضع يحتاج إلى تحقيق فنقول وبالله التوفيق:

فالله سبحانه ذكر في كتابه مراتب اليقين وهي ثلاثة: حق اليقين، وعلم اليقين، وعين اليقين، كما قال تعالى: ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ اليَقِينِ ﴾ (٥) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثم لترونها عين اليقين^(٣) فهذه ثلاث مراتب لليقين. أولها علمه، وهو التصديق التام به، بحيث لا يعرض له شك^(٤). ولاشبهة تقدح في تصديقه، كعلم اليقين بالجنة مثلاً، وتيقنهم أنّها دار المتقين ومقر المؤمنين، فهذه مرتبة العلم، كيقينهم أنّ الرسل أخبروا بها عن الله، وتيقنهم صدق المخبر.

(المرتبة الثانية) عين اليقين وهي مرتبة الرؤية والمشاهدة، كما قال تعالى: ﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ اليَقِينِ ﴾^(٥) وبين هذه المرتبة والتي قبلها فرق ما بين العلم والمشاهدة:

(١) نفس المصدر السابق والجزء والصفحة.

(٢) «سورة الواقعة» الآيات: (٩٥، ٩٦).

(٣) «سورة التكاثر» الآيات: (٥، ٦، ٧).

(٤) التيسان في أقسام القرآن للعلامة شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية ص (١١٩، ١٢٠، ١٢١). ط: دار الكتاب العربي.

(٥) «سورة التكاثر» الآية (٧).

فاليقين للسمع، وعين اليقين للبصر، وفي المسند للإمام أحمد مرفوعاً «ليس الخبر كالمعين» وهذه المرتبة هي التي سألها إبراهيم الخليل ربه أن يريه كيف يحيي الموتى ليحصل له مع علم اليقين عين اليقين، فكأن سؤاله زيادة لنفسه، وطمأنينة لقلبه. فيسكن القلب عند المعاينة ويطمئن لقطع المسافة التي بين الخبر والعيان. وعلى هذه المسافة أطلق النبي ﷺ لفظ الشك حيث قال «نحن أحق بالشك من إبراهيم»^(١) ومعاذ الله أن يكون هناك^(٢) شك ولا من إبراهيم، وإنما هو عين بعد علم، وشهود بعد خبر، ومعاينة بعد سماع.

(المرتبة الثالثة) مرتبة حق اليقين، وهي مباشرة الشيء بالإحساس به. كما إذا دخلوا الجنة وتمتعوا بما فيها فهم في الدنيا مرتبة علم اليقين، وفي الموقف حين نزلت ونقرب منهم حتى يعاينوها في مرتبة عين اليقين، وإذا دخلوها وباشروا نعيمها في مرتبة حق اليقين. ومباشرة المعلوم تارة يكون بالحواس الظاهرة، وتارة يكون بالقلب، فلماذا قال ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾^(٣) فإن القلب يباشر الإيمان به ويخالطه كما يباشر بالحواس ما يتعلق بها، فحيثئذ يخالط بشاشته القلوب ويبقى لها حق اليقين، وهذه أعلى مراتب الإيمان وهي الصديقة التي تتفاوت فيها مراتب المؤمنين.

وقد ضرب بعض العلماء للمراتب الثلاث مثلاً فقال: إذا قال لك من تجزم بصدقه: عندي عسل أريد أن أطعمك منه فصدفته كان^(٤) ذلك علم اليقين، فإذا أحضره بين يديك صار ذلك عين اليقين، فإذا ذقته صار ذلك حق اليقين، وعلى هذا فليست هذه الإضافة من باب إضافة الموصوف إلى صفته، بل من إضافة الجنس إلى نوعه، إن العلم والعين والحق أعم من كونها يقيناً، فأضيف العام إلى الخاص، مثل بعض المتاع وكل الدرهم. ولما كان المضاف والمضاف إليه في هذا الباب يصدقان على ذات واحدة بخلاف قولك: دار عمرو وثوب زيد ظن من ظن

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة البقرة عن أبي هريرة.

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) «سورة الواقعة» الآية (٩٥).

(٤) نفس المصدر السابق.

إنها من إضافة الموصوف إلى صفته، وليس كذلك، بل هي من باب إضافة الجنس إلى نوعه، كثوب خبز وخاتم فضة فالمضاف إليه قد يكون مغايراً للمضاف لا يصدقان على ذات واحدة، وقد يجانسه فيصدقان على مسمى واحد^(١). وقيل إنه من الإضافة التي بمعنى من، كما يقال باب من ساج، وباب ساج، وخاتم من فضة، وخاتم فضة، فكأنه قال: لهو الحق من اليقين، وما ذكره ابن عطية فهو أقرب إلى الصحة، وهو أن ذلك نوع تأكيد^(٢).

يقال هذا من حق اليقين، وصواب الصواب، أي غايته ونهايته التي لا وصول فوقه، والذي وقع في تقرير هذا أن الانسان أظهر ما عنده الأنوار المدركة بالحس، وتلك الأنوار أكثرها مشوبة بغيرها، فإذا وصل الطالب إلى أوله يقول: وجدت أمر كذا، ثم إنَّه مع صحة إطلاق اللفظ عليه لا يتميَّز عن غيره، فيتوسط الطالب ويأخذ مطلوبه من وسطه، مثاله من يطلب الماء، ثم يصل إلى بركة عظيمة، فإذا أخذ من طرفه شيئاً يقول هو ماء، وربما يقول قائل آخر: هذا ليس بماء، وإنما هو طين، وأما الماء ما أخذته من وسط البركة، فالذي في طرف البركة ماء بالنسبة إلى أجسام أخرى، ثم إذا نسب للماء الصافي ربما يقال له شيء آخر، فإذا قال هذا هو الماء حقا يكون قد أكد. وله أن يقول حق الماء، أي الماء حقاً هذا بحيث لا يقول أحد فيه شيئاً، فكذلك ها هنا كانه قال: هذا هو اليقين حقا لا اليقين الذي يقول بعض أنه ليس بيقين، ويحتمل وجهاً آخر^(٣)، وهو أن يقال الإضافة على حقيقتها، ومعناه أن هذا القول لك يا محمد وللمؤمنين، وحق اليقين أن تقول كذا، ويقرب من هذا ما يقال حق الكمال أن يصلَّى المؤمن، وهذا كما قيل في قوله ﷺ «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها». أن الضمير راجع إلى الكلمة أي إلا بحق الكلمة، ومن حق الكلمة أداء الزكاة والصلاة، فكذلك حق اليقين أن يعرف ما

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي ج ٢٩ ص (٢٠٤) الطبعة الثانية. الناشر دار الكتب العلمية - طهران.

(٣) نفس المصدر السابق والجزء والصفحة.

قاله الله تعالى في الواقعة في حق الأزواج الثلاثة، وعلى هذا معناه: أن اليقين لا يحق ولا يكون إلا إذا صدق فيما قاله بحق، فالتصديق حق اليقين الذي يستحقه، وأما قوله ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ فقد تقدم تفسيره، وقلنا (١) إنه تعالى لما بين الحق وامتنع الكفار، قال لنبية ﷺ هذا هو حق، فإن امتنعوا فلا تتركهم ولا تعرض عنهم وسبح ربك في نفسك (٢)، وما عليك من قومك سواء صدقوك أو كذبوك، ويحتمل أن يكون المراد فسبح واذكر ربك باسمه الأعظم، وهذا متصل بما بعده لأنه قال في السورة التي تلى هذه ﴿سبح لله ما في السموات﴾ فكأنه قال: سبح الله ما في السموات، فعليك أن توافقهم ولا تلتفت إلى الشرذمة القليلة الضالة، فإن كل شيء معك يسبح لله عز وجل، هذا والله أعلى وأعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب، وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم (٣).

(١) الإمام الفخر الرازي.

(٢) نفس المصدر السابق

(٣) نفس المصدر السابق والجزء والصفحة.

(سورة الحديد)

قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ (١) اَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١﴾

يقول تعالى: أما أن للمؤمنين أن تخشع قلوبهم لذكر الله، أي تلين عند الذكر والموعظة وسماع القرآن فتفهمه وتنقاد له وتسمع له وتطيعه، عن ابن عباس أنه قال: إن الله استبطأ قلوب المؤمنين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة من نزول القرآن فقال: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ الآية، رواه ابن أبي حاتم... عن ابن المبارك به ثم قال هو ومسلم: حدثنا يونس بن الأعلى... عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ إلا أربع سنين، كذا رواه مسلم في آخر الكتاب، وأخرجه النسائي عند تفسير هذه الآية عن هارون بن سعيد الأيلي (٢)....

وقد رواه ابن ماجه من حديث موسى بن يعقوب الزمعي، لكن رواه البزار في مسنده عن طريق موسى بن يعقوب، عن ابن مسعود فذكره.

وقال سفيان الثوري عن المسعودي عن القاسم قال: مل أصحاب رسول الله ﷺ ملة فقالوا: حدثنا يارسول الله، فأنزل الله تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾... (٣) قال: ثم ملوا ملة فقالوا: حدثنا يارسول الله فأنزل الله تعالى: ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ ﴾ (٤) ثم ملوا ملة فقالوا: حدثنا يارسول الله، فأنزل الله

(١) سورة الحديد الآيتان: (١٦، ١٧).

(٢) تفسير القرآن العظيم للإمام الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي ج: ٤ ص (٢٧٩)، (٢٨٠).

(٣) سورة يوسف: الآية: (٣).

(٤) سورة الزمر: الآية (٢٣).

تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ وقال قتادة: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾، ذكر لنا أن شداد بن أوس كان يروي عن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ أَوَّلَ مَا يَرْفَعُ مِنَ النَّاسِ الْخَشْيَةَ» (١) وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ نهي الله تعالى المؤمنين أن يتشبهوا بالذين حملوا الكتاب من قبلهم من اليهود والنصارى، لما تناول عليهم الأمد بدلوا كتاب الله الذي بأيديهم واشتروا به ثمناً قليلاً، ونبذوه وراء ظهورهم، وأقبلوا على الآراء المختلفة والأقوال المتضفة، وقلدوا الرجال في دين الله واتخذوا أخصابهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، فعند ذلك قست قلوبهم فلا يقبلون موعظة، ولا تلين قلوبهم بوعده ولا وعيد ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ أي في الأعمال فقلوبهم فاسدة وأعمالهم باطلة قال تعالى: ﴿فِيمَا نَقُضُوا مِنْهَا وَمِمَّا تَأْتِيهِمْ لَعْنَاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ (٢) أي فسدت قلوبهم فقست وصار من سجيتهم تحريف الكلم عن مواضعه وتركوا الأعمال التي أمروا بها، وارتكبوا ما نهوا عنه، ولهذا نهى الله المؤمنين أن يتشبهوا بهم في شيء من الأمور الأصلية والفرعية (٣) وقد قال ابن أبي حاتم: عن ابن مسعود، حديثاً ما سمعت أعجب إليّ منه إلا شيئاً من كتاب الله أو شيئاً قاله النبي ﷺ قال: «إن بني إسرائيل لما طال عليهم الأمد فقست قلوبهم اخترعوا كتاباً من عند أنفسهم استهوته قلوبهم واستحلته ألسنتهم واستلذته، وكان الحق يحول بينهم وبين كثير من شهواتهم فقالوا تعالوا ندع بني إسرائيل إلى كتابنا هذا، فمن تابنا عليه تركناه ومن كرهه أن يتابعنا قتلناه، ففعلوا ذلك وكان فيهم رجل فقيه، فلما رأى ما يصنعون عمد إلى ما يعرف من كتاب الله فكتبه في شيء لطيف ثم أدرجه، فجعله في قرن ثم علّق ذلك القرن في عنقه، فلما أكثروا القتل قال بعضهم لبعض: يا هؤلاء إنكم أفشيتم القتل في بني إسرائيل فادعوا فلانا فاعرضوا عليه كتابكم، فإنه إن تابعكم فسيتابعكم بقية الناس وإن أبى فاقتلوه، فدعوا فلاناً ذلك الفقيه

(٣) نفس المصدر السابق.

(٢) سورة المائدة: الآية (١٣) .

(١) نفس المصدر السابق.

قالوا: أتؤمن بما في كتابنا هذا؟ قال: وما فيه؟ اعرضوا عليّ فعرضوه عليه إلى آخره، ثم قالوا: أتؤمن بما في كتابنا هذا؟ قال نعم آمنت بما في هذا، وأشار بيده إلى القرن فتركوه فلما مات فتشوه فوجدوه معلقاً ذلك القرن، فوجدوا فيه ما يعرف من كتاب الله فقال بعضهم لبعض: ياهؤلاء ما كنا نسمع هذا أصابه فتنة، فافتقرت بنو إسرائيل على اثنتين وسبعين ملة وخير مِلَّةٍ ملة أصحاب ذي القرن» قال ابن مسعود: وإنكم أوشك بكم إن بقيتم أو بقي من بقي منكم أن تروا أموراً تنكرونها لا تستطيعون لها غيراً، فبحسب المرء منكم أن يعلم الله من قلبه أنه لها كاره، وقوله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فيه إشارة إلى أن الله تعالى يلين القلوب بعد قسوتها ويهدي الحيارى بعد ضلتها، ويفرِّج الكرب بعد شدتها، فكما يحيي الأرض الميتة المجدبة الهامدة بالغيث الهتان الوابل، كذلك يهدي القلوب القاسية ببراهين القرآن والدلائل، ويولج إليها النور بعد أن كانت مقفلة لا يصل إليها الواصل، فسبحان الهادي لمن يشاء بعد الضلال، والمضل لمن أراد بعد الكمال، الذي هو لما يشاء فعّال، وهو الحكيم العدل في جميع الفعال، اللطيف الخبير الكبير المتعال (١).

مثل آخر من هذه السورة: قوله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ (٢) قوله: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ﴾ لما ذكر سبحانه حال الفريق الثاني وما وقع منهم من الكفر والتكذيب، وذلك بسبب ميلهم إلى الدنيا، وتأثيرها؛ بين لهم حقارتها وأنها أحقر من أن تؤثر على الدار الآخرة، واللعب هو الباطل، واللهو كل شيء يتلهى به ثم يذهب، قال قتادة: لعب ولهو: أكل وشرب قال مجاهد: كلّ لعب لهو، وقيل اللعب ما رغب في الدنيا، واللهو ما ألهى عن

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) سورة الحديد: الآية (٢٠).

الآخرة وشغل عنها، وقيل اللعب الاقتناء، واللهو النساء^(١)، وقد تقدّم تحقيق هذا في سورة الأنعام، فارجع إليه إن شئت، والزينة التزين بمتاع الدنيا من دون عمل للآخرة ﴿وَتَفَاخُرُ بَيْنَكُمْ﴾ والتفاخر كما يكون بالخلقة والقوة يكون بالأنساب والأحساب كما كانت عليه العرب ﴿وَتَكَاتُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ أي يتكاثرون بأموالهم وأولادهم ويتناولون بذلك على الفقراء ثم بين سبحانه لهذه الحياة شيئاً، وضرب لها مثلاً فقال ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾ أي كمثل مطر أعجب الزراع نباته، والمراد بالكفار هنا الزراع لأنهم يكفرون البذر: أي يغطّونه بالتراب، ومعنى نباته: النبات الحاصل به ﴿ثُمَّ يَهِيحُ﴾ أي يجفّ بعد خضرته وييسس ﴿فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا﴾ أي متغيراً عما كان عليه من الخضرة: والرّونق إلى لون الصفرة والذبول ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَّامًا﴾ أي فتاتاً هشيماً متكسراً متحطّماً بعد ييسه، وقد تقدّم تفسير هذا المثل في سورة يونس والكهف، فارجع إليه إن شئت. والمعنى: أن الحياة الدنيا كالزرع يعجب الناظرين إليه لخضرته وكثرة نضارته، ثم لا يلبث أن يصير هشيماً تبناً كأن لم يكن^(٢).

ثم لما ذكر سبحانه حقارة الدنيا وسرعة زوالها، ذكر ما أعدّه للعصاة في الدار الآخرة فقال: ﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ وأتبعه بما أعدّه لأهل الطاعة فقال: ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾ والتنكير فيهما للتعظيم.

قال قتادة: عذاب شديد لأعداء الله، ومغفرة من الله ورضوان لأوليائه ولأهل طاعته، قال القراء: التقدير في الآية إمّا عذاب شديد، وإمّا مغفرة، فلا وقف على شديد. ثم ذكر سبحانه بعد الترهيب والترغيب حقارة الدنيا فقال ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ لمن اغترّ بها ولم يعمل لآخرته، قال سعيد بن جبير: متاع الغرور

(١) فتح اقلددير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير تأليف محمد بن علي بن محمد الشوكاني ج ٥ ص (١٧٤، ١٧٥)، ط: ار المعرفة - بيروت - لبنان.

(٢) نفس المصدر السابق: والجزء والصفحة.

لمن لم يشتغل بطلب الآخرة، ومن اشتغل بطلبها فله متاع بلاغ إلى ما هو خير منه، وهذه الجملة مقررة للمثل المتقدم ومؤكدة له^(١).

فالتمثيل بهذه اللوحات الممتزجة الجامعة من أرقى أنواع التمثيل وأحسنه^(٢).

مثل آخر من هذه السورة، قال الله تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾^(٣) قوله ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي سارعوا مسارعة السابقين بالأعمال الصالحة التي توجب المغفرة لكم من ربكم وتوبوا مما وقع منكم من المعاصي، وقيل المراد بالآية التكبيرة الأولى مع الإمام قاله مكحول، وقيل المراد الصفّ الأوّل، ولا وجه لتخصيص ما في الآية بمثل هذا، بل هو من جملة ما تصدّق عليه صدقا شمولياً أو بدلياً^(٤) ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ قال السدي: إن الله تعالى شبه عرض الجنة بعرض السموات السبع والأرضين السبع، ولا شك أن طولها أزيد من عرضها، فذكر العرض تنبيها على أن طولها أضعاف ذلك^(٥) قال الحسن: يعني جميع السموات والأرضين مبسوطات كل واحدة إلى صاحبته، وقيل المراد بالجنة التي عرضها هذا العرض هي جنة كل واحد من أهل الجنة. وقال ابن كيسان، عني به جنة واحدة من الجنات، والعرض أقل من الطول، ومن عادة العرب أنها تعبر عن الشيء بعرضه دون طوله، ومن ذلك قول الشاعر:

كَأَنَّ بِلَادَ اللَّهِ وَهِيَ عَرِيضَةٌ عَلَى الْخَائِفِ الْمَطْلُوبِ كَفَّةَ حَابِلٍ

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) الامثال القرآنية: تأملات عبد الرحمن حسن حنكة الميداني ص (٣١).

(٣) سورة الحديد الآية (٢١)

(٤) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير تأليف محمد بن علي بن محمد الشوكاني ج ٥ ص (١٧٥، ١٧٦).

(٥) التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي ج ٢٩ ص (٢٣٤)، الطبعة الثانية، لم توضح سنة الطبع.

وقد مضى تفسير هذا في سورة آل عمران فارجع إليه إن شئت، ثم وصف سبحانه تلك الجنة بصفة أخرى فقال: ﴿أَعَدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ ويجوز أن تكون هذه الجملة مستأنفة، وفي هذا دليل على أن استحقاق الجنة يكون بمجرد الإيمان بالله ورسوله، ولكن هذا مقيّد بالأدلة الدالة على أنه لا يستحقها إلا من عمل بما فرض الله عليه واجتنب ما نهاه الله عنه، وهي أدلة كثيرة في الكتاب والسنة، والإشارة بقوله ﴿ذَلِكَ﴾ إلى ما وعد به سبحانه من المغفرة والجنة، وهو مبتدأ وخبره، ﴿فَضَّلَ اللَّهُ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي يعطيه من يشاء إعطائه إياه تفضلاً وإحساناً^(١) ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ فهو يتفضل على من يشاء بما يشاء، ولا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع، والخير كله بيده، وهو الكريم المطلق والجواد الذي لا يبخل^(٢)

(١) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير تأليف محمد بن علي بن محمد الشوكاني ج ٥ ص (١٧٥، ١٧٦). ط: دار المعرفة، بيروت - لبنان.
(٢) نفس المصدر السابق.

(سورة المجادلة)

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (١) قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ لما ذكر سبحانه المؤمنين الواقفين عند حدوده ذكر المحاديين، والمحادة المشاقة والمعادة والمخالفة، ومثله قوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ قال الزجاج: المحادة أن تكون في حدٍ يخالف صاحبك، وأصلها الممانعة، ومنه الحديد، ومنه الحداد للبوأب ﴿كُتِبُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي أذلوا وأخذوا يقال: كبت الله فلاناً إذا أذله، والمردود بالذل يقال له مكبوت. قال المقاتلان: أخزوا كما أخزى الذين من قبلهم من أهل الشرك، وكذا قال قتادة. وقال أبو عبيدة والأخفش: أهلكوا. وقال ابن زيد: عذبوا (٢).

وقال السدي: لعنوا، وقال الفراء: أغضوا، وكلها معان متقاربة، والمراد بمن قبلهم: كفار الأمم الماضية المعادين لرسول الله، وعبر عن المستقبل بلفظ الماضي تنبيهاً على تحقق وقوعه، وقيل المعنى: على الماضي، وذلك ما وقع للمشركين يوم بدر، فإن الله كبتهم بالقتل والأسر والقهر، وجملة ﴿وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ في محل نصب على الحال من الواو في كبتوا: أي والحال والشأن أنأقد أنزلنا آيات واضحة فيمن حاد الله ورسوله من الأمم المتقدمة، وقيل المراد الفرائض التي أنزلها الله سبحانه، وقيل هي المعجزات ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ أي للكافرين بكل ما يجب الإيمان به، فتدخل الآيات المذكورة هنا دخولاً أولياً. والعذاب المهين: الذي يهين صاحبه ويذله ويذهب بعزه ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ الظرف منتصب بإضمار اذكر، أو بمهين، أو بما تعلق به اللام من الاستقرار، أو بأحصاء المذكور بعده، وانتصاب جميعاً على الحال: أي مجتمعين في حالة واحدة، أو يبعثهم

(١) سورة المجادلة الآيتان: (٦،٥).

(٢) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير تأليف محمد بن علي بن محمد الشوكاني ج٥ ص (١٨٥) وما بعدها. ط: دار المعارف بيروت - لبنان

كلّهم لا يبقى منهم أحد غير مبعوث^(١) ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا﴾ أي يخبرهم بما عملوه في الدنيا من الأعمال القبيحة توبيخاً لهم وتسكيناً ولتكمّل الحجة عليهم، وجملة ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر، كأنه قيل كيف ينبتهم بذلك على كثرته واختلاف أنواعه، فقيل أحصاه الله جميعاً ولم يفته منه شيء، والحال أنهم قد نسوه ولم يحفظوه، بل وجدوه حاضراً مكتوباً في صحائفهم ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ لا يخفى عليه شيء من الأشياء، بل هو مطلع وناظر.

مثل آخر من هذه السورة، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَعْتَصِمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَّا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ (١٨) استحوذ عليهم الشيطان فأنسأهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون^(٢) قوله: ﴿يَوْمَ يَعْتَصِمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ الظرف منصوب بقوله ﴿مهين﴾ أو بمقدر^(٣): أي اذكر ﴿فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ﴾ أي يحلفون لله يوم القيامة على الكذب كما يحلفون لكم في الدنيا. وهذا من شدة شقاوتهم ومزيد الطبع على قلوبهم فإن يوم القيامة قد انكشفت الحقائق وصارت الأمور معلومة بضرورة المشاهدة. فكيف يجترئون على أن يكذبوا في ذلك الموقف ويحلفوا على الكذب ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ أي يحسبون في الآخرة أنهم بتلك الأيمان الكاذبة على شيء مما يجلب نوعاً أو يدفع ضرراً كما كانوا يحسبون ذلك في الدنيا ﴿أَلَّا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ أي الكاملون في الكذب المتهاضم لكون عليه البالغون فيه إلى حدّ لم يبلغ غيرهم إليه بإقدامهم عليه وعلى الأيمان الفاجرة في موقف القيامة بين يدي الرحمن ﴿استحوذ عليهم الشيطان﴾ أي غلب عليهم واستولى. قال المبرد: استحوذ على الشيء حواه وأحاط به، وقيل قوي عليهم، وقيل جمعهم، يقال أحوذ الشيء: أي جمعه وضمّ بعضه إلى بعض، والمعاني متقاربة^(٤)، لأنه إذا جمعهم فقد قوي

(١) نفس المصدر السابق:

(٢) «سورة المجادلة» الآيات: (١٨، ١٩)

(٣) نفس المصدر السابق ص (١٩٢)، وما بعدها.

(٤) نفس المصدر السابق:

عليهم وغلِبهم واستعلى عليهم واستولى وأحاط بهم ﴿فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ﴾ أي أوامره والعمل بطاعته، فلم يذكروا شيئاً من ذلك، وقيل زواجه في النهي عن معاصيه، وقيل لم يذكروه بقلوبهم ولا بألسنتهم، والإشارة بقوله ﴿أُولَئِكَ﴾ إلى المذكورين الموصوفين بتلك الصفات، وهو مبتدأ وخبره ﴿حِزْبُ الشَّيْطَانِ﴾ أي جنوده وأتباعه ورهطه ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي الكاملون في الخسران حتى كأن خسران غيرهم بالنسبة إلى خسرانهم ليس بخسران لأنهم باعوا الجنة والهدى بالضلالة، وكذبوا على الله وعلى نبيه وحلفوا الأيمان الفاجرة في الدنيا والآخرة (١).

(١) نفس المصدر السابق:

(سورة الحشر)

قوله تعالى: ﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (١٣) لا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قَرْيٍ مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسِبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (١٤) كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١) قوله: ﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ﴾ أي لأنتم يامعشر المسلمين أشدَّ خوفًا وخشية في صدور المنافقين، أو صدور اليهود، أو صدور الجميع من الله: أي من رهبة الله، والرهبة هنا بمعنى المرهوبة، لأنها مصدر من المبني للمفعول، وانتصابها على التمييز ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي ما ذكر من الرهبة الموصوفة بسبب عدم فقههم لشيء من الأشياء ولو كان لهم فقه لعلموا أن الله سبحانه هو الذي سلطكم عليهم، فهو أحق بالرهبة منه دونكم، ثم أخبر سبحانه بمزيد فشلهم وضعف نكايتهم (٢) فقال: ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا﴾ يعني لا يبرز اليهود والمنافقون مجتمعين لقتالكم ولا يقدرّون على ذلك ﴿إِلَّا فِي قَرْيٍ مُحَصَّنَةٍ﴾ بالدروب والدور ﴿أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ﴾ أي من خلف الحيطان التي يستترون بها لجنبهم ورهبتهم. وقرأ الجمهور ﴿جُدُرٍ﴾ بالجمع أي بضم الجيم والداد وحذف الألف (ضرورة) وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن محيصن «جدار» بالإفراد أي بكسر الجيم وفتح الدال وألف بعدها. واختار القراءة الأولى أبو عبيد وأبو حاتم لأنها موافقة لقوله. قري محصنة. قرأ بعض المكيين «جدر» بفتح الجيم وإسكان الدال، وهي لغة في الجدار ﴿بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ أي بعضهم غليظ فظ على بعض وقلوبهم مختلفة ونياتهم متباينة. قال السدي: المراد اختلاف قلوبهم حتى لا يتفقوا على أمر واحد. وقال مجاهد: بأسهم بينهم شديد بالكلام والوعيد ليفعلن كذا، والمعنى: أنهم إذا انفردوا نسبوا أنفسهم إلى الشدة والبأس، وإذا لاقوا عدوًا ذلوا

(١) سورة الحشر الآيات: (١٣، ١٤، ١٥).

(٢) فتح القدير: الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير تأليف محمد بن علي بن محمد الشوكاني

ج ٥ ص (٢٠٤، ٢٠٥) ط: دار المعارف: بيروت - لبنان.

وخضعوا وانهزموا^(١) وقيل المعنى أن بأسهم بالنسبة إلى أقرانهم شديد، وإنما ضعفهم بالنسبة إليكم لما قذف الله في قلوبهم من الرعب، والأوّل أولى لقوله ﴿تَحْسِبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ فإنه يدلّ على أن اجتماعهم إنما هو في الظاهر مع تخالف قلوبهم في الباطن، وهذا التخالف هو البأس الذي بينهم الموصوف بالشدّة، ومعنى شتى متفرقة. قال مجاهد: يعني اليهود والمنافقين تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى. وروى عنه أيضاً أنه قال: المراد المنافقون. وقال الثوري: هم المشركون وأهل الكتاب. قال قتادة: تحسبهم جميعاً: أي مجتمعين على أمر ورأى، وقلوبهم شتى متفرقة، فأهل الباطل مختلفة آراؤهم مختلفة شهادتهم مختلفة أهواؤهم، وهم مجتمعون في عداوة أهل الحق. وقرأ ابن مسعود ﴿وقلوبهم أشت﴾ أي أشدّ اختلافاً وهذه القراءة جائزة لغة لا قراءة، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي ذلك الاختلاف والتشتت بسبب أنهم قوم لا يعقلون شيئاً ولو عقلوا لعرفوا الحق واتبعوه^(٢) ﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي مثلهم كمثل الذين من قبلهم، والمعنى: أن مثل المنافقين واليهود كمثل الذين من قبلهم من كفّار المشركين ﴿قَرِيبًا﴾ يعني في زمان قريب، وانتصاب قريباً على الظرفية: أي يشبهونهم في زمن قريب، وقيل العامل فيه ذاقوا: أي ذاقوا في زمن قريب، ومعنى ﴿ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ أي سوء عاقبة كفرهم في الدنيا بقتلهم يوم بدر، وكان ذلك قبل غزوة بني النضير بستة أشهر، قاله مجاهد وغيره، وقيل المراد بني النضير حيث أمكن الله منهم، قال قتادة: وقيل بني قريظة، قال الضحاك. وقيل هو عامّ في كل من انتقم الله منه بسبب كفره، والأوّل أولى ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي في الآخرة^(٣).

مثل آخر من هذه السورة قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) نفس المصدر السابق.

قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (١٦) فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿١﴾ قوله: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ﴾ أي مثلهم في تخاذلهم وعدم تناصرهم، فهو إما خبر لمبتدأ محذوف، أو خبر آخر للمبتدأ المقدر قبل قوله ﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ على تقدير حذف حرف العطف كما تقول: أنت عاقل: أنت عالم، أنت كريم. وقيل المثل الأول خاص باليهود، والثاني خاص بالمنافقين. وقيل المثل الثاني بيان للمثل الأول، ثم بين سبحانه وجه الشبه فقال ﴿إِذْ قَالَ لِلإِنْسَانِ اكْفُرْ﴾ أي أغراه بالكفر وزينه له وحمله عليه، والمراد بالإنسان هنا جنس من أطاع الشيطان من نوع الإنسان، وقيل هو عابد كان في بني اسرائيل حمله الشيطان على الكفر فأطاعه ﴿فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ﴾ أي فلما كفر الإنسان مطاوعة للشيطان، وقبولا لتزيينه قال الشيطان إني بريء منك، وهذا يكون منه يوم القيامة (٢). وجملة ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ تعليل لبراءته من الإنسان بعد كفره. وقيل المراد بالإنسان هنا أبو جهل، والأول أولى. قال مجاهد: المراد بالإنسان هنا جميع الناس في غرور الشيطان إياهم قيل وليس قول الشيطان ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾ على حقيقة، إنما هو على وجه التبري من الإنسان فهو تأكيد لقوله ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ﴾ قرأ الجمهور ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾ بإسكان الياء. وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتحها وهذا مشروط بحالة وصل ﴿إِنِّي﴾، بـ ﴿أَخَافُ﴾ أما في حالة الوقف على «إني فكل القراء مجمعون على إسكان يائه، ﴿فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ﴾ والمعنى فكان عاقبة الشيطان وذلك الإنسان الذي كفر أنهما صائران إلى النار ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ أي الخلود في النار جزاء الظالمين، ويدخل هؤلاء فيهم دخولاً أولياً (٣).

مثل آخر من هذه السورة، قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لُنَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٤) لما فرغ سبحانه من

(٢) نفس المصدر السابق.

(٤) سورة الحشر: الآية (٢١)

(١) سورة الحشر: (١٦، ١٧).

(٣) نفس المصدر السابق.

ذكر أهل الجنة وأهل النار وبين عدم استوائهم في شيء من الأشياء ذكر تعظيم كتابه الكريم، وأخبر عن جلالته، وأنه حقيق بأن تخشع له القلوب وترق له الأفتدة، فقال ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ أي من شأنه وعظمته وجودة ألفاظه وقوة مبانيه وبلاغته واشتماله على المواعظ التي تلين لها القلوب أنه لو أنزل على جبل من الجبال الكائنة في الأرض لرأيته مع كونه في غاية القسوة وشدة الصلابة وضخامة الجرم خاشعاً متصدعاً: أي متشققاً من خشية الله سبحانه حذراً من عقابه وخوفاً من أن لا يؤدي ما يجب عليه من تعظيم كلام الله، وهذا تمثيل وتخيل يقتضي علو شأن القرآن^(١) وقوة تأثيره في القلوب ويدل على هذا قوله ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيما يجب عليهم التفكر فيه ليتعظوا بالمواعظ ويستزجروا بالزواجر، وفيه توبيخ وتقريع للكفار حيث لم يخشعوا للقرآن ولا اتعظوا بمواعظه ولا انزجروا بزواجره، والخاشع الذليل المتواضع، وقيل الخطاب للنبي ﷺ: أي لو أنزلنا هذا القرآن يا محمد على جبل لما ثبت ولتصدع من نزوله عليه، وقد أنزلناه عليك وثبتناك له وقويناك عليه، فيكون على هذا من باب الامتنان على النبي ﷺ، لأن الله سبحانه ثبته لما لا تثبت له باب الجبال الرواسي^(٢). هذا والله أعلى وأعلم بالصواب.

(١) نفس المصدر السابق ص(٢٠٧).

(٢) نفس المصدر السابق.

(سورة الممتحنة)

قال تعالى: ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعاقِبْتُمْ فَاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِّثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ (١) يقول جل ثناؤه للمؤمنين من أصحاب رسول الله ﷺ وإن فاتكم أيها المؤمنون شيء من أزواجكم إلى الكفار فلاحق بهم. واختلف أهل التأويل في الكفار الذين عنوا بقوله: ﴿إِلَى الْكُفَّارِ﴾ مَنْ هُمْ؟ فقال بعضهم: هم الكفار الذين لم يكن بينهم وبين رسول الله ﷺ عهد، قالوا ومعنى الكلام: وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى مَنْ ليس بينكم وبينهم عهد من الكفار، عن مجاهد في قوله: ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ الذين ليس بينكم وبينهم عهد، وعن قتادة:

﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ إذا فرزن من أصحاب النبي ﷺ إلى كفار ليس بينهم وبين (٢) رسول الله ﷺ عهد، عن مجاهد ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ قال: من لم يكن بينهم عهد. وقال آخرون بل هم كفار قريش الذين كانوا أهل هدنة وذلك قول الزهري: وقوله ﴿فَعاقِبْتُمْ﴾ اختلف القراء في قراءة ذلك فقرأته عامة قراء الأمصار ﴿فَعاقِبْتُمْ﴾، بالألف على مثال فاعلتم بمعنى أصبتم منهم عقبى، وقراه حميد الأعرج فيما ذكر عنه فعقبتم على مثال فعلتم مشددة القاف وهما في اختلاف الألفاظ بهما نظير قوله، ولا تصعّر خدك للناس وتصاعر مع تقارب معانيهما. قال أبو جعفر وأولى القراءتين عندي بالصواب في ذلك قراءة من قرأه فعاقبتم بالألف لإجماع الحجة من القراء عليه. وقوله: ﴿فَاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِّثْلَ مَا أَنْفَقُوا﴾، يقول: فأعطوا الذين ذهب أزواجهم منكم إلى الكفار مثل ما أنفقوا عليهن من الصداق. واختلف أهل التأويل في المال الذي أمر أن يعطى منه الذي ذهب زوجته إلى المشركين (٣) فقال بعضهم أمروا أن يعطوهم

(١) سورة الممتحنة: الآية (١١)

(٢) جامع البيان في تفسير القرآن تأليف أبي جعفر محمد بن جرير الطبري المجلد الثاني عشر. ص (٤٩، ٥٠).

ط: دار المعرفة. بيروت - لبنان - الطبعة الثانية (١٣٩٢هـ - ١٩٧٢)

(٣) نفس المصدر السابق.

من صدق من لحق بهم من نساء المشركين عن الزهري، قال: أقرّ المؤمنون بحكم الله وأدوا ما أمروا به من نفقات المشركين التي أنفقوها على نسائهم وأبى المشركون أن يقرّوا بحكم الله فيما فرض عليهم من أداء نفقات المسلمين فقال الله للمؤمنين ﴿وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقِبْتُمْ فَاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ فلو أنها ذهبت بعد هذه الآية امرأة من أزواج المؤمنين إلى المشركين ردّ المؤمنون إلى زوجها النفقة التي أنفق عليها من العقب الذي بأيديهم الذي أمروا أن يردوه على المشركين من نفقاتهم التي أنفقوا على أزواجهم اللاتي آمنّ وهاجرن ثم ردوا إلى المشركين فضلا إن كان بقي لهم والعقب ما كان بأيدي المؤمنين من صدق نساء الكفار حين آمنّ وهاجرن (١) عن الزهري قال: أنزل الله ﴿وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقِبْتُمْ فَاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا﴾ فأمر الله المؤمنين أن يردوا الصداق إذا ذهبت امرأة من المسلمين ولها زوج أن يردّ إليه المسلمون صداق امرأته من صدق إن كان في أيديهم مما أمروا أن يردوا إلى المشركين. وقال آخرون بل أمروا أن يعطوه من الغنيمة، أو الفيء، عن ابن عباس قوله: ﴿وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقِبْتُمْ فَاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾. يعني إن لحقت امرأة رجل من المهاجرين بالكفار أمر له رسول ﷺ أن يعطى من الغنيمة مثل ما أنفق، عن مجاهد أنهم كانوا أمروا أن يردوا عليهم من الغنيمة، وكان مجاهد يقرأ فعاقبتم، وعن مجاهد أيضاً فعاقبتم يقول أصبتم مغنما من قريش أو غيرهم فاتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا صدقاتهن عوضا، (٢) عن مجاهد ﴿وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ قال من لم يكن بينكم وبينهم عهد فذهبت امرأة إلى المشركين، فيدفع إلى زوجها مهر مثلها فعاقبتم فأصبتم غنيمة ﴿فَاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ قال مهر مثلها يدفع إلى زوجها، عن قتادة

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) نفس المصدر السابق.

قوله: ﴿وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقِبْتُمْ فَاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ كُنَّ إِذَا فَرَرْنَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى الْكُفَّارِ لَيْسَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ نَبِيِّ اللَّهِ عَهْدٌ فَأَصَابَ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ غَنِيمَةٌ أَعْطَى زَوْجَهَا مَاسِقًا إِلَيْهَا مِنْ جَمِيعِ الْغَنِيمَةِ ثُمَّ يَقْتَسِمُونَ غَنِيمَتَهُمْ، عَنْ الْقَاسِمِ قَالَ سَمِعْتُ الْكَسَائِي: يَخْبِرُ عَنْ زَائِدَةَ عَنِ الْأَعْمَشِ عَنِ مُسْلِمٍ عَنِ مَسْرُوقٍ أَنَّهُ قَرَأَهَا فَعَاقِبْتُمْ وَفَسَّرَهَا فَعَنَّمْتُمْ، عَنْ مَغِيرَةَ عَنِ إِبْرَاهِيمَ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَعَاقِبْتُمْ﴾ قَالَ: غَنَّمْتُمْ عَنْ ابْنِ إِسْحَاقَ قَالَ سَأَلْنَا الزَّهْرِيَّ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ وَقَوْلِ اللَّهِ فِيهَا، وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ... «الآيَةُ قَالَ: يَقُولُ إِنْ فَاتَ أَحَدٌ مِنْكُمْ أَهْلَهُ^(١) إِلَى الْكُفَّارِ وَلَمْ تَأْتِكُمْ امْرَأَةٌ تَأْخُذُونَ لَهَا مِثْلَ الَّذِي يَأْخُذُونَ مِنْكُمْ فَعَوَّضُوهُ مِنْ فِئَةٍ إِنْ أَصَبْتُمُوهُ. وَقَالَ آخَرُونَ فِي ذَلِكَ، قَالَ ابْنُ زَيْدٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقِبْتُمْ﴾ قَالَ خَرَجَتْ امْرَأَةٌ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَلَمْ يَخْرُجْ غَيْرُهَا قَالَ فَاتَتْ امْرَأَةٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَقَالَ الْقَوْمُ هَذِهِ عَقَبْتِكُمْ قَدْ أَتَيْتِكُمْ فَقَالَ اللَّهُ «وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقِبْتُمْ أَمْسَكْتُمْ الَّذِي جَاءَكُمْ مِنْهُمْ مِنْ أَجْلِ الَّذِي لَكُمْ عِنْدَهُمْ، فَاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا ثُمَّ أَخْبَرَهُمُ اللَّهُ أَنَّهُ لَا جُنَاحَ عَلَيْهِمْ إِذَا فَعَلُوا الَّذِي فَعَلُوا أَنْ يَنْكِحُوهُنَّ إِذَا اسْتَبْرَأَ رَحِمَهَا قَالَ فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الَّذِي ذَهَبَتْ امْرَأَتُهُ إِلَى الْكُفَّارِ فَقَالَ هَذِهِ الَّتِي أَتَتْ مِنْ عِنْدِ الْمُشْرِكِينَ هَذَا زَوْجُ الَّتِي ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُ فَقَالَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ عَذَرَ اللَّهُ هَذَا أَنْ تَفَرَّ مِنْهُ لَا وَاللَّهِ مَالِي بِهِ حَاجَةٌ فَدَعَا الْبَخْتَرِيَّ رَجُلًا جَسِيمًا قَالَ هَذَا قَالَتْ نَعَمْ وَهِيَ مِنْ جَاءٍ مِنْ مَكَّةَ^(٢) وَأَوْلَى الْأَقْوَالِ فِي ذَلِكَ بِالصَّوَابِ أَنْ يَقَالَ أَمْرُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَعْطُوا مَنْ فَرَّتْ زَوْجَتُهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى أَهْلِ الْكُفْرِ إِذَا هُمْ كَانَتْ لَهُمْ عَلَى أَهْلِ الْكُفْرِ عَقْبَى إِمَّا بِغَنِيمَةٍ يَصِيبُونَهَا مِنْهُمْ أَوْ بِلِحَاقِ نِسَاءِ بَعْضِهِمْ بِهِمْ مِثْلَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا عَلَى الْفَارَةِ مِنْهُمْ إِلَيْهِمْ، وَلَمْ يَخْصُصْ إِيْتَاءَهُمْ ذَلِكَ مِنْ مَالٍ دُونَ مَالٍ فَعَلَيْهِمْ أَنْ يَعْطُوهُمْ ذَلِكَ مِنْ كُلِّ الْأَمْوَالِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا وَقَوْلُهُ: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) نفس المصدر السابق.

أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ يقول وخافوا الله الذي أنتم به مصدقون أيها المؤمنون فاتقوه بأداء فرائضه واجتناب معاصيه (١).

مثل آخر من هذه السورة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَسُؤُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَبِئْسَ الْكُفَّارُ مِنَ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ (٢) روي أن بعض فقهاء المسلمين كانوا يواصلون اليهود ليصيبوا من ثمارهم فليل لهم ﴿لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا﴾ مغضوباً عليهم ﴿قَدْ يَسُؤُوا﴾ من أن يكون لهم حظ في الآخرة لعنادهم رسول الله ﷺ وهم يعلمون أن الرسول المنعوت في التوراة ﴿كَمَا يَبِئْسَ الْكُفَّارُ﴾ من موتاهم أن يبعثوا ويرجعوا أحياء، وقيل ﴿مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ بيان للكفار: أي كما يبئس الكفار الذين قبروا من خير الآخرة لأنهم تبينوا قبح حالهم وسوء منقلبهم (٣). عن رسول الله ﷺ «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْمُنْتَحِنَةِ كَانَ لَهُ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ شَفْعَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

(١) نفس المصدر السابق:

(٢) سورة المنتحنة: الآية (١٣).

(٣) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: تأليف أبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي ج٤ ص (٩٥، ٩٦).

قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَسُؤُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَبِئْسَ الْكُفَّارُ مِنَ أَصْحَابِ الْقُبُورِ» قال فيه: «كانت طائفة من ضعفاء المسلمين قد وألوا اليهود ليصيبوا من أثمارهم فنزلت هذه الآية، والمراد بالكفار المشركون الخ»

قال أحمد: قد كان الزمخشري ذكر في قوله- ومايستوي البحرين- إلى قوله-«ومن كل تأكلون لحماً طرياً» إلى آخر الآية استطراد وهو فنٌّ من فنون البيان مبوب له عند أهله وآية المنتحنة هذه ممكنة أن تكون من هذا الفن جداً، فإنه ذم اليهود واستطرد ذمهم بدم المشركين على نوع حسن من النسبة، وهذا لا يمكن أن يوجد للفصحاء في الاستطراد أحسن ولا يمكن منه، ومما صدروا هذا الفن به قوله:

إذا ماتقى الله الفتى وأطاعه فليس به بأس وإن كان من جرم.

وقوله: إن كنت كاذبة التي حدثني فتجوت منجى الحرث بن هشام، وقوله:

ترك الأجابة أن يقاتل دونهم ونجا برأس طمرت ولبام

(سورة الصف)

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كِبْرًا مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (٣) إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُورٌ﴾ (١) هذه السورة مدنية في قول الجمهور وابن عباس ومجاهد، وقال ابن يسار مكية وروي ذلك أيضاً عن ابن عباس ومجاهد، وسبب نزولها قول المنافقين للمؤمنين: نحن منكم ومعكم، ثم يظهر من أفعالهم خلاف ذلك، أو قول شباب من المسلمين: فعلنا في الغزو كذا ولم يفعلوا، أو قول ناس: وددنا أن نعرف أحب الأعمال إلي ربنا حتى نعلم فيه ففرض الجهاد وأعلم تعالى بحب المجاهدين فكرهه قوم وفر بعضهم يوم أحد فنزلت أقوال..... (٢).

ومناسبتها لآخر السورة قبلها أن في آخر تلك «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَلَوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ»، فافتضى ذلك إثبات العداوة بينهم فحضر تعالى على الثبات إذا لقي المؤمنون في الحرب أعداءهم، والنداء بيا أيها الذين آمنوا إن كان للمؤمنين حقيقة فالاستفهام يراد به التلطف في العتب وإن كان للمنافقين فالمعنى يا أيها الذين آمنوا أي بالستهم والاستفهام يراد به الإنكار والتوبيخ وتهكم بهم في إسناد الإيمان إليهم... والظاهر انتصاب مقتاً على التمييز وفاعل كبر أن تقولوا وهو من التمييز المنقول من الفاعل والتقدير كبر مقت قولكم ما لا تفعلون ويجوز أن يكون من باب نعم وبئس فيكون في كبر ضمير مبهم مفسر بالتمييز وأن تقولوا هو المخصوص بالذم أي بئس مقت قولكم كذا، والخلاف الجاري في المرفوع في بئس رجلاً زيد جار في «أن تقولوا» هنا ويجوز أن يكون في كبر ضمير يعود على المصدر المفهوم من قوله لم تقولون، أي كبر هو أي القول مقتاً ومثله: كبرت كلمة أي ما أكبرها كلمة، وأن تقولوا بدل من المضمرة، أو خبر ابتداء مضمرة، وقيل هو

(١) سورة الصف: الآيات: (٢، ٣، ٤).

(٢) تفسير البحر المحيط تأليف أبي عبد الله محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الأندلسي
الغرناطي الحياياني الشهير بأبي حيان، المجلد الثامن ص (٢٦١، ٢٦٢)

من أبنية التعجب^(١) أي ما أكبره مقتاً. وقال الزمخشري: قصد في كبر التعجب من غير لفظه كقوله: غلت ناب كليب بواؤها. ومعنى التعجب تعظيم الأمر في قلوب السامعين، لأنّ التعجب لا يكون إلا من شيء خارج عن نظرائه وأشكاله وأسند إلى أن تقولوا ونصب مقتاً على تفسيره دلالة على أن قولهم ما لا يفعلون مقت خالص لاشوب فيه لفرط تمكّن المقت منه واختير لفظ المقت لأنّه أشدّ البغض ولم يقتصر على أن جعل البغض كثيراً حتى جعل أشدّه وأفحشه وعند الله أبلغ من ذلك لأنّه إذا ثبت كبر مقته عند الله فقد تمّ كبره وشدّته اهـ. وقال المبرد رجل ممقوت ومقيت إذا كان يبغضه كلُّ أحد اهـ. وانتصب صفاً على الحال أي صافين أنفسهم أو مصفوفين كأنهم في تراصهم من غير فرجة ولاخلل بنيان رصّ بعضه إلى بعض والظّاهر تشبيه الذوات في التحام بعضهم ببعض بالبنيان المرصوص، وقيل المراد استواء نيّاتهم في الثبات حتى يكونوا في اجتماع الكلمة كالبنيان^(٢) المرصوص، قيل: وفيه دليل على فضل القتال راجلاً لأنّ الفرسان لا يصطفون على هذه الصفة صفاً وكأنهم - قال الزمخشري - حالان متداخلان. وقال الحوفي: كأنهم في موضع النعت لصفاً اهـ. ويجوز أن يكونا حالين من ضمير يقاتلون ولما كان في المؤمنين من يقول ما لا يفعل وهو راجع إلى الكذب فإن ذلك في معنى الإذاية للرسول عليه الصلّاة والسّلام إذ كان في أتباعه من عانى الكذب فناسب ذكر قصة موسى وقوله لقومه لم تؤذونني.....^(٣). هذا والله الحمد والمنة وهو سبحانه أعلى وأعلم بالصواب.

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) نفس المصدر السابق.

(سورة الجمعة)

قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (١) فقاس سبحانه مَنْ حَمَلَهُ كتابه ليؤمن به ويتدبره ويعمل به ويدعو إليه ثم خالف ذلك ولم يحمله إلا على ظهر قلب، فقرأه بغير تدبر ولا تفهم، ولا اتباع له ولا تحكيم له ولا عمل بموجبه كحمار على ظهره زاملة أسفار لا يدري مافيها وحظّه منها حملها على ظهره ليس إلا فحظّه من كتاب الله كحظّ هذا الحمار من الكتب التي على ظهره، فهذا المثل وإن قد ضرب لليهود، فهو متناول من حيث المعنى لمن حمل القرآن فترك العمل به ولم يؤدّ حقه ولم يرعه حق رعايته. (٢) وقد نظم هذا التشبيه مروان بن سليم بن يحيى في هجو قوم من رواة الشعر لا علم لهم به على الاستكثار منه فقال:

زَوَامِلٌ لِلْأَشْعَارِ لَا عِنْدَهُمْ بِجِيْدِهَا إِلَّا كَعِلْمِ الْأَبَاعِرِ (٣)
لَعَمْرُكَ مَا يَدْرِي الْبَعِيرُ إِذَا غَدَا بِأَثْقَالِهِ أَوْ رَاحَ مَا فِي الْغَرَائِرِ (٤)

(١) سورة الجمعة: الآية: (٥)

قال الزمخشري في تفسيرها: شبه اليهود في أنهم حملة التوراة وقرأوها وحفاظ مافيها، ثم إنهم غير عاملين بها ولا متفهمين بآياتها، وذلك أن فيها نعت رسول الله ﷺ والبشارة به ولم يؤمنوا به. كالحمار يحمل أسفارا - أي كتباً كباراً من كتب العلم - فهو يمشي بها ولا يدري منها إلا ما يمرّ بجنبه وظهره من الكلل والتعب، وكل من علم ولم يعمل بعلمه فهذا مثله وبئس المثل. - (بئس) مثلا مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله وهم اليهود الذين كذبوا بآيات الله الدالة على صحة نبوة محمد ﷺ ومعنى (حملوا التوراة) أي كلفوا علمها والعمل بها (ثم لم يحملوها) أي لم يعملوا بها فكأنهم لم يحملوها.

للاستزادة راجع تفسير الكشاف ص (١٠٣) جزء (٤)

(٢) وانظر الأمثال في القرآن الكريم لابن قيم الجوزية ص (٢١٤).

(٣) الأباعر: الإبل.

(٤) انظر الجمان في تشبيهات القرآن تأليف عبدالله بن الحسين بن نايقا. ص (٢٦٦).

وظاهر أن الغرض من ضرب المثل لهم بهذا ذمُّهم بالجهالة المساوية لجهالة البهائم ولقد كان من الممكن أن يختار في المثل بدل الحمار الجمل أو الحصان، فهما أيضاً لا يفقهان شيئاً مما يحمّل على ظهورهما من أسفار العلم، لكنّ التمثيل بالحمار أبلغ في الذمّ، لاشتهار الحمار عند الناس بالبلادة والغباء والجهالة المفرطة. (١)

(١) وانظر الأمثال القرآنية تأملات عبد الرحمن حسن حنكه الميداني ص (٧٥).

(سورة المنافقون)

قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنْهُمْ خُشْبٌ مُسْنَدَةٌ يَحْسِبُونَ كُلَّ صِيحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنْتَى يَؤُفَكُونَ﴾ (١) وصف الله المنافقين بتمام الصورة وحسن الإبانة ثم اعلم أنهم في قلة الاستبصار بمنزلة الخشب فقال: ﴿كَأَنْهُمْ خُشْبٌ مُسْنَدَةٌ﴾ وفي نحو ذلك قال الشاعر:

تروك من سعد بن زيدٍ جسومهم وتزهّد فيها حينَ تقبلها خيراً (٢)
ومنه قول حسان بن ثابت:

لابأس بالقوم من طولٍ ومن عظيمٍ خلّق البغالِ وأحلام العصافير

وشبيهه بعجز هذا البيت قول بعض العرب مشيراً إلى ولده زارياً عليه وزاجراً له:

عقله عقل طائرٍ وهو في صورة الجمل (٣)
وقيل إنه تعالى شبههم بخشبٍ نخرة متآكلة دخلة إلا مسندة يحسب (٤) من رآها أنها صحيحة سليمة، ومن أبيات الأمثال في نحو ذلك قول الأول:

ترى الفتیان كالنخلٍ ولا تعلم بالدخل (٥)
يقال دخل أمره إذا فسد. ومن مشهور كلامهم قولهم لتارك التفهم والاستبصار: كأنه بهيمة وكأنه صنم وكأنه حجر ونحو ذلك وقول أبي سفيان عندما استأذن على النبي ﷺ فحجبه ثم أذن له: (ما كدت تآذن لي حتى تآذن لي الجلهمتان (٦) فإنما ذلك على التشبيه والذهاب بهذا القول إلى الأدوان من الناس فقال النبي ﷺ: «أنت كما قيل كل الصيد في جوف الفرا» (٧) يتألفه بهذا القول

(٢) خبراً: تجرية واختباراً.

(١) سورة المنافقون: الآية: (٤)

(٣) أي أن إدراكه كإدراك الطيور نقاعة وجهلاً.

(٤) الجمان في تشبيهات القرآن تأليف عبدالله بن الحسين بن نايقا ص (٢٦٧، ١٦٨).

(٥) الدخل: الفساد، الفتیان: الشباب

(٧) نفس المصدر السابق.

(٦) الجلهمتان: الحجارة

وكان من المؤلفة قلوبهم أي أنت في الناس كحمار الوحش في الصيد يعني أن كلها دونه وقرأ الجمهور «خُشْبٌ» بضمّتين، وقرأ أبو عمرو والكسائي وقنبل بضم الخاء وسكون الشين. مثل شجر وشجرة، وبدنة وبدن. وَعَوْدًا إِلَى بَدْءِ عَلَى مَا اشتملت عليه الآية في قوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ﴾ من أوصاف لدى المنافقين، في هذه الآية وصف الله فئة من المنافقين الذين كانوا في عصر الرسول ﷺ ومنهم عبدالله بن أبي بن سلول بعدة صفات هي:

١ - الصفة الأولى: أنهم ذوو أجسام مهيبة تعجب الناظرين، دلّ على هذه الصفة فيهم قول الله تعالى لرسوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ﴾.

٢ - الصفة الثانية: أنهم ذوو ألسنة فصيحة وكلامهم يعجب السامعين، وقد دلّ على هذه الصفة فيهم قول الله تعالى لرسوله: ﴿وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ﴾.

٣ - الصفة الثالثة: أنهم يجلسون في مجالس الرسول ﷺ وهو يتحدث أو يخطب أو يتلو آيات الله، لكنهم لا يفقهون مما يقول شيئاً^(١)، لأن قلوبهم وأسماعهم منصرفة عن أقواله، فهم غير مؤمنين به حتى يحفلوا بما يقول، وحتى يوجهوا له انتباههم. وقد دلّ على هذه الصفة من صفاتهم ما ضربه الله من مثل لهم، إذ شَبَّهَهُم بِالْخَشْبِ الْمَسْنَدَةِ عَلَى الْجَدْرِ.

إنّ صورتهم وهم يجلسون في مجالس الرسول ﷺ وقد أسندوا ظهورهم إلى الجدر، وتظاهروا بالوقار، وأعطوا لأنفسهم أفضل الأماكن في مجالسه، وقلوبهم ونفوسهم وأفكارهم وأسماعهم منصرفة كلّ الانصراف عما يقوله الرسول ويحدث به من أمور تتعلق بالدين وأحكامه، هذه الصورة تشبه صورة الخشب المسندة على

(١) الأمثال القرآنية: تأملات عبد الرحمن حسن حنيفة الميداني ص(١٦٥، ١٦٦) للاستزادة راجع الكشف في تفسير القرآن الجزء الرابع ص (١٠٩، ١١٠) وفتح القدير في علم التفسير تأليف محمد بن علي بن محمد الشوكاني الجزء الخامس ص(٢٠٣، ٢٣١)

الجدُر. إنّ الخشب ذات منظرٍ وهياكلٍ عظيمة رفيعة القامة، لكنها فاقدة الحياة، لاتسمع ولا تبصر ولا تعي شيئاً، وهم ذوّ منظرٍ معجبٍ وهياكلٍ عظيمة رفيعة القامة بين الناس، لكنهم أجساد فقط، خالية من رُوح الإيمان، وقلوبهم وحواسهم لا تعي شيئاً ممّا يوجّه لها من بيانٍ ومواعظٍ وإرشادات. (١)

ويلاحظ في هذا المثل دقّة التصوير وحلاوته، ويظهر من الأغراض فيه التوبيخ والتهكّم والازدراء والاحتقار.

٤ - الصفة الرابعة: أنّهم جبناء، يخافون أن تنكشف خيانتهم، ويظهر نفاقهم، لذلك فهم كثيرو الحذر من كلّ شيء، فما يسمعون صيحة إنذار أو تهديد إلا ويحسبونها عليهم. وقد دلّ على هذه الصفة فيهم قول الله تعالى: ﴿يَحْسِبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾.

٥ - الصفة الخامسة: أنّهم شديدو العداوة للمسلمين، وأنّ خطرهم على المسلمين أشدّ من خطر الكافرين الصرحاء، لأنّهم مخالطون مداخلون، لا يعلم عداوتهم كثير من المسلمين. وقد دلّ على هذه الصفة فيهم قول الله تعالى: ﴿هُمْ الْعَدُوُّ فَاحْذَرهُمْ﴾ أي هم العدوّ بالغ العداوة شديد الخطورة، فيجب الحذر الشديد منهم (٢).

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) نفس المصدر السابق.

(سورة التغابن)

قال تعالى: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (١) أمر الله سبحانه بالتقوى والطاعة فقال ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ أي ما أطقتم وبلغ إليه جهدكم. وقد ذهب جماعة من أهل العلم إلى أن هذه الآية ناسخة لقوله سبحانه - فاتقوا الله حق تقاته - ومنهم قتادة والربيع بن أنس والسدي وابن زيد، وقد أوضحنا الكلام في قوله - فاتقوا الله حق تقاته - فارجع إليه إن شئت. ومعنى ﴿ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا ﴾ أي اسمعوا ماتؤمنون به وأطيعوا الأوامر. قال مقاتل: اسمعوا، أي اصغوا إلى ما ينزل عليكم وأطيعوا الرسول فيما يأمركم وينهاكم. وقيل معنى اسمعوا: أقبلوا ماتسمعون لأنه لافائدة لمجرد السماع ﴿ وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ ﴾ أي أنفقوا من أموالكم التي رزقكم الله إياها في وجوه الخير ولا تبخلوا بها (٢).

وقوله ﴿ خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ ﴾ منتصب بفعل مقدر دل عليه أنفقوا، كأنه قال: اتوا في الإنفاق خيرا لأنفسكم، أو قدموا خيرا لها، كذا قال سيويه وقال الكسائي والفرأء: هو نعت لمصدر محذوف: أي إنفاقاً خيراً. وقال أبو عبيدة: هو خير لكان المقدر: أي يكن الإنفاق خيراً لكم. وقال الكوفيون: هو منتصب على الحال، وقيل هو مفعول به لأنفقوا: أي أنفقوا خيراً. والظاهر في الآية الإنفاق مطلقاً من غير تقييد بالزكاة الواجبة، وقيل المراد زكاة الفريضة، وقيل السافلة، وقيل النفقة في الجهاد ﴿ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ أي ومن يوق شح نفسه فيفعل ما أمر به من الإنفاق ولا يمنعه ذلك منه فأولئك هم الظافرون بكل خير الفائزون بكل مطلب (٣).

مثل آخر من هذه السورة: قال تعالى: ﴿ إِنْ تَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُّضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴾ (١٧) عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم ﴿ (٤) قوله: ﴿ إِنْ

(١) سورة التغابن: الآية: (١٦)

(٢) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية تأليف محمد بن علي بن محمد الشوكاني الجزء الخامس ص

(٢٣٨، ٢٣٩). لمزيد من الفائدة راجع الكشف في تفسير القرآن الجزء الرابع ص (١١٦).

(٣) نفس المصدر السابق. (٤) سورة التغابن: الآيات: (١٧، ١٨).

تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴿١﴾ أي فتصرفون أموالكم في وجوه الخير بإخلاص نية وطيب نفس ﴿يُضَاعَفْهُ لَكُمْ﴾ فيجعل الحسنه بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، وقد تقدّم تفسير هذه الآية واختلاف القراء في قراءتها في سورتي البقرة والحديد، ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ أي يضمّ لكم إلى تلك المضاعفة غفران ذنوبكم ﴿وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ يثيب من أطاعه بأضعاف مضاعفة، ولا يُعَاجِلُ مَنْ عَصَاهُ بالعقوبة ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي ماغاب وماحضر لاتخفى عليه خافية، وهو ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي الغالب القاهر ذو الحكمة الباهرة وقال ابن الأنباري: الحكيم هو المحكم لخلق الأشياء.

وأخرج ابن جرير والحاكم وصححه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يقول الله: استقرضت عبدي فأبى أن يقرضني وشتمني عبدي وهو لا يدري يقول: وادهراه وادهراه وأنا الدهر» ثم تلا أبو هريرة: ﴿إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفْهُ لَكُمْ﴾ (١).

(١) نفس المصدر السابق.

(سورة الطلاق)

قوله تعالى: ﴿وَكَايِنٍ مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسِبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا (٨) فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا (٩) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ (١)

قوله: ﴿وَكَايِنٍ مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ﴾ يعني عصت، والمراد أهلها، والمعنى: وكم من أهل قرية عصوا أمر الله ورسوله، أو أعرضوا عن أمر الله ورسوله على تضمين عتت معنى أعرضت، وقد تقدم الكلام في كآين في سورة آل عمران وغيرها فارجع إليه إن شئت، ﴿فَحَاسِبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا﴾ أي شددنا على أهلها في الحساب بما عملوا. قال مقاتل: حاسبها الله بعملها في الدنيا فجازاها بالعذاب. وهو معنى قوله ﴿وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا﴾ أي عذبنا أهلها عذاباً عظيماً منكراً في الآخرة، وقيل في الكلام تقديم وتأخير: أي عذبنا أهلها عذاباً نكراً في الدنيا بالجوع والقحط والسيف والخسف والمسخ، وحاسبناهم في الآخرة حساباً شديداً (٢).

والنكر المنكر ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ أي عاقبة كفرها ﴿وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ أي هلاكاً في الدنيا وعذاباً في الآخرة ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ في الآخرة، وهو عذاب النار. والتكرير للتأكيد مثل آخر من هذه السورة، قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ الاسم الشريف مبتدأ وخبره الموصول مع صلته ﴿وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ أي وخلق من الأرض مثلهن يعني سبعا. واختلف في كيفية طبقات الأرض. قال القرطبي في تفسيره: واختلف فيهن على قولين؛ أحدهما: وهو قول الجمهور أنها سبع أرضين طباقاً بعضها فوق بعض، وبين كل أرض وأرض مسافة كما بين السماء والأرض، وفي كل أرض سكان من خلق الله. وقال الضحاك إنها مطبقة بعضها على بعض من غير ثقب بخلاف السموات.

(١) سورة الطلاق: الآيات: (٨، ٩، ١٠)

(٢) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير تأليف محمد بن علي بن محمد الشوكاني ج٥ ص (٢٤٦)

والأول أصح، لأن الأخبار دالة عليه في الترمذي والنسائي وغيرهما^(١)، وقد مضى ذلك مبيّناً في سورة البقرة قال: وفي صحيح مسلم عن سعيد بن زيد قال: سمعتُ النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول «من أخذ شبراً من الأرض ظلماً فإنه يطوفه يوم القيامة من سبع أرضين» إلى آخر كلامه، وسيأتي في آخر البحث ما يقوِّي قول الجمهور. وقرأ عامة القراء «مثلهن» بالنصب عطفاً على «سبع سموات» أو على تقدير فعل: أي وخلق من الأرض مثلهن. وقرأ عاصم في رواية عنه بالرفع على الابتداء، والجار والمجرور قبله خبره فإنها وإن كانت رواية ضعيفة إلا أن لها وجهاً في النحو جيداً. «يتنزل الأمرينهن» الجملة مستأنفة، ويجوز أن تكون صفة لما قبلها، والأمر الوحي. قال مجاهد: يتنزل الأمر من السموات السبع إلى الأرضين السبع. وقال الحسن: بين كل سماء وبين الأرض. وقال قتادة: في كل أرض من أرضه وسماء من سمائه خلق من خلقه وأمر من أمره وقضاء من قضائه، وقيل بينهن إشارة إلى ما بين الأرض السفلى التي هي أدناها، وبين السماء السابعة التي هي أعلاها، وقيل هو ما يدبرفيهن^(٢) من عجيب تدييره، فينزل المطر ويخرج النبات، ويأتي بالليل والنهار، والصيف والشتاء، ويخلق الحيوانات على اختلاف أنواعها وهيئاتها فينقلهم من حال إلى حال. قال ابن كيسان: وهذا هو مجال اللغة واتساعها كما يقال للموت: أمر الله وللريح والسحاب ونحوها. قرأ الجمهور «يتنزل الأمر» من التنزل ورفع الأمر على الفاعلية، وقرأ أبو عمرو في رواية عنه «ينزل» من الإنزال ونصب الأمر على المفعولية والفاعل الله سبحانه، واللام في «لتعلموا أن الله على كل شيء قدير» متعلق بخلق، أو يتنزل أو بمقدر: أي فعل ذلك لتعلموا كمال قدرته وإحاطته بالأشياء، وهو معنى «وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً» فلا يخرج عن علمه شيء منها كائناً ما كان، وانتصاب علماً، على المصدرية، لأن أحاط بمعنى علم، أو هو صفة لمصدر محذوف: أي أحاط إحاطة علماً، ويجوز أن يكون تمييزاً.^(٣)

(١) نفس المصدر السابق: ص(٢٤٧، ٢٤٨).

(٢) نفس المصدر السابق: للاستزادة راجع الكشاف في تفسير القرآن تأليف أبي القاسم جاز الله محمود بن عمر الزمخشري ج٤ ص (١٢٤)

(٣) نفس المصدر السابق:

(سورة التحريم)

قال تعالى: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاهِلِينَ (١) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١١) وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَقْتَ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا مِنَ الْقَنَاتِينَ ﴿١﴾ (١) قد اشتملت هذه الآيات على ثلاثة أمثال: مثل للكفار، ومثليين للمؤمنين، ففضمّن مثل الكفار أنّ الكافر يعاتب على كفره وعداوته لله تعالى ورسوله ﷺ وأوليائه ولا ينفعه مع كفره ما كان بينه وبين المؤمنين من لُحمة نسب أو صلة صهر، أو سبب (٢) من سبب الاتصال، فإنّ الأسباب كلّها تنقطع يوم القيامة. إلّا ما كان منها متصلاً بالله وحده على يد رسوله ﷺ فلو نفعت صلة القرابة والمصاهرة والنكاح مع عدم الإيمان لنفعت الصلة (٣) التي كانت بين نوح (٤) ولوط (٥) عليهما السلام وامرأتيهما فلما لم يُغنيا عنهما من الله شيئاً وقيل لهما ادخلا النار مع الداخلين فقطعت الآية حيثئذ

(١) سورة التحريم «الآيات: (١٠، ١١، ١٢)

ففي هذه الآيات الكريمة بين سبحانه وتعالى أنّ كلّ امرئ مجزي بعمله وعليه ما اكتسب، لا ينفعه أو يضره في ذلك حسب أو نسب فما أوضح هذا المثل وأصدق في ميزان الاعتدال، فإنّ الأعمال أنفسها هي الموازين والمقاييس والمعايير لأنفسها، لادخل في هذا لشفيح ولا لصديق حميم (يافاطمة بنت محمد اعلمي فلن أغني عنك من الله شيئاً)

(٢) الأمثال في القرآن الكريم لابن قيم الجوزية ص (٢٦٢، ٢٦٣، ٢٦١٢).

للاستزادة انظر إلى تفسير فتح القدير ج ٥ ص (٢٥٥، ٢٥٦، ٢٥٧) وانظر تفسير الفخر الرازي ج ٢٩ ص (٤٩، ٥٠، ٥١).

(٣) الوصلة والصلة القرابة والتشابه ترتب القاموس ص (٢١٠ جزء ٢).

(٤) نوح: أرسل الله نوحاً ليلبغ الرسالة إلى قومه وهو ابن ثلثمائة وخمسين سنة فلبث فيهم ألفاً إلا خمسين عاماً. للاستزادة راجع الكامل في التاريخ لابن الأثير ج ١ ص ٢٩.

(٥) ولوط: أرسله الله إلى أهل سدوم وكانوا أهل كفر وفاحشة «لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين» وكان لوط يدعوهم إلى عبادة الله فكفروا بالله وكذبوه. فانتقم الله منهم وجعل عاليها سافلها. راجع الكامل في التاريخ لابن الأثير جزء (١) ص (٧).

طمع من ارتكب معصية الله تعالى وخالف أمره ورجا أن ينفعه صلاح غيره من قريب أو من بعيد. ولو كان بينهما في الدنيا أشد الاتصال، فلا اتصال فوق اتصال النبوة والأبوة الزوجية ولم يغن نوح عليه السلام عن ابنه ولا إبراهيم^(١) عليه السلام عن أبيه ولانوح ولوط عليهما السلام عن امرأتهما من الله شيئاً، قال تعالى: ﴿لَنْ تَنفَعَكُمُ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْضَلُ بَيْنَكُمْ﴾^(٢) وقال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾^(٤) وقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾^(٥) وقال تعالى: ﴿وَإِخْشَاؤُكُمْ يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا﴾^(٦) وهذا كله تكذيب لأطماع المشركين الباطلة، أن من تعلقوا به من دون الله من قرابة أو صهر أو نكاح أو صحبة تنفعهم يوم القيامة أو تحيرهم من عذاب الله تعالى، أو تشفع لهم عند الله تعالى، وهذا أصل ضلال بني آدم وشركهم وهو الشرك الذي لا يغفره الله، وهو الذي بعث الله تعالى جميع رسله عليهم الصلاة والسلام، وأنزل جميع كتبه بإبطاله ومحاربة أهله ومعاداتهم.

وأما المثان اللذان للمؤمنين فأحدهما: امرأة فرعون^(٧) ووجه المثل: أن اتصال المؤمن بالكافر لا يضره شيئاً إذا فارقه في كفره وعمله، فمعصية العاصي لا تضر

(١) إبراهيم لم يكن بينه وبين نوح إلهو وهو نبي من أنبياء الله تبارك وتعالى. راجع نفس المصدر

(٢) سورة الممتحنة: الآية: (٣).

(٣) نفس المصدر السابق وأرقام الصفحات.

(٤) سورة الانفطار: الآية: (١٩).

(٥) سورة البقرة: الآية: (١٢٣).

(٦) سورة لقمان: الآية: (٢٣).

(٧) كل امرئ في هذه الحياة الدنيا مجزي بعمله، له ما كسب وعليه ما اكتسب لا ينفعه أو يضره في ذلك حسب أو نسب.

«ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرات نوح وامرات لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً وقيل ادخلا النار مع الداخلين. وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرات فرعون إذ قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين، ومريم ابنت عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين» ما أوضح هذا التمثيل وأصدقه في ميزان الأعمال، فإن الأعمال أنفسها هي الموازين والمقاييس والمعايير لأنفسها، ولادخل في هذا للشفيق ولا لصديق حميم. «يا فاطمة بنت محمد اعلمي فلن أغنى عنك من الله شيئاً».

المطيع شيئاً في الآخرة وإن تضرر بها في الدنيا بسبب العقوبة التي تحلّ بأهل الأرض إذا أضاعوا أمر الله عزّ وجل فتأتي عامّة فلم يضر امرأة فرعون اتصالها به وهو من أكفر الكافرين ولم ينفع امرأة نوح ولو ط اتصالهما بهما وهما رسولا رب العالمين .

المثل الثاني للمؤمنين: مريم التي لازوج لها، لامؤمن ولاكافر فذكر ثلاثة أصناف النساء: المرأة الكافرة التي لها صلة بالرجل الصالح، والمرأة الصالحة التي لها صلة بالرجل الكافر، والمرأة العزبّ التي لا صلة بينها وبين أحد، فالأولى لاتنفعها صلتهما وسببها، والثانية لاتضرّها صلتهما وسببها، والثالثة لا يضرّها عدم الصلة شيئاً (١)

ثم في هذه الأمثال الأسرار البديعة مايناسب سياق السورة فإنها سيقّت في ذكر أزواج النبي ﷺ، والتحذير من تظاهرنّ عليه وأنهنّ إن لم يطعن الله ورسوله ﷺ ولم يردن الدار الآخرة لن ينفعهنّ اتصالهنّ برسول الله ﷺ كما لم ينفع امرأة نوح ولو ط اتصالهما بهما ولهذا ضرب لهما في هذه السورة مثل اتصال النكاح دون القرابة، قال يحيى بن سلام^(٢): ضرب الله المثل الأول يحذّر عائشة^(٣) وحفصة^(٤) ثم ضرب لهما المثل الثاني يحرضهما على التمسك بالطاعة، وفي ضرب المثل للمؤمنين بمريم أيضاً اعتبار آخر وهو أنها لم يضرها عند الله شيئاً كذف أعداء الله

(١) نفس المصدر السابق:

راجع تفسير الكشاف ج٤ ص(٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٢).

وانظر فتح القدير من علم التفسير ج٥ ص(٢٥٠، ٢٥٦، ٢٥٧) وانظر تفسير الفخر الرازي الجزء التاسع والعشرين ص (٤٩، ٥٠، ٥١) نجد مايسرك ويثلج صدرك.

وانظر جامع البيان في تفسير القرآن الجزء الثاني عشر ص(١٠٩، ١١٠).

وانظر تفسير ابن كثير الجزء الرابع ص(٣٥٥).

(٢) انظر زاد المعاد ٨/٥٨٠/٣١٥ وهو يحيى بن سلام بن أبي ثعلبة التيمي مفسر وفقه وعالم بالحديث واللغة توفي سنة ٢٠٠ هـ.

(٣) عائشة هي ابنة أبي بكر الصديق، تزوّجها الرسول ﷺ وكانت تكتى بأب عبد الله. ماتت سنة ثمان وخمسين ودفنت بالبقيع. انظر الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني الجزء الرابع ص(٤٥٩)

(٤) حفصة بنت عمر بن الخطاب أمير المؤمنين وكانت قبل أن يتزوجها الرسول الكريم ﷺ عند معن بن حذافة وكان من شهد بدرا ومات بالمدينة وتزوّجها الرسول بعد عائشة رضي الله عنها وماتت لما بايع الحسن

معاوية. انظر الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني (٣٧٣ - ٣٧٤)

تعالى اليهود لها فنسبتهم إياها وابنها إلى مبرأهما الله عنه كونها الصديقة الكبرى المصطفاة على نساء العالمين. فلا يضرّ الرجل الصالح قذف الفجّار والفسّاق فيه وفي هذا تسلية لعائشة أم المؤمنين^(١) إن كانت السورة نزلت بعد قصة الإفك وتوطين نفسها على ما قال فيها الكاذبون إن كانت قبلها كما في التمثيل بامرأة نوح ولوط تحذيرا لها ولحفصة ما اعتمدته في حق النبي ﷺ فتضمنت هذه الأمثال التحذير لهنّ والتخويف والتحريض لهنّ على الطاعة والتوحيد والتسوية وتوطين النفس لمن أوذى منهنّ وكذب عليه، وأسرار التنزيل فوق هذا وأجلّ منه ولاسيما أسرار الأمثال التي لا يعقلها إلاّ العالمون.

(١) قال تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ سورة الاحزاب: الآية (٦).
أزواجه أمهاتهم: أي منزلات منزلة الأمهات في التحريم واستحقاق التعظيم وأما فيما عدا ذلك فهنّ كالأجنبيات ولذلك قالت عائشة رضي الله عنها: (لسنا أمهات النساء). راجع تفسير أبي السعود الموجود على هامش تفسير الفخر الرازي ج(٧) ص(٤٣٣).

(سورة الملك)

قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (١) ﴿مُكِبًّا﴾ يُقال لغة: أكبَّ الرجلُ على وجهه يكبُّ أكْبَاباً إذا نكسَ رأسه. ويُقال: أكبَّ الرجل على وجهه إذا سقط على وجهه. وقد ذكر المفسرون في تصوير حال مَنْ يمشي مُكِبًّا على وجهه وجوهاً عديدة، نذكر منها مايلي:

١ - الوجه الأول: أنه الذي يمشي ويتعثّر في مشيه فيخرُّ على وجهه مُكِبًّا وهكذا دواليك.

٢ - الوجه الثاني: أنه المتعسّف الذي يمشي على غير هدى فلا يعلم له طريقاً.

٣ - الوجه الثالث: أنه الذي انتكس فصار يمشي على وجهه، بدل أن يمشي على قدميه وقامته منتصباً سويةً، يرى طريقه.

٤ - الوجه الرَّابع: أنه الذي يمشي مُنكِّساً كما يمشي الحمار، لا كما يمشي الإنسان السوي. (٢)

والذي يظهر لي (٣) من التّقابل المتباين بين من يمشي مُكِبًّا على وجهه ومن يمشي سويًّا على صراط مستقيم أنه لا بُدَّ من التخالف في الأمور التالية:

١ - المخالفة الأولى: الثاني يمشي على صراط مستقيم، بخلاف الأوّل، فهو تائه ضالٌّ لا يعرف لنفسه طريقاً مستقيمة واضحة.

٢ - المخالفة الثانية: الثاني يمشي سويًّا عالمًا طريقه مشاهداً له، بخلاف الأوّل، فهو يمشي غير سويٍّ، وهو مكبٌّ على وجهه لا يرى طريقه.

٣ - المخالفة الثالثة: الثاني يتابع سيره دون أن يتعرّض إلى عثرات، لأنّه يمشي سويًّا مشاهداً طريقه، وعلى صراط مستقيم غير متعرّجٍ من ذات اليمين أو ذات

(١) سورة الملك: الآية: (٢٢).

(٢) الأمثال القرآنية. تأملات: عبد الرحمن حسن حنبكة الميداني ص(١١٥، ١١٦).

(٣) المؤلف: عبد الرحمن حسن حنبكة مع تصرّف في العبارة.

الشمال، وليس في سطحه ارتفاعات وانخفاضات وحفرٌ وعقبات ومساقط. بخلاف الأول فهو يتابع سيره في متاهاته فيتعرض إلى عثرات كثيرة ينكبُّ فيها على وجهه، لأنه يمشي غير سويٍّ، ولا يُشاهدُ طريقه، ومتاهاته لا استقامة فيها، بل هي متعرجة وفيها ارتفاعات وانخفاضات وحفرٌ وعقبات ومساقط ومزالق^(١) فأَيُّ المتقابلين أهدى؟ سؤال لا يحتاج جواباً لبدهته، وكذلك فعل القرآن.

ولقد ضرب الله في هذا مثلاً للكافر الذي يسير في حياته على غير هدى، فهو كالمكبِّ على وجهه، ومثلاً للمؤمن المتقي الذي يسير في حياته على صراط الله المستقيم، فهو كالذي يمشي سويّاً على طريق مستقيمة^(٢)

تحليل المثل:

١ - التحليل الأول: اشتمل النص على مثلين لفريقيين متقابلين كلاهما يمشي في الحياة إلاّ أنهما على وصفين متباينين، أمّا أحدهما فيمشي مشياً سويّاً على هدى وهو المؤمن التقيّ، وأمّا الآخر فيمشي على غير هدى مشياً غير سويٍّ، وهو الكافر العاصي.

فهو من قبيل تمثيل أمر معنوي بأمر يُدرك بالحسّ الظاهر.

٢ - التحليل الثاني: إذا حَلَلْنَا المثل أمكننا أن نجعله من قبيل التمثيل المركّب، وإذا تتبّعنا العناصر أمكننا أن نعتبره من قبيل العناصر المتلاقية التي تُقابل أمثالها في الممثل له.

(١) نفس المصدر السابق

(٢) نفس المصدر السابق

لمزيد من الاستفادة راجع فتح القدير من علم التفسير تأليف محمد بن عليّ بن محمد الشوكاني جده ص(٢٦٤)

والتفسير الكبير للإمام الفخر الرازي الجزء التاسع والعشرون ص(٧٣) وجامع البيان في تفسير القرآن تأليف أبي جعفر محمد بن جرير الطبري المجلد الثاني عشر ص(٧).

وتفسير ابن كثير ج٤ ص(٣٦٠). وتفسير البحر المحيط لأبي حيان الجزء الثامن ص(٣٠٣) والكشاف ج٤ ص(١٣٩).

فإيمان المؤمن يشبه حالة السويّ، الذي لم يفسد فطرته بانكباب ولا انتكاس، وعمله الصالح في الحياة، يشبه حالة السويّ الماشي على صراط مستقيم. وسعادته وهدايته إلى نجاته وفلاحه، تشبهان حالة الماشي على الصراط المستقيم، وعاقبة مسعاه. (١)

وكفر الكافر، يشبه حالة المكبّ على وجهه الذي لا يرى طريقه، فهو كالأعمى، إنّه بعملٍ منه قد يحجب عن نفسه أبعاد مسالكه، لأنه مكبّ على وجهه بإرادة منه.

وعمل الكافر في الحياة، يشبه حالة المكبّ على وجهه الذي يمشي في متاهاته على غير هدى.

وتعاسته وضلالته، تشبهان حالة الذي يمشي في متاهاته ضالاً، فيتعرّض كلما مشى، ويتعرّض للعثرات والعقبات والمزالق والحفر، فهو كادح مكدود، كلما انتهى من ورطة وقع في ورطة أخرى، ويظلُّ يتنقل من متاهة إلى متاهة، ومن ضلالة إلى أخرى.

٣ - التحليل الثالث: الصورة التمثيلية في المثليين منتزعة من الواقع، مع بعض فقرات قد تكون منتزعة من الخيال، إذ قد لانجد سائراً في متاهة مكباً على وجهه، إذا فسّرنا المكب على وجهه بالمنتكس الذي يمشي على وجهه بدل أن يمشي على رجليه. (٢)

٤ - التحليل الرابع: يبدو أنّ الغرض من المثل تقريب صورة الممثل له، وتجسيدها مع غرض التنفير من الكفر وضلالته، والترغيب بالإيمان وهدايته، ومع الإقناع بلفت النظر إلى الحقيقة عن طريق المثل.

٥ - التحليل الخامس: في المثل دقة التصوير مع إبراز العناصر المهمة من الصورة

(١) نفس المصدر السابق ص(١١٧، ١١٨).

(٢) نفس المصدر السابق:

التمثيلية. وفيه التصوير المتحرك. وفيه صدق المماثلة بينه وبين الممثل له. وفيه حذف ما يمكن استكمالُه دون عناءٍ لأنَّ اللوازم تستدعيه.

٦ - التحليل السادس: يلاحظ في هذا المثل التنوع، فقد جاءت المفاجأة فيه على طريقة الاستفهام الذي ليس له عند العقلاء إلا جواب واحد، ولم يأت في النص ما يدلُّ على أنه مثل، بل نُزِّل الممثل به منزلة الممثل له تماماً، فكأنه هو. (١)

(١) نفس المصدر السابق.

(سورة ن)

قال تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَشْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادُوا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنْ اغْدُوا عَلَيَّ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَنْ لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدُوا عَلَيَّ حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَيَّ بَعْضٌ يَتَلَومُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١﴾

قوله: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ﴾ يعني كفار مكة. فإن الله ابتلاهم بالجوع والقحط بدعوة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عليهم. والابتلاء الاختبار. والمعنى: أعطيتناهم الأموال ليشكروا لا يبطروا. فلما بطروا ابتليناهم بالجوع والقحط ﴿كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ المعروف خبرهم عندهم. وذلك أنها كانت بأرض اليمن على فرسخين من صنعاء لرجل يؤدي حق الله منها. فمات وصارت إلى أولاده. فمنعوا الناس خيرها. وبخلوا بحق الله فيها. قال الواحدي: هم قوم من ثقيف كانوا باليمن مسلمين ورثوا من أبيهم ضيعة فيها جنات وزرع ونخيل وكان أبوهم يجعل ممافيها من كل شيء حظاً للمساكين عند الحصاد والصرام. فقال بنوه: المال قليل، والعيال كثير. ولا يسعنا أن نفعل كما كان يفعل أبونا وعزموا على حرمان المساكين فصارت عاقبتهم إلى ماقص الله في كتابه. قال الكلبي: كان بينهم وبين صنعاء فرسخان ابتلاهم الله بأن حرق جنتهم. (٢)

(١) سورة ن الآيات من ٧١ إلى ٣٣.

(٢) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير تأليف محمد بن علي بن محمد الشوكاني الجزء الخامس ص (٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٣).

وقيل هي جنة كانت بصوران. وصوران على فراسخ من صنعاء. وكان أصحاب هذه الجنة بعد رفع عيسى بيسير ﴿إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ أي حلفوا ليقطعنها داخلين في وقت الصباح والصرم القطع للشمر والزرع. وانتصاب ﴿مُصْبِحِينَ﴾ على الحال من فاعل ﴿لَيَصْرِمُنَّهَا﴾ والكاف في ﴿كَمَا بَلَوْنَا﴾ نعت لمصدر محذوف: أي بلوناهم ابتلاء كما بلونا. وماصدرية، أو بمعنى الذي، وإذا ظرف لبلونا منتصب به. وليصرمنها جواب القسم ﴿وَلَا يَسْتَشُونَ﴾ يعني ولا يقولون إن شاء الله، وهذه الجملة مستأنفة لبيان ما وقع منهم. أحوال. وقيل المعنى: ولا يستنون للمساكين من جملة ذلك القدر الذي كان يدفعه أبوهم إليهم. قال عكرمة ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ أي طاف على تلك الجنة طائف من جهة الله سبحانه. والطائف قيل هو نار أحرقتها حتى صارت سوداء، كذا قال مقاتل: وقيل الطائف جبريل اقتلعها. وجملة ﴿وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ في محل نصب (١) على الحال ﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ أي: كالشيء الذي صرمت ثماره: أي قطعت. فعيل بمعنى مفعول. وقال الفراء: كالصريم كالليل المظلم، ومنه قول الشاعر:

تطاول ليلك الجون الصريم فما ينجاب عن صبح بهيم

والمعنى: أنها حرقت فصارت كالليل الأسود قال: والصريم الرماد الأسود بلغة خزيمة. وقال الأخفش: أي كالصبح انصرم من الليل، يعني أنها يبست وبيضت. وقال المبرد: الصريم الليل، والصريم النهار: أي ينصرم هذا عن هذا، وذاك عن هذا، وقيل سمي الليل صريما لأنه يقطع بظلمته عن التصرف. وقال المؤرج: الصريم الرملة لأنها لا يثبت عليها شيء ينتفع به. وقال الحسن: صرم منها الخير: أي قطع ﴿فَتَنَادُوا مُصْبِحِينَ﴾ أي: نادى بعضهم بعضا داخلين في الصباح. قال مقاتل: لما أصبحوا قال بعضهم لبعض ﴿أَنْ اغْدُوا عَلَيَّ حَرِّكُمْ﴾ و«أن» في قوله: ﴿أَنْ اغْدُوا﴾ هي المفسرة لأن في التنادى معنى القول، أو هي (٢) المصدرية: أي بأن

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) نفس المصدر السابق.

اغدوا، والمراد اخرجوا غدوة، والمراد بالحرث الثمار والزرع ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ﴾ أي قاصدين للصرم، والغدو يتعدى بإلى وعلى، فلاحاجة إلى تضمينه معنى الإقبال كما قيل، وجواب الشرط محذوف: أي إن كنتم صارمين فاغدوا، وقيل معنى صارمين ماضين في العزم، من قولك سيف صارم ﴿فَانْطَلِقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ﴾ أي ذهبوا إلى جتتهم وهم يسرون الكلام بينهم لئلا يعلم أحد بهم، يقال خفت يخفت: إذا سكن ولم ينبس، ومنه قول دريد بن الصمة:

وإني لم أهلك ملاماً ولم أمت خفاتا وكلاً ظنه بي عويمرُ

وقيل المعنى: يخفون أنفسهم من الناس حتى لا يروهم، فيقصدوهم كما كانوا يقصدون أباهم وقت الحصاد، والأول أولى لقوله ﴿أَنْ لَا يَدْخُلْنَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ﴾ فإنَّ أن هي المفسرة للتخافت المذكور لما فيه من معنى القول. والمعنى: يسر بعضهم إلى بعض هذا القول، وهو لا يدخل هذه الجنة اليوم عليكم مسكين، فيطلب منكم أن تعطوه منها^(١) ما كان يعطيه أبوكم ﴿وَعَدُوا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ﴾ الحرد يكون بمعنى المنع والقصد. قال قتادة ومقاتل والكلبي والحسن ومجاهد: الحرد هنا بمعنى القصد، لأن القاصد إلى شيء حارد يقال: حرد يحرد إذا قصد، تقول: حردت حردك: أي قصدت قصدك، ومنه قول الراجز:

أقبل سيل جاء من عند الله يحرد حرد الجنة المحلاه

وقال أبو عبيدة والمبرد والقطيبي: على حرد على منع، من قولهم حردت الإبل حردا إذ قلت ألبانها، والحرد من النوق هي القليلة اللبن وقال السدي وسفيان والشعبي (على حرد) على غضب، ومنه قول الشاعر:

إذا جياذ الخيل جاءت تردى مملوءة من غضب وحرد

وقول الآخر: تساقوا على حرد دماء الأسود. ومنه قيل أسد حارد. وروي عن قتادة ومجاهد أيضا أنهما قالوا: على حرد: أي على حسد. وقال الحسن أيضا: على حاجة وفاقة. وقيل على حرد: على انفراد،^(٢)

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) نفس المصدر السابق.

يقال حرد يحرد حرداً أو حروداً: إذا تنحى عن قومه ونزل منفرداً عنهم ولم يخالطهم، وبه قال الأصمعي وغيره. وقال الأزهري: حرد اسم قريتهم، وقال السدي: اسم جهنم. قرأ الجمهور «حرد» بسكون الراء وقرأ أبو العالية وابن السيفع اليماني بفتحها وهي وإن كانت قراءة شاذة إلا أن لها وجهاً في العربية جيداً. وانتصاب «قادرين» على الحال. قال الفراء: ومعنى قادرين: قد قدرُوا أمرهم وبتوا عليه، وقال قتادة: قادرين على جنتهم عند أنفسهم. وقال الشعبي يعني قادرين على المساكين ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا﴾ أي لما رأوا جنتهم وشاهدوا ما قد حلّ بها من الآفة التي أذهبت مافيها ﴿قَالُوا إِنَّا لَصَالُونَ﴾ أي قال بعضهم لبعض: قد ضللنا طريق جنتنا وليست هذه، ثم لما تأملوا وعلموا أنها جنتهم، وأن الله سبحانه قد عاقبهم بإذهاب مافيها من الثمر والزرع قالوا ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ أي حرماناً جنتنا بسبب ما وقع منا من العزم على منع المساكين من خيرها، فأضربوا^(١) عن قولهم الأوّل إلى هذا القول، وقيل معنى قولهم ﴿إِنَّا لَصَالُونَ﴾ أنهم ضلّوا عن الصواب بما وقع منهم ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ أي أمثلهم وأعقلهم وخيرهم وأعدلهم ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ أي هلاّ تسبحون: يعني تستنون، وسمي الاستثناء تسبيحاً، لأنّه تعظيم لله وإقرار به، وهذا يدلّ على أنّ أوسطهم كان أمرهم بالاستثناء فلم يطيعوه، وقال مجاهد وأبو صالح وغيرهما: كان استثناءؤهم تسبيحاً.

قال النحاس: أصل التسييح التنزيه لله عزّ وجلّ، فجعل التسييح في موضع إن شاء الله. وقيل المعنى: هلاّ تستغفرون الله من فعلكم وتوبون إليه من هذه النية التي عزمتم عليها، وكان أوسطهم قد قال لهم ذلك، فلماً قال لهم ذلك بعد مشاهدتهم للجنة على تلك الصفة ﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أي تنزيها له عن أن يكون ظالماً فيما صنع بجنتنا، فإنّ ذلك بسبب ذنبنا الذي فعلناه، وقيل معنى تسييحهم الاستغفار: ^(٢) أي نستغفر ربنا من ذنبنا إنّنا كنا ظالمين لأنفسنا في منعنا للمساكين ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ﴾ أي يلوم بعضهم بعضاً في منعهم

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) نفس المصدر السابق.

للمساكين وعزمهم على ذلك، ثم نادوا على أنفسهم بالويل حيث قالوا: ﴿يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ﴾ أي عاصين متجاوزين حدود الله بمنع الفقراء وترك الاستثناء. قال ابن كيسان: أي طغينا نعم الله فلم نشكرها كما شكرها أبونا من قبل، ثم رجعوا إلى الله وسألوه أن يعوّضهم بخير منها فقالوا: ﴿عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا﴾ لَمَّا اعترفوا بالخطيئة رجوا من الله عز وجل أن يبدلهم جنة خيراً من جنتهم، قيل إنهم تعاقدوا فيما بينهم وقالوا إن أبدلنا الله خيراً منها لنصنعن كما صنع أبونا، فدعوا الله وتضرّعوا فأبدلهم من ليلتهم ما هو خير منها قرأ الجمهور «يبدلنا» بالتخفيف، وقرأ أبو عمرو ونافع بالتشديد، وهما لغتان فصيحتان، والتبديل تغيير ذات الشيء، أو تغيير صفته، والإبدال رفع الشيء جملة^(١) ووضع آخر مكانه، كما مضى في سورة سبأ. ﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾ أي طالبون منه الخير راجون لعفوه راجعون إليه وعُدِّيَ بالي وهو إنما يتعدى بعن أو في لتضمينه معنى الرجوع ﴿كَذَلِكَ الْعَذَابُ﴾ أي مثل ذلك العذاب الذي بلوناهم به وبلونا أهل مكة عذاب الدنيا، والعذاب مبتدأ مؤخر، وكذلك خبره ﴿وَالْعَذَابُ الْآخِرَةُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي أشد وأعظم لو كان المشركون يعلمون أنه كذلك ولكنهم لا يعلمون. (٢)

(١) نفس المصدر السابق:

(٢) وقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله «كما بلونا أصحاب الجنة» قال: هم ناس من الحبشة كان لأبيهم جنة وكان يطعم منها المساكين، فمات أبوهم فقال بنوه: إنما كان أبونا الأحمق يطعم المساكين «فأقسموا ليصرمتها مصبحين» وأن لا يطعموا مسكيناً، وأخرج ابن جرير عنه «فظاف عليها طائف» قال: أمر من الله، وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «إياكم والمعصية، فإن العبد ليذنب الذنب الواحد فينسى به الباب من العلم، وإن العبد ليذنب فيحرم به قيام الليل، وإن العبد ليذنب الذنب فيحرم به رزقا قد كان هُيَّءَ له». ثم تلا رسول الله ﷺ: «فظاف عليها طائف من ربك وهم نائمون فأصبحت كالصريم» قد حرّموا خير جنتهم بذنوبهم وعن ابن عباس في قوله «كالصريم» قال: مثل الليل الأسود. وأخرج ابن المنذر عنه «وهم يتخافتون» قال: الإسرار والكلام الخفي. وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه أيضاً «على حردٍ قادرين» يقول ذو قدرة. وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله «إنا لضالون» قال: ضللنا مكان جنتنا. وأخرجنا عنه أيضاً «قال أوسطهم» قال: أعدلهم. نفس المصدر السابق.

(سورة الحاقة)

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (٥) وَأَمَّا عَادُ فَأَهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٌ (٧) فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾ (١) قوله ﴿بِالطَّاغِيَةِ﴾: الطاغية صفة للمهلكة التي أهلكتهم. وهي من الطغيان الذي هو تجاوز الحد. وقد جاء في سورة (هود) أن إهلاك ثمود قد كان بالصيحة، فهي إذن الصيحة العظيمة الطاغية التي كانت السبب في إهلاكهم، وقد أثبتت التجارب العلمية أن من الأصوات ما يقتل، وما جاء في سورة (هود) هو قول الله تعالى: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٦٧) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لثَمُودَ﴾ (٢) وجاء في شأنهم أيضاً في سورة (القمر). ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾ (٣) الهشيم: هو النبت اليابس المتكسر. والمحتظر: (٨) هو صاحب الحظيرة. ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾: أي بريح باردة، ذات صوت، شديدة السرعة، ومثل هذه الريح قاتلة مدمرة. وهي معروفة في أحداث الكون. والريح متى اشتدت وعتت اصطدمت بالأشياء فكان لها صوت مزعج مخيف، وهذا الصوت يسمى صرصرة. ويقال أيضاً للريح شديدة البرد: رِيحٌ صَرْصَرَةٌ. ومعنى «عاتية» متجاوزة الحد، كالطاغية. ولا تكون الريح كذلك إلا إذا كانت عنيفة شديدة السرعة، لا تحملها الأحياء ولا الأشياء. ﴿حُسُومًا﴾: أي متتابعة متوالية فلم تفتقر الريح الصرصر العاتية عنهم خلال هذه الأيام والليالي المتتابعة. وإنما استمرت عليهم كل هذه الأيام والليالي المتتابعة لتحسم مادتهم فلا تبقي منها أحداً. وأصل معنى الحسم في اللغة القطع والاستئصال، واكتسب معنى التابع لأن الدواء الحاسم والكي الحاسم إنما يكونان بعد تكرار العلاج وتتابعه. (٥)

(١) سورة الحاقة: الآيات: (٥، ٦، ٧، ٨).

(٢) سورة هود: الآيات: (٦٧، ٦٨).

(٣) سورة القمر: الآية: (٣١).

(٤) الأمثال القرآنية: تأملات عبد الرحمن حسن حنكة الميداني ص (١٢٣، ١٢٤، ١٢٥)

(٥) نفس المصدر السابق:

﴿صَرَغَى﴾: أي هلكى قد ماتوا. وصرعى جمع صريع. ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ أعجازُ النخل: أصول النخل. ﴿خَاوِيَةٍ﴾ أي أجوافها فارغة بالية لاشيء فيها. وقال تعالى: في سورة (القمر): ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَدَابِي وَنَذُرِي (١٨) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ (١٩) تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنْقَعِرٍ (٢٠) فَكَيْفَ كَانَ عَدَابِي وَنَذُرِي (٢١)﴾.

(أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنْقَعِرٍ) أي أصول نخلٍ مُنْقَعِرٍ من أرضه.

نلاحظ أَنَّ الله تبارك وتعالى: قد ضرب مثلاً لصورة الهلكى من ثمود بصورة ﴿كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾. أي بصورة أكوام النبت اليابس المتكسّر بعضه فوق بعض في حظيرة صاحب أنعام. وترك للخيال أن يستكمل صورة هذا الهشيم الذي تدوسه الدواب بأرجلها وتلقي ما تلقي عليه من فضلاتها.

إنّ الصيحة الواحدة قد أهلكتهم في مكان تجمعهم، ولم تسمح لهم بأن يتفرّقوا، فكانوا كهشيم في حظيرة. وضرب الله مثلاً لصورة الهلكى من عاد بصورة أعجاز نخلٍ مُنْقَعِرٍ من أرضه، ثم إنّ هذه الأعجاز قد بليت حتى غَدَتْ أجوافها خالية.

إنّ هؤلاء قد أهلكوا بريح صرصرٍ عاتية، صارت تقلعهم من منازلهم وأماكنهم قلعاً عنيفاً وترميمهم صرعى.

فصورتهم وهم صرعى متفرّقون كصورة أعجاز النخل المنقعر. وصورتهم بعد أن بليت أجوافهم كصورة أعجاز نخل خاوية.

تحليل المثلين:

في هذين المثلين تبدو دقّة التصوير، مع إبراز العناصر المهمة من الصورة التمثيلية. وفيهما صدق المماثلة بين المثل والمثّل له.

والمثلان من قبيل تمثيل مُدْرِكٍ بالحس غير الظاهر بمدركٍ بالحسّ الظاهر. إلا أنّ صورة المثلّ له أصبحت غائبةً من أمور الزمان الماضي، وصورة المثلّ به صورة

(١) سورة القمر الآيات (١٨، ١٩، ٢٠، ٢١).

حاضرة لمن أراد أن ينظر إليها، ففي كلِّ زمانٍ محتظر له هشيم في حظيرته وفي كلِّ زمانٍ أعجاز نخلٍ مُتَعَرِّعٍ، وأعجاز نخلٍ خاوية^(١).

والصورة التمثيلية في المثلين متزعة من الواقع.

وفي سورة (المؤمنون) قال الله تعالى: في شأنِ ثمود - وهو الأرجح فيما أرى - أو في شأنِ عاد - كما ذكر كثير من المفسرين -:

﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ عِثَاءً فَبَعَدَ لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾^(٢) فقد أبان النَّصُّ هنا أنَّ مَثَلَهُمْ بعد إهلاكهم كان كَمَثَلِ العِثَاءِ، والعِثَاءُ: هو ما يعلو السَّيْلَ من زبدٍ وهشمٍ وقماماتٍ، فهو كقولهِ: ﴿فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾ إذ الصورتان متقاربتان^(٣).

أمثال أخرى من هذه السورة، قال جلَّ ذكره:

﴿وَإِنَّهُ لَتَذِكْرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾^(٤) فالتذكرة كدفتر حساب، (يرجع إليه) في كلِّ يومٍ وساعة، إذا أصبح ينظرُ فيه فيدبِّرُ أمرَهُ من التذكرة مِمَّا أحكمه وردَّه إلى الديوان الأكبر الذي فيه جُمْلَةُ حسابِ تجارته، فالمتَّقِي ينظر فيه كلَّ يومٍ يتدبِّرُ أمره فيه ومنه، ويُقَابِلُ أموره مِمَّا أمرَ اللهُ فيه، ويسوِّيه ويتلافى ماضعاً منه وماقصرَ فيه، ثم يُؤدِّيهِ إلى ديوانِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وهو اللُّوحُ المحفوظُ.

ثم قال: ﴿وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾^(٥). فإذا رأى الكافرُ ما يصنَعُ القرآنُ بأهله من الشناء عليهم بين يدي اللهِ عزَّ وجلَّ، ونظر إلى كرامة اللهِ على أهلِ القرآنِ صار ذلك كُلُّهُ حَسْرَةً عليه، وتقطَّعَ قلبه حسرات. ثم قال جلَّ اسمه: ﴿وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ﴾^(٦)، أي هذا القرآنُ من حَقِّ اليقين، أي كما أعطيتكم من نورِ المعرفة، فاستقرت قلوبكم، وأيقنتم برُبوبيَّتِي وبوحدانيَّتِي فاطمأنَّت^(٧) نفوسكم بي،

(١) (٣، ٢، ١) نفس المصدر السابق:

(٤) (٦، ٥، ٤) سورة الحاقة: الآيات: (٤٨، ٥٠، ٥١).

(٧) (٧) الأمثال من الكتاب والسنة لأبي عبد الله محمد بن عليِّ الحكيم الترمذي من علماء القرن الثالث الهجري

تحقيق عليِّ محمد الجاوي ص (٦٠، ٦١) مكتبة دار التراث بالقاهرة.

وَأَمَّنت، كان مِنْ حَقِّ ذَلِكَ اليقينِ عَلِينَا أَنْ أُنزِلَ كَلَامِي إِلَيْكُمْ لِتَسْكُنَ بِهِ تِلْكَ
الصدور التي استقرَّ اليقينُ فِي تِلْكَ القلوبِ فِيهَا، وَيُجَاوِرُهُ بِأَحْسَنِ المِجَاوِرَةِ، فَهَذَا
حَقُّهُ، وَيَسَاكِنُهُ فِي مُسْتَقَرِّهِ، فَالِيقينُ فِي القَلْبِ، وَكَلَامِي فِي الصُّدُورِ، وَهُوَ سَاحَةُ
اليقينِ، فَذَلِكَ حَقُّ اليقينِ. (١) .

(١) نفس المصدر السابق.

(سورة المعارج)

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ (٨) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ (١) وقد مضى الكلام على التشبيه الأول مع نظيره في سورة الرحمن فارجع إليه إن شئت - وأما قوله: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ ففيه وجهان أحدهما: خفة ذهابها وقد فُسر في سورة النمل بحسب معنى النظير هناك. والوجه الآخر أن الجبال تقطع حتى تصير كالعهن وهو الصوف والأولان عن أبي عبيدة، قال زهير:

كَأَنَّ فُتَاتَ الْعِهْنِ فِي كُلِّ مَنْزِلٍ نَزَلْنَ بِهِ حَبُّ الْفَنَاءِ لَمْ يَحْطُمْ (٢)

ويكون المراد أن الجبال في ذلك اليوم من خشية الله تعالى: وهو ما ظهر من أمره تنهال وتتهافت أحبابا لعظمته وخشوعا لقاهر قدرته كما قال عز وجل: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجِبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ (٣) وكما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيًّا مَهِيلاً﴾ (٤) وقال جل شأنه: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ (٥) وقد ذكرت الشعراء نحواً (٦) من هذه الحال على طريق المبالغة لا الحقيقة في وصف سير الجيش ووقع سنابك الخيل كما قال إياس بن مالك الطائي:

بِجَمْعِ تَظَلُّ الْأَكْمِ سَاجِدَةً لَهُ وَأَعْلَامُ سَلَمَى وَالْهَضَابُ النُّوَادِرُ
وقال التغلبي (٧):

بِرَأْسٍ مِنْ بَنِي جُشَمِ بْنِ بَكْرِ نَدَقُ بِهِ السَّهْوَلَةَ وَالْحَزُونََا
وقال الآخر وذكر الخيل:

إِذَا مَا عَلُونَا فَرُوعَ الْأَكَامِ جَعَلْنَ الْأَكَامَ هَبَاءً مُشَارَا

(١) سورة المعارج: الآيتان: (٨، ٩)

(٢) ديوان زهير ص ١٢ حب الفناء طعام الثعلب من النباتات.

(٣) سورة الأعراف: الآية: (١٤٣).

(٤) سورة المزمل: الآية: (١٤).

(٥) سورة الفجر: الآية: (٢١).

(٦) الجمعان في تشبيهات القرآن. تأليف عبدالله بن الحسين بن نايقا ص (٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٣)

(٧) التغلبي هو عمرو بن كلثوم.

ونظر بشار إلى قول أبان بن عبدة^(١):

إِذَا نَحْنُ سَرْنَا بَيْنَ شَرْقٍ وَمَغْرِبٍ تَحْرَكُ يَقْظَانُ التَّرَابِ وَنَائِمِهِ
فَقَالَ وَزَادَ مَعْنَى آخِرٍ إِلَّا أَنَّهُ أَفْرَطَ فِي الْمِبَالِغَةِ:

إِذَا مَاغْضَبْنَا غَضِبَةً مُضْرِبَةً هَتَكْنَا حِجَابَ الشَّمْسِ أَوْ قَطَرَتْ دَمَا

أي ملأنا الأرض خيلاً ورجالاً فأثرتنا فيها تأثيراً جرى مجرى هتكها^(٢) وإياها أراد بقوله: هتكنا حجاب الشمس لأن حجاب الشمس يدل على أنه أراد الأرض، وقوله أو قطرت دما يريد أو قطرت السماء دما فجمع بين الأرض والسماء وأكثر ما يجيء في هذا الباب فمحمول على المبالغة والإفراط والغلو والإغراق وشتان بين زخرف الأقاويل وحقائق لفظ التنزيل.

مثل آخر من هذه السورة، قوله عز وجل: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾^(٣) (نصب) قرأ الجمهور بفتح النون وإسكان الصاد، وقرأ ابن عامر وحفص بضم النون والصاد ومعناه إلى أصنام لهم كما قال تعالى: ﴿وَمَا ذَبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾^(٤) قال الشاعر:

وَذَا النُّصُبِ الْمَنْصُوبُ لَا تَنْسَكُنَّهُ وَلَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ وَاللَّهُ فَاعْبُدَا

والمثل في الآية واقع أحسن مواقعه وأنفس مواضعه والعبارة عند براءة البيان دالة ببلاغتها على معجز القرآن وقد ذهب الشعراء نحو هذا^(٥). والمعنى وسلكت

سبل هذه الصفة وأنى لهم ببلاغة التنزيل وصحة التمثيل والتشبيه قال عنترة:

تَرَكْتُ بَنِي الْهَاجِمِ لَهُمْ دُورٌ إِذَا تَمَضَى جَمَاعَتُهُمْ تَعُودُ

يقول تركهم يسعون نحو قبل منهم كأنهم يدورون بصرم والدوار نُسك كان في

الجاهلية وقال امرؤ القيس:

(١) أبان بن عبدة هو أبان بن عبد الحميد اللاهقي

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) سورة المعارج: الآية: (٤٣).

(٤) سورة المائدة: الآية: (٣).

(٥) نفس المصدر السابق.

فَعَنَّا لَنَا سَرَبٌ كَأَنَّ نِعَاجَهُ غَوَانِي دَوَارٍ فِي مَلَاءٍ مُذَيَّلٍ
ومعنى يوفضون يسرعون، قال الشاعر:

لأنعتن نعامة مِيضَاضاً خرجاء تعدو تَطْلُبُ الاضَاضاً (١)
الميضاض السريعة والاضاض يعني الموضع الذي تلجأ إليه يقال أضطتني إليه
الحاجة. (٢)

(١) الميضاض: السريعة، الاضاض: مكان يلجأ إليه المضطر.

(٢) نفس المصدر السابق.

(سورة نوح)

قال تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَنْبِنَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾ (١) قوله: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ أي سلوه المغفرة من ذنوبكم السابقة بإخلاص النية ﴿إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ أي كثير المغفرة للمذنبين، وقيل معنى استغفروا: توبوا عن الكفر إنه كان غفاراً للتائبين ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ أي يرسل ماء السماء عليكم، ففيه إضممار، وقيل المراد بالسمااء المطر، كما في قول الشاعر:

إذا نزل السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضاباً (٢)

والمدرار: الدرور، وهو التحلب بالمطر، وانتصابه إما على الحال من السماء، ولم يؤنث لأن مفعلاً لا يؤنث، تقول امرأة مئاث ومذكار، أو على أنه نعت لمصدر محذوف: أي إرسالاً مدراراً، وقد تقدم الكلام عليه في سورة الأنعام فارجع إليه إن شئت، وجزم يرسل لكونه جواب الأمر. وفي هذه الآية دليل على أن الاستغفار من أعظم أسباب المطر وحصول أنواع الأرزاق، ولهذا قال ﴿وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَنْبِنَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ﴾ يعني بساتين ﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ جارية. قال عطاء: المعنى يكثر أموالكم وأولادكم. أعلمهم نوح عليه السلام أن إيمانهم بالله يجمع لهم مع الحظّ الوافر في الآخرة الخصب والغنى في الدنيا ﴿مَا لَكُمْ لَا

(١) سورة نوح: الآيات: (١٠، ١١، ١٢، ١٣، ١٤).

(٢) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير تأليف محمد بن علي بن محمد الشوكاني الجزء الخامس ص (٢٩٧، ٢٩٨).

للاستزادة: راجع تفسير الكشاف تأليف أبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي: الجزء الرابع ص (١٦٢، ١٦٣). والتفسير الكبير للإمام الفخر الرازي الجزء التاسع والعشرون، ص (١٣٧، ١٣٨، ١٣٩). الطبعة الثانية. الناشر دار الكتب العلمية - طهران، وجامع البيان في تفسير القرآن تأليف أبي جعفر محمد بن جرير الطبري المجلد الثاني عشر ص (٥٩، ٦٠) ط: دار المعرفة. بيروت - لبنان وتفسير البحر المحيط لأبي حيان - المجلد الثامن ص (٣٣٩) الناشر: مكتبة النصر الحديثة، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير الجزء الرابع ص (٣٨٤) ط دار المفيد - بيروت - لبنان.

تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١﴾ أَيُّ أَيُّ عِذْرٍ لَكُمْ فِي تَرْكِ الرَّجَاءِ، وَالرَّجَاءُ هُنَا بِمَعْنَى الْخَوْفِ: أَيُّ مَالِكُمْ لَا تَخَافُونَ اللَّهَ، وَالْوَقَارُ الْعِظَمَةُ مِنَ التَّوْفِيرِ وَهُوَ التَّعْظِيمُ^(١) وَالْمَعْنَى لَا تَخَافُونَ حَقَّ عِظَمَتِهِ فَتَوْحَّدُونَهُ وَتَطِيعُونَهُ، وَ﴿لَا تَرْجُونَ﴾ فِي مَحَلِّ نَصْبٍ عَلَى الْحَالِ مِنْ ضَمِيرِ الْمُخَاطَبِينَ، وَالْعَمَلُ فِيهِ مَعْنَى الْاسْتِقْرَارِ فِي لَكُمْ، وَمِنْ إِطْلَاقِ الرَّجَاءِ عَلَى الْخَوْفِ قَوْلُ الْهَذَلِيِّ: «إِذَا لَسَعَتْهُ النَّحْلُ لَمْ يَرْجُ لِسَعَهَا». وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جَبْرِ وَأَبُو الْعَالِيَةِ وَعِطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ: مَالِكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ ثَوَابًا وَلَا تَخَافُونَ مِنْهُ عِقَابًا. وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَالضَّحَّاكُ: مَالِكُمْ لَا تَبَالُونَ لِلَّهِ عِظَمَةً. قَالَ قَطْرِبُ هَذِهِ لُغَةٌ حِجَازِيَّةٌ. وَهَذِيلٌ وَخِزَاعَةٌ وَمُضَرٌّ يَقُولُونَ لَمْ أَرْجُ لَمْ أَبَلْ. وَقَالَ قَتَادَةُ: مَالِكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ عَاقِبَةَ الْإِيمَانِ. وَقَالَ ابْنُ كَيْسَانَ: مَالِكُمْ لَا تَرْجُونَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ وَطَاعَتِهِ أَنْ يَشِيْبَكُمْ عَلَى تَوْقِيرِكُمْ خَيْرًا. وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: مَالِكُمْ لَا تَتَوَدَّدُونَ لِلَّهِ طَاعَةً. وَقَالَ الْحَسَنُ: مَالِكُمْ لَا تَعْرِفُونَ لِلَّهِ حَقًّا وَلَا تَشْكُرُونَ لَهُ نِعْمَةً، وَجُمْلَةٌ ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ فِي مَحَلِّ نَصْبٍ عَلَى الْحَالِ: أَيُّ وَالْحَالَةُ أَنَّهُ سَبَّحَانَهُ قَدْ خَلَقَكُمْ عَلَى أَطْوَارٍ مُخْتَلِفَةٍ: نَظْفَةٌ، ثُمَّ مَضْغَةٌ، ثُمَّ عِلْقَةٌ إِلَى تَمَامِ الْخَلْقِ كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ فِي سُورَةِ الْمُؤْمِنُونَ، وَالطُّورُ فِي اللَّغَةِ الْمَرَّةُ، وَقَالَ ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ. الطُّورُ الْحَالُ وَجَمْعُهُ أَطْوَارٌ، وَقِيلَ أَطْوَارٌ صَبِيَانًا ثُمَّ شَبَانًا ثُمَّ شَيْوِخًا^(٢)، وَقِيلَ الْأَطْوَارُ اخْتِلَافُهُمْ فِي الْأَفْعَالِ وَالْأَقْوَالِ وَالْأَخْلَاقِ، وَالْمَعْنَى: كَيْفَ تُقْصِرُونَ فِي تَوْقِيرِ مَنْ خَلَقَكُمْ عَلَى هَذِهِ الْأَطْوَارِ الْبَدِيعَةِ^(٣).

(١، ٢، ٣) نفس المصدر السابق.

(سورة الجن)

قال تعالى: ﴿وَأَنَا مَنَا الْمُسْلِمُونَ وَمَنَا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأَوْلِيكَ تَحْرَوًّا رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَنْ لَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِنَفْسِهِمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ (١)

قوله: ﴿وَأَنَا مَنَا الْمُسْلِمُونَ﴾ هم الذين آمنوا بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم ﴿وَمَنَا الْقَاسِطُونَ﴾ أي الجائرون الظالمون الذين حادوا عن طريق الحق، ومألوا إلى طريق الباطل، يقال قسط: إذا جار، وأقسط: إذا عدل ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأَوْلِيكَ تَحْرَوًّا رَشَدًا﴾ أي قصدوا طريق الحق. قال القرآء: أموا الهدي ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ أي وقودا للنار توقد بهم كما توقد بكفرة الإنس ﴿وَأَنْ لَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ﴾ هذا ليس من قول الجن بل هو معطوف على ﴿لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾ والمعنى: وأوحى إليَّ أنَّ الشأن لو استقام الجنُّ أو الإنس أو كلاهما على الطريقة، وهي طريقة الإسلام، (٢) واتفق القرآء على فتح «أَنَّ» هاهنا - قال ابن الأنباري: والفتح هنا على إضمار يمين تأويلها، والله أن لو استقاموا على الطريقة كما فعل، يقال في الكلام والله أن لو قمت لَقُمْتُ كما في قول الشاعر:

أَمَا وَاللَّهِ أَنْ لَوْ كُنْتُ حَرًّا وَلَا بِالْحَرِّ أَنْتَ وَلَا الْعَتِيقُ

قال: وهو معطوف على أَوْحِيَّ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ أَي: أَوْحِيَّ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ... وأن لو استقاموا، أو على آمنًا به: أي آمنًا به وبأن لو استقاموا. «لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا» أي كثيرا واسعا. قال مقاتل: ماء كثيرا من السماء، وذلك بعد ما رفع عنهم المطر سبع سنين. وقال ابن قتيبة: المعنى لو آمنوا جميعا لوسعنا عليهم في الدنيا، وضرب الماء الغدق مثلاً لأنَّ الخير كله والرزق بالمطر، وهذا كقوله - ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا

(١) سورة الجن: الآيات: (١٤، ١٥، ١٦، ١٧).

(٢) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية تأليف محمد بن علي بن محمد الشوكاني ج ٥ ص (٣٠٨،

٣٠٩) ط: دار المعرفة - بيروت - لبنان.

يَكْسِبُونَ» (١) وقوله - «وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ» (٣) وقوله : «فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (٤) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا (٥) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا» - الآية، (٦) وقيل المعنى : وأن لو استقام أبوهم على عبادته وسجد لآدم ولم يكفر وتبعه ولده على الإسلام لأنعمنا عليهم، واختار هذا الزجاج. والماء الغدق: هو الكثير في لغة العرب «لِنَفْتِهِمْ فِيهِ» أي لنختبرهم فنعلم كيف شكرهم على تلك النعم، وقال الكلبي: المعنى وأن لو استقاموا على الطريقة التي هم عليها من الكفر فكانوا كلهم كفارا، لأوسعنا أرزاقهم مكرابهم واستدراجا حتى يفتنوا بها فنعذبهم في الدنيا والآخرة. وبه قال الربيع بن أنس وغير واحد، واستدلوا بقوله - «لَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ» (٧)، وقوله: «وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ» - الآية (٨) والأول أولى «وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا» أي ومن يعرض عن القرآن، أو عن العبادة (٩) أو عن الموعدة، أو عن جميع ذلك يسلكه: أي يدخله عذاباً صعباً: أي شاقاً صعباً. «يَسْلُكْهُ» قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بالنون، وقرأ الكوفيون بالياء التحتية، واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم لقوله - عن ذكر ربه - ولم يقل عن ذكرنا. والصعد في اللغة المشقة، تقول تصعد بي الأمر: إذا شق عليك، وهو مصدر صعّد، يقال صعّد صعدا وصعود، فوصف به العذاب مبالغة، لأنّه يتصعدّ المعذب: أي يعلوه ويغلبه فلا يطيقه. قال أبو عبيد: الصعد مصدر: أي عذاباً ذا صعّد. وقال عكرمة: الصعد هو صخرة ملساء في جهنم يكلف صعودها، فإذا انتهى إلى أعلاها حدر إلى جهنم كما في قوله - سأرقه صعوداً - والصعود: العقبة الكئود. (١٠)

(١) سورة الأعراف: الآية: (٩٦).

(٢) سورة الطلاق: الآيتان: (٣، ٢).

(٣) سورة الأنعام: الآية: (٤٤).

(٤) سورة الزخرف: الآية: (٣٣).

(٥) سورة نوح: الآية: (١١، ١١، ١٢).

(٦، ٧) نفس المصدر السابق.

(سورة المزمل)

قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ (١٧) السَّمَاءُ مَنفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ﴿١﴾ قوله: ﴿يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ مثل في الشدة، يقال في اليوم الشديد: يوم يشيب نواصي الأطفال. والأصل فيه أَنَّ الهموم والأحزان إذا تفاقمت على الإنسان أسرع فيه الشيب. قال أبو الطيب:

والهمُّ يخترم الجسيم نحافة ويشيب ناصية الصَّبَى ويهرم
وكما قيل:

وما إن شبتُ من كبر ولكن لقيت من الحوادث ما أشابا

وروى عن النبي، ﷺ: «الهمُّ نصف الهرم» وحكي أَنَّ رجلاً أمسى فاحم الشعر كحنك الغراب فأصبح وهو أبيض الرأس واللحية كالثغام، فقال: رأيت القيامة والجنة والنار في المنام، ورأيت الناس يقادون بسلاسل إلى النار فمن ذلك أصبحت كما ترون (٢).

ونعود إلى ذكر الآية في قوله: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ هو توبيخ وتقريع، أي كيف تتقون العذاب إن كفرتم. وفيه تقديم وتأخير، أي كيف تتقون يوماً يجعل الولدان شيباً إن كفرتم. وكذا قراءة عبدالله وعطية. وقال الحسن: أي بأيِّ صلاة تتقون العذاب؟ بأيِّ صوم تتقون العذاب؟ وفيه إضمار، أي كيف تتقون عذاب يوم. وقال قتادة: والله مايتقي من كفر بالله ذلك اليوم بشيء. و﴿يَوْمًا﴾ مفعول بـ ﴿تَتَّقُونَ﴾ على هذه القراءة وليس بظرف، وإنَّ قُدِّرَ الكفر بمعنى الجحود كان اليوم مفعول ﴿كَفَرْتُمْ﴾. وقال بعض المفسرين: وقف التمام على قوله: «كَفَرْتُمْ» والابتداء «يَوْمًا» يذهب إلى أَنَّ اليوم مفعول ﴿يَجْعَلُ﴾ والفعل لله

(١) سورة المزمل: الآيتان: (١٧، ١٨)

(٢) تنزيل الآيات على الشواهد من الآيات شرح شواهد الكشاف تأليف الاستاذ محب الدين أفندي ص (٤٧٨) نشر وتوزيع دار الخضر بالرياض.

عزَّوجلَّ^(١)، وكأنَّه قال: يجعل الله الولدان شيباً في يوم. قال ابن الأنباري: وهذا لا يصلح، لأنَّ اليوم هو الذي يفعل هذا من شدَّة هولهِ، المهدوي: والضمير في ﴿يَجْعَلُ﴾ يجوز أن يكون لله عزَّ وجلَّ، ويجوز أن يكون لليوم، وإذا كان لليوم صلح أن يكون صفة له، ولا يصلح ذلك إذا كان الضمير لله عزَّ وجلَّ إلاَّ مع تقدير حذف، كأنه قال: يوماً يجعل الله الولدان فيه شيباً. ابن الأنباري. وفهم من نصب اليوم بـ«كفرتم» وهذا قبيح، لأنَّ اليوم إذا علَّق بـ«كفرتم» احتاج إلى صفة، أي كفرتم بيوم. فإن احتجَّ محتجُّ بأن الصفة قد تحذف وينصب ما بعدها، احتججنا عليه بقراءة عبدالله ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا﴾.

قلت هذه القراءة ليست متواترة، وإنما جاءت على وجه التفسير^(٢). وإذا كان الكفر بمعنى الجحود فـ«يوماً» مفعول صريح من غير صفة ولا حذفها، أي فكيف تتقون الله وتخشونه إن جحدتم يوم القيامة والجزاء. وقرأ أبو السَّمَّال: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ﴾ بكسر النون على الإضافة. و﴿الْوَالِدَانَ﴾ الصبيان. وقال السُّدي: هم أولاد الزَّنا. وقيل: أولاد المشركين. والعموم أصح، أي يشيب فيه الصغير من غير كبر. وذلك حين يقال: «يا آدم قم فابعث بعث النار» على ما تقدّم في أول سورة «الحج» قال القشيري: ثم إنَّ أهل الجنة يُغَيَّرُ اللهُ أحوالهم وأوصافهم على ما يريد. وقيل هذا ضربٌ مثل لشدَّة ذلك اليوم وهو مجاز، لأنَّ يوم القيامة لا يكون فيه ولدان، ولكن معناه أنَّ هيبه ذلك اليوم بحال لو كان فيه هناك صبيٌّ لَشَابَ رأسه

(١) الجامع لأحكام القرآن. لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي الجزء التاسع عشر. الناشر دار الكتاب العربي للطباعة والنشر القاهرة.

للاستزادة: راجع فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية تأليف محمد بن علي بن محمد الشوكاني الجزء الخامس ص(٢٢٠). الناشر دار المعرفة للطباعة والنشر. بيروت - لبنان - والكشاف تأليف الزمخشري الجزء الرابع (١٧٨) والتفسير الكبير للإمام الفخر الرازي الجزء التاسع والعشرون ص(١٨٣، ١٨٤، ١٨٥) وجامع البيان في تفسير القرآن تأليف أبي جعفر محمد بن جرير الطبري المجلد الثاني عشر ص(٨٦، ٨٧). وتفسير البحر المحيط لأبي حيان المجلد الثامن ص (٣٦٥، ٣٦٦). وتفسير ابن كثير المجلد الرابع ص(٣٩٦).

(٢) نفس المصدر السابق.

من الهيبة. ويقال: هذا وقت الفزع، وقبل أن يُنفخ في الصور نَفْخَةَ الصَّعْقِ،
فالله أعلم. الزمخشري:

ويجوز أن يوصف اليوم بالطول، وأن الأطفال يبلغون فيه أوان^(١) الشيخوخة
والشيب. قوله تعالى: ﴿السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ﴾ أي متشققة لشدته. ومعنى «به» أي فيه،
أي فيه ذلك اليوم لهوله. هذا أحسن ما قيل فيه. ويقال: مُثْقَلَةٌ بِهِ إِثْقَالًا يُوَدِّي إِلَى
انْفِطَارِهَا لِعَظَمَتِهِ عَلَيْهَا وَخَشْيَتِهَا مِنْ وَقُوعِهِ، كقوله تعالى: ﴿ثَقُلْتُ فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ﴾^(٢) وقيل: «به» أي له، أي لذلك اليوم، يقال: فعلت كذا بحرمتك
ولحرمتك، والباء واللام وفي متقاربة في مثل هذا الموضع، قال الله تعالى:
﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾^(٣) أي في يوم القيامة. وقيل: «به» أي بالأمر
أي السماء مُنْفَطِرٌ بِمَا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا. وقيل: مُنْفَطِرٌ بِاللَّهِ، أي بأمره. وقال أبو
عمرو بن العلاء: لم يقل مُنْفَطِرَةٌ، لأنَّ مَجَازَهَا السَّقْفُ، تقول: هذا سماء البيت،
قال الشاعر:

فَلَوْ رَفَعَ السَّمَاءُ إِلَيْهِ قَوْمًا لَحَقْنَا بِالسَّمَاءِ بِالسَّحَابِ^(٤)
وفي التنزيل: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا﴾^(٥)

وقال الفراء: السماء يذكر ويؤنث، وقال أبو علي هو من باب الجراد المنتشر،
والشجر الأخضر، و«أعجاز نخل منقعر».

وقال أبو علي أيضا: أي السماء ذات انقطاع، كقولهم: امرأة مرضع، أي ذات
إرضاع، فجرى على طريق النسب. ﴿كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا﴾ أي بالقيامة والحساب
والجزاء ﴿مَفْعُولًا﴾ كائنا لاشك فيه ولاخلف. وقال مقاتل: كان وعده بأن يظهر
دينه على الدين كله. هذا والله أعلى وأعلم بالصواب.

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) سورة الأعراف: الآية: (١٨٧)

(٣) سورة الأنبياء: الآية: (٤٧)

(٤) نفس المصدر السابق.

(٥) سورة الأنبياء: الآية: (٣٢).

(سورة المدثر)

قال الله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَانَهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنْفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ (١) قوله: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ أي فما لأهل مكة قد أعرضوا وولّوا عما جئتم به. وفي تفسير مقاتل: الإعراض عن القرآن من وجهين: أحدهما: الجحود والإنكار، والوجه الآخر: ترك العمل بما فيه. و﴿مُعْرِضِينَ﴾ نصب على الحال من الهاء والميم في «لَهُمْ» وفي اللام معنى الفعل، فانتصاب الحال على معنى الفعل. ﴿كَانَهُمْ﴾ أي كأن هؤلاء الكفار في فرارهم من محمد ﷺ ﴿حُمُرٌ مُّسْتَنْفِرَةٌ﴾ قال ابن عباس: أراد الحمر الوحشية. وقرأ نافع وابن عامر بفتح الفاء، أي مُنْفَرَةٌ مذعورة، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم. والباقون بالكسر، أي نافرة. يقال: (٢) نفرت واستنفرت بمعنى، مثل عَجِبْتُ واستعجبتُ، وسَخِرْتُ واستسخرتُ، وأنشد الفراء:

أَمْسِكْ حِمَارَكَ إِنَّهُ مُسْتَنْفِرٌ فِي إِثْرِ أَحْمِرَةٍ عَمَدَنْ لِعُرْبٍ (٣)

قوله: ﴿فَرَّتْ﴾ أي نفرت وهربت «من قَسْوَرَةٍ» أي من رُمَاةٍ يرمونها. وقال بعض أهل اللغة: إن القسورة الرامي، وجمعه القسورة. وكذا قال سعيد بن جبير وعكرمة وآخرون: القسورة: هم الرُمَاةُ والصيادون، ورواه عطاء عن ابن عباس وأبو ظبيان عن أبي موسى الأشعري. وقيل: إنَّهُ الأَسَدُ، قاله أبو هريرة وابن عباس أيضاً. ابن عرفة: من القسر بمعنى القهر أي، إنّه يقهر السباع، والحمر

(١) سورة المدثر: الآيات: (٤٩، ٥٠، ٥١)

(٢) الجامع لأحكام القرآن. لأبي عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي الجزء التاسع عشر ص (٨٨، ٨٩، ٩٠، ٩١) وتفسير الكشاف الجزء الرابع ص (١٨٧، ١٨٨) وفتح القدير من علم التفسير تأليف محمد بن علي بن محمد الشوكاني الجزء الخامس ص (٣٣٣، ٣٣٤). وتفسير ابن كثير المجلد الرابع ص (٤٠٣، ٤٠٤) وجامع البيان في تفسير القرآن تأليف أبي جعفر محمد بن جرير الطبري المجلد الثاني عشر ص (١٠٥، ١٠٦، ١٠٧، ١٠٨) التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي الجزء التاسع والعشرون ص (٢١١، ٢١٢، ٢١٣) وتفسير البحر المحيط لأبي حيان المجلد الثامن ص (٣٨٠، ٣٨١).

(٣) غُرْبٌ (كسكرك): اسم موضع وجبل دُون الشَّامِ في بلاد بني كلاب.

الوحشيّة تهرب من السَّبَاع. وَرَوَى أَبُو جَمْرَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: مَا أَعْلَمُ الْقَسُورَةَ
الْأَسَدَ فِي لُغَةِ أَحَدٍ مِنَ الْعَرَبِ، وَلَكِنَّهَا عُصَبُ الرِّجَالِ، قَالَ: فَالْقَسُورَةُ جَمْعُ
الرِّجَالِ، وَأَنْشُدُ:

يَابَنْتُ كُونِي خَيْرَةً لِحَيْرِهِ أَخْوَالَهَا الْجَنُّ وَأَهْلُ الْقَسُورَةِ^(١)

وعنه ركز الناس أي حسهم وأصواتهم. وعنه أيضاً: «فَرَّتْ مِنْ قَسُورَةٍ» أي من
حيال الصيادين. وعنه أيضاً: القسورة بلسان العرب: الأسد، وبلسان الحبشة:
الرَّمَاة، وبلسان فارس: شير، وبلسان النَّبَط: أريا. وقال ابن الأعرابي: القسورة:
أَوَّلُ اللَّيْلِ، أَي فَرَّتْ مِنْ ظِلْمَةِ اللَّيْلِ. وقال عكرمة أيضاً. وقيل: هو أَوَّلُ سَوَادِ
اللَّيْلِ، وَلَا يُقَالُ لِأَخْرَ سَوَادِ اللَّيْلِ قَسُورَةٌ. وقال زيد بن أسلم: مِنْ رِجَالِ أَقْوِيَاءَ،
وكلُّ شَدِيدٍ عِنْدَ الْعَرَبِ فَهُوَ قَسُورَةٌ وَقَسُورٌ. وقال لبيد بن ربيعة:

إِذَا مَا هَتَفْنَا هَتْفَةً فِي نَدِينَا أَتَانَا الرِّجَالُ الْعَائِدُونَ الْقَسَاوِرَ

قوله تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنشَرَةً﴾^(٢) أَي يُعْطَى كِتَابًا
مفتوحة، وذلك أَنَّ أَبَا جَهْلٍ وَجَمَاعَةً مِنْ قُرَيْشٍ قَالُوا: يَا مُحَمَّدُ: أَتَنَا بِكُتُبٍ مِنْ رَبِّ
الْعَالَمِينَ مَكْتُوبٍ فِيهَا: إِنِّي قَدْ أَرْسَلْتُ إِلَيْكُمْ مُحَمَّدًا، ﷺ^(٣). نظيره: ﴿وَلَنْ نُؤْمِنَ
لِرُقَيْبِكَ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ﴾^(٤)

وقال ابن عباس: كانوا يقولون إن كان محمد صادقاً فليصبح عند كل رجل منّا
صحيفة فيها براءته وأمنه من النار. قال مطر الوراق: أرادوا أن يعطوا بغير عمل.
وقال الكلبي: قال المشركون: بلغنا أن الرجل من بني إسرائيل كان يصبح عند
رأسه مكتوباً ذنبه وكفّارته، فأتنا بمثل ذلك. وقال مجاهد: أرادوا أن ينزل على كل
واحد منهم كتاب فيه من الله عز وجل: إلى فلان بن فلان. وقيل: المعنى أن

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) سورة المدثر: الآية: (٥٢).

(٣) نفس المصدر السابق.

(٤) سورة الإسراء: الآية: (٩٣).

يذكر بذكر جميل، فجعلت الصحف موضع الذكر مجازاً. وقالوا إذا كانت ذنوب الإنسان تكتب عليه فما بالنا لانرى ذلك؟ «كلاً» أي ليس يكون ذلك. قيل: حقاً. والأوّل أجود، لأنّه ردّ لقولهم. «بل لا يخافون الآخرة» أي لا أعطيهم ما يمتنون لأنهم لا يخافون الآخرة، اغتراراً بالدنيا. وقرأ سعيد بن جبير «صحفاً مُنشرة» بإسكان الحاء والنون فأما إسكان الحاء فللتخفيف، وأما النون فشاذ. وعلى كل حال فإسكان الحاء والنون غير متواتر. إنّما يقال: نشرت الثوب وشبهه ولا يقال أنشرت^(١) ويجوز أن يكون شبه الصحيفة بالميت كأنها ميتة بطيهاً، فإذا نشرت حيت، ف جاء على أنشر الله الميت كما شبه إحياء الميت بنشر الثوب، فقيل فيه نشر الله الميت، فهي لغة فيه.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُ تَذَكَّرٌ ﴿٥٤﴾ فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرْهُ﴾ (٣)

﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ (٤)

قوله: ﴿كَلَّا إِنَّهُ تَذَكَّرٌ﴾ أي حقاً إنّ القرآن عظة. ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرْهُ﴾ أي اتعظ به ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ﴾ أي وما يتعظون ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ أي ليس يقدرّون على الاتعاض والتذكّر إلا بمشيئة الله ذلك لهم. وقرأ نافع ويعقوب بالتاء على الخطاب واختاره أبو حاتم، لأنّه أعمّ وقرأ الباقر بالباء على الغيبة واختاره أبو عبيدة، واتفقوا على تخفيفها. ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ في الترمذيّ وسنن ابن ماجه عن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ أنّه قال في هذه الآية: ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ قال: «قال الله تبارك وتعالى: أنا أهل أن أتقى فمن اتقاني (٣) فلم يجعل معي إلهاً فأنا أهل أن أغفر له، لفظ الترمذيّ، وقال فيه: حديث حسن غريب. وفي بعض التفاسير: هو أهل المغفرة لمن تاب إليه من الذنوب الكبار، وأهل المغفرة أيضاً للذنوب الصغار، باجتناب الذنوب الكبار. فقال محمد بن نصر: أنا أهل أن يتقيني

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) سورة الم نشر: الآيات: (٥٤، ٥٥، ٥٦).

(٣) نفس المصدر السابق.

عبدي، فإن لم يفعل كنت أهلاً أن أغفر له^(١) وأرحمه وأنا الغفور الرحيم، تحليل
المثل:

- ١ - في هذا المثل تمثيل لصورة معنوية مقرونة بظواهر تدرك بالحسّ الظاهر، بصورة تدرك بالحسّ الظاهر مقرونة بحالة معنوية نفسية.
- ٢ - الصورة التمثيلية في المثل صورة منتزعة من الواقع.
- ٣ - يبدو أنّ الغرض من هذا التمثيل التنفير من الإعراض عن هداية القرآن، مع تقبيح صور المعرضين وذمّهم، إذ جاء تمثيلهم بالحمرة، وكان من الممكن تمثيلهم بالبقر أو بالظباء، لكن الحمرة هي المعروفة عند الناس بالبلادة والغباء، فالتمثيل بها أكثر تقبيحاً وذمّاً لحالة النفور من السطوة المعنوية التي يتصف بها القرآن.

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) الأمثال القرآنية تأملات عبد الرحمن حسن حنيفة الميداني: ص (١٢٢).

(سورة القيامة)

قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ (٢٦) وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ (٢٧) وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ (٢٨) وَاتْتَفَتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ (٢٩) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ (١) ﴿كَلَّا﴾ حرف رَدَعٍ وَزَجْرٍ، أي بعيد أن يؤمن الكافر بيوم القيامة، ثم استأنف فقال: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ﴾ أي بلغت النفس أو الروح التراقي، فأخبر عما لم يجزله ذكر، لعلم المخاطب به، كقوله تعالى: ﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ (٢) وقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ﴾ (٣) وقد تقدّم. وقيل: ﴿كَلَّا﴾ معناه حقاً أَنَّ المساق إلى الله ﴿إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ﴾ أي إذا ارتقت النفس إلى التراقي. وكان ابن عباس يقول: إذا بلغت نفس الكافر التراقي. والتراقي جمع ترقوة وهي العظام المكتنفة لثُقرة النحر، وهو مقدم الحلق من أعلى الصدر، موضع الحشرجه قال دُرَيْدُ بْنُ (٤) الصَّمَّةِ (٥)

وَرُبَّ عَظِيمَةٍ دَافَعَتْ عَنْهُمْ وَقَدْ بَلَغَتْ نُفُوسُهُمُ التَّرَاقِيَ
وقد يكنى عن الإشفاء على الموت ببلوغ النفس التراقي، والمقصود تذكيره
شدة الحال عند نزول الموت.

قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾ اختلف فيه أهل التأويل، فقيل: هو من الرقية، عن ابن عباس وعكرمه وغيرهما. روى سِمَاكٌ عن عكرمة قال: مَنْ رَاقٍ يَرْقِي: أي يشفي. وروى ميمون بن مهران عن ابن عباس: أي هل من طبيب يشفيه، وقاله أبو قلابة وقتادة، قال الشاعر:

هل للفتى من بنات الدهر من واقٍ أم هل له من حِمَامِ الموت من راقٍ

(١) سورة القيامة: الآيات: (٢٦، ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣٠).

(٢) سورة ص: الآية: (٣٣).

(٣) سورة الواقعة: الآية: (٨٣).

(٤) الجامع لأحكام القرآن: لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي الجزء التاسع عشر ص (١١١)، (١١٢، ١١٣). للاستزادة راجع جامع البيان في تفسير القرآن لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري المجلد الثاني عشر ص (١٢١، ١٢٢، ١٢٣). وفتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير. تأليف محمد ابن علي بن محمد الشوكاني المجلد الخامس. ص (٣٤١). والتفسير الكبير للإمام الفخر الرازي الجزء التاسع والعشرون. ص (٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٢). وتفسير البحر المحيط لأبي حيان. المجلد الثامن. ص (٣٨٩، ٣٩٠). وتفسير ابن كثير. المجلد الرابع ص (٤٠٧، ٤٠٨).

(٥) كذا في الاصل. والبيت لابنته عمرة من قصيدة لها ترثي بها أباه.

وكان هذا على وجه الاستبعاد واليأس، أي مَنْ يَقْدَرُ أَنْ يَرْقِيَ مِنَ الْمَوْتِ. وعن ابن عباس أيضاً وأبي الجوزاء أنه مِنْ رَقِيَ يَرْقَى: (١) إِذَا صَعِدَ، والمعنى: مَنْ يَرْقِي بروحه إلى السماء؟ أملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب؟ وقيل إن ملك الموت يقول: مَنْ رَاق؟ أي مَنْ يَرْقِي بهذه النفس، وذلك أَنَّ نَفْسَ الْكَافِرِ تَكْرَهُ الْمَلَائِكَةَ قُرْبَهَا، فيقول مَلَكُ الْمَوْتِ: يَافِلَانِ اصْعِدْ بِهَا. قوله: ﴿وَوَظْنَ﴾ أي أيقن الإنسان ﴿أَنَّهُ الْفِرَاقُ﴾ أي فِرَاقَ الدُّنْيَا وَالْأَهْلِ وَالْمَالِ وَالْوَالِدِ، وذلك حين عاين الملائكة. وقال الشاعر:

فِرَاقٌ لَيْسَ يُشَبَّهُهُ فِرَاقُ قَدْ انْقَطَعَ الرَّجَاءُ عَنِ التَّلَاقِ
﴿وَأَلْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾ أي فاتصلت الشدة بالشدة، شدة آخر الدنيا بشدة أول الآخرة، قاله ابن عباس والحسن وغيرهما. وقال الشعبي وغيره: المعنى التفت ساقا الإنسان عند الموت من شدة الكرب. وقال قتادة: أما رأيته إذا أشرف (٢) على الموت يضرب إحدى رجله على الأخرى. وقال سعيد بن المسيب والحسن أيضاً: هما ساقا الإنسان إذا التفتا في الكفن. وقال زيد بن أسلم: التفت ساق الكفن بساق الميت. وقال الحسن أيضاً: ماتت رجلاه ويست ساقاه فلم تحملاه، ولقد كان عليهما جوالاً. وقيل شدة فراق الدنيا بشدة إقبال الآخرة على أَنَّ السَّاقَ مِثْلَ فِي الشَّدَّةِ. قال النحاس: القول الأول أحسنها. وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿وَأَلْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾ قال آخر يوم من الدنيا وأول يوم من الآخرة، فتلتقي الشدة بالشدة إلا من رحمه الله، أي شدة كرب الموت بشدة هول المطلع والدليل على هذا قوله تعالى: ﴿وَأَلْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾ وقال مجاهد: بلاء بلاء. يقول: تابعت عليه الشدائد. وقال الضحَّاك وابن زيد: اجتمع عليه أمران شديدان: الناس يُجَهِّزُونَ جَسَدَهُ، والملائكة يُجَهِّزُونَ رُوحَهُ، والعرب لاتذكر الساق إلا في المحن والشدائد العظام، ومنه قولهم: قامت الدنيا على ساق، وقامت الحرب على ساق. (٣)

(١، ٢، ٣) نفس المصدر السابق.

قال الشاعر:

وقامت الحربُ بنا على ساق^(١)

وقد مضى هذا المعنى في آخر سورة «آ والقلم». وقال قوم: تُعَذَّبُ رُوحه عند خروج نفسه، فهذه السَّاقُ الأولى، ثم يكون بعدها سَاقُ البعثِ وشدائده: ﴿إِلَى رَبِّكَ﴾ أي إلى خالقك ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم القيامة ﴿الْمَسَاقُ﴾ أي المرجع. وفي بعض التفاسير قال: يسُوقه ملكه الذي كان يحفظ عليه السيئات. والمساق: المصدر من سَاقَ يسُوقُ، كالمقال من قال يقول. (٢)

(١) صدر البيت: . صبرا أمام إنه شرباق

(٢) نفس المصدر السابق:

ومما تجدر الإشارة إليه هنا ما قاله أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في تفسيره - جامع البيان - وأوّلَى الأقوال في ذلك بالصحة عندي قول مَنْ قال: معنى ذلك وَأَلْتَفَّتْ سَاقُ الدنْيا بسَاقِ الآخرة.....

(سورة الإنسان)

قوله تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَ (١٥) قَوَارِيرَ مِّن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ (١) يعني أنها كالقوارير في صفائها ورونقها وهي من فضة (٢) فهذا على التشبيه وإن لم يذكر حرفه كما قال :

عَيْرَانة زِيَاة صَفُوف تَخْلِطُ بَيْنَ وَبَرٍ وَصُوفٍ
ومن هذا الباب قول النَّابِغَة يصف الدروع:

عَلِينَ بَكْدِيونٍ وَأَشْعَرنَ كُرَّةً فَهِنَّ إِضَاءُ ضَافِيَاتُ الْغَلَائِلِ

وإنما يحذفون حرف التشبيه للمبالغة في وصف المشبه وذلك في نحو قولهم في مدح الرجل: هو البحر جوداً والدهر بأساً والسيف لساناً، وقولهم في صفة المرأة: ريقها الخمر وثغرها الدرّ وكلامها السحر وريحها المسك، وقال أعرابي وذكر امرأة: (٣) كلامها الويل على المحل والعذب البارد على الظمّاء، وقال الشاعر:

(١) سورة الدهر: الآيتان: (١٥، ١٦).

(٢) قرأ نافع والكسائي وأبو بكر (شعبة) عن عاصم «قواريراً، قواريراً» بالتنوين فيهما مع الوصل، وبالوقف عليهما بالالف، جرياً على القاعدة، وقرأ حمزة بترك التنوين فيهما وعدم الوقف بالالف، ووجه هذه القراءة ظاهر لأنهما عمتان لصيغة منتهى الجموع. وقرأ هشام بترك التنوين فيهما مع الوقف عليهما بالالف، وقرأ ابن كثير بتنوين الأول دون الثاني والوقف على الأول بالالف دون الثاني. وقرأ أبو عمرو وحفص وابن ذكوان بترك التنوين فيهما والوقف على الأول بالالف دون الثاني. والجملة في محل جرّ صفة لأكواب.

(٣) الجمان في تشبيهات القرآن. تأليف عبد الله بن الحسين بن نايقا. تحقيق الدكتور محمود حسن أبو ناجي الشيباني ص (٢٨٠، ٢٨١، ٢٨٢، ٢٨٣، ٢٨٤، ٢٨٥، ٢٨٦). للاستزادة راجع فتح القدير الجامع بين فنى الدراية والرواية من علم التفسير تأليف محمد بن علي بن محمد الشوكاني المجلد الخامس ص (٣٥٠) وتفسير الفخر الرازي الجزء التاسع والعشرون ص (٢٤٩، ٢٥٠) وجامع البيان - في تفسير القرآن تأليف أبي جعفر محمد بن جرير الطبري المجلد الثاني عشر ص (١٣٣، ١٣٤). وتفسير الكشاف تأليف الزمخشري الجزء الرابع ص (١٨٩). وتفسير البحر المحيط لأبي حيان المجلد الثامن ص (٣٩٧، ٣٩٨). وتفسير ابن كثير المجلد الرابع ص (٤١٢) والجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي الجزء التاسع عشر ص (١٤٠، ١٤١).

وتبسم عن سمطي لآل فصولها
 وقال عبد الله بن عجلان النهدي:
 وحقة مسك من نساء لبستها
 شبابي وكأس باكرتني شمولها
 أراد امرأة فشبها بحقة مسك في طيبها، وقال الآخر:
 النشر مسك والوجوه دنائب
 ر وأطراف الأكف عنم

وأشد التنوخي لعبد الله بن المعتز:
 بدرٌ وليلٌ وغصنٌ
 وجهٌ وشعرٌ وقد
 خممرٌ ووردٌ ودرٌ
 ريقٌ وثغرٌ وخدٌ

والتشبيه على هذا الوجه كثير في الكلام والشعر. وقوله عز وجل في وصف
 رحيق الجنة: ﴿ختمه مسك﴾ على التشبيه أيضاً أي هو في طيب الرائحة كالمسك
 وذلك مثل قوله تعالى: ﴿كان مزاجها كافوراً﴾

وروي عن الحسن في قوله: ﴿ختمه مسك﴾ قال: مقطعه مسك. وإلى قوله
 ذهب أبو عبيدة في تفسير الآية وأنشد لابن مقبل:

مما يعتق في الحانوتِ قاطعها
 بالفلفلِ الجوزِ والرمانِ مختوم

فتأول الختام على العاقبة ليس على الختم الذي هو الطبع لقوله:

﴿وأنهار من خمر لذة للشاربين﴾ (١) وقال تعالى: ﴿يطوف عليهم ولدان مخلدون﴾ (١٧)

بأكواب وأباريق وكأس من معين﴾ (٢) وقال ﴿يطاف عليهم بكأس من معين بيضاء لذة
 للشاربين﴾ (٣) وقوله بيضاء مثل قوله: ﴿قواريرا قواريرا من فضة﴾ فأما قوله: ﴿كان
 مزاجها زنجيلاً﴾ (٤) فإنه يدل على لذاذة المقطع لأن الزنجيل يحذي اللسان وذلك من
 أجود الأصناف للخمير عند العرب قال الأعشى:

معتقة قهوة مزة
 لها زبد بين كؤوب وذن

(١) سورة محمد: الآية: (١٥)

(٢) سورة الواقعة: الآيتان: (١٧، ١٨).

(٣) سورة الصافات: الآية: (٤٦).

(٤) سورة الإنسان: الآية: (٥).

وإنما وصف الله عز وجل الآنية والأكواب لأن ذلك يؤول إلى مدح الشراب ويدل على نفاسته وشرفه، وقد سلك الشعراء مذاهب من القول في وصف أواني الخمر، أعملت منها مطايا الفكر وأتت منها بكل مستحسن من الشعر، على أن أحسن ما وصف من هذه الحال ماورد به التشبيه في الآية لوقوع المناسبة بين الجنس وبين الماء الذي هو غاية في الرقة واللطافة كما قال العباس:

هَوَاءٌ وَلَكِنْ رَأَكِدُ وَمَاءٌ وَلَكِنْهُ غَيْرُ جَارٍ (١)
 وقال جل شأنه: في قصة بلقيس: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ (٢) ويقال إن سليمان عليه السلام منذ يومئذ اتخذ أواني الزجاج حتى ينظر إلى شرابه، ولا يحول بينه وبينه ما يستره عنه فعملت له الأقداح الرقاق وهي أحسن أواني الزجاج الموصوفة في أشعارهم، قال عنترة:

ولقد شربتُ من المدامة بعدما ركد الهواجرُ بالمشوف المُعلم
 بزجاجةٍ صفراء ذاتِ أسرةٍ قُرنتُ بأزهرٍ في الشمالِ مفدَمٌ
 يعني بالأزهر إبريقاً أبيض، وقال شبرمة بن الطفيل في تشبيه الأباريق:

كان أباريقُ الشمولِ عشيّةٍ إوزٌ بأعلىِ الطفِّ عوجُ الحناجرِ (٣)
 وأخذ هذا التشبيه أبو الهندي فقال (٤):

مُقدِّمةٌ مزراً كأنَّ ركبَها رِقَابُ بناتِ الماءِ أفزعها الرعدُ
 وأخذ ابن المعتز قول علقمة بن عبدة: (كأنَّ إبريقهم ظبي على شرف) (٥)
 فقال:

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) سورة النمل: الآية: (٤٤).

(٣) أباريق الشمول: أباريق الخمر.

(٤) أبو الهندي: شاعر عباسي كان مغرماً بالشراب مات بسجستان، راجع الشعر والشعراء ٦٨٢/٢ - (اللائي ١٦٨).

(٥) نفس المصدر السابق.

وكانَ إبْرِيقَ المَدَامَةِ بَيْنَنَا ظبى على شَرَفِ أَنافٍ مُدَلِّها
فلَمَّا اسْتَحْتَهُ السَّقَاةُ جِثًّا لَهَا فبكى على قَدَحِ النَّدِيمِ وقَهَقها
ومن مستحسن ماوصفت الكأس في شفيفها ولطافتها قول العكوك:

وصافية لَهَا في الكأسِ لِينٌ ولكن في العقول لَهَا شِمَاسٌ^(١)
كَأَنَّ النَّدِيمَ تَدِيرُ مِنْهَا شُعَاعاً ماتحيط عليه كأسٌ
وقال الآخر: (٢)

صَبَّتْ فأحْدَقَ نُورُها بَزُجَاجِها فكأَنَّما جُعِلَتْ إِنْاءٌ إِنْائِها^(٢)
وتكادُ إِنْ مُزِجَتْ لِرِقَّةٍ لَوْنِها تَمْتَازُ عِنْدَ مِزَاجِها من مائِها
ولأبي نواس في وصف صحاف الخمر وكؤوسها مذهب انفراد^(٣)
به كقوله:

تُذَارُ عَلَيْنَا الرَّاحُ في عَسَجَدِيَّةٍ حَبَّتْها بِأَنْواعِ التَّصاوِيرِ فَارِسٌ
قُرَّارُتِها كِسْرَى وفي جَنَبَاتِها مَهأً تَدْرِيبِها بِالْقِسَى الفِوارِسُ
فَلِلخَمْرِ ماذَرَتْ عَلَيْهِ جِوِبِها ولِلْماءِ ماذَرَتْ عَلَيْهِ القِلائِسُ
وقوله أيضاً في هذا المذهب:

بَنِينًا على كِسْرَى سَماءَ مُدَامَةٍ جوانِبِها مَحْفوفَةٌ بِنِجْومِ
فَلورِدٍ في كِسْرَى بنِ ساسانِ رُوحَهُ إِذاً لا صِطْفانِي دُونَ كَلِّ نَدِيمِ

وقوله أيضاً:

رِجالُ الفِرسِ حَولَ رِكابِ كِسْرَى بِأَعْمَدَةٍ وَأَقْبِيَّةِ قِصارِ
ولما كانت الخمر عند العرب من أنفس الأشياء لديهم وأحظاها في نفوسهم،

(١) صافية كناية عن الخمر، شماس: شدة.

(٢) أحدق: اقترب، تمتاز: تفصل.

(٣) نفس المصدر السابق.

وأنعمها لعيشتهم وأجمعها لذتهم، وكانوا يفخرون بمخالفة حاناتها والمغالة في سبائها وخيل رايات تجرّها وسبق العاذلات بشربها، حتى منحوها من الوصف ما لاحقيقة له وكسوها من المدح ما هي عارية منه لشدة شغفهم بها وإفراطهم في تعظيم شأنها^(١) أعلمهم أن خمر الجنة تفوقها وتنزعها وتظهر عليها بفضلها وكريم فعلها وأنها لذة للشاربين: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْفُونَ﴾^(٢) وأما مزاج رحيقها من تسنيم وختامه مسك وأنها في لذة حرها وبردها وطيب مذاقها وطعمها كالكاפור والزنجبيل وأنها لالغو فيها ولا تأثيم، وأنها معين لا تغيض أنهارها ولا ينفد عقارها فوصف من حقيقة حالها ما هو مستعار في وصفهم ومختلق من أباطيلهم وإفكهم ترغيباً فيما أعدّه الله لأهل الإسلام في دار السلام وكذلك وصف آنتها وأكوابها بالحال التي أفردها بها كما قدمنا ذكر ذلك في أول الباب، وقوله: ﴿قدروها تقديراً﴾ أي يكون الإناء على قدر ما تحتاجون إليه لا يعجز عن ربيهم ولا يفضل، وقيل أيضاً في قوله: ﴿قوارير من فضة﴾ أنه لما كان أصل القوارير من الرمل كان أصل هذه الآنية من الفضة وهي قوارير ترى من خارجها ما في داخلها، والقول الأول على معنى التشبيه أحسن وأغرب وهو المأثور والمشهور^(٣).

مثل آخر من هذه السورة، قال تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثورًا﴾^(١٩) وإذا رأيت ثم رأيت نعيماً ومُلْكًا كبيراً^(٢٠) عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربيهم شراباً طهوراً^(٢١) إن هذا كان لكم جزاءً وكان سعيكم مشكوراً^(٢٢) قوله: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ لما فرغ سبحانه من وصف شرابهم، ووصف آنتهم، وصف السقاة الذين يسقونهم ذلك الشراب. ومعنى «مخلدون» باقون على ما هم عليه من الشباب والطراوة والنضارة،

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) سورة الصافات: الآية: (٤٧).

(٣) نفس المصدر السابق.

(٤) سورة الدهر: الآيات: (١٩، ٢٠، ٢١، ٢٢).

لا يهرمون ولا يتغيرون، وقيل معنى «مخلدون» لا يموتون، وقيل التخليد التحلية: أي محلون ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لَوْلَا مَنُورًا﴾ إذا نظرت إليهم ظننتهم لمزيد حسنهم وصفاء ألوانهم ونضارة وجوههم لؤلؤا مفرقا^(١) قال عطاء: يريد في بياض اللون وحسنه، واللؤلؤ إذا نثر من الخيط على البساط كان أحسن منه منظوما، قال أهل المعاني إنما شبّهوا بالمتنور لانتشارهم في الخدمة، ولو كانوا صفاً لشبّهوا بالمنظوم، وقيل إنما شبّههم بالمتنور لأنهم سراع في الخدمة، بخلاف الحور العين فإنه شبّهن باللؤلؤ المكنون لأنهن لا يمتهن بالخدمة.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثُمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمَلَكًا كَبِيرًا﴾ أي وإذا رميت ببصرك هناك، يعني في الجنة رأيت نعيماً لا يوصف، وملكا كبيرا لا يقادر قدره، وثم ظرف مكان، والعامل فيه رأيت. قال الفراء: في الكلام ما مضى: أي وإذا رأيت ما ثم، كقوله: ﴿لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾^(٢) أي ما بينكم. قال الزجاج معترضاً على الفراء: إنه لا يجوز إسقاط الموصول وترك الصلة، ولكن رأيت يتعدى في المعنى إلى ثم. والمعنى: إذا رأيت ببصرك ثم^(٣)، ويعني بـ«ثم» الجنة. قال السدي: النعيم ما ينتعم به، والملك الكبير: استئذان الملائكة عليهم، وكذا قال مقاتل والكلبي. وقيل إن رأيت ليس له مفعول ملفوظ ولا مقدر ولا منوي، بل معناه: أن ببصرك أينما وقع في الجنة

(١) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير تأليف محمد بن علي بن محمد الشوكاني المجلد الخامس ص (٣٥١، ٣٥٢، ٣٥٣).

للاستزادة: راجع تفسير الكشاف الجزء الرابع ص (١٩٩، ٢٠٠). تجد مايسر: خاطرك ويشلج صدرك، وجامع البيان في تفسير القرآن تأليف أبي جعفر محمد بن جرير الطبري المجلد الثاني عشر ص (١٣٥، ١٣٦، ١٣٧).

والتفسير الكبير للإمام الفخر الرازي الجزء التاسع والعشرون ص (٢٥١، ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٥٦). تجد ما يشرح نفسك ويشلج صدرك، وتفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي المجلد الثامن ص (٣٩٧، ٣٩٨، ٣٩٩، ٤٠٠، ٤٠١). وتفسير ابن كثير الجزء الرابع ص (٤١٣) والجامع لأحكام القرآن لأبي عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري الجزء التاسع عشر. ص (١٤٣، ١٤٤، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٧، ١٤٨) تجد ما يصلح به حالك.

(٢) سورة الأنعام: الآية: (٩٤).

(٣) نفس المصدر السابق.

رأيت نعيماً وملكا كبيرا، ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٍ﴾ قرأ نافع وحزمة وابن محيصن ﴿عَالِيَهُمْ﴾ بإسكان الياء وكسر الهاء لمناسبة الياء المدية على أنه خبر مقدم، وثياب مبتدأ مؤخر، أو على أن «عاليهم» مبتدأ، وثياب مرتفع بالفاعلية وإن لم يعتمد الوصف على نفي أو استفهام كما هو مذهب الأخفش. وقال الفراء: هو فرع بالابتداء، وخبره: ثياب سندس، واسم الفاعل مرادا به الجمع. وقرأ الباقر بفتح الياء وضم الهاء على أنه ظرف في محل رفع على أنه خبر مقدم، وثياب مبتدأ مؤخر، كأنه قيل فوقهم ثياب، قال الفراء: إن عاليهم بمعنى فوقهم، وكذا قال ابن عطية قال أبو حيان: عال وعالية اسم فاعل، فيحتاج في كونهما ظرفين إلى أن يكون منقولاً من كلام العرب، وقد تقدمه إلى هذا الزجاج وقال: (١) هذا بمالا نعرفه في الظروف ولو كان ظرفا لم يجز إسكان الياء، ولكنه نصب على الحال لشيئين: أحدهما الهاء والميم في قوله: «يطوف عليهم» أي على الأبرار «ولدان» عالياً الأبرار «ثياب سندس» أي يطوف عليهم في هذه الحال. والثاني أن يكون حالا من الولدان: أي إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا في حال علو الثياب أبدانهم. وقال أبو علي الفارسي: العامل في الحال إما لقاهم نضرة وسرورا، وإما جزاهم بما صبروا. قال: ويجوز أن يكون ظرفا. وقرأ ابن سيرين ومجاهد وأبو حيوة وابن أبي عبلة: عليهم، وهي قراءة واضحة المعنى ظاهرة الدلالة، ولكنها على سبيل التفسير لأنها ليست متواترة، واختار أبو عبيد القراءة الأولى لقراءة ابن مسعود: عاليهم. وقرأ الجمهور بإضافة ثياب إلى سندس. وقرأ أبو حيوة وابن أبي عبلة بتنوين ثياب وقطعها عن الإضافة ورفع سندس، وهي قراءة شاذة، و«خضر وإستبرق» على أن السندس نعت للثياب، لأن السندس (٢) نوع من الثياب، وعلى أن خضر نعت لسندس، لأنه يكون أخضر وغير أخضر، وعلى أن إستبرق معطوف على سندس: أي وثياب إستبرق، والجمهور من القراء اختلفوا في «خضر وإستبرق» مع اتفاقهم على جرّ سندس بإضافة ثياب إليه، فقرأ ابن كثير وأبو بكر

(١، ٢) نفس المصدر السابق.

(شعبة) عن عاصم وابن محيصن بجر خضر نعتا لسندس ورفع إستبرق عطفًا على ثياب: أي عليهم ثياب سندس وعليهم إستبرق. وقرأ أبو عمرو وابن عامر برفع خضر نعتا لثياب، وجرًا إستبرق نعتاً لسندس. واختار هذه القراءة أبو حاتم وأبو عبيد، لأن الخضر أحسن ماكانت نعتا للثياب فهي مرفوعة، والإستبرق من جنس السندس. وقرأ نافع وحفص عن عاصم برفع «خضر وإستبرق»، لأن خضر نعت للثياب، وإستبرق عطف على الثياب. وقرأ الأعمش وحزمة والكسائي بجر «خضر وإستبرق» على أن خضر نعت للسندس، وإستبرق معطوف على سندس^(١).

وقرءوا كلهم بصرف إستبرق إلا ابن محيصن فإنه لم يصرفه، قال: لأنه أعجمي، ولا وجه لهذا لأنه نكرة من ناحية، وعدم الصرف شاذ من ناحية أخرى إلا أن يقول إنه علم لهذا الجنس من الثياب. والسندس: ما رَقَّ من الديباج. والإستبرق: ماغلظ منه، وقد تقدّم تفسيرهما في سورة الكهف ﴿وَحَلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ﴾ عطف على يطوف عليهم. ذكر سبحانه هنا أنهم يحلّون بأساور الفضة وفي سورة فاطر - يحلّون فيها من أساور من ذهب - وفي سورة الحج - يحلّون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤ - ولاتعارض بين هذه الآيات لإمكان الجمع بأن يجعل لهم سوارات من ذهب وفضة ولؤلؤاً، أو بأن المراد أنهم يلبسون سوارات الذهب تارة، وسوارات الفضة تارة، وسوارات اللؤلؤ تارة، أو أنه يلبس كل أحد منهم ماتمّل إليه نفسه من ذلك، ويجوز أن تكون هذه الجملة في محلّ نصب على الحال من ضمير عاليهم بتقدير قد. ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾^(٢) هذا نوع آخر من الشراب الذي يمنّ الله عليهم به. قال الفراء: يقول هو طهور ليس بنجس كما كان في الدنيا موصوفاً بالنجاسة. والمعنى: أن ذلك الشراب طاهر ليس كخمر الدنيا. قال مقاتل: هو عين ماء على باب الجنة من شرب منها نزع الله ماكان في قلبه من غشٍّ وغلٍّ وحسد. قال أبو قلابة وإبراهيم النخعي: يؤتون بالطعام، فإذا كان آخره أتوا

(٢، ١) نفس المصدر السابق.

بالشراب الطهور، فيشربون فتضمير بطونهم من ذلك ويفيض عرق من أبدانهم مثل ريح المسك. ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً﴾ أي يقال لهم: إِنَّ هَذَا الَّذِي ذُكِرَ مِنْ أَنْوَاعِ النَّعْمِ كَانَ لَكُمْ جَزَاءً بِأَعْمَالِكُمْ. أي ثواباً لها ﴿وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا﴾ أي كان عملكم في الدنيا بطاعة الله مرضياً ومقبولاً، وَشَكَرُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ لِعَمَلِ عَبْدِهِ هُوَ قَبُولُهُ لَطَاعَتِهِ.

(سورة المرسلات)

قال تعالى: ﴿ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرِّ كَالْقَصْرِ (٣٢) كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ ﴾ (١) ذكر المفسرون أن القصر واحد القصور، وقيل القصر جمع قصرة وهو الغليظ من الشجر وقوله: ﴿ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ ﴾ قرأ حفص وحمة والكسائي بدون ألف على التوحيد، وقرأ الباقون بالألف على إرادة الجمع، جمع جِمال كما تقول بيوت وبيوتات وهو جمع الجمع. جِمال بالألف والتاء على التصحيح والسلامة، كما جمع على التكسير في قولهم جمائل وقال ذو الرمة:

وقرين بالزرف الجمائل بعدما تقوب عن غريان أوراكها الحظُر (٢)

ويقال للإبل السود التي تضرب إلى الصفرة هي إبل صفر قال الأعشى:

تلك خيلي منه وتلك ركابي هن صفر أولادها كالزبيب

والشر قطع من النار تطاير في الجهات وأصله الظهور من قولك شررت الثوب إذا أظهرته للشمس وشبه الشرر بالقصر في العظم ثم قال كأنه جمالة صفر أي سود فسبته في اللون وفي العظم، والعرب تشبه الإبل (٣) بالقصور ذهابا إلى تمام خلقها وحسن صورتها قال الأخطل:

كأنه برج رومي يشيده له بجص وأجر وأحجار

وقال عترة أيضا:

(١) سورة المرسلات: الآية: (٣٢، ٣٣).

(٢، ٣) الجمان في تشبيهات القرآن تأليف عبدالله بن الحسين بن نايقا ص (٢٨٦، ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٨٩، ٢٩٠) وقال ذو الرمة:

وقرين بالزرف الجمائل بعدما تقوب عن غريان أوراكها الحظُر
أراد: تقوبت غريبتها عن الحظُر، فقلبه لأن المعنى معروف، كقولك: لا يدخل الحاتم في إصبعي أي لا يدخل إصبعي في خاتمي وقيل: الغريان أوراك الإبل أنفسها، أنشد ابن الأعرابي:
سأرفع قولاً للحصين ومُنذر
تطير به الغريان شطوً المواسم

قال: الغريان: هنا أوراك الإبل أي تحمله الرواة إلى المواسم. والغريان: غريسان الإبل، والغريبان: غريان الإبل، والغريبان: طرَقا الورك، اللذان يكونان خلف القطاة، والمعنى: أن هذا الشعر يذهب به على الإبل إلى المواسم، وليس يريد الغريان دون غيرها، وهذا كما قال الآخر:

وإن عتاق العيس سوف يزوركم
ثنائي على أعجازهن معلق =

فوقفتُ فيها ناقتي وكأنَّها فدنُّ لأقضي حاجة المتلوم
 وإنما ظاهر في تشبيه الشرر تأكيدا للتخويف من النار التي تراءى به وتعظيما
 لشأنها وإرهاباً للكافرين من سطوتها والتشبيه على هذا النحو بغير حرف العطف
 أكثر في صفة الموصوف وأبلغ في لغته من التشبيه المعطوف.
 قال طرفة:

وفي الحى أحوى ينفضُ المرد شادنٌ مظاهر سمطي لؤلؤ وزبرجد
 خذولاً تراعي ربرباً بخميلة تناول أطراف البرير وترتدي
 وهذا تشبيه للمرأة بالغزال في عنقها وبالبقرة في حُسنِ عينيها كما تقول: هي
 شمس هي قمر، وأما تأويل القصر أنه الغليظ من الشجر فهو (١) حسن في التشبيه
 أيضاً لأنه من نظائر الجذى جمع جذوة وهو ماغلظ من الخشب قال تعالى: ﴿أَوْ
 جَذْوَةٌ مِنَ النَّارِ﴾ (٢) أي قطعة منها، قال الشاعر:

باتت حواطبٌ ليلي تَحْتَبِنَ لَهَا جَزَلَ الجذى غير خوار ولا وعَرَ (٣)
 وقد شَبَّهت النار في اشتعالها وتفرُّع ضرامها بالشجر كما قال العباس أو غيره:
 وموقداتِ بَتْنِ يَصْرِمْنَ اللَّهَبِ يُوسَّعُهُ مِنْ سَلَمٍ وَمِنْ غَرْبِ
 يَرْفَعْنَ أَشْجَاراً لَنَا مِنَ الذَّهَبِ

وفي هذه الأبيات ملاحظة، يقول سعيد بن سليم المساحقي في صفة النار
 أنشده الزبير بن بكار:

= فليس يُريدُ الأعجاز دُونَ الصُّدُورِ، وقيل: إِنَّمَا خَصَّ الأعجازَ والأوراكَ لِأَنَّ قَائِلَهَا جَعَلَ كِتَابَهَا فِي قَعْبَةٍ
 احتقبها، وشدَّها على عَجْزِ بَعِيرِهِ.
 والغَرَابُ: حَدُّ الوَرَكِ الَّذِي يَلِي الظَّهْرَ.
 والغَرَابُ: الطَّائِرُ الأَسْوَدُ، والجمعُ أَعْرَبَةٌ، وَأَعْرَبٌ، وَغَرَبَانٌ، وَغَرَبٌ، قال:
 وأنتم خفافٌ مثلُ أجنحةِ الغُربِ
 وغرابين: جمع الجمع (*)

(*) لسان العرب للإمام العلامة أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري- المجلد
 الأول ص ٦٤٥ ط. دار صادر بيروت، لبنان الطبعة الأولى ١٣٧٤هـ-١٩٥٥م
 ١٤١٢هـ-١٩٩٢م

(١) نفس المصدر السابق:

(٢) سورة القصص: الآية: (٢٩).

(٣) وعر: العود الذي له دخان ولا يشتعل.

لفعها بالضرام فانتصبتُ
حمراءُ زهراءُ لا يُحشى لها
ثُمَّ سَمَتْ لَلسَّمَاءِ بِاللَّهَبِ (١)
كَأَنَّ فِيهَا صَفَائِحَ الذَّهَبِ

ونظر العباس إلى قول الآخر في غير هذا التشبيه:

كَأَنَّ نَيْرَانَهُمْ فِي كُلِّ مَنْزِلَةٍ
فَقَلَّلَ وَزَادَ أَيْضاً:

فوق نار شبعى من الحطبِ الجزُ
فهى تعلو اليفاع كالرأية الحمراءِ
لِإِذَا مَا التَّظَّتْ رَمَتْ بِالشَّرَابِ
تَفْرَى الدُّجَى إِلَى كُلِّ سَارِي
وقال الطائي في إحراق الأفيشين:

ما زال سرُّ الكفرِ بين ضلُوعه
نَارٌ تُسَاوِرُ جِسْمَهُ مِنْ حَرِّهَا
حَتَّى اصْطَلَى سَرَّ الزِّنَادِ الوَارِي (٢)
لَهَا كَمَا عَصْفِرَتْ شَقُّ أَرْزَارِ
أَرْكَانُهُ هَدْمًا بِغَيْرِ غُبَارِ
مَا كَانَ يُرْفَعُ ضَوْؤُهَا لِلسَّارِي
مَشْبُوبَةٌ رُفِعَتْ لِأَعْظَمِ مُشْرِكِ
صَلَى لَهَا حِينًا وَكَانَ وَقُودَهَا

وقرأ بعضهم: «إنها ترمي بشرير كالفصر» بفتح الصاد وهذه وإن كانت شاذة إلا أن لها وجهاً في العربية جيداً وهو جمع قصرة أي كأنها أعناق الإبل وهو تشبيه حسن أيضاً، لأن العرب تستعير ذلك في وصف النار فيقولون برزت أعناق النيران، كما يقولون برزت ذوائبها وألسنتها^(٤) على طريق الاستعارة أيضاً، وقالوا: في نار حرة الحدثان بأرض غطفان. فيما رواه الكلبي أنه يخرج منها

(١) لفعها: جمعها وضمها. (٢) نفس المصدر السابق.

(٣) المقصود بالطائي هو أبو تمام، والأفيشين قائد قوات المعتصم كان يظهر الإسلام ويطن الكفر وقد كشف سره وأحرقه المعتصم بالنار، راجع الكامل في التاريخ لابن الأثير (٢٤٤/٥)

(٤) نفس المصدر السابق.

العنق فيسير مسير ثلاث وأربع لا يمرُّ بشيء إلاَّ أحرقه، وأنَّ خالد بن سنان أحد سادات عبس في الجاهلية أخذ من كل بطن من بني عبس رجلاً فخرج بهم نحوها ومعه دُرَّة حتى انتهى إلى طرفها وقد خرج منها عنق كأنه عنق بعير فأحاط بهم فقالوا: أهلكت واللَّه أشياخ بني عبس آخر الدهر فقال خالد: كلاً وجعل يضربه بالدرَّة ويقول (بدا بدا كل هدى لله) وبين تأويل القصر بإسكان الصاد وأن المراد به الغليظ من الشجر وبين تأويل القصر بالفتح مناسبة يقع بها التشبيه كما قال ذو الرمة في تشبيه عنق الناقة:

وهَاجَ كجذعِ الساجِ سامٍ يُقوِّدُهُ بَيْنَ حُلِيمَاتٍ وَبَيْنَ الحَبْلِ
وقال الآخر:

كَأَنَّ أعناقَ المطيِّ البِزْلِ مُعَرِّقُ أحناءِ الصَّيْبِينِ أَشدُّ
من آخرِ الليلِ جذوعُ النَّخْلِ^(١)

قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ﴾ يعني كأصول الشجر العظام تقع على أكتاف الأشقياء ثم شبهه بالإبل السود روى ذلك جويبر عن الضحَّاك، ولما كانت الإبل أعظم الأشياء وأنفسها في نفوس العرب لصبرها على الأهوال واحتمال الأثقال وكانوا ولم يزلوا يضربون بها الأمثال في كثير من الأحوال ويشبهونها بالجنان كما قال الراجز:

يَرَفَعْنَ بالليلِ إذا ما أسدَقَا أعناقِ وَجنانٍ وهاماً زُحَفًا^(٢)
وقال الآخر^(٣) يشير إلى وصف الشدة والقسوة والتشبيه فيها:

يُكَيِّعُنَا علينا ولا نبكي على أحدٍ لَنَحْنُ أَعْلَظُ أكباداً من الإبل
وقال أبو خراش الهذلي:

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) أسدق: أظلم.

(٣) القاتل مهلهل أخو كليب بن ربيعة.

لعلك نافعِي ياعروَ يَوْمًا إذا جاورتُ من تحتِ القبورِ
 إذا راحوا سوائِي وأسلمُونِي لِخِشْنَاءِ الحِجَارَةِ كالبعيرِ (١)
 شبه الله تعالى شرر جهنم بها تعظيما وتهويلا وإرهابا منه وتخويفا، وقد شبه
 بعضهم نارا على البعد بشجر العود على عادتهم في الاستطراد بذكر الإبل في
 أكثر الأوصاف فقال:

ونارِ كَسِحْرِ العودِ نرفعُ ضَوْءَها مع الليلِ هَبَّاتُ الرياحِ الصوادِرِ
 وهم يشبهون النيران بأشخاص بعض الحيوان كما قال الأول:
 لمن ضوءُ نارٍ بالبِطَاحِ كأنَّها من الوحشِ بيضاءُ اللَّبابِ شبوب؟
 إذا صدَّ عنها الرِّيحُ بأنَّ بضوئِها من الأثلِ فرعٌ يابسٌ ويطيبُ
 ومن أحسن ما قيل في وصف النار من حال ابتدائها إلى حال اشتدادها وتسعير
 ضرامها قول ذي الرمة:

فلما جرتُ في الجزلِ جرياً كأنَّه سناً الفجرِ أحدثنا لخالقنا شكراً
 ولما تمتتُ تأكلُ الدَّمَ لم تدع ذوابلَ مما يجمعون ولا خضراً
 وقول مجهول:

هل أسوةُ لكِ في رجالِ صُيرعُوا بتلاعِ تريمَ هامهم لم تُقبرِ (٢)
 وأخو الأباةِ إذا رأى خِلاَنَه تُلى شِفاعاً حَوَلَه كالأذخِرِ

يريد قتلى في الكثرة كالأذخر لأنه لا يوجد منه أذخرة واحدة إنما تكون الأرض
 منه مستخلصة وقريب منه قول العبادي وقد تقدّم ذكره مع ما يقترن به في
 الأبيات:

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) نفس المصدر السابق.

ثم أضحووا كأنهم ورقٌ جَفَّ فألوتُ به الصَّبا والدُّبورُ^(١)

وتشبيه الكتاب واقع أحسن مواقعه لأن العصف الورق الذي يفتح عن الثمرة أو السنبله قال الله تعالى: ﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ﴾^(٢) قرأ ابن عامر بالنصب في الأسماء الثلاثة عطفاً على الأرض، أو على إضمار فعل: أي وخلق الحبَّ ذا العصف والريحانَ، وقرأ حمزة والكسائي «والريحان» بالخفض عطفاً على العصف وما عداه فبالرفع. وقرأ كل من نافع وابن كثير وأبي عمرو وعاصم برفع الثلاثة عطفاً على فاكهة، الحبَّ، هو جميع مايقنات به من الحبوب، والعصف. قال السدي والفرأء: هو بقل الزرع، وهو أول ما ينبت به. قال ابن كيسان: يبدو أولاً ورقاً، وهو العصف، ثم يبدو له ساق، ثم يحدث الله فيه أكماماً، ثم يحدث في الأكمام الحبَّ. قال الفرأء: والعرب تقول خرجنا نعصف الزرع إذا قطعوا منه قبل أن يدرك، وكذا قال الصحاح. وقال الحسن: العصف التبن، وقال مجاهد: هو ورق الشجر والزرع. وقيل هو ورق الزرع الأخضر إذا قطع رأسه ويس، ومنه قوله -كعصف مأكول-، وقيل هو الزرع الكثير، يقال قد أعصف الزرع ومكان معصف: أي كثير الزرع، ومنه قول أبي قيس بن الأسلت:

إذا جمادى منعت قطرها إنَّ جناني عطن معصف

والريحان الورق في قول الأكثر. وقال الحسن وغير واحد^(٣) إنه الريحان الذي يشم. وقال سعيد بن جبير: هو ما قام على ساق. وقال الكلبي: إن العصف هو الورق الذي لا يؤكل، والريحان هو الحب المأكول. وقال الفرأء أيضاً: العصف المأكول من الزرع، والريحان ما لا يؤكل، وقيل الريحان كل بقلة طيبة الريح. قال ابن

(١) العبادي مرت ترجمته والبيت من ضمن الآيات التي مرت سابقاً.

(٢) سورة الرحمن.. الآية (١٢).

(٣) فتح القدير الجسامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير تأليف محمد بن علي بن محمد الشوكاني المجلد الخامس ص (١٣٢، ١٣٣) الناشر دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت-لبنان

الأعرابي: يقال شيء ريحاني: أي له رُوح: وقال في الصحاح: الريحان نبت معروف، والريحان الرزق، تقول: خرجت أبتغي ريحان الله. قال النمر بن تولب: سلامُ الله وريحانُهُ وَرَحْمَتُهُ وَسَمَاءُ دُرَّرٍ (١)
وقيل العصف رزق البهائم، والريحان رزق الناس.

(١) نفس المصدر السابق.

(سورة التّٰبَا)

قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿١﴾﴾ يقول تعالى جلَّ شأنه معدِّدًا على هؤلاء المشركين نعمه وأياديه عندهم وإحسانه إليهم وكفرانهم ما أنعم به عليهم ومتوعدهم بما أعدَّ لهم عند ورودهم عليه من صنوف عقابه وأليم عذابه فقال لهم، ألم نجعل الأرض مهادا تمتهدونها وتفترشونها وعن قتادة: ألم نجعل الأرض مهادا أي بساطا، والجبال أوتادا يقول والجبال للأرض أوتادا أن تميد بكم. (٢) ويستشهد بهذه الآية الكريمة في التعليق على الثقلاء من الناس تشبيهاً لهم بالجبال الراسية المغروزة في الأرض غرزاً كما يغرز فيها الوتد. (٣)

مثل آخر من هذه السورة، قال تعالى: ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا﴾ (٤) قوله: ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ قال الحسن وغير واحد: مُتْرَعَةٌ مملوءة، يقال: أدهقتُ الكأس: أي ملأتها، وكأس دهاق أي ممتلئة، قال:

ألا فاسقني صِرْفًا سِقَانِي السَّاقِي من مائِها بكأسك الدِّهَاقِ
وقال خِدَاشُ بن زُهَيْرٍ:

أَتَانَا عَامِرٌ يَبْغِي قِرَانَا فَاتْرَعْنَا لَهُ كَأْسًا دِهَاقَا
وقال سعيد بن جبیر وغير واحد: متتابعة، يتبع بعضها بعضا، ومنه أدهقت الحجارة أدهاقا، وهو شدة تلازبها ودخول بعضها في بعض، فالمتتابع كالمتداخل. وعن عكرمة أيضا وزيد بن أسلم: صافية، قال الشاعر:

لَأَنْتَ إِلَى الْفَوَادِ أَحَبُّ قَرِيْبًا من الصّادِي إِلَى كَأْسِ دِهَاقِ
وهو جمع دَهَقٍ، وهو خشبتان يعصر بهما. كما في كتب اللّغة وفي الأصول: والمراد بالكأس الخمر، فالتقدير: خمر ذات دِهَاقِ، (٥) أي عَصِرَتْ وَصَفِيَتْ، قاله

(١) سورة «النبا» الآيتان: (٦، ٧)

(٢) جامع البيان، في تفسير القرآن تأليف أبي جعفر محمد بن جرير الطبري المجلد الثاني عشر ص (٣)

(٣) الشواهد والأمثال في القرآن الكريم تأليف الفريق يحيى عبد الله المعلمي ص (٣٣٥)

(٤) سورة النبا الآيتان: (٣٤، ٣٥)

(٥) الجامع لأحكام القرآن. لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي الجزء التاسع عشر ص (١٨٣، ١٨٤، ١٨٥).

القشيري. وفي الصحاح: وأدهقتُ الماء: أي أفرغته إفرافاً شديداً: قال أبو عمرو: والدّهق - بالتحريك - ضرب من العذاب. وهو بالفارسية أشكنجه. المبرد: والمدهوق: المعذب بجميع العذاب الذي لا فرجة فيه، ابن الأعرابي: دهقتُ الشيء كسرتة وقطعته، وكذلك دهقتُهُ: وأنشد لِحُجْر بن خالد:

نُدْهَقُ بِضَعِ اللَّحْمِ لِلْبَاعِ وَالنَّدَى وَبَعْضُهُمْ تَغْلِي بَدْمٌ مَنَاقِعُهُ^(١)
 وَدَهَمَقْتُهُ بِزِيَادَةِ الْمَيْمِ: مثله. وقال الأصمعي: الدهمقة: لين الطعام وطيبه ورقته
 وكذلك كلُّ شيء ليين، ومنه حديث عمر: لو شئتُ أن يدهق لي لفعلت^(٢)، ولكن
 الله عاب قوما فقال: ﴿أذهبتُم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها﴾^(٣) قوله
 تعالى: ﴿لا يسمعون فيها﴾ أي في الجنة ﴿لغوا ولا كذابا﴾ اللغو: الباطل، وهو ما
 يلغى من الكلام ويُطرح، ومنه الحديث: «إذا قلت لصاحبك أنصت يوم الجمعة
 والإمام يخطب فقد لغوت» وذلك أن أهل الجنة إذا شربوا لم تتغير عقولهم، ولم
 يتكلموا بلغو، بخلاف أهل الدنيا. ﴿ولا كذابا﴾ تقدم، أي لا يكذب بعضهم
 بعضا، ولا يسمعون كذبا. وقرأ الكسائي ﴿كذابا﴾ بالتخفيف أي كذبت كذاباً أي لا
 يتكاذبون في الجنة وقيل: هما مصدران للتكذيب، وإنما خففها ها هنا لأنها ليست
 مُقَيَّدَةً بفعل يصير مصدرا له، واتفق القراء قاطبة على تشديد قوله: ﴿وكذبوا بآياتنا
 كذابا﴾ لذكر فعله معه، ﴿جزاء من ربك﴾ نصب على المصدر، لأنَّ المعنى جزاهم
 بما تقدم ذكره، جزاءه وكذلك ﴿عطاء﴾ أن معنى أعطاهم وجزاهم واحد. أي أعطاهم
 عطاءً. ﴿حسابا﴾ أي كثيراً، قاله قتادة، يقال: أحسبت فلانا: أي كثرت له العطاء حتى
 قال حسبي. قال الشاعر^(٤):

وَنَقْفِي وَوَلِيدَ الْحَيِّ إِنْ كَانَ جَانِعاً وَنُحْسِبُهُ إِنْ كَانَ لَيْسَ بِجَانِعٍ
 وقال القُتَيْبِيُّ: ونرى أصل هذا أن يُعْطِيَهُ حَتَّى يَقُولَ حَسْبِي. ^(٥) وقال

(١) وفي الأصول «مراجله» والمناقع: القُدُور الصغار، واحدها: منقع ومنقعة.

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) قالت امرأة من بني قشير. ونقفيه: أي نؤثره بالقفيهة، وهي ما يؤثر به الضيف والصبي.

(٤) نفس المصدر السابق.

(٥) نفس المصدر السابق.

الزجاج: ﴿حساباً﴾ أي ما يكفيهم. وقاله الأخفش. يقال: أحسبني كذا: أي كفاني: وقال الكلبي: حاسبهم فأعطاهم بالحسنة عشرة. مجاهد: حساباً لما عملوا، فالحساب بمعنى العدّ. أي بقدر ما وجب له في وعد الرب، فإنه وعد للحسنة عشرة، ووعد لقوم بسبعمئة ضعف، وقد وعد لقوم جزاءً لا نهاية له ولا مقدار، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْفَى الصَّابِرُونَ أَجْرُهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(١) وقرأ أبو هاشم ﴿عطاء حساباً﴾ بفتح الحاء، وتشديد السين، على وزن فعّال أي كفافاً، وهذه تجوز لغة لا قراءة، قال الأصمعي: تقول العرب: حَسَبْتُ الرجل بالتشديد: إذا أكرمته. وأنشد قول الشاعر:

إِذَا أَتَاهُ ضَيْفُهُ يَحُسِّبُهُ^(٢)

(١) سورة الزمر الآية (١٠).

(٢) نفس المصدر السابق.

(سورة التازعات)

قال تعالى ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَنَّنَا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أءِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾. ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ أي يوم ترجف، وجفت القلوب واجفة شديدة الاضطراب، والوجيب والوجيف أخوان^(٢) ويستشهد بهذه الآية الكريمة في وصف ما يعترى بعض الناس من خوف ورهبة في المواقف التي تستدعى ذلك كما يعترى الطلبة من مشاعر في صالة الامتحانات وما يعترى بعض المتهمين من خوف في قاعات المحاكم. ^(٣) قوله: ﴿خَاشِعَةٌ﴾ ذليلة. فإن قلت: كيف جاز الابتداء بالنكرة؟ قلت: قلوب مرفوعة بالابتداء و«واجفة» صفتها و«أبصارها خاشعة» خبرها فهو كقوله: ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ﴾^(٤) فإن قلت: كيف صح إضافة الأبصار إلى القلوب؟ قلت: معناه أبصار أصحابها^(٥) بدليل قوله- يقولون- «في الحافرة» في الحالة الأولى: يعنون الحياة بعد الموت. فإن قلت: ما حقيقة هذه الكلمة؟ قلت: يقال رجع فلان في حافرته: أي في طريقه التي جاء منها فحفرها: أي أثر فيها بمشيه فيها، جعل أثر قدميه حفراً كما قيل حفرت أسنانه حفراً، وقيل حافرة كما قيل- عيشة راضية: أي منسوبة إلى الحفر والرضا، أو كقولهم نهارك صائم، ثم قيل لمن كان في أمر فخرج منه ثم عاد إليه: رجع إلى حافرته: أي إلى طريقته وحالته الأولى، قال:

أحافرةً على صلّعٍ وشيبٍ معاذَ الله من سفهٍ وعارٍ^(٦)
كأن القائل يقول على سبيل الإنكار: أأرجع بعد الصلّع والشيب الذي هو زمان

(١) سورة التازعات: الآيات (٨، ٩، ١٠، ١١).

(٢) تفسير الكشاف. تأليف الزمخشري الجزء الرابع ص (٢١٢، ٢١٣) ط: مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر-

الطبعة الأخيرة (١٣٨٥هـ- ١٩٦٦م)

(٣) الشواهد والأمثال في القرآن الكريم تأليف الفريق يحيى عبد الله المعلمي ص (٣٣٧).

(٤) سورة البقرة: الآية (٢٢١).

(٥) نفس المصدر السابق.

(٦) نفس المصدر السابق.

الأناة والوقار إلى ترف الصِّبَا وجهله، ثم قال على طريق الاستبعاد: معاذ الله هذا سفه ظاهر شديد. ^(١) وقولهم في المثل: التقدُّ عند الحافرة. قال يعقوب: أي عند أول كلمة. ^(٢)

ويقال: التقى القوم فاقتتلوا عند الحافرة. أي عند أول التقاء. وقيل: الحافرة، العاجلة، أي أننا لمردودون إلى الدنيا فنصير أحياء كما كنا؟

قال الشاعر:

أَلَيْتُ لَا أَنْسَاكُمْ فاعلمُوا حتى يُرَدَّ النَّاسُ فِي الحافرة... الخ
﴿أءَذَا كُنَّا عِظَامًا نُخِرَةً﴾ أي بالية مُتَفَتَّة. يقال نَخَرَ العِظْمَ بالكسر أي بلي وتَفَتَّت، يقال: عظام نَخِرَة. وكذا قرأ الجمهور من أهل المدينة ومكة والشَّام والبصرة، واختاره أبو عبيد، لأن الأثار التي تذكر فيها العظام، نظرنا فيها فرأينا نَخِرَةً لاناخِرَة. وقرأ أبو عمرو وابنه عبد الله وابن عباس وابن مسعود وابن الزبير وحمزة والكسائي وأبو بكر (شعبة) «ناخِرَة» بالمد، واختاره الفراء والطَّبْرِي وأبو معاذ النحوي، لوفاق رؤوس الآي. وفي الصحاح: والناخِر من العظام التي تدخل الريح فيه ثم تخرج منه ولها نخير ويقال: ما بها ناخِر، أي ما بها أحد. وقال أبو عمرو بن العلاء: الناخِرَة التي تنخر بعد، أي لم يبَلْ ولا بد أن تنخر. وقيل: الناخِر المُجَوِّفَة. وقيل: هما لغتان ^(٣) بمعنى، كذلك تقول العرب: نَخَرَ الشيء فهو نَخِرٌ وناخِر، كقولهم: طمِعَ فهو طَمِعٌ وطامِعٌ، وحذِرٌ وحاذِرٌ، وبخِلٌ وباخِلٌ، وفِرِه وفاره، قال الشاعر:

يَظَلُّ بِهَا الشَّيْخُ الَّذِي كَانَ بَادِنَا يَدبُّ عَلَى عُوْجٍ لَهُ نَخِرَانِ
عُوْجٌ: يعنى قِوَامٌ. وفي بعض التفسير: ناخِرَة بالألف: بالية: ^(٤) ونَخِرَة: تنخر فيها الريح أي تمر فيها، على عكس الأول، قال: ^(٥)

«مِنْ بَعْدِ مَا صِرْتُ عِظَامًا نَاخِرَةً» إلى غير ما هنالك من أقوال أهل الأداء واللغة.

(١) تنزيل الآيات على الشواهد من الآيات شرح شواهد الكشاف. تأليف-الأستاذ محب الدين أفندي ص(٢٣٩).

(٢) الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي الجزء التاسع عشر ص(١٩٧، ١٩٨) (٤،٣) نفس المصدر السابق.

(٥) قاله الهمداني يوم القادسية.

مثل آخر من هذه السورة: قال تعالى: ﴿وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١) وَالْجِبَالُ أَرْسَاهَا (٣٢) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ (١).

﴿وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ أي بعد خلق السماء، ومعنى، دحاها. بسطها. وهذا يدل على أن خلق الأرض بعد خلق السماء، ولا معارضة بين هذه الآية وبين ما تقدم في سورة فصلت من قوله- ثم استوى إلى السماء- بل الجمع بأنه سبحانه خلق الأرض أولاً غير مدحوة ثم خلق السماء ثم دحا الأرض، وذكر بعض أهل العلم أن (بعد) بمعنى مع كما في قوله - عتل بعد ذلك زنيم-، وقيل بعد بمعنى قبل كقوله - ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر- أي من قبل الذكر، والجمع الذي ذكرناه أولى (٢) وهو قول ابن عباس وغير واحد، واختاره ابن جرير، يقال: دحوت الشيء أدحوه: إذا بسطته، ويقال لعش النعامة أدحى لأنه مبسوط على الأرض، وأنشد المبرد:

دحاها فلما رآها استوت على الماء أرسى عليها الجبالا
وقال أمية بن أبي الصلت:

وبث الخلق فيها إذ دحاها فهم قطانها حتى التنادي
وقال زيد بن عمرو بن نفيل:

وأسلمت وجهي لمن أسلمت له الأرض تحمل صخرها ثقالا
دحاها فلما استوت شدّها بأيدي وأرسى عليها الجبالا

قرأ الجمهور بنصب الأرض على الاشتغال، وقرأ الحسن وعمرو بن ميمون وابن أبي عبله وأبو حيوة وأبو السماك وعمرو بن عبيد ونصر بن عاصم بالرفع على الابتداء وهذه القراءة جائزة لغة لا قراءة، ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ أي فجر من

(١) سورة النازعات: الآيات (٣٠، ٣١، ٣٢، ٣٣)

(٢) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير تأليف محمد بن علي بن محمد الشوكاني: المجلد الخامس ص (٣٧٨، ٣٧٩).

الأرض الأنهار والبحار والعيون^(١) ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾: أي النبات الذي يُرعى، ومرعاها مصدر ميمي: أي رعيها، وهو في الأصل موضع الرعي، والجملة إمّا بيان وتفسير لدحاها، لأن السكنى لا تتأتى بمجرد البسط بل لأبد من تسوية أمر المعاش من المأكل والمشرب. وإمّا في محلّ نصب على الحال ﴿وَالْجِبَالِ أَرْسَاهَا﴾ أي أثبتتها في الأرض وجعلها كالأوتاد للأرض لتثبت وتستقر وأن لا تتمد بأهلها. قرأ الجمهور بنصب الجبال على الاشتغال. وقرأ الحسن وعمرو بن ميمون وأبو حيوة وأبو السمّك وعمرو بن عبيد ونصر بن عاصم بالرفع على الابتداء، وهذه كما ذكرنا أنفاً جائزة لغة لا قراءة، لأنها لم تتوافر فيها شروط التواتر الذي هو شرط في صحة القراءة - قيل: ولعل وجه تقديم ذكر إخراج الماء والمرعى على إرساء الجبال مع تقدّم الإرساء عليه للاهتمام بأمر المأكل والمشرب ﴿مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ أي: منفعة لكم ولأنعامكم من البقر والإبل والغنم، وانتصاب متاعاً على المصدرية: أي متعكم بذلك متاعاً، أو هو مصدر من غير لفظه^(٢)، لأنّ قوله ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ بمعنى متع بذلك، أو على أنه مفعول لأجله: أي فعل ذلك لأجل التمتع، وإمّا قال ﴿لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ لأنّ فائدة ما ذكر من الدحو وإخراج الماء والمرعى كائنة لهم ولأنعامهم، والمرعى يعم ما يأكله الناس والدواب^(٣).

مثل آخر من هذه السورة: قال تعالى: ﴿كَانَهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾^(٤) أي إذا قاموا من قبورهم إلى المحشر يستقرون مدة الحياة الدنيا حتى كانوا عندهم كانت عشية من يوم أضحى من يوم، قال جوير عن الضحاك عن ابن عباس ﴿كَانَهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ أما عشية فما بين الظهر إلى غروب الشمس ﴿أَوْ ضُحَاهَا﴾ ما بين طلوع الشمس إلى نصف النهار، وقال قتادة: وقت الدنيا في أعين الناس حين عاينوا الآخرة^(٥) والجملة تقرير لما يدلّ عليه الإنذار من سرعة مجيء المنذر به^(٦).

(١) نفس المصدر السابق:

(٢) فتح القدير من علم التفسير الجزء الخامس ص(٣٨٠).

(٤) سورة النازعات الآية(٤٦).

(٥) تفسير ابن كثير الجزء الرابع ص(٤٢٥).

(٦) فتح القدير من علم التفسير ج٥ ص(٣٨٠).

(سورة عبس)

قال الله تعالى: ﴿وَجْوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرَهَقَهَا فَتْرَةٌ ﴿٤١﴾ أَوْلَيْكَ هُمْ الْكُفْرَةُ الْفَجْرَةُ﴾ (١) قوله: ﴿وَجْوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾ أي غبار ودخان، وقوله: ﴿تَرَهَقَهَا فَتْرَةٌ﴾ في هذا النصّ ضرب الله مثلاً لِمَا يَغشى وجوه الكفار الذين كسبوا السيئات من علامات الذلّة والكمَد والحزن والندم، بالقترة الذي يَغشى بعض وجوه الناس الذين يعملون في أماكن يكثر فيها الغبار والدخان وضرب له مثلاً أيضاً بقطع من الليل المظلم. (٢) وفي الخبر: أن البهائم إذا صارت تراباً يوم القيامة حوّل ذلك التراب في وجوه الكفار. وقال زيد بن أسلم: القتر: ما ارتفعت إلى السماء، والغبرة: ما انحطت إلى الأرض، والغبار والغبرة: بمعنى واحد (٣) وقد شبهت الشعراء مثل هذا الحال صاحب الحية والكآبة كما قال الأوّل أنشدته الثوري: (٤)

وجاءت بنو ذهلٍ كأنّ وجوههم إذا حروا عنها ظلالٌ صُخُورِ
أي سوداء لأن ظلال الصخرة كثيف، وقال الآخر:
وأنتم صغارُ الهامِ صُعد كأنّما وجوهكم مطليّةٌ بسوادٍ
قال ابن الرومي:

وجْهَكَ يا جعفرُ في قُبْحِهِ أولى من العودِ بالستيرِ
كأنّما يَأوى إليه الدجى إذا هي انفَضَّتْ عَن الفَجْرِ
وقد شبهوا بظلام الليل أشياء لاموضع لذكرها هاهنا كقول الشاعر:

تَقْنَعَتْ بِظَلَامِ اللَّيْلِ وَاتْتَرَتْ بِالرَّمْلِ وَانْتَقَبَتْ بِالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ (٥)

(١) سورة عبس: الآيات (٤٠، ٤١، ٤٢).

(٢) الأمثال القرآنية. تأملات: عبد الرحمن حسن حنيفة ص (٢٨)

(٣) الجامع لأحكام لابي عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي الجزء التاسع عشر ص (٢٢٦)

(٤) الجمالان في تشبيهات القرآن تأليف عبد الله بن الحسين بن نايقا بتحقيق الدكتور محمود حسن أبو ناجي

الشياني ص (٨٨، ٨٩، ٩٠)

(٥) اتترت: اتخذت إزاراً. تقنعت: اتخذت من الشمس والقمر قناعاً.

وليس من هذا الباب المذكور لأن ذلك موضع على الذم وهذا على المدح وتزيين الصفة. وفي تشبيه الآية تأويل آخر وهو أن يكون قوله تعالى: ﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ﴾^(١) يعني لَمَّا دهمهم من الرعب والجزع قد سدرت أعينهم فَمَا يرون^(٢) إِلَّا ظلمة كما قال الشاعر:

ظَلَلْنَا نَخْبِطُ الظُّلْمَاءَ ظُهُرًا لَدَيْهِ وَالْمَطْيُ لَهَا أَوَارُ
ومن ذلك قول الطائي:

عَادَتْ لَهُ أَيَّامُهُ مَسْوَدَةً حَتَّى تَوْهَمَ أَنَّهُنَّ لِيَالِي
ويدخل في هذا الباب أيضاً قوله:

مَا إِنْ تَرَى الْأَحْسَابَ بِيضًا وَضَحًا إِلَّا بِحَيْثُ تَرَى الْمَنِيَا سُودًا
وقال البحتري:

عَذِيرِي مِنَ الْأَيَّامِ رَنْقَنَ مَشْرَبِي وَلَقَفَنِي نَحْسًا مِنَ الطَّيْرِ أَشَامًا
وَأَلْبَسَنِي سُخْطَ امْرَأٍ بَتُّ مُوهِنًا أَرَى سُخْطَهُ لَيْلًا مَعَ اللَّيْلِ مَظْلَمًا

وقد نظر في هذا البيت نظراً خفياً إلى قول النَّابِغَةِ فِي اسْتِعْطَافِ النِّعْمَانِ:
فَإِنَّكَ كَاللَّيْلِ الَّذِي هُوَ مُدْرِكِي وَإِنْ خَلْتِ أَنْ الْمُنْتَأَى عَنكَ وَأَسِعُ
فَشَبَّهُهُ بِاللَّيْلِ مِنْ أَجْلِ سُخْطِهِ وَغَضَبِهِ. ونقل البحتري تشبيهه إلى وصف السخط وجعل ذلك موجوداً في الحقيقة عنده وقد أحال بعض أصحاب^(٣)

المعاني بقول البحتري على قول محمد بن عيينة^(٤)
طَالَ مِنْ ذِكْرِهِ بِجُرْحَانِ لَيْلِي وَنَهَارِي عَلَيَّ كَاللَّيْلِ دَاجِي
ولا أراه عدل عن ملاحظة بيت النَّابِغَةِ كما ذكرنا، وأنشد الصولي^(٥) محمد بن أحمد العلوي الأصفهاني:

(١) سورة يونس: الآية (٢٧)

(٢) نفس المصدر السابق.

(٤) محمد بن عيينة: يرجع نسبه إلى المهلب بن أبي صفرة شاعر مطبوع ظريف من شعراء الدولة العباسية.

(٥) الصولي أحد كتاب العصر العباسي.

أتري النجمَ حَارَ فِي الأَقْوَامِ أُسْبِلُ لَيْلِي عَلَى نَهَارِي ذَيْلًا
أَمْ كَمَا عَادَ وَصَلَهُ لِي هَجْرًا عَادَ أَيْضًا بِهِ نَهَارِي لَيْلًا (١)

وقوله جلّ ذكره: «أولئك هم الكفرة الفجرة» هؤلاء الذين هذه صفتهم يوم
القيامة هم الكفرة بالله كانوا في الدنيا الفجرة في دينهم لا يباليون ما أتوا به من
معاصي الله وارتكبوا من محارمه فجزاهم الله بسوء أعمالهم ما أخبر به عباده. (٢)

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) جامع البيان في تفسير القرآن تأليف أبي جعفر بن جرير الطبري المجلد الثاني عشر ص (٤٠ ط: دار المعرفة بيروت - لبنان

(سورة التكوير)

قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ (١) الموءودة المقتولة، وهي الجارية تدفن وهي حيّة، سميت بذلك لما يطرح عليها من التراب، فيؤودها أي يثقلها حتى تموت، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾ (٢) أي لا يثقله، وقال متمم بن نويرة:

وموءودة مَقْبورة في مفازة بِأَمَتِها قَوْسودة لم تمهد (٣)

وكانوا يدفنون بناتهم أحياء لخصلتين، إحداهما: كانوا يقولون إن الملائكة بنات الله، فألحقوا البنات به، والثانية: إماماً مخافة الحاجة والإملاق، وإماماً خوفاً من السبي والاسترقاق. وقد مضى في سورة «النحل» هذا المعنى، عند قوله تعالى: ﴿أَمْ يَدْسُهُ فِي التَّرَابِ﴾ مستوفى. فارجع إليه إن شئت. وقد كان ذوو الشرف منهم يمتنعون عن هذا، ويمنعون منه، حتى افتخر به الفرزدق، فقال: (٤)

ومِنَّا (٥) الذي منع الوائداتِ فأحيا الوئيد فلم يُؤادِ

يعني جدّه صعصعة كان يشتريهنّ من آبائهنّ، فجاء الإسلام، وقد أحيى سبعين موءودة. وقال ابن عباس: كانت المرأة في الجاهلية إذا حملت حفرت حفرة، وتمخّضت على رأسها، فإن ولدت جارية رمت بها في الحفرة، وردت التراب عليها، وإن ولدت غلاماً حبسته، ومنه قول الرّاجز:

سَمَيْتُهَا إِذْ وُلِدَتْ تَمُوتُ وَالْقَبْرُ صِهْرٌ ضَامِنٌ زَمِيْتُ

الزّميّت الوقور، والزّميّت مثل الفسيق أوقر من الزّميّت، وفلان أزمّتُ الناس أي أوقرهم، وما أشدّ تزمته، عن الفراء. وقال قتادة: كانت الجاهلية يقتل أحدهم

(١) سورة التكوير: الآيتان (٩، ٨). (٢) سورة البقرة: الآية (٢٥٥).

(٣) كذا روي البيت ونسب إلى متمم بن نويرة في الأصول، ونسبه اللسان وشرح القاموس مادة (عرز) إلى حسان رضي الله عنه.

(٤) الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ج ١٩ ص (٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٤).

(٥) ويروى: وجدّتي الذي منع الوائدات... إلخ.

ابنته، ويغذو كلبه. فعاتبهم الله على ذلك، وتوعدهم بقوله: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ﴾ قال عمر في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ﴾ قال: جاء قيس بن عاصم إلى النبي ﷺ فقال: يارسول الله: (١) إني وأدتُ ثمانِي بنات كُنَّ لي في الجاهلية، قال: «فأعتق عن كل واحدة منهن رقبة» قال يارسول الله إني صاحب إبل، قال: «فأهد عن كل واحدة منهن بدنة إن شئت». وقوله تعالى: «سُئِلَتْ» سؤال الموءودة سؤال توبيخ لقائلها، كما يُقال للطفل إذا ضُرب: لِمَ ضُربت؟ وما ذنبك؟ قال الحسن: أراد الله أن يُوبَّخ قاتلها، لأنها قُتلت بغير ذنب. وقال ابن أسلم: بأيِّ ذنب ضُربت، وكانوا يضربونها. وذكر بعض أهل العلم في قوله تعالى: «سُئِلَتْ» قال: طُلبت، كأنه يريد كما يُطلب بدم القاتل. قال: وهو كقوله - ﴿وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾ (٢) أي مطلوبًا. فكأنها طُلبت منهم، فقيل أين أولادكم؟: وقرأ الضحَّاك وأبو الضُّحَّا عن جابر بن زيد وأبي صالح «وإذا الموءودة سألت» فتتعلق الجارية بأبيها، فتقول: بأيِّ ذنب قتلتني؟ فلا يكون له عذر هناك، وهذه القراءة شاذة، وعلى هذا تجوز لغة لا قراءة: وإن كانت موجودة في مصحف أبي. وروى عكرمة عن ابن عباس عن النبي ﷺ (٣)

قال: «إنَّ المرأة التي تقتل ولدها تأتي يوم القيامة متعلقًا ولدها بثدييها، مُلَطَّخًا بدمائه، فيقول ياربُّ، هذه أمِّي، وهذه قتلتني» والقول الأول هو ما عليه الجمهور، وهو مثل قوله تعالى لعيسى: ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾ (٤)، على جهة التوبيخ والتبكيث لهم، فكذلك سؤال الموءودة توبيخ لوأندها، وهو أبلغ من سؤالها عن قتلها، لأن هذا ممَّا لا يصح إلا بذنب، فبأيِّ ذنب كان ذلك، فإذا أظهر أنه لا ذنب لها، كان أعظم في البلية وظهور الحجة على قاتلها. والله أعلى وأعلم بالصواب. وقرئ «قُتِلَتْ» بالتشديد، وفيه دليل بين على أن أطفال المشركين لا يُعذَّبون، وعلى أن التعذيب لا يُستحقُّ إلاَّ بذنب.

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) سورة الأحزاب: الآية: (١٥).

(٣) نفس المصدر السابق.

(٤) سورة المائدة: الآية: (١١٦).

مثل آخر من هذه السورة: قال تعالى: ﴿وماتشؤون الا أن يشاء الله رب العالمين﴾^(١) فيبين بهذا أنه لا يعمل العبد خيراً إلا بتوفيق الله عز وجل، ولا شراً إلا بخذلانه. وقال الحسن: والله ما شاءت العرب الإسلام حتى شاء الله لها. وقال وهب بن منبه: قرأت في سبعة^(٢) وثمانين كتاباً مما أنزل الله على الأنبياء: (٣) من جعل إلى نفسه شيئاً من المشيئة فقد كفر. وفي التنزيل: ﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾^(٤) وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾^(٥). وقال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾^(٦) والآي في هذا كثير، وكذلك الأخبار، وأن الله سبحانه هدى بالإسلام، وأضل بالكفر، كما تقدم في غير موضع^(٧).

(١) (٢٠١) في تفسير الثعلبي: بضعة وثمانين.

(٢) نفس المصدر السابق.

(٤) سورة الأنعام: الآية: (١١١).

(٥) سورة يونس: الآية: (١٠٠).

(٦) سورة القصص: الآية: (٥٦).

(٧) نفس المصدر السابق.

(سورة الانفطار)

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ (٨) كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالذِّينِ﴾ (١). قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ﴾ خاطب بهذا منكري البعث. وقال ابن عباس: الإنسان هنا: الوليد بن المغيرة. وقال عكرمة: أبي بن خلف. وقيل: نزلت في أبي الأشد بن كَلْدَةَ الْجُمَحِيِّ. عن ابن عباس أيضا: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ أي ما الذي غرَّكَ حتى كفرت؟ ﴿بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ أي المتجاوز عنك قال قتادة: غرَّه شيطانه المسلط عليه. الحسن: غرَّه شيطانه الخبيث. وقيل: حمقه وجهله. رواه الحسن عن عمر رضي الله عنه. وروى غالب الحنفي قال: لَمَّا قرأ رسول الله ﷺ ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ قال: «غرَّه الجهل» وقال صالح بن مسمار: بلغنا أن رسول الله ﷺ قرأ ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾؟ فقال: «غرَّه جهله». وقال عمر رضي الله عنه: كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (٣). وقيل: غرَّه عفو الله، إذ لم يُعاقبه في أوَّل مرَّة. قال إبراهيم بن الأشعث: قيل للفضيل بن عياض: لو أقامك الله تعالى يوم القيامة بين يديه، فقال لك: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾؟ ماذا كنت تقول؟ قال: كنت أقول غرَّني ستورك المرخاة، لأن الكريم هو الستار. نظمه ابن السماك فقال:

ياكاتم الذنب أمتستحي والله في الخلو ثانيكا
غرَّك من ربك إمهاله وستره طول مساويكا

وقال ذو النون المصري: كم من مغرورٍ تحت السترٍ وهو لا يشعر. وأنشد أبو بكر طاهر الأبهري:

(١) سورة الإنفطار الآيات: (٦، ٧، ٨، ٩).

(٢) الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي الجزء التاسع عشر ص (٢٤٥،

٢٤٦، ٢٤٧) الناشر دار الكتاب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة - ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م.

(٣) سورة الأحزاب: الآية: (٧٢).

يَا مَنْ غَلَا فِي الْعُجْبِ وَالسُّبْحِ وَغَرَّهُ طَوْلُ تَمَادِيهِ
أَمْ لِي لَكَ اللَّهُ فَبَارِزَتُهُ وَلَمْ تَخَفْ غِبَّ مَعَاصِيهِ

وروي عن علي رضي الله عنه أنه صاح بغلام له مرآت فلم يلبه (١)، فنظر فإذا هو بالباب، فقال: مالك لم تُجِبي؟ فقال: لثقتي بحلمك، وأمني من عُقُوبتك. فاستحسن جوابه فأعتقه. وناس يقولون: ماغرك: ماخذعك وسؤل لك، حتى أضعت ماوجب عليك؟ وقال ابن مسعود: مامنكم من أحد إلا وسيخلو الله به يوم القيامة، فيقول له: يابن آدم ماذا غرَّكَ بي؟ يابن آدم ماذا عملت فيما علمت؟ يابن آدم ماذا أجبتم المرسلين؟ ﴿الَّذِي خَلَقَكَ﴾ أَي قَدَّرَ خَلْقَكَ مِنْ نَظْفَةِ ﴿فَسَوَّاكَ﴾ فِي بَطْنِ أُمِّكَ، وَجَعَلَ لَكَ يَدَيْنِ وَرِجْلَيْنِ وَعَيْنَيْنِ وَسَائِرَ أَعْضَائِكَ «فَعَدَّلَكَ» أَي جَعَلَكَ مَعْتَدِلًا سَوِيًّا الْخَلْقِ، كَمَا يُقَالُ: هَذَا شَيْءٌ مُعَدَّلٌ. وهذه قراءة العامة، وهي اختيار أبي عبيد وأبي حاتم، قال الفراء: وأبو عبيد: يدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (٢) وقرأ أهل الكوفة وهم عاصم وحمزة والكسائي: «فَعَدَّلَكَ» بالتخفيف أَي: أمالك وصرَّفَكَ إِلَى أَيِّ صُورَةٍ شَاءَ. إِمَّا حُسْنًا وَإِمَّا قُبْحًا (٣) وَإِمَّا طَوِيلًا وَإِمَّا قَصِيرًا. وقال موسى بن علي بن أبي رباح اللَّخْمِيُّ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ: قَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ النَّظْفَةَ إِذَا اسْتَقَرَّتْ فِي الرَّحِمِ أَحْضَرَهَا اللَّهُ كُلَّ نَسَبٍ بَيْنَهَا وَبَيْنَ آدَمَ». أَمَا قَرَأْتَ هَذِهِ الْآيَةَ «فِي أَيِّ صُورَةٍ مَشَاءَ رَكَّبَكَ» «فِي مَآئِنِكَ وَبَيْنَ آدَمَ، وَقَالَ عِكْرِمَةُ وَأَبُو صَالِحٍ: «فِي أَيِّ صُورَةٍ مَشَاءَ رَكَّبَكَ»: إِنْ شَاءَ فِي صُورَةٍ إِنْسَانًا، وَإِنْ شَاءَ فِي صُورَةٍ خَنْزِيرٍ. وَقَالَ مَكْحُولٌ: إِنْ شَاءَ ذَكَرًا، وَإِنْ شَاءَ أُنْثَى. قَالَ مُجَاهِدٌ: «فِي أَيِّ صُورَةٍ» أَيِّ فِي أَيِّ شَبَهٍ مِنْ أَبٍ أَوْ أُمٍّ أَوْ عَمٍّ أَوْ خَالَ أَوْ غَيْرِهِمْ. وَ«فِي» مُتَعَلِّقَةٌ بِ«رَكَّبَكَ»، وَلَا تَتَعَلَّقُ بِ«عَدَّلَكَ»، عَلَى قِرَاءَةِ مَنْ خَفَّفَ، لِأَنَّكَ تَقُولُ عَدَّلْتُ إِلَى كَذَا، وَلَا تَقُولُ عَدَلْتُ فِي كَذَا، وَلِذَلِكَ مَنَعَ الْفَرَّاءُ التَّخْفِيفَ، لِأَنَّهُ قَدَّرَ «فِي» مُتَعَلِّقَةٌ بِ«عَدَّلَكَ» وَلَا وَجْهَ

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) سورة التين: الآية: (٤)

(٣) نفس المصدر السابق.

له في منعه التخفيف حيث إن القراءة ثابتة بطريق التواتر الصحيح. و«ما» يجوز أن تكون صلة مؤكدة، أي في أي صورة شاء رَبَّكَ (١).

ويجوز أن تكون شرطية أي إن شاء رَبَّكَ في غير صورة الإنسان من قرده ونحوه، ف«ما» بمعنى الشرط والجزاء، أي في صورة ماشاء يركبك رَبَّكَ. قوله تعالى: «كَلَّا بَلْ تُكذِّبُونَ بِالدينِ» يجوز أن تكون «كَلَّا» بمعنى ليس الأمر كما تقولون من أنكم في عبادتكم غير الله مُحَقُّون. يدلُّ على ذلك قوله تعالى: «ما غرَّكَ رَبُّكَ الكَرِيمِ» وكذلك يقول الفراء: يصير المعنى: ليس كما غرَّرت به. وقيل: أي ليس الأمر كما تقولون، من أنه لا بعث. وقيل: هو بمعنى الردع والزجر. أي لا تغتروا بحلم الله وكرمه، فتركوا التفكر في آياته. ابن الأنباري: الوقف الجيد على «الدين»، وعلى «رَبَّكَ» والوقف على «كَلَّا» قبيح. «بلْ تُكذِّبُونَ» يا أهل مكة «بالدين» أي بالحساب، و«بل» لنفي شيء تقدم وتحقيق غيره. وإنكارهم للبعث كان معلوما، وإن لم يجزله ذكر في هذه السورة (٢) مثل آخر من هذه السورة: قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤) يَصَلُّونَهَا يَوْمَ الدينِ (١٥) وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ (١٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدينِ (١٧) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدينِ (١٨) يَوْمَ لَا تَمَلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ (١٩)﴾ قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ ذكر ما يصير إليه الفجار من الجحيم والعذاب المقيم، ولهذا قال «وما هم عنها بغائبين» أي لا يغيبون عن العذاب ساعة واحدة، ولا يخفف عنهم من عذابها ولا يجابون إلى ما يسألون من الموت أو الراحة ولو يوماً واحداً، وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدينِ﴾ تعظيم لشأن يوم القيامة ثم أكد بقوله: ﴿ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدينِ﴾، ثم فسره بقوله: ﴿يَوْمَ لَا تَمَلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا﴾ أي لا يقدر أحد على نفع أحد ولا خلاصه مما هو فيه إلا أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى (٤)، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو «يوم»

(٢٠١) نفس المصدر السابق.

(٣) سورة الانفطار: الآيات: (١٤، ١٥، ١٦، ١٧، ١٨، ١٩).

(٤) انظر تفسير القرآن العظيم للإمام الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي المكي المجلد الرابع ص (٤٣٧)

ط: دار المقيد - بيروت - لبنان. الطبعة الأولى سنة (٣-١٤هـ - ٣١٩٨٣).

بالرفع على البدل، من يوم الدين . ، أو على هو يوم لا تملك، والباقون بالنصب على أنه في موضع رفع إلا أنه نصب، لأنه مضاف غير متمكن، كما تقول: أعجبنى يوم يقوم زيد. وأنشد المبرد:

من أيِّ يومِيَّ من الموتِ أفرَّ أيومَ لم يقدرَ أم يومَ قُدرِ

ونذكر هاهنا حديث: «يابني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار لا أملك لكم من الله شيئاً»^(١) وقد تقدم في آخر تفسير سورة الشعراء ولهذا قال ﴿وَالأَمْرُ يُؤَمِّدُ لِلَّهِ﴾ كقوله - ﴿لَمَنِ المُلْكُ اليَوْمَ لِلَّهِ الوَاحِدِ القَهَّارِ﴾^(٢) وكقوله - ﴿المَلِكُ يُؤَمِّدُ الحَقُّ لِلرَّحْمَنِ﴾^(٣) وكقوله - ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾^(٤) - قال قتادة: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَالأَمْرُ يُؤَمِّدُ لِلَّهِ﴾ والأمر والله اليوم لله، ولكن لا ينازعه فيه يومئذ أحد.

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) سورة غافر: الآية (١٦).

(٣) سورة الفرقان: الآية (٢٦).

(٤) سورة الفاتحة: الآية (٤).

(سورة المطففين)

قال الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (١) وقال النبي ﷺ (٢): «إذا أذنب العبد ذنباً نُكِّتَتْ في قلبه نكتة» (٣) سوداء، فإذا عاد نكّتت أخرى، فلا يزال كذلك حتى يسود القلب، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ فإذا تاب صُقل القلب وأضاء، فإذا لاقته الموعظة لاقته قلباً مصقولاً، فصارت الموعظة له عياناً كأنه يشاهدها بعيني الفؤاد، ما يوصفُ، فصار كالمرأة إذا رينت، فمارآه فيها أبصره كالخيال، فإذا صُقلت أبصرَ فيها كل ما قبلها من شيء خلف ظهره وبين يديه، وأبصرَ مثال وجهه فيها، فإذا قابلها بعين الشمس وقع ضوء الشمس في البيت الذي ليس للشمس فيه موضع إشراق، وذلك (٤) لأن النورين إذا اجتمعا والتقيا: نور الشمس ونور المرأة - تولد من بينهما نور، فوقع في البيت المظلم، فأضاء.

فكذلك القلب الذي عليه رين الذنوب بمنزلة المرأة التي قد صدت. فإذا فكرت شيئاً من أمور الآخرة لم يتراء (٥) لك، فإذا صُقل قلبك بالتوبة والاستغفار صار كالمرأة المجلاة فإذا فكرت في سائر الذنوب، وتراءى لك قبجها، فاشتد عليك، وإذا فكرت فيما أعدّه الله لأهل المعاصي ذكرتك، وأرعبت قلبك بتعظيم ما تمثّل لك من عقابه وإذا في دار المطيعين برمت (٦) بالحياة شوقاً إلى تعظيم ما تمثّل لك من كراماته لعبده. وإذا فكرت في العرض الأكبر هالك (٧) شأنه، وأخذك القلق،

(١) سورة المطففين الآية (١٤). ران على قلوبهم: قال الفراء: كثرت المعاصي والذنوب منهم فأحاطت بقلوبهم، فذلك الرين عليها، ويقال: ران على قلبه ذنبه. أي غلب.

(٢) سنن الترمذي، والقرطبي: ١٩ - ٢٥٩.

(٣) نكتة سوداء: أثر قليل كالنقطة شبه الوسخ في المرأة والسيوف ونحوهما (النهاية)

(٤) الأمثال من الكتاب والسنة لأبي عبد الله محمد بن علي الحكمي الترمذي تحقيق علي محمد البجاوي ص (١٧٧، ١٧٨، ١٧٩).

(٥) تراءى لك: تصدّى لك لتراه. والمعنى: لم يظهر لك فتراه.

(٦) برم بالشيء: ضجر منه، واغتم وقلق.

(٧) هالك: أفزعك.

وعمل فيك الحياءُ من ربِّك. وإذا فكَّرتُ في أمرِ الملكوتِ عَظُمَ شأنُ العبادة^(١) عندك، (٢)

فإذا لاحظت جلاله وعظَّمته صار صدركَ بمنزلة البيت الذي وقع فيه نورُ الشمس حيث قابلتها بتلك المرأة، فصار الصدرُ منك ممتلئاً نوراً، وقد غابَ عنك في ذلك النورِ جميعُ ماتراى لك قبل ذلك في وقت فكرك في أمرِ الجنة والنار، وأمرِ الذنوب وكلِّ شيءٍ سواهَ ولها^(٣) قلبك عن ذلك كله، ووقع قلبك في بحارِ العظمة، فتقع في الوكَّه إلى الله، فإذا صار هذا القلبُ كجدارٍ غُسلَ وطُيِّنَ ثم جُصِّصَ، فصار أبيض، ثم نقشَ وطُيِّبَ فصار مطيباً منقوشاً، فحيتشدُّ أقبَلَ إلى الإحسان، وعلى حُسنِ الطاعة بأن يعبدَ الله كأنه يراه، فذاك منه الإحسان الذي وصفه رسولُ الله ﷺ حين سأله جبريلُ عليه السَّلام^(٤).

مثل آخر من هذه السورة: قال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ (٢٢) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ (٢٣) تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (٥) قوله: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ أي إنَّ أهل الطاعة لفي تنعم عظيم لا يقادر قدره «على الأرائك ينظرون» الأرائك: الأسرة في الحجال، وقد تقدَّم أنَّها لا تطلق الأريكة على السرير إلا إذا كان في حجلة. قال الحسن: ما كنا ندرى ما الأرائك حتى قدم علينا رجل من اليمن، فزعم أنَّ الأريكة عندهم الحجلة إذا كان فيها سرير. ومعنى «ينظرون» أنهم ينظرون إلى ما أعدَّ الله لهم من الكرامات، كذا قال عكرمة ومجاهد وغيرهما. وقال مقاتل: ينظرون إلى أهل النار، وقيل ينظرون إلى وجهه وجلاله «تعرف في وجوههم نضرة النعيم» أي إذا رأيتهم عرفت أنهم أهل النعمة لما تراه في وجوههم من النور والحسن والبياض والبهجة والرونق. والخطاب لكلِّ راء يصلح لذلك^(٦)، يقال

(١) العبادة: الطاعة، كالعبودية.

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) لها من الشيء: سلا عنه وتركه.

(٤) نفس المصدر السابق.

(٥) سورة المطففين: الآيات: (٢٢، ٢٣، ٢٤).

(٦) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير تأليف محمد بن علي بن محمد الشوكاني المجلد الخامس ص (٤٠٢). طبع: دار المعرفة بيروت - لبنان.

أنضر النبات: إذا أزهـر ونور. قال عطاء: وذلك أن الله زاد في جمالهم وفي ألوانهم ما لا يصفه واصف. قرأ الجمهور «تعرف» بفتح التاء وكسر الراء. ونصب. نضرة على المفعولية، وقرأ أبو جعفر ويعقوب بضم التاء وفتح الراء مبنياً للمفعول. ونضرة» بالرفع نائب فاعل.

مثل آخر من هذه السورة: قال تعالى: ﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلَيْتَاتِسِ الْمَتَانِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿١﴾﴾ قوله: ﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ﴾ قال أبو عبيدة والأخفش وغيرهما الرحيق من الخمر ما لا غش فيه ولا شيء يفسده. والمختوم الذي له ختام. وقال الخليل الرحيق أجود الخمر. وفي الصحاح الرحيق صفوة الخمر. وقال مجاهد: هو الخمر العتيقة البيضاء الصافية^(٢)، ومنه قول حسان:

يسقون من وردِ البريص عليهم بردى يصفق بالرحيق السَّلْسَلِ

قال مجاهد: (مختوم) مطين كأنه ذهب إلى معنى الختم بالطين، ويكون المعنى أنه ممنوع من أن تمسه يد إلى أن يفك ختمه للأبرار. وقال سعيد بن جبير وغيره: ختامه آخر طعمه، وهو معنى قوله: ﴿خِتَامُهُ مِسْكٌ﴾ أي آخر طعمه ريح المسك إذا رفع الشراب فاه من آخر شرابه وجد ريحه كريح المسك. وقيل مختوم أوانيه من الأكواب والأباريق بمسك مكان الطين، وكأنه تمثيل لكمال نفاسته وطيب رائحته. والحاصل أن المختوم والختام إما أن يكون من ختام الشيء وهو آخره، أو من ختم الشيء وهو جعل الخاتم عليه كما تختم الأشياء بالطين ونحوه. قرأ الجمهور «ختامه» بكسر الخاء بعدها تاء فألف. وقرأ الكسائي وحده بفتح الخاء وبالألف قبل التاء.

(١) سورة المطففين: الآيات (٢٥، ٢٦، ٢٧، ٢٨).

قال علقمة: أما رأيت المرأة تقول للعطّار: اجعل خاتمه مسكاً: أي آخره (١)،
والخاتم والختام يتقاربان في المعنى، إلا أنّ الخاتم الاسم، والختام المصدر، كذا قال
الفراء قال في الصحاح: والختام الطين الذي يختم به، وهكذا قال ابن زيد. قال
الفرزدق:

وبتن بجانبى مصرّعات وبت أفصّ أغلاف الختام

﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ أي فليرغب الراغبون، والإشارة بقوله «ذلك»
إلى الرّحيق الموصوف بتلك الصفة، وقيل إنّ في بمعنى إلى: أي وإلى الرّحيق
الموصوف بتلك الصفة، وقيل: إنّ في بمعنى إلى: أي وإلى ذلك فليتبادر المتبادرون
في العمل كما في قوله - لمثل هذا فليعمل العاملون - وأصل التنافس التشاجر على
الشيء. والتنازع فيه، بأن يحب كل واحد أن يتفرد به دون صاحبه، يُقال نفست
الشيء عليه أنفسه نفاسة: أي ظننت به ولم أحبّ أن يصير إليه. قال البغوي أصله
من الشيء النفس الذي تحرص عليه نفوس الناس فيريده كل واحد لنفسه، وينفس
به على غيره: أي يضمن به. قال عطاء: المعنى فليستبق السّابقون (٢).

وقال مقاتل بن سلمان: فليتنازع المتنازعون، وقوله ﴿وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ﴾
معطوف على ﴿خَاتَمُهُ مِسْكٌ﴾ صفة أخرى لرحيق: أي ومزاج ذلك الرّحيق من
تسنيم، وهو شراب ينصبّ عليهم من علو، وهو أشرف شراب الجنّة، وأصل
التسنيم في اللّغة الارتفاع، فهي عين ماء تجري من علو إلى أسفل، ومنه سنام
البعير لعلوه من بدنه، ومنه تسنيم القبور، ثم بيّن ذلك فقال ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا
الْمُقَرَّبُونَ﴾ وانتصاب عيناً على المدح.

وقال الزّجاج: على الحال، وإثماً جاز أن تكون عيننا حالا مع كونها جامدة غير
مشقة لاتصافها بقوله «يشرب بها» وقال الأخفش: إنها منصوبة بـ«يسقون» أي
يسقون عيناً، أو من عين.

(٢،١) نفس المصدر السابق.

وقال الفراء: إنها منصوبة بـ«تسليم» على أنه مصدر مشتق من السنام كما في قوله. أو إطعام في يوم ذي مسغبة يتيماً - والأول أولى، وبه قال المبرد. قيل والباء في بها زائدة: أي يشربها. أو بمعنى من^(١): أي يشرب منها. قال ابن زيد: بلغنا أنها عين تجري من تحت العرش، قيل يشرب بها المقربون صرفاً، ويمزج بها كأس أصحاب اليمين^(٢).

(٢، ١) نفس المصدر السابق.

(سورة الانشقاق)

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ۙ (٣) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۙ (٤) وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحَقَّتْ ۙ (١)﴾ قوله: ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ۙ﴾ أي بسطت كما تبسط الأدم، ودكَّت جبالها حتى صارت قاعاً صنفصفا لا ترى فيها عوجاً ولا أمثا قال مقاتل: سوَّيت كمدَّ الأديم فلا يبقى عليها بناء ولا جبل إلا أدخل فيها. وقيل مُدَّت زيد في سعتها، من المدد، وهو الزيادة «وألقت ما فيها» أي أخرجت ما فيها من الأموات والكنوز وطرحتهم إلى ظهرها «وتخلَّت» من ذلك. قال سعيد بن جبير: ألقت ما في بطنها من الموتى وتخلَّت ممن على ظهرها من الأحياء، ومثل هذا قوله - ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ (٢) وأذنت لربها» أي سمعت وأطاعت لما أمرها به من الإلقاء والتخلِّي «وحقَّت» أي وجعلت حقيقة بالاستماع لذلك والانقياد له، وقد تقدّم بيان معنى الفعلين قبل هذا (٣)

مثل آخر من هذه السورة: قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ۙ (١٠) فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ۙ (١١) وَيَصْلَى سَعِيرًا ۙ (١٢) إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مُسْرُورًا ۙ (١٣) إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ ۙ (١٤) بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ۙ (٤)﴾ وأمّا من أُوتِيَ كتابه وراء ظهره، قال الكلبي: لأن يمينه مغلولة إلى عنقه، وتكون يده اليسرى خلفه وقال قتادة ومقاتل: تُفكُّ ألواح صدره وعظامه، ثم تدخل يده وتخرج من ظهره فيأخذ كتابه كذلك ﴿فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا﴾ أي إذا قرأ كتابه قال: يا ويلاه ياثبوره، والثبور الهلاك ﴿وَيَصْلَى سَعِيرًا﴾ أي يدخلها ويقاسى حرَّ نارها وشدتها. وقرأ أبو عمر وعاصم وحمزة بفتح الياء وسكون الصاد وتخفيف اللام. وقرأ الباقون بضم الياء وفتح اللام وتشديدها، ﴿إِنَّهُ كَانَ فِي

(١) سورة الانشقاق: الآيات: (٥،٤،٣).

(٢) سورة الزلزلة: الآية: (٢).

(٣) فتح القدير الجامع بين فَنِّي الرواية والدراية تأليف محمد بن علي بن محمد الشوكاني المجلد الخامس ص

(٤٠٦) ط: دار المعرفة بيروت - لبنان.

(٤) سورة الانشقاق: الآيات: (١٠،١١،١٢،١٣،١٤،١٥).

أَهْلُهُ مَسْرُورًا ﴿١﴾ أي كان بين أهله في الدنيا مسرورا باتباع هواه وركوب شهوته بطرا (١) أشرا لعدم خطور الآخرة بباله، والجملة تعليل لما قبلها، وجملة «إنه ظن أن لن يحور» تعليل لكونه كان في الدنيا في أهله مسرورا، والمعنى: أن سبب ذلك السرور ظنه بأنه لا يرجع إلى الله ولا يبعث للحساب والعقاب لتكذيبه بالبعث وجحده للدار الآخرة، وأن في قوله «أن لن يحور» هي المخففة من الثقلية سادة مع ما في حيزها مسد مفعول ظن، والخور في اللّغة: الرجوع، يقال حار يحور: إذا رجع، وقال الراغب: الخور التردد في الأمر، ومنه نعوذ بالله من الخور بعد الكور: أي من التردد في الأمر بعد المضي فيه قدما، ومحاورة الكلام مراجعته، والمحار المرجع والمصير قال عكرمة وداود بن أبي هند: يحور كلمة بالحشية ومعناها يرجع قال القرطبي: الخور في كلام العرب: الرجوع، ومنه قوله ﷺ «اللهم إني أعوذ بك من الخور بعد الكور» يعني من الرجوع إلى النقصان بعد الزيادة، وكذلك الخور بالضم (٢)، وفي المثل حور في محارة: أي نقصان في نقصان، ومنه قول الشاعر:

واستعجلوا عن خفيف المضع فازدردوا والذم يبقى وزاد القوم في حور
والحور أيضا الهلكة، ومنه قول الراجز:

في بئرٍ لاحورٍ سرى ولاشعر

والحور أيضا: الاسم من قولك: طحنت الطاحنة فما أحرقت شيئا، أي ماردت شيئا من الدقيق. قال أبو عبيدة: أي بئر حور، و«لا» زائدة قوله تعالى: «بلى» أي ليس الأمر كما ظن، بل يحور إلينا ويرجع. «إن ربّه كان به بصيرا» قبل أن يخلقه، عالما بأن مرجعه إليها. وقيل: بلى ليحورن وليرجعن. ثم استأنف فقال: «إن ربّه كان به بصيرا» من يوم خلقه إلى أن بعثه وقيل: عالما بما سبق له من الشقاء والسعادة (٣).

(٢، ١) نفس المصدر السابق.

(٣) الجامع لأحكام القرآن لأبي عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي الجزء التاسع عشر ص (٢٧٣)، (٢٧٤) الناشر دار الكتاب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة. سنة ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م.

(سورة البروج)

قال الله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝١ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣﴾
 قَتَلَ أَصْحَابُ الْأَخْذُودِ ۝٤ النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ
 بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝٨ الَّذِي لَهُ مُلْكُ
 السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٩ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ
 يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ۝١٠﴾^(١) ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ التي تنزلها
 الشمس والقمر. وفسرت بالنجوم، أو نوع منها. وفسرت بالقصور العظام، وكل
 ذلك من آيات قدرته وشواهد وحدانيته، فإن السماء كرة متشابهة الأجزاء،
 والشكل الكروي، لا يتميز منه جانب عن جانب بطول، ولا قصر، والوضع، بل
 هو متساوي الجوانب فجعل هذه البروج في هذه الكرة على اختلاف^(٢) صورها
 وأشكالها ومقاديرها يستحيل أن توجد بغير فاعل، ويستحيل أن يكون فاعلها غير
 قادر، ولا عالم، ولا مرید، ولا حي، ولا حكيم، ولا مابين للمفعول، وهذا
 ونحوه مما هدم قواعد الطبائعية والملاحدة والفلاسفة الذين لا يثبتون للعالم رباً
 بائناً قادراً، فاعلاً بالاختيار، عالماً بتفاصيله حكيماً مديراً له. فبروج السماء هي
 منازلها، أو منازل السيارة التي فيها، من أعظم آياته سبحانه، فلهذا أقسم بها مع
 السماء، ثم أقسم باليوم الموعود وهو يوم القيامة، وهو المقسم به وعليه، كما أن
 القرآن يقسم به وعليه. ودال على وقوع اليوم الموعود باتفاق جميع الرسل عليه،
 وبما عرفه عباده من حكمته وعزته التي تأتي أن يتركهم سدى، ويخلقهم عبثاً .
 وغير ذلك من الآيات والبراهين التي يستدل بها سبحانه على إمكانه تارة، وعلى
 وقوعه تارة أخرى، وعلى تزييه عما يقول أعداؤه من أنه لا يأتي به تارة. فالأقسام
 به عند من آمن بالله كالأقسام بالسماء وغيرها من الموجودات المشاهدة بالعيان^(٣).

(١) سورة البروج: الآيات: (١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦، ٧، ٨، ٩، ١٠).

(٢) التبيان في أقسام القرآن تأليف العلامة شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن القيم الجوزية ص

(٥٦، ٥٧، ٥٨). دار الكتاب العربي.

(٣) نفس المصدر السابق.

ثم أقسم سبحانه بالشاهد والمشهود، مطلقين غير معيّنين، وأعمّ المعاني فيه أنّه المُدْرِكُ والمُدْرَكُ، والعالم والمعلوم، والرّائي والمرئي وهذا أليقّ المعاني به، وماعداه من الأقوال ذُكِرَتْ على وجه التمثيل، لا على وجه الخصوص. فإن قيل: فما وجه الارتباط بين هذه الأمور الثلاثة المقسم بها؟ قيل: هي بحمد الله في غاية الارتباط. والإقسام بها متناول لكلّ موجود في الدنيا والآخرة، وكلّ منها آية مستقلة دالة على ربوبيّته وإلهيّته، فأقسم بالعالم العلوي، وهي السماء وما فيها من البروج، التي هي أعظم الأمكنة وأوسعها نطاقاً، ثم أقسم بأعظم الأيمان وأجلّها قدراً، الذي هو مظهر ملكه، وأمره، ونهيه، وثوابه، وعقابه، ومجمع أوليائه وأعدائه، والحكم بينهم بعلمه وعدله، ثم أقسم بما هو أعمّ من ذلك كلّهُ، وهو الشاهد والمشهود، وناسب هذا القسم ذكر أصحاب الأخذود الذين عذبوا أوليائه، وهم شهود على ما يفعلون بهم، والملائكة شهود عليهم بذلك والأنبياء^(١) وجوارحهم تشهد به عليهم. وأيضاً فالشاهد هو المطلّع والرّقيب، والمخبر والمشهود وهو المطلّع عليه المخبر به، المشاهد.

فَمَنْ نَوْعُ الخَلِيقَةِ إِلَى شَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ وَهُوَ أَقْدَرُ الْقَادِرِينَ، كَمَا نَوْعَهَا إِلَى مَرْتَبِي لَنَا وَغَيْرِ مَرْتَبِي، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (٣٨) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾^(٢) كَمَا نَوْعَهَا إِلَى أَرْضٍ وَسَمَاءٍ، وَلَيْلٍ وَنَهَارٍ، وَذَكَرٍ، وَأُنْثَى، وَهَذَا التَّنَوُّعُ وَالِاخْتِلَافُ مِنْ آيَاتِهِ سُبْحَانَهُ، كَذَلِكَ نَوْعَهَا إِلَى شَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ. وَفِيهِ سِرٌّ آخَرٌ، وَهُوَ أَنْ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ مَا هُوَ مَشْهُودٌ عَلَيْهِ، وَلَا يَتِمُّ نِظَامُ الْعَالَمِ إِلَّا بِذَلِكَ، فَكَيْفَ يَكُونُ الْمَخْلُوقُ شَاهِداً رَقِيباً حَفِيفاً عَلَى غَيْرِهِ، وَلَا يَكُونُ الْخَالِقُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى شَاهِداً عَلَى عِبَادِهِ، مَطَّلِعاً عَلَيْهِمْ رَقِيباً؟

وَأَيْضاً فَإِنَّ ذَلِكَ يَتَضَمَّنُ الْقَسْمَ بِمَلَائِكَتِهِ وَأَنْبِيَائِهِ وَرَسُولِهِ، فَإِنَّهُمْ شَاهِدُونَ عَلَى الْعِبَادِ فَيَكُونُ مِنْ بَابِ اتِّحَادِ الْقَسْمِ بِهِ وَالْمَقْسَمِ عَلَيْهِ كَمَا أَقْسَمَ بِالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ، وَهُوَ الْقَسْمُ بِهِ وَعَلَيْهِ، وَأَيْضاً فَيَوْمُ الْقِيَامَةِ^(٣) مَشْهُودٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) سورة الحاقة الآيتان: (٣٨، ٣٩).

لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١﴾ يشهده الله وملائكته والإنس والجنّ والوحش، من آياته والمشهود من آياته. وأيضاً فكلامه مشهود كما قال تعالى: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ (٢) تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار. فالمشهود من أعظم آياته وكذلك الشاهد، فكلُّ ما وقع عليه اسم شاهد ومشهود فهو داخل في هذا القسم فلاوجه لتخصيصه ببعض الأنواع أو الأعيان إلاّ على سبيل التمثيل. وأيضاً فكتاب الأبرار في عليين يشهده المقربون. فالكتاب مشهود، والمقربون شاهدون والأحسن أن يكون هذا القسم مُستغنياً عن الجواب، لأنّ القصّة للتنبية على المقسم به، وأنه من آيات الربّ العظيمة. ويعد أن يكون الجواب «قتل أصحاب الأخذود» الذين فتنوا أوليائه وعذبوهم بالنار ذات الوقود. (٣)

ثم وصف حالهم القبيحة بأنهم قعود على جانب الأخدود، شاهدين مايجري على عباد الله تعالى وأوليائه عياناً بياناً، ولاتأخذهم بهم رافة ولارحمة، ولا يعيبون عليهم ديناً سوى إيمانهم بالله العزيز الحميد، الذي له ملك السموات والأرض، وهذا الوصف يقتضي إكرامهم وتعظيمهم ومحبتهم، فعاملوهم بضد ما يقتضي أن يُعاملوا به وهذا شأن أعداء الله دائماً، ينقمون على أوليائه ما ينبغي أن يحبوا ويكرموا لأجله، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ (٤) وكذلك أعداء الله على اختلاف أشكالهم وألوانهم من أهل البدع، والمعطلة، والرافضة، ومن لفّ لفهم. ثم أخبر سبحانه أنه أعدّ لهم عذاب جهنّم وعذاب الحريق (٥)، حيث لم يتوبوا، وأنهم لوتابوا بعد أن فتنوا أوليائه وعذبوهم بالنار لغفرلهم ولم يعذبهم. وهذا غاية الكرم والجود.

(٢) سورة الإسراء: الآية (٧٨).

(٤) سورة المائدة: الآية (٥٩).

(١) سورة هود: الآية (١٠٣).

(٣) نفس المصدر السابق.

(٥) نفس المصدر السابق.

قال الحسن: انظروا إلى هذا الكرم والجود، يقتلون أوليائه ويفتنونهم، وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة. انظروا إلى كرم الربّ تعالى، يدعوهم إلى التوبة وقد فتنوا أوليائه، فحرقوهم بالنار، فلا يبأس العبد من مغفرته وعفوه، ولو كان منه ما كان، فلا عداوة أعظم من هذه العداوة، ولا أكفر ممن حرق بالنار من آمن بالله وحده، وعبده وحده، ومع هذا كلّه فلو تابوا لم يُعذبهم، وألحقهم بأوليائه. (١)

مثل آخر من هذه السورة: قال تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ (١٢) إِنَّهُ هُوَ يُبَدِّئُ وَيُعِيدُ (١٣) وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ (١٤) ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (١٥) فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٦). (٢)

قوله: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ ذكره شدة بطشه، وأنه لا يعجزه شيء فإنه هو المبدئ المعيد. ومن كان كذلك شأنه فلا أشدّ من بطشه، وهو مع ذلك الغفور الودود، يغفر لمن تاب إليه ويودّه ويحبّه، فهو سبحانه الموصوف بشدة البطش، ومع ذلك هو الغفور الودود، المتودد إلى عباده بنعمه، الذي يود من تاب إليه وأقبل إليه، وهو الودود أيضاً أي المحبوب، قال البخاري في صحيحه: الودود الحبيب، والتحقيق أن اللفظ يدل على الأمرين، على كونه وأدأً لأوليائه ومودوداً لهم، فأحدهما بالوضع. والآخر باللزوم. فهو الحبيب المحب لأوليائه يحبهم ويحبونه، وقال شعيب عليه السلام ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ (٣) وما أجمل اقتران اسم الودود بالرحيم وبالغفور، فإن الرجل قد يغفر لمن أساء إليه ولا يحبه. وكذلك قد يرحم من لا يحب والربّ تعالى يغفر لعبده إذا تاب إليه، ويرحمه (٤) ويحبه مع ذلك، فإنه يحبّ التوابين، وإذا تاب إليه عبده أحبه ولو كان منه ما كان. ثم قال «ذو العرش» فأضاف العرش إلى نفسه، كما تضاف إليه الأشياء العظيمة الشريفة. وهذا يدلُّ على غاية القرب والاختصاص، كما يضيف إلى نفسه بـ«ذو» صفاته القائمة به. كقوله - ذو القوة - ذو الجلال والإكرام - ويقال: ذو

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) سورة البروج: الآيات (١٢، ١٣، ١٤، ١٥، ١٦).

(٣) سورة هود: الآية (٩٠).

(٤) نفس المصدر السابق.

العزّة، ودُو الملك ودُو الرحمة ونظائر ذلك. فلو كان حَظَّ العرش منه حَظَّ الأرض السابعة لكان لافرق أن يقال: دُو العرش، ودُو الأرض. ثم وصف نفسه بالمجيد، وهو المتضمّن لكثرة صفات كماله وسعتها، وعدم إحصاء الخلق لها. وسعة أفعاله، وكثرة خيره ودوامه. وأمّا مَنْ ليس له صفات كمال ولا أفعال حميدة فليس له من المجد شيء، والمخلوق إنّما يصير مجيداً بأوصافه وأفعاله. (١)

فكيف يكون الربّ تبارك وتعالى مجيداً. وهو معطلّ عن الأوصاف والأفعال؟ تعالى الله عما يقول المعطلّون علواً كبيراً، بل هو المجيد الفعّال لما يريد. والمجد في لغة العرب كثرة أوصاف الكمال، وكثرة أفعال الخير. وأحسن ما قرّن اسم المجيد إلى الحميد، كما قالت الملائكة لبيت الخليل عليه السلام ﴿رَحِمَتُ اللّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ (٢) وكما شرع لنا في آخر الصلاة أن نثنى على الربّ تعالى بأنّه حميد مجيد، وشرع في آخر الركعة عند الاعتدال - أن تقول «ربّنا ولك الحمد، أهل الشناء والمجد» فالحمد على الإطلاق لله الحميد المجيد، فالحميد الحبيب المستحق لجميع صفات الكمال. والمجيد العظيم الواسع القادر الغني، دُو الجلال والإكرام. ﴿إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ (٣) قرأ الجمهور. برفع المجيد على أنه نعت لـ «دُو» واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم قالوا: لأن المجد هو النهاية في الكرم والفضل، (٤) والله سبحانه هو المنعوت بذلك. وقرأ حمزة والكسائي بالجرّ على أنه نعت للعرش. وقد وصف سبحانه عرشه بالكرم كما في آخر سورة المؤمنون. وقيل هو نعت لـ «ربّك» ولا يضرّ الفصل بينهما لأنها صفات لله سبحانه. وقال مكّي: هو خبر بعد خبر، والأوّل أولى ومعنى «دُو العرش» دُو الملك والسّلطان كما يقال فلان على سرير ملكه، ومنه قول الشاعر:

رأوا عرشني تشلّم جانباه فلما أن تشلّم أفرودني

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) سورة هود: الآية (٧٣).

(٤) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير تأليف محمد بن علي بن محمد الشوكاني المجلد الخامس ص (٤١٤) دار المعارف للطباعة والنشر - بيروت - لبنان.

وقول الآخر:

إن يقتلوك فقد ثلت عروشهم بعتية بن الحارث بن شهاب
وقيل المراد: خلق العرش ﴿فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ أي من الإبداء والإعادة قال عطاء:
لا يعجز عن شيء يريد ولا يمتنع منه شيء طلبه، وارتفاع فعّال على أنه خبر مبتدأ
محذوف. قال الفراء: هو رفع على التكرير والاستئناف، لأنه نكرة محضة. قال
ابن جرير: رفع فعّال، وهو نكرة محضة على وجه الاتباع لإعراب الغفور الودود،
وإنما قال فعّال لأن ما يريد ويفعل في غاية الكثرة.

مثل آخر من هذه السورة: قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ (١٧) فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ
(١٨) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبِ (١٩) وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ (٢٠) بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ (٢١) فِي
لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ (٢١)﴾ قوله: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ﴾ الجملة مستأنفة مقررة لما تقدم من
شدة بطشه سبحانه وكونه فعّالاً لما يريد، وفيه تسلية لرسول الله ﷺ. أي هل
أتاك يا محمد خبر الجموع الكافرة المكذبة لأنبيائهم المتجندة عليها. ثم بينهم فقال
«فرعون وثمود» وهما في موضع جرّ على البديل من «الجنود» (٢) والمراد بفرعون
هو وقومه، والمراد بثمود العصران، فأقسم سبحانه وتعالى بحديثهم ما وقع منهم
من الكفر (٣) والعناد وما وقع عليهم من العذاب، وقصتهم مشهورة قد تكررت في
الكتاب العزيز ذكرها في غير موضع، واقتصر على الطائفتين لاشتهار أمرهما عند
أهل الكتاب وعند مشركي العرب ودلّ بهما على أمثالهما. ثم أضرب عن مماثلة
هؤلاء الكفار الموجودين في عصره صلى الله عليه وآله وسلم لمن تقدم ذكره، وبين
أنهم أشدّ منهم في الكفر والتكذيب فقال ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبِ﴾ أي بل
هؤلاء المشركون من العرب في تكذيب شديد لك، ولما جئت به، ولم يعتبروا بمن
كان قبلهم من الكفار ﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾ أي يقدر على أن ينزل بهم ما أنزل

(١) «سورة البروج» الآيات (١٧، ١٨، ١٩، ٢٠، ٢١، ٢٢).

(٢) الجامع لاحكام القرآن لأبي عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ج ١٩ ص (٢٩٧)

(٣) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير تأليف محمد بن علي بن محمد الشوكاني الجزء
الخامس ص (٤١٤). دار المعرفة والنشر بيروت - لبنان.

بأولئك، والإحاطة لشيء: الحصر له من جميع جوانبه، فهو تمثيل لعدم نجاتهم بعدم فوت المحاط به على المحيط. ثم ردَّ سبحانه تكذيبهم بالقرآن فقال ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ﴾ أي مُتَنَاهٍ فِي الشَّرَفِ وَالكَرَمِ وَالْبَرَكَةِ لكونه بياناً لما شرعه الله لعباده (١) من أحكام الدين والدنيا، وليس هو كما يقولون إنه شعر وكهانة وسحر ﴿فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ أي مكتوب في لوح، وهو أمُّ الكتاب محفوظ عند الله من وصول الشياطين إليه قرأ الجمهور «محموظ» بالجرّ على أنه نعت لـ «لوح» وقرأ نافع برفعه على أنه نعت لـ «قرآن» أي بل هو قرآن مجيد محفوظ في لَوْحٍ مَحْفُوظٍ. قال مقاتل: اللوح المحفوظ عن يمين العرش. (٢)

(٢، ١) نفس المصدر السابق.

(سورة الطارق)

قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۝١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۝٢ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ۝٣﴾ إن كُلَّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيَّهَا حَافِظٌ ﴿١﴾ أقسم سبحانه بـ«السماء والطارق»، وهو النجم الثاقب كما صرَّح به التنزيل. قال الواحدي: قال المفسرون: أقسم الله بالسماء والطارق، يعني الكواكب تطرق بالليل وتخفى بالنهار. قال الفراء: الطارق النجم لأنه يطلع بالليل، وما أتاك ليلاً فهو طارق. وكذا قال الزجاج والمبرد: ومنه قول امرئ القيس:

ومثلك حبلى قد طرقتُ ومرضع
فألهيتهُا عن ذي تمام محول
وقوله أيضاً:

ألم ترياني كُلمًا جئت طارقاً
وجدت بها طيباً وإن لم تطيب
وقد اختلف في الطارق هل هو نجم معين أو جنس النجم؟ فقيل هو زحل، وقيل الثريا، وقيل هو الذي ترمى به الشياطين،^(٢) وقيل هو جنس النجم. قال في الصحاح: والطارق النجم الذي يقال له كوكب الصبح ومنه قول هند بنت عتبة:

نحن بنات طارق
نمشي على النمارق
أي إن أبانا في الشرف كالنجم المضيء^(٣)، وأرجح الأقوال في هذا أن المراد به الجنس لانجم معين. ومن عينه بأنه الثريا، أوزحل، فإن أراد التمثيل فصحيح، وإن أراد التخصيص فلا دليل عليه. والمقصود أنه سبحانه أقسم بالسماء ونجومها المضيئة. وكل منها آية من آياته الدالة على وحدانيته، وسمي النجم طارقاً، لأنه يظهر بالليل بعد اختفائه بضوء الشمس، فشبّه بالطارق الذي يطرق الناس، أو أهله ليلاً^(٤) وأصل الطروق^(٥) الدقّ، فسمي قاصد الليل طارقاً لاحتياجه في الوصول

(١) سورة الطارق: الآيات (١، ٢، ٣، ٤).

(٢) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير تأليف محمد بن علي بن محمد الشوكاني المجلد الخامس ص (٤١٨، ٤١٩، ٤٢٠، ٤٢١). الناشر دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت - لبنان

(٣) نفس المصدر السابق.

(٤) التبيان في أقسام القرآن تأليف العلامة شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن القيم الجوزية ص (٣٣،

٦٤) دار الكتاب العربي.

(٥) نفس المصدر السابق.

إلى الدق . ، وقال قوم: إنَّ الطروق قد يكون نهارا . والعرب تقول: أتيتك اليوم طرقتين: أي مرتين، ومنه قوله ﷺ «أعوذ بك من شرّ طوارق الليل والنّهار لإطارقا يطرق بخير». ثم بيّن سبحانه ما هو الطارق، تفخيماً لشأنه بعد تعظيمه بالإقسام به فقال: «وما أدراك ما الطارق النجم الثاقب» الثاقب: المضيء، ومنه يقال ثقب النجم ثقوباً وثقابة إذا أضاء، وثقوبه ضوؤه. ومنه قول الشاعر:

أذاع به في الناس حتى كأنه بعلياً نار أوقدت بثقوب

قال الواحدي: الطارق يقع على كل ما طرق ليلاً، ولم يكن النبي ﷺ يدري ما المراد به لولم يبيّنه بقول «النجم الثاقب» قال مجاهد: الثاقب المتوهج. قال سفيان: كل ما في القرآن وما أدراك فقد أخبره، وكل شيء قال «وما يدريك» لم يخبره به، وارتفاع قول «النجم الثاقب» على أنه خبر مبتدأ محذوف، والجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر نشأ مما قبله، كأنه قيل ما هو؟ فقيل هو النجم الثاقب^(١) «إن كل نفس لما عليها حافظ» هذا جواب القسم، وما بينهما اعتراض، والمقسم عليه هاهنا حال النفس الإنسانية، والاعتناء بها، وإقامة الحفظه عليها، وأنّها لم تترك سدى، بل قد أرصد عليها من يحفظ عليها أعمالها ويحصيها، فأقسم سبحانه أنه مامن نفس إلا عليها حافظ من الملائكة، يحفظ عملها وقولها، ويحصي ماتكتسب من خير أو شر. واختلف في «لَمَّا» فشددتها نافع وعاصم وحمزة على أن، إن - نافية بمعنى ما «ولمّا» بمعنى إلا: أي ما كل نفس إلا عليها حافظ، وهي تكون بمعنى إلا في موضعين (أحدهما) بعد إن المخففة مثل هذا الموضع، أو المثقلة مثل قوله «وَإِنْ كُلاً لَمَّا لِيُؤْفِقِيَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ»^(٢) (والثاني) في باب القسم، سألتك بالله لَمَّا فعلت. وقرأ الباقون بالتخفيف على أن، إن - هي المخففة من الثقلية واسمها ضمير الشأن المقدر. واللام في خبرها هي الفارقة^(٣) بين إن النافية والخفيفة ومازائدة.

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) سورة هود: الآية (١١١).

(٣) نفس المصدر السابق.

مثل آخر من هذه السورة: قال تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (٧) إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (٨) يَوْمَ تَبْلَى السَّرَائِرُ﴾ (١)
 قوله: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ الفاء للدلالة على أن على كل نفس حافظ يوجب على الإنسان أن يتفكر في مبتدأ خلقه ليعلم قدرة الله على ما هو دون ذلك من البعث. قال مقاتل: يعني المكذب بالبعث ﴿مِمَّ خُلِقَ﴾ أي من أي شيء خلقه الله، والمعنى: فلينظر نظر التفكر والاستدلال حتى يعرف أن الذي ابتدأه من نطفة قادر على إعادته. ثم بين سبحانه ذلك فقال: ﴿خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ والجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر. والماء: هو المني، والدفق: الصب، ويقال دفقت الماء: أي صببته، يقال ماء دافق: أي مدفوق (٢).

ودافق ومندفق. فالمدفوق الذي وقع عليه فعلك، كالمكسور، والمضروب، والمدنق المطاوع لفعل الفاعل تقول دفقته فاندفق كما تقول كسرته فانكسر. والدافق قيل إنه فاعل بمعنى مفعول، كقولهم سرُّ كاتم وعيشة راضية. وقيل: هو على النسب، لاعلى الفعل، أي ذى دفق، أو ذات. ولم يرد الجريان على الفعل وقيل - وهو الصواب - أنه اسم فاعل على بابه، ولا يلزم من ذلك أن يكون هو فاعل الدفق. فإن اسم الفاعل هو من قام به الفعل، سواء فعله هو أو غيره كما يقال: ماء جار، ورجل ميت وإن لم يفعل الموت، بل لَمَّا قام به الموت نسب إليه على جهة الفعل. وهذا غير منكر في لغة أمة من الأمم، فضلا عن أوسع اللغات وأفصحها، وأما العيشة الراضية فالوصف بها أحسن من الوصف بالمرضية، فإنها اللائقة بهم، فشبّه ذلك برضاها بهم كما رضوا بها. كأنها رضيت بهم ورضوا بها. وهذا أبلغ من مجرد كونها مرضية فقط فتأمل (٣).

إذا كانوا يقولون: الوقت الحاضر والساعة الرَّاهنة - وإن لم يفعل ذلك، فكيف

(١) سورة الطارق: الآيات (٥، ٦، ٧، ٨، ٩).

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) انظر التبيان في أقسام القرآن تأليف العلامة شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن القيم الجوزية ص (٦٤، ٦٥) دار الكتاب العربي.

يَمْتَنَعُ أَنْ يَقُولُوا مَاءً دَافِقًا، وَعَيْشَةً رَاضِيَةً؟ وَنَبَهُ سَبْحَانَهُ بِكَوْنِهِ دَافِقًا عَلَى أَنَّهُ ضَعِيفٌ غَيْرُ مَتَمَاسِكٍ. ثُمَّ وَصَفَ هَذَا الْمَاءَ فَقَالَ ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: صَلْبُ الرَّجُلِ، وَتَرَائِبُ الْمَرْأَةِ، وَهُوَ مَوْضِعُ الْقِلَادَةِ مِنْ صَدْرِهَا وَالْوَلَدُ يَخْلُقُ مِنَ الْمَائَيْنِ جَمِيعًا. وَقِيلَ: صَلْبُ الرَّجُلِ وَتَرَائِبُهُ وَهِيَ صَدْرُهُ، فَيَخْرُجُ مِنْ صَلْبِهِ وَصَدْرِهِ. وَهَذِهِ الْآيَةُ الدَّالَّةُ عَلَى قُدْرَةِ الْخَالِقِ سَبْحَانَهُ نَظَرَ اخْرَاجَهُ اللَّبْنَ الْخَالِصَ مِنْ بَيْنِ الْفَرْثِ وَالدَّمِ. ثُمَّ ذَكَرَ الْأَمْرَ الْمُسْتَدَلَّ عَلَيْهِ وَالْمَعَادَ بِقَوْلِهِ ﴿إِنَّهُ عَلِيُّ رَجَعَهُ لِقَادِرٌ﴾ أَيُّ عَلَى رَجَعَهُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، كَمَا هُوَ قَادِرٌ عَلَى خَلْقِهِ مِنْ مَاءٍ هَذَا شَأْنُهُ هَذَا هُوَ الصَّحِيحُ فِي مَعْنَى الْآيَةِ. وَفِيهَا قَوْلَانِ ضَعِيفَانِ (أَحَدُهُمَا) قَوْلُ مُجَاهِدٍ: عَلَى رَدِّ الْمَاءِ فِي الْإِحْلِيلِ لِقَادِرٍ (وَالثَّانِي) قَوْلُ عِكْرَمَةَ وَالضَّحَّاكِ. عَلَى رَدِّ الْمَاءِ فِي الصُّلْبِ. وَفِيهِ قَوْلُ ثَالِثٍ قَالَ مُقَاتِلٌ: إِنْ شِئْتَ رَدَدْتَهُ مِنَ الْكَبِيرِ إِلَى الشَّبَابِ، وَمِنَ الشَّبَابِ إِلَى الصَّبَا. ^(١) وَالْقَوْلُ الصَّوَابُ هُوَ الْأَوَّلُ لَوْجُوهُ كَثِيرَةٌ نَكْتَفِي مِنْهَا بِذِكْرِ ثَلَاثَةِ أَمْثَلَةٍ فَقَطْ مِمَّا يَغْنِينَا عَنِ الْإِطَالَةِ بِذِكْرِهَا.

المثال الأول: أنه هو المعهود من طريقة القرآن من الاستدلال بالمبدأ على المعاد.

المثال الثاني: أن ذلك أدلُّ دليل على المطلوب من القدرة على ردِّ الماء في الإحليل.

المثال الثالث: أنه قيّد الفعل بالظرف وهو قوله «يوم تبلى السرائر»، وهو يوم القيامة، أي أن الله قادر على رجعه إليه حيًّا في ذلك اليوم... الخ.

قوله: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ أي تختبر. وقال مقاتل: تظهر وتبدؤ، وبلوت الشيء إذا اختبرته ليظهر لك باطنه، وما خفي منه، والسرائر جمع سريرة، وهي سرائر الله التي بينه وبين عبده في ظاهره وباطنه لله. فالإيمان من السرائر، وشرائعه من السرائر فتختبر في ذلك اليوم، حتى يظهر خيرها من شرِّها، ومؤديها من مضيعها. ^(٢)

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) نفس المصدر السابق ص (٦٦، ٦٧، ٦٨).

وما كان لله ممّا لم يكن له. قال عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: «ييدي الله يوم القيامة كل سرّ فيكون زيناً في الوجوه، وشيناً فيها. والمعنى تختبر السرائر بإظهارها. وإظهار مقتضياتها من الثواب والعقاب، والحمد والذم».

وفي التعبير عن الأعمال بالسرّ لطيفة، وهو أن الأعمال نتائج السرائر الباطنة، فمن كانت سريرته سالحة كان عمله صالحاً، فتبدو سريرته على وجهه نورا وإشراقاً وحياء، ومن كانت سريرته فاسدة كان عمله تابعاً لسريرته، لاعتبار بصورته، فتبدو سريرته على وجهه سواداً وظلمة وشيناً. وإن كان الذي يبدو عليه في الدنيا إنما هو عمله لاسريرته، فيوم القيامة تبدو عليه سريرته، ويكون الحكم والظهور لها. قال الشاعر:

فإن لها في مضمير القلب والحشا سريرة حبّ يوم تبلى السرائر
وقوله: ﴿فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ (١) أخبر سبحانه عن حال الإنسان (٢) في يوم القيامة أنه غير ممتنع من عذاب الله لابقوة منه ولا بقوة من خارج، وهو الناصر. فإن العبد إذا وقع في شدة، فإما أن يدفعها بقوته، أو قوّة من ينصره. وكلاهما معدوم في حقه، ونظيره قوله سبحانه ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِمَّنْ يُصْحَبُونَ﴾ (٣)

مثل آخر من هذه السورة: قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ۗ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ۗ إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ ۗ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ۗ﴾ (٤) قوله تعالى ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ۗ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ۗ﴾ فأقسم بالسماء ورجعها بالمطر، والأرض وصدعها بالنبات. قال الفراء: تبدي بالمطر ثم ترجع به، في كل عام. وقال أبو إسحق: الرجّع المطر، لأنه يجيء ويرجع ويتكرر. وكذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما: تبدي بالمطر ثم ترجع به. في كل عام والتحقيق أن هذا على وجه التمثيل. (٥)

(٢) نفس المصدر السابق.

(٤) سورة الطارق: الآيات: (١١، ١٢، ١٣، ١٤).

(١) سورة الطارق: الآية (١٠).

(٣) سورة الأنبياء: الآية (٤٣).

(٥) نفس المصدر السابق.

ورجع السماء هو إعطاء الخير الذي يكون من جهتها حالاً بعد حال، على مرور الأزمان. ترجمه رجعا، أي تعطيه مرةً بعد مرةً، والخير كله من قبل السماء يجيء. ولَمَّا كان أظهر الخير المشهود بالعيان المطر فُسرَّ الرجوع به، وحسُنَ تفسيره به ومقابلته بصدع الأرض عن النبات، وفُسرَّ الصدع بالنبات، لأنه يصدع الأرض أي يشقُّها. فأقسم سبحانه بالسماء ذات المطر، والأرض ذات النبات، وكلّ من ذلك آية من آيات الله تعالى الدالة على وحدانيته وربوبيته. وأقسم على كون القرآن حقاً وصدقاً فقال: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ (١٣) وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾. كما أقسم في أول السورة على حال الإنسان في مبدئه ومعاده. والقول الفصل هو الذي يفصل بين الحق والباطل، فيميّز هذا من هذا، ويفصل بين الناس فيما اختلفوا فيه، ومصيب الفصل الذي يفصل عنده المراد ويتميّز من غيره، كما قال: أصاب الفصل وأصاب المرء. إذا أصاب بكلامه نفس (١) المعنى المراد، ومنه فصل الخطاب. وأيضاً فالتقول الفصل بيان المعنى ضد الإجمال. فكون القرآن فصلاً يتضمّن هذه المعاني كلها، ويتضمّن كونه حقاً ليس بالباطل واللعب - قابل بين الفصل والهزل.

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ (٢) وإنما يكيد المكذّبون ويحيلون، ويخادعون لردّه، ولا يردونه بحجة، والله يكيدهم كما يكيدون دينه ورسوله وعباده، وكيده سبحانه استدراجهم من حيث لا يعلمون، والإملاء لهم حتى يأخذهم على غرّة، كما قال تعالى: ﴿وَأْمَلِي لَهُمْ إِنْ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ (٣) فالإنسان إذا أراد أن يكيد غيره يظهر له إكرامه وإحسانه إليه حتى يطمئن إليه، فيأخذه كما يفعل الزعماء والرؤساء، فإذا فعل ذلك أعداء الله بأوليائه ودينه كان كيد الله لهم حسناً لا قبح فيه، فيعطيهم ويعافيهم (٤) وهو يستدرجهم، ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾ (٥) الآية ثم قال: ﴿فَمَهْلِ الْكَافِرِينَ أَمَهُلُهُمْ رُويْدًا﴾ (٦) أي أنظرهم قليلاً ولا

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) سورة الطارق: الآيتان: (١٥، ١٦).

(٣) سورة الأعراف الآية: (١٨٣).

(٤) نفس المصدر السابق.

(٥) سورة الأنعام: الآية: (٤٤).

(٦) سورة الطارق: الآية: (١٧).

تستعجل لهم، والربّ تعالى هو الذي يمهلهم. وإنما خرج للرسول على جهة التهديد والوعيد لهم، أو على معنى انتظر بهم قليلاً. ورويدا في كلامهم يكون اسم فعل، فينصب به الاسم نحو رويداً زيدا، أي خَلَّه وأمهله، وارفق به. الثاني أن يكون مصدرا مضافا إلى المفعول، نحو رويد زيد، أي إمهال زيد، نحو ضَرَبَ الرقاب. الثالث: أن يكون نعتا منصوبا، نحو قولك: ساروا رويداً، تقول العرب: ضعه رويداً، أي وضعاً رويداً. وفي حديث عائشة في خروج النبي ﷺ بالليل من عندها إلى البقيع «فخرج رويداً، وأجاف الباب رويداً»^(١) ويجوز في هذا الوجه وجهان: أحدهما أن يكون حالا. والثاني أن يكون نعتا لمصدر محذوف.^(٢)

(١) أجاف الباب: أغلقه والحديث رواه الإمام أحمد.

(٢) نفس المصدر السابق.

(سورة الأعلى)

قوله تعالى: ﴿سُنْقُرُكَ فَلَا تَنْسَى (٦) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى (٧) وَيُسْرِكُ لِلْيُسْرَى (٨) فَذَكَرْ إِنْ نَفَعْتَ الذِّكْرَى (٩) سِيدَّكَرُ مَنْ يَخْشَى (١٠) وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى (١١)﴾ (١) قوله ﴿سُنْقُرُكَ فَلَا تَنْسَى (٦)﴾ أي سنجعلك قارئاً بأن نلهمك القراءة فلا تنسى ما تقرأه، والجملة مستأنفة لبيان هدايته ﷺ وآله وسلم الخاصة به بعد بيان الهداية العامة وهي هدايته ﷺ وآله وسلم لحفظ القرآن. قال مجاهد والكلبي: كان النبي ﷺ وآله وسلم إذا نزل عليه جبريل بالوحي لم يفرغ جبريل من آخر الآية حتى يتكلم النبي ﷺ وآله وسلم وأله وسلم بأولها مخافة أن ينساها، فنزلت ﴿سُنْقُرُكَ فَلَا تَنْسَى﴾ وقوله ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ استثناء مفرغ أي لا تنسى مما تقرأه شيئاً من الأشياء إلا ما شاء الله أن تنساه قال الفراء: وهو لم يشأ سبحانه أن ينسى محمد ﷺ وآله وسلم (٢) شيئاً كقوله - خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك (٣) - وقيل إلا ما شاء الله أن تنسى ثم تذكر بعد ذلك، فإذا قد نسي ولكنه يتذكر ولا ينسى شيئاً نسيانا كلياً. وقيل بمعنى النسخ: أي إلا ما شاء الله أن ينسخه مما نسخ تلاوته. وقيل معنى فلا تنسى: فلا تترك العمل إلا ما شاء الله أن تتركه لنسخه ورفع حكمه. وقيل المعنى: إلا ما شاء الله أن يؤخر إنزاله. وقيل «لا» في قوله ﴿فَلَا تَنْسَى﴾ للنهي: والالف مزيدة لرعاية الفاصلة. كما في قوله ﴿فَأَضْلُونا السَّبِيلَا﴾ يعني فلا تغفل قراءته وتذكره ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾ الجملة تعليل لما قبلها: أي يعلم ما ظهر وما بطن والإعلان والإسرار، وظاهره العموم فيندرج تحت ما قيل إن الجهر ما حفظه رسول الله ﷺ من القرآن، وما يخفي هو ما نسخ من صدره، ويدخل تحته أيضاً ما قيل من أن الجهر هو إعلان الصدقة، وما يخفي هو إخفاؤها، ويدخل تحته أيضاً ما قيل إن الجهر جهره ﷺ وآله وسلم وبالقرآن مع

(١) سورة الأعلى: الآيات: (٦، ٧، ٨، ٩، ١٠، ١١).

(٢) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير تأليف محمد بن علي بن محمد الشوكاني المجلد الخامس ص (٤٢٤، ٤٢٥) ط: دار المعرفة بيروت - لبنان.

(٣) سورة هود: الآية: (١٠٧).

قراءة جبريل^(١) مخافة أن يتفلت عليه، وما يخفي ما في نفسه مما يدعو إلى الجهر ﴿ونيسرك لليسرى﴾ معطوف على «سنقرئك» وما بينهما اعتراض. قال مقاتل: أي نُهَوِّنُ عليك عمل الجنة، وقيل نوفتك للطريقة التي هي أيسر وأسهل، وقيل للشيعة اليسرى، وهي الخنيفة السهلة، وقيل نُهَوِّنُ عليك الوحي حتى تحفظه وتعمل به، والأولى حمل الآية على العموم: أي نوفتك للطريقة اليسرى في الدين والدنيا في كل أمر من أمورهما التي تتوجه إليك ﴿فذكر إن نفعت الذكرى﴾ أي عظ يا محمد الناس بما أوحينا إليك وأرشدهم إلى سبل الخير واهداهم إلى شرائع الدين. قال الحسن: تذكرة للمؤمن وحجة على الكافر قال الواحدي: إن نفعت أو لم تنفع، لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعث مبلِّغاً للإعذار والإنذار، فعليه التذكير في كل حال نفع أو لم ينفع، ولم يذكر الحالة الثانية كقوله ﴿سراييل تقيكم الحر﴾ - الآية^(٢). قال الجرجاني: التذكير واجب وإن لم ينفع، فالمعنى: إن نفعت الذكرى أو لم تنفع، وقيل: إنه مخصوص في قوم بأعيانهم^(٣) وقيل إن بمعنى ما: أي فذكر ما نفعت الذكرى، لأن الذكرى نافعة بكل حال، وقيل إنها بمعنى قد، وقيل إنها بمعنى إذ. وما قاله الواحدي والجرجاني أولى، وقد سبقهما إلى القول به الفراء والنحاس. قال الرازي: إن قوله «إن نفعت الذكرى» للتنبيه على أشرف الحاليين وهو وجود النفع الذي لأجله شرعت الذكرى، والمعلق بيان على الشيء لا يلزم أن يكون عدما عند عدم ذلك الشيء، ويدل عليه آيات: منها هذه الآية، ومنها قوله تعالى - ﴿واشكروا نعمة الله إن كنتم إياه تعبدون﴾^(٤) - ومنها قوله - ﴿فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتكم﴾^(٥) - فالقصر جائز عند الخوف وعدمه، ومنها قوله - ﴿فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنا أن يقيما حدود الله﴾^(٦) -

(١) نفس المصدر السابق (٢) سورة النحل الآية: (٨١).

(٣) نفس المصدر السابق.

(٤) سورة النحل الآية: (١١٤).

(٥) سورة النساء الآية: (١٠١).

(٦) سورة البقرة الآية: (٢٣٠).

والمراجعة بدون هذا الظنّ، فهذا الشرط فيه فوائد: منها ما تقدّم، ومنها الحث على الانتفاع^(١) بالذكرى كما يقول الرجل لمن يرشده: قد أوضحت لك إن كنت تعقل، وهو تنبيه للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم على أنها لا تنفعهم الذكرى، أو يكون هذا في تكرير الدعوة، فأما الدعاء الأول فعامّ النهي: ثم بيّن سبحانه الفرق بين من تنفعه الذكرى ومن لا تنفعه فقال ﴿سيدكر من يخشى﴾ أي سيتعظ بوعظك من يخشى الله فيزداد بالتذكير خشيةً وصلاحاً ﴿ويتجنبها الأشقى﴾ أي ويتجنب الذكرى ويبعد عنها الأشقى من الكفّار لإصراره على الكفر بالله وانهماكه في معاصيه. ثم وصف الأشقى فقال ﴿الذي يصلّى النار الكبرى﴾ أي العظيمة الفظيعة، لأنها أشدّ حرّاً من غيرها. قال الحسن: النار الكبرى نار جهنم، والنار الصغرى نار الدنيا. وقال الزجاج: هي السفلى من أطباق النار، قوله: ﴿ثم لا يموت فيها ولا يحيى﴾^(٢) أي لا يموت فيها فيستريح مما هو فيه من العذاب، ولا يحيا حياة يتنفع بها^(٣). ومنه قول الشاعر:

ألا ما لنفس لا تموت فينقضي عنها ولا تحيا حياة لها طعم.

وثم للتراخي في مراتب الشدّة، لأن التردد بين الموت والحياة أفضع من صلي النار الكبرى.

مثل آخر من هذه السورة: قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾^(١٤) وذكر اسم ربه فصلّى^(١٥) بل تؤثرون الحياة الدنيا^(١٦) والآخرة خير وأبقى^(١٧) إن هذا لفي الصحف الأولى^(١٨) صحف إبراهيم وموسى^(١٩) ﴿٤﴾ قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ أي من تطهّر من الشرك فأمن بالله وحده وعمل بشرائعه. قال عطاء والربيع: من كان عمله زاكياً نامياً. وقال قتادة: تزكّى بعمل صالح. وقال قتادة وغير واحد: نزلت في صدقة الفطر. قال عكرمة: كان الرجل يقول: أقدمّ زكاتي بين يدي صلاتي. وأصل الزكاة في اللّغة النماء. وقيل المراد بالآية زكاة الأموال كلها،^(٥) وقيل المراد بها زكاة الأعمال

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) سورة الأعلى «الآية»: (١٣).

(٣) نفس المصدر السابق.

(٤) سورة الأعلى «الآيات»: (١٤، ١٥، ١٦، ١٧، ١٨، ١٩).

(٥) نفس المصدر السابق.

لا زكاة الأموال، لأن الأكثر أن يقال في الأموال زكّى لا تزكّى ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ قيل المعنى: ذكر اسم ربه بالخوف فعبدته وصلّى له، وقيل ذكر اسم ربه بلسانه فصلّى: أي فأقام الصلوات الخمس، وقيل ذكر موقفه ومعاده فعبدته، وهو كالقول الأوّل. وقيل ذكر اسم ربه بالتكبير في أوّل الصلاة لأنّها لا تنعقد إلّا بذكره، وهو قوله - الله أكبر... ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ هذا إضراب عن كلام مقدر يدل عليه السياق: أي لا تفعلون ذلك بل تؤثرون اللذات الفانية في الدنيا، قرأ الجمهور ﴿تُؤْثِرُونَ﴾ بالتاء على إرادة الخطاب، ويؤيدّها قراءة أبي ﴿بل أنتم تؤثرون﴾ بزيادة لفظ، أنتم» وهذه وإن كانت شاذة إلّا أنّها فسرت القراءة المتواترة وهذا أمر جائز لا شبهة فيه. وقرأ أبو عمرو بالياء على إرادة الغيبة. قيل والمراد بالآية الكفرة، والمراد بإيثار الحياة الدنيا هو الرضا بها والاطمئنان إليها، والإعراض^(١) عن الآخرة بالكلية، وقيل المراد بها جميع الناس من مؤمن وكافر، والمراد بإيثارها ما هو أعمّ من ذلك مما لا يخلو عنه غالب الناس من تأثير جانب الدنيا على الآخرة، والتوجه إلى تحصيل منافعها والاهتمام بها اهتماماً زائداً على اهتمامه بالطاعات وجملة ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ في محل نصب على الحال من فاعل ﴿تُؤْثِرُونَ﴾ أي والحال والشأن أنّ الدار الآخرة التي هي الجنة أفضل وأدوم من الدنيا. قال مالك بن دينار: لو كانت الدنيا من ذهب يفنى والآخرة من خزف يبقى لكان الواجب أن يؤثر خزف يبقى على ذهب يفنى، فكيف والآخرة من ذهب يبقى، والدنيا من خزف يفنى؟ والإشارة بقوله: ﴿إِنَّ هَذَا﴾ إلّا ما تقدم من فلاح من تزكّى وما بعده، وقيل إنّ إشارة إلى جميع آيات السورة، ومعنى ﴿لَقِيَ الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ أي ثابت فيها، وقوله ﴿صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ بدل من الصحف الأولى. قال قتادة وابن زيد: يريد بقوله ﴿إِنَّ هَذَا﴾ والآخرة خير وأبقى. وقالوا: تتابعت كتب الله عزّ وجلّ أنّ الآخرة خير وأبقى. وقال الحسن: تتابعت كتب الله جلّ ثناؤه «إِنَّ هَذَا لفي الصحف الأولى، وهو قوله ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ إلى آخر السورة. وأمال حمزة والكسائي أواخر آي هذه السورة كلها وورش بين بين وأمال أبو عمر ما كان منه من ذوات الرء نحو. ﴿الذكري﴾ و«الليصري» وما عدا ذلك بين بين والباقون بالفتح.

(١) نفس المصدر السابق.

(سورة الغاشية)

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ۝١ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ۝٣ تَصَلَّىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آتِيَةٍ ۝٥ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيحٍ ۝٦ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ۝٧﴾^(١) قوله: الغاشية. الداهية التي تغشى الناس بشدائدها وتلبسهم أهوالها: يعني القيامة من قوله - يوم يغشاهم العذاب - وقيل النار من قوله - وتغشى وجوههم النار - ومن فوقهم غواش - (يومئذ) يوم إذ غشيت ﴿خَاشِعَةٌ﴾ ذليلة، ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾ تعمل في النار عملاً تتعب فيه وهو جرُّها السلاسل والأغلال، وخوضها في النار كما تخوض الإبل في الوحل، وارتقاؤها دائبة في صعود من نار، وهبوطها في حدود منها. وقيل عملت في الدنيا أعمال السوء والتذت بها وتنعمت، فهي في نصب منها في الآخرة. وقيل عملت ونصبت في أعمال لا تجزئ عليها في الآخرة^(٢) من قوله - وقدمنا إلى ما عملوا من عمل - وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا - أولئك حبطت أعمالهم - وقيل الذين هم أصحاب الصوامع، ومعناه أنها خشعت لله وعملت ونصبت في أعمالها من الصوم الدائب والتهجد الواصب تصلي، قرأ أبو عمرو ويعقوب وأبو بكر بضم التاء «لا تسمع» وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالياء مضمومة، و«لاغية» بالرفع نائب فاعل، ونافع كذلك إلا أنه يقرأ بالتاء، والباقون بالتاء مفتوحة، و«لاغية» بالنصب، وقيل المصلي عند العرب أن يحفروا حفيرا فيجمعوا فيه جمرا كثيرا، ثم يعمدوا إلى شاة فيدسوها وسطه، فأما ما يشوى فوق الجمر، أو على المقلبي أو في التنور فلا يسمى مصليا «آتية» متناهية في الحد كقوله - وبين حميم آن» الضريع: يبيس الشبرق، وهو جنس من الشوك ترعاه الإبل ما دام رطبا، فإذا يبس تحامته الإبل وهو سم قاتل، قال أبو ذؤيب: (٣).

(١) سورة الغاشية: الآيات: (١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦).

(٢) الكشف تأليف أبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي الجزء الرابع ص (٢٤٦، ٢٤٧،

٢٤٨). ط: شركة مصطفى البايي الحلبي وأولاده بمصر الطبعة الأخيرة، سنة ١٣٨٥هـ - ١٩٦٦م.

(٣) نفس المصدر السابق.

رعى الشيرق الريان حتى إذا ذوى وعاد ضريعاً بان عنه النحائص
وقال: وحسن في هزم الضريع كأنها حذباء دامية كاليدين حرود
فإن قلت: كيف قيل ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيْعٍ﴾ وفي الحاقه ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ
غَسْلِيْنٍ﴾؟ قلت: العذاب ألوان والمعذبون طبقات، فمنهم أكلة الزقوم، ومنهم أكلة
الغسلين، ومنهم أكلة الضريع - لكل باب منهم جزء مقسوم - «لا يسمن» مرفوع
المحل أو مجروره على وصف طعام أو ضريع: يعني أن طعامهم من شيء ليس من
مطاعم الإنس: وإنما هو شوك، والشوك مما ترعاه الإبل وتتولع به، وهذا نوع منه
تنفر عنه ولا تقربه، ومنفعتا الغذاء منتفیان عنه وهما إماطة الجوع وإفادة القوة
والسمن في البدن، أو أريد أن لا طعام لهم أصلاً لأن الضريع ليس بطعام للبهائم
فضلاً عن الإنس، لأن الطعام ما أشبع أو أسمن وهو منهما بمعزل كما نقول: ليس
لفلان إلا الشمس، تريد نفي الظل على التوكيد^(١) وقيل قالت كفار قريش: إن
الضريع لتسمن عليه إبلنا، فنزلت لا يسمن، فلا يخلو إماً أن يتكذبوا ويتعتتوا بذلك
وهو الظاهر، فيرد قولهم بنفي السمن والشبع، وإما أن يصدقوا فيكون المعنى أن
طعامهم من ضريع ليس من جنس ضريعكم، إنما هو من ضريع غير مسمن ولا
مغن من جوع^(٢).

مثل آخر من هذه السورة: قال تعالى: ﴿فذكر إنما أنت مذكر﴾^(٣) ويستشهد بهذه
الآية الكريمة في الحث على التذكير والنصح والإرشاد وتأکید ما يجب على
الناصح والواعظ والمرشد إنما هو مجرد التذكير لا الإلزام بالقوة الجبرية، ويتأكد
هذا المعنى بقوله تعالى ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾^(٤) لبيان أن الناصح ينبغي أن لا
يتعدى دوره إلا حد فرض سيطرته على المنصوح وإرغامه على اتباع النصيحة^(٥)
﴿إلا من تولى﴾ استثناء منقطع: أي لست بمستول عليهم ولكن من تولى (وكفر)

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) سورة الغاشية الآية: «٢١».

(٤) سورة الغاشية: الآية (٢٢).

(٥) الشواهد والأمثال في القرآن الكريم تأليف الفريق يحيى عبدالله المعلمي ص (٣٤٦).

منهم فإنَّ لله الولاية والقهر فهو يعذبُه ﴿العذاب الأكبر﴾ الذي هو عذاب جهنم، وقيل هو استثناء من قوله فذكر: أي فذكر إلا من انقطع طمعك من إيمانه وتولَّى فاستحق العذاب الأكبر وما بينهما اعتراض. وقريء الآ، على إرادة التنبيه وهي شاذة، وفي قراءة ابن مسعود «فإنَّه يعذبه» بزيادة لفظ فإنه، وهذه وإن كانت شاذة أيضاً إلا أنها فسرت القراءة المتواترة بزيادة التوكيد، وقرأ أبو جعفر المدني أحد القراء العشرة «إيابهم» بالتشديد ووجهه أن يكون فيعلاً مصدر أيب فيعمل من الإياب، أو يكون أصله أوأبا فعلاً من أوب، ثم قيل إيوابا كديوان في دوآن ثم فُعلَ به ما فُعلَ بأصل سيّد وميّت. فإن قلت: ما معنى تقديم الظرف؟ قلت: معناه التشديد في الوعيد، وأنَّ إيابهم ليس إلا إلى الله الجبار، المقتدر على الانتقام، وأن حسابهم ليس بواجب إلا عليه وهو الذي^(١) يحاسب على النقيير والقظمير. ومعنى الوجوب: الوجوب في الحكمة، عن رسول الله ﷺ: «مَنْ قرأ سورة الغاشية حاسبه الله حساباً يسيراً»^(٢)

(١) المصدر السابق من تفسير الكشاف.

(٢) نفس المصدر السابق.

(سورة الفجر)

قال الله تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (٢) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (٤) هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ (٥) أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبَلِ الْمُرْصَادِ (١٤)﴾ (١) أقسم سبحانه بهذه الأشياء كما أقسم بغيرها من مخلوقاته . واختلف في الفجر الذي أقسم الله به هنا، فقيل هو الوقت المعروف، وسمي فجراً لأنه وقت انفجار الظلمة عن النهار من كل يوم. وقال قتادة: إنه فجر أول يوم من شهر المحرم، لأن منه تتفجر السنة. وقال مجاهد: يريد يوم النحر. وقال الضحاك: هو فجر ذي الحجة، لأن الله قرن الأيام به فقال ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ (٢).

أي ليالي عشر من ذي الحجة، وبه قال السدي والكلبي. وقيل المعنى: وصلاة الفجر، أو ربّ الفجر والأوّل أولى - وجواب هذا القسم وما بعده وهو قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبَلِ الْمُرْصَادِ﴾ كذا قال ابن الأنباري، وقيل محذوف لدلالة السياق عليه: أي لِيُجَازَنَ كُلُّ أَحَدٍ بِمَا عَمِلَ، أو لِيُعَذَّبَنَّ، وقدّره أبو حيان بما دلّت عليه خاتمة السورة التي قبله: أي والفجر إلخ... لإيابهم إلينا وحسابهم علينا، وهذا ضعيف جداً، وأضعف منه قول مَنْ قال: إِنَّ الْجَوَابَ قَوْلُهُ - هل في ذلك قسم لذي حجر - وأنّ هل بمعنى قد، لأن هذا لا يصح أن يكون مقسماً عليه أبداً ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ هي عشر ذي الحجة في قول أكثر المفسرين. وقال الضحاك إنها الأواخر من رمضان. وقيل العشر الأول من المحرم إلى عاشرها يوم عاشوراء. قرأ عامة القرّاء «ليالٍ» بالتثنية، وعشر صفة لها. وقرأ ابن عباس ﴿وليالٍ عشر﴾ بالإضافة، قيل والمراد ليالي أيام

(١) سورة الفجر: الآيات من (١) إلى (١٤).

(٢) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير تأليف محمد بن علي بن محمد الشوكاني

المجلد الخامس ص (٤٣٢) وما بعدها الناشر دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت - لبنان.

عشر، وكان حقّه على هذا أن يقال عشرة، لأنّ المعدود مذكّر. وأجيب عنه بأنّه إذا حذف المعدود جاز الوجهان^(١) ﴿والشفع والوتر﴾ اختلف في الشفع والوتر على سبعة عشر قولاً نكتفي منها بذكر أربعة فقط مما يغنينا عن الإطالة بذكرها كلّها:

الأول: الشفع والوتر يعمّان كلّ الأشياء شفعها ووترها.

الثاني: قيل شفع الليالي ووترها.

الثالث: قال قتادة: الشفع والوتر شفع الصلاة ووترها، منها شفع ومنها وتر.

الرابع: قيل الشفع يوم عرفة ويوم النحر، والوتر ليلة يوم النحر. ولا يخفي ما في غالب هذه الأقوال من السقوط البيّن والضعف الظاهر، والاتكال في التعيين على مجدّة الرأي الزائف، والخاطر الخاطيء. والذي ينبغي التعويل عليه ويتعيّن المصير إليه ما يدلُّ عليه معنى الشفع والوتر في كلام العرب، وهما معروفان واضحان وضوح الشمس، فالشفع عند العرب الزوج، والوتر الفرد فالمراد من الآية إمّا نفس العدد أو ما يصدق عليه من المعدودات بأنّه شفع أو وتر^(٢).

وإذا قام دليل على تعيين شيء من المعدودات في تفسير هذه الآية، فإن كان الدليل يدلُّ أنّه المراد نفسه دون غيره فذاك، وإن كان الدليل يدلُّ على أنّه ممّا تناولته هذه الآية لم يكن ذلك مانعاً من تناولها لغيره. قرأ الجمهور «الوتر» بفتح الواو. وقرأ حمزة والكسائي وخلف في - اختياره - بكسرها، وهي قراءة ابن مسعود وأصحابه وهما لغتان، والفتح لغة قريش وأهل الحجاز، والكسر لغة تميم. قال الأصمعي: كلُّ فرد وتر، وأهل الحجاز يفتحون فيقولون وتر في الفرد - وحكى يونس عن ابن كثير أنّه قرأ بفتح الواو وكسر التاء، فيحتمل أن تكون لغة ثالثة، كما يحتمل أنّه نقل كسرة الرّاء إلى التاء إجراء للوصل مجرى الوقف ﴿والليل إذا يسر﴾ قرأ الجمهور «يسر» بحذف الياء وصلًا ووفقًا اتباعاً لرسم المصحف. وقرأ نافع وأبو عمرو بحذفها في الوقف وإثباتها في الوصل. وقرأ ابن

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) نفس المصدر السابق.

كثير وابن محيصرن ويعقوب بإثباتها في الوصل والوقف . قال الخليل : تسقط الياء منها موافقة لرؤوس الآي^(١) .

قال الزجاج : والحذف أحب إليَّ لأنَّها فاصلة والفواصل تحذف منها الياءات .

قال الفراء : قد تحذف العرب الياء وتكتفي بكسر ما قبلها ، وأنشد بعضهم :

كفَّك كفُّ ما تليقُ درهمًا جودًا وأخرى تعطُ بالسيفِ دما

ما تليقُ : أي ما تمسك . قال المؤرِّخ : سألت الأَخفش عن العلة في إسقاط الياء

من يسر فقال : لا أُجيبك حتى تبيت على باب داري سنة ، فَبِتُّ على باب داره سنة

فقال : الليل لا يسري ، وإنما يسرى فيه ، فهو مصروف عن جهته ، وكلُّ ما صرفته

عن جهته بخسته من إعرابه ، ألا ترى إلى قوله - وما كانت أملك بغيا - ولم يقل

بغية ، لأنَّه صرفها من باغية .

وفي كلام الأَخفش هذا نظر ، فإنَّ صرف الشيء عن معناه لسبب من الأسباب

لا يستلزم صرف لفظه عن بعض ما يستحقه ، ولو صحَّ ذلك للزِّم في كل المجازات

العقلية واللفظية ، واللازم باطل^(٢) فالملزوم مثله ، والأصل هاهنا إثبات الياء ، لأنَّها

لام الفعل المضارع المرفوع ، ولم تحذف لعلَّة من العلل إلا لاتِّباع رسم المصحف

وموافقة رؤوس الآي إجراء للفواصل مجرى القوافي : ومعنى ﴿والليل إذا يسر﴾

إذا يمضى ، كقوله - والليل إذ أدبر - والليل إذا عَسَّس - وقيل معنى . يسر ، يسار

فيه ، كما قيل ليل نائم ، ونهار صائم ، كما في قول الشاعر :

لقد لمتنا يا أمَّ غيلان في السرى ونمتُ وماليل المطي بنائم

وبهذا قال الأَخفش والقتيبي وغيرهما من أهل المعاني ، وبالأوَّل قال جمهور

المفسِّرين . وقال قتادة وأبو العالية : ﴿والليل إذا يسر﴾ أي جاء وأقبل ، وقال

النخعي : أي استوى . قال عكرمة و قتادة والكلبي وغيرهما : هي ليلة المزدلفة خاصَّة

لاختصاصها باجتماع الناس فيها لطاعة الله سبحانه ، وقيل ليلة القدر لسراية الرحمة

فيها . والرَّاجح عدم تخصيص ليلة من الليالي دُون أخرى^(٣) .

(٢) نفس المصدر السابق .

(١) نفس المصدر السابق .

(٣) نفس المصدر السابق .

﴿هل في ذلك قسم لذي حجر﴾ هذا الاستفهام لتقرير تعظيم ما أقسم به سبحانه وتفخيمه من هذه الأمور المذكورة والإشارة بقوله «ذلك» إلى تلك الأمور، والتذكير أي هل في ذلك المذكور: من الأمور التي أقسمنا بها قسم. . أي مقسم به حقيق بأن تؤكد به الأخبار «لذي حجر» أي عقل ولب، فمن كان ذا عقل ولب علم أن ما أقسم الله به من هذه الأشياء حقيق بأن يقسم به، ومثل هذا قوله - ﴿وَأَنَّهُ لَقَسَمٌ لَّو تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ (١) قال الحسن: «لذي حجر» أي لذي حلم. وقال أبو مالك: لذي ستر من الناس. وقال الجمهور: الحجر العقل. قال الفراء: الكل يرجع إلى معنى واحد، لذي عقل ولذي حلم ولذي ستر، الكل بمعنى العقل. وأصل الحجر المنع، يقال لمن ملك نفسه ومنعها: إنّه لذو حجر، ومنه سمي الحجر لامتناعه بصلابته، ومنه حجر الحاكم على فلان: أي منعه. قال والعرب تقول: إنّه لذو حجر: إذا كان قاهرا لنفسه ضابطا لها. (٢) ثم ذكر سبحانه على طريقة الاستشهاد ما وقع من عذابه على بعض طوائف الكفار بسبب كفرهم وعنادهم وتكذيبهم للرسول تحذيرا للكفار في عصر نبينا ﷺ وتخويفا لهم أن يصيبهم ما أصابهم فقال ﴿ألم تر كيف فعل ربك بعاد. إرم ذات العماد﴾ قرأ عامة القراء بتوئين «عاد» على أن يكون إرم عطف بيان لعاد، والمراد بعاد اسم أبيهم، وإرم اسم القبيلة أو بدلا منه، وامتناع صرف إرم للتعريف والتأنيث، وقيل المراد بعاد أولاد عاد، وهم عاد الأولى، ويقال لمن بعدهم عاد الأخرى، فيكون ذكر إرم على طريقة عطف البيان أو البدل للدلالة على أنهم عاد الأولى لا عاد الأخرى، ولا بد من تقدير مضاف على كلا القولين أي أهل إرم، أو سبط إرم، فإن إرم هو جد عاد، لأنه عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح. قرأ عامة القراء «إرم» بكسر الهمزة. وفتح الراء والميم. وقرأ الحسن ومجاهد وغير واحد «أرم» (٣) بفتح

(١) سورة الواقعة الآية: (٧٦).

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) نفس المصدر السابق.

الهمزة والراء، وقرأ معاذ بإسكان الراء تخفيفاً، وهاتان القراءتان شاذتان فهما جائزتان لغة لا قراءة. قال مجاهد: مَنْ قرأ بفتح الهمزة شبهَهُم بالإرم التي هي الأعلام وأحدها أرم، وفي الكلام تقديم وتأخير: أي والفجر وكذا وكذا ﴿إِنْ رَبُّكَ بِالْمُرْصَادِ﴾ أَلَمْ تَرَ: أي أَلَمْ ينته علمك إلى ما فعل ربك بعاد، وهذه الرؤية رؤية القلب، والخطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، أو لكل مَنْ يصلح له، وقد كان أمر عاد وثمود مشهوراً عند العرب، لأن ديارهم متصلة بديار العرب، وكانوا يسمعون من أهل الكتاب أمر فرعون. وقال مجاهد أيضاً: إرم أمة من الأمم، وقال قتادة: هي قبيلة من عاد، وقيل هما عادان، فالأولى هي إرم، ومنه قول قيس بن الرقيات:

مجداً تليداً بناه أولهم أدرك عاداً وقبله إرم

قال معمر: إرم إليه مجتمع عاد وثمود، وكان يقال: عاد إرم وعاد ثمود^(١)، وكانت القبيلتان تتسبان إلى إرم. قال أبو عبيدة: هما عادان، فالأولى إرم. ومعنى ذات العماد: ذات القوة والشدة، مأخوذة من قوة الأعمدة. كذا قال الضحاك. وقال قتادة ومجاهد: إنهم كانوا أهل عمد سيارة في الربيع، فإذا هاج النبات رجعوا إلى منازلهم. وقال مقاتل: ذات العماد يعني طولهم، كان طول الرجل منهم اثني عشر ذراعاً، ويقال رجل طويل العماد: أي القامة. قال أبو عبيدة: ذات العماد ذات الطول، يقال رجل معمد: إذا كان طويلاً. وقال مجاهد وقتادة: أيضاً كان عمادا لقومهم، يقال فلان عميد القوم وعمودهم: أي سيدهم. وقال ابن زيد: ذات العماد يعني إحكام البنيان بالعمد. قال في الصحاح: والعماد الأبنية الرفيعة تذكر وتؤنث، قال عمرو بن كلثوم:

ونحن إذا عماد الحسي خرت على الإخفاض نمنع من يلينا

وقال عكرمة وسعيد المقبري: هي دمشق، ورواه ابن وهب^(٢) وأشهب عن مالك. وقال محمد بن كعب: هي الاسكندرية، ﴿التي لم يخلق مثلها في البلاد﴾ هذه صفة لعاد: أي لم يخلق مثل تلك القبيلة في الطول والشدة والقوة، وهم

(٢) نفس المصدر السابق.

(١) نفس المصدر السابق.

الذين قالوا - مَنْ أَشَدَّ مَنَّا قُوَّةَ - أو صفة للقرية على قول مَنْ قَالَ: إِنَّ إِرْمَ اسْمٍ لِقَرِيَّتِهِمْ أَوْ لِلأَرْضِ الَّتِي كَانُوا فِيهَا. والأوَّلُ أَوْلَى، ويدلُّ عليه قراءة أُبَيٍّ ﴿الَّتِي لَمْ لَمْ يَخْلُقْ مِثْلَهُمْ فِي البِلَادِ﴾ وهذه القراءة وإن كانت شاذة إلا أنها فسرت القراءة المتواترة، وقيل الإرم المهلاك قال الضحاك «إرم ذات العماد» أي أهلكتهم فجعلهم رميما، وبه قال شهر بن حوشب، ثم عطف سبحانه القبيلة الآخرة، وهي ثمود على قبيلة عاد فقال: ﴿وَتَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالوَادِ﴾ وهم قوم صالح سُمُوا بِاسْمِ جَدِّهِمْ تَمُودَ بْنِ عَابِرِ بْنِ إِرْمَ بْنِ سَامِ بْنِ نُوحٍ، ومعنى جابوا الصخر: قطعوه، والجوب القطع، ومنه جاب البلاد: إذا قطعها، ومنه سمي جيب القميص لأنه جيب: أي قطع. قال المفسرون: أوَّلُ من نَحَتِ الجِبَالَ والصَّخْرَ تَمُودُ، (١) فبنوا من المدائن ألفا وسبعمائة مدينة كلها من الحجارة، ومنه قوله سبحانه: ﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ﴾ (٢) وكانوا ينحتون الجبال وينقبونها ويجعلون تلك الأنقاب بيوتا يسكنون فيها، وقوله: ﴿بِالوَادِ﴾ متعلق بـ«جابوا» أو بمحذوف على أنه حال من الصخر، وهو وادي القرى ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الأوتَادِ﴾ أي ذو الجنود الذين لهم خيام كثيرة يشدونها بالأوتاد، أو جعل الجنود أنفسهم أوتادا لأنهم يشدون الملك كما تشدُّ الأوتاد الخيام، وقيل كان له أوتاد يعذب الناس بها ويشدهم إليها ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي البِلَادِ﴾ الموصول صفة - لعاد وثمود وفرعون - أي طغت كل طائفة منهم في بلادهم وتمردت وعتت، والطغيان مجاوزة الحد، ﴿فَاكْتَرُوا فِيهَا الفِسَادَ﴾ بالكفر ومعاصي الله والجور على عباده، ويجوز أن يكون الموصول في محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي هم الذين طغوا، أو في محل نصب على الذم (٣).

﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ يقال صبَّ عليه السوط وغشاه وقنعه، وذكر

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) سورة الحجر: الآية (٨٢).

(٣) نفس المصدر السابق.

السوط إشارة إلى أَنَّ ما أحلّه بهم في الدنيا من العذاب العظيم بالقياس إلى ما أعدّ لهم في الآخرة كالسّوط إذا قيس إلى سائر ما يعذب به . وعن عمرو بن عبّيد: كان الحسن إذا أتى على هذه الآية قال: إنّ عند الله أسواطاً كثيرة فأخذهم بسوط منها . المرصاد: المكان الذي يترتب فيه الرصد، مفعال من رصده كالميقات من وقته، وهذا مثل لإرصاده العصاة بالعقاب وأنهم لا يفوتونه . وعن بعض العرب أن قيل له: أين ربك؟ فقال: بالمرصاد . وعن عمرو بن عبّيد رحمه الله أنّه قرأ هذه السورة عند بعض الظلمة حتى بلغ هذه الآية فقال: إنّ ربك لبالمرصاد يا فلان، عرض له في هذا النداء بأنّه بعض من توعّد بذلك من الجباة فلله درّه . أي أسد فراس كان بين ثوبه يدقّ الظلمة بإنكاره ويقصع أهل الأهواء والبدع باحتجابه^(١) .

مثل آخر من هذه السورة: قال تعالى: ﴿ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا ﴾ (١٩) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا (٢٠) إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (٢١) وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (٢٢) وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى (٢٣) يَقُولُ يَا لَبِئْسَ مَا كُنْتُ يَوْمَئِذٍ (٢٤) ﴾ (٢) يعني أنّهم يجمعون في أكلهم بين نصيبهم من الميراث ونصيب غيرهم . وقيل كانوا لا يورثون النساء ولا الصبيان ويأكلون تراثهم مع تراثهم . وقيل يأكلون ما جمعه الميت من الظلمة وهو عالم بذلك، فلم في الأكل بين حلاله وحرامه . ويجوز أن يذمّ الوارث الذي ظفر بالمال سهلاً مهلاً من غير أن يعرق فيه جبينه فيسرف في إنفاقه ويأكله أكلاً واسعاً جامعاً بين ألوان المشتبهات من الأطعمة والأشربة والفواكه كما يفعل الوراث البطالون ﴿ حُبًّا جَمًّا ﴾ كثيراً شديداً مع الحرص والشره ومنع الحقوق «كلاً» ردع لهم عن ذلك وإنكارهم لفعلهم^(٣) . ثم أتى بالوعيد وذكر تحسرهم على ما فرطوا فيه حين لا تنفع الحسرة و«يومئذ» بدل من ﴿ إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴾ وعامل النصب فيهما يتذكر ﴿ دَكًّا دَكًّا ﴾ دكاً بعد دك كقوله حسبه باباً باباً: أي كرّر

(١) تفسير الكشاف تأليف أبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي الجزء الرابع ص (٢٥٠)،

٢٥١، وما بعدهما . ط: مصطفى الباي الحلبي بمصر .

(٢) سورة الفجر الآيات: (١٩، ٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٣، ٢٤) .

(٣) نفس المصدر السابق .

عليها الدك حتى عادت هباءً منبثاً. فإن قلت: ما معنى إسناد المجيء إلى الله، والحركة والانتقال إنمّا يجوزان على مَنْ كان في جهة؟ قلت: هو تمثيل لظهور آيات اقتداره وتبين آثار قهره وسلطانه، مثلتُ حاله في ذلك بحال الملك إذا حضر بنفسه ظهر بحضوره من آثار الهيئة والسياسة مالا يظهر بحضور عساكره كلها ووزرائه وخواصه عن بكرة أبيهم ﴿صَفًّا صَفًّا﴾ ينزل ملائكة كل سماء فيصطفون صفًّا بعد صفٍّ محدقين بالجنّ والإنس ﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ كقوله - ﴿وَبُرَزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى﴾ (١) ورؤيَ أنها لما نزلت تغير وجه رسول الله ﷺ وعرف في وجهه حتى اشتدّ على أصحابه، فأخبروا عليّاً رضي الله عنه فجاء فاحتضنه من خلفه وقبله بين عاتقه ثم قال: (٢) يانبي الله بأبي أنت وأمّي ما الذي حدث اليوم وما الذي غيرك؟ فتلا عليه الآية، فقال عليّ له: كيف يجاء بها؟ قال: يجيء بها سبعون ألف ملك يقودونها بسبعين ألف زمام، فتشرد شرده لو تركت لأحرقت أهل الجمع، ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ﴾ أي يتذكّر ما فرط فيه أو يتعظ ﴿وَأَنى لَهُ الذِّكْرَى﴾ ومن أين له منفعة الذكرى لا بد من تقدير حذف مضاف وإلا فبين ﴿يوم يتذكر﴾ وبين ﴿وَأنى لَهُ الذِّكْرَى﴾ تنافٍ وتناقض «قدمت لحياتي» هذه وهي حياة الآخرة أو وقت حياتي في الدنيا، كقولك جئت لعشر ليال خلون من رجب، وهذا أبين دليل على أنّ الاختيار كان في أيديهم ومعلّقا بقصدهم وإرادتهم وأنهم لم يكونوا محجوبين عن الطاعات مجبرين على المعاصي كمذهب أهل الأهواء والبدع، وإلاّ فما معنى التحسر؟! يعذب، ويوثق - قرأ الكسائي بفتحهما، وقرأ الباقر بكسرهما. والضمير للإنسان الموصوف، (٣) وقيل هو أبي بن خلف: أي لا يعذب أحد مثل عذابه ولا يوثق بالسلاسل والأغلال مثل وثاقه لتناهيه في كفره وعناده، أو لا يحمل عذاب

(١) سورة النازعات الآية: (٣٦).

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) نفس المصدر السابق.

الإنسان أحد كقوله - ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ (١) والضمير لله تعالى: أي لا يتولى عذاب الله أحد لأن الأمر لله وحده في ذلك اليوم، أو للإنسان: أي لا يعذب أحد من الزبانية مثل ما يعذبونه ﴿يا أيها النفس﴾ على إرادة القول: أي يقول الله للمؤمن: ﴿يا أيها النفس﴾، إمّا أن يكلمه إكراماً له كما كَلَّمَ موسى صلوات الله عليه، أو على لسان ملك، و﴿المطمئنة﴾ الآمنة التي لا يستفزها خوف ولا حزن وهي النفس المؤمنة، أو المطمئنة إلى الحق التي سكنها ثلج اليقين فلا يخالجهما شك. ويشهد للتفسير الأوّل قراءة أبيّ بن كعب: يا أيها النفس الآمنة المطمئنة. فإن قلت: متى يقال لها ذلك؟ قلت: إمّا عند الموت وإمّا عند البعث وإمّا عند دخول الجنة على معنى ارجعي إلى موعد ربك ﴿راضية﴾ بما أوتيت ﴿راضية﴾ عند الله ﴿فادخلي في عبادي﴾ في جملة (٣) عبادي الصالحين وانتظمي في سلكهم ﴿وادخلي جنتي﴾ معهم، وقيل النفس الرُّوح، ومعناه، فادخلي في أجساد عبادي، وقيل نزلت في حمزة بن عبدالمطلب، وقيل في خبيب بن عدي الذي صلبه أهل مكة وجعلوا وجهه إلى المدينة فقال: اللهم إن كان لي عندك خير فحول وجهي نحو قبلك، فحول الله وجهه نحوها فلم يستطع أحد أن يحوِّله، والظاهر العموم. عن رسول الله ﷺ: «مَنْ قرأ سورة الفجر في الليالي العشر غفر الله له، ومَنْ قرأها في سائر الأيام كانت له نورا يوم القيامة» (٤)

(١) سورة فاطر الآية: ١٨ .

(٢) نفس المصدر السابق .

(٣) نفس المصدر السابق .

(٤) نفس المصدر السابق .

(سورة البلد)

قال تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ (١) وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ (٢) وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ (٣)﴾
 لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴿١﴾ أقسم سبحانه بالبلد الحرام وبما بعده على أن الإنسان خلق مغموراً في مكابدة المشاق، والشدائد، واعترض بين القسم والمقسم عليه بقوله: ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ يعني ومن المكابدة أن مثلك على عظم حرمتك يستحلُّ بهذا البلد الحرام كما يستحلُّ الصيد في غير الحرم، عن شرحبيل: يُحَرِّمُونَ أَنْ يَقْتُلُوا بِهَا صَيْدًا وَيَعْضُدُوا بِهَا شَجَرَةً وَيَسْتَحْلُونَ إِخْرَاجَكَ وَقَتْلَكَ. وفيه تثبيت رسول الله ﷺ وبعث على احتمال ما كان يكابد من أهل مكة وتعجيب من حالهم في عداوته، أو على رسول ﷺ بالقسم ببلده على أن الإنسان لا يخلو من مقاساة الشدائد. واعترض بأن وعده فتح مكة تميمًا للتسوية والتنفيس عنه فقال - وأنت حلٌّ بهذا البلد - يعني وأنت حلٌّ به في المستقبل تصنع فيه ما تريد من القتل والأسر، وذلك أن الله فتح عليه مكة (٢) وأحلها له وما فتحت على أحد قبله ولا أُحِلَّتْ له فأحلَّ ما شاء وحرم ما شاء. قتل ابن خطل وهو متعلق بأستار الكعبة، وغيره وحرم دار أبي سفيان ثم قال: «إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض فهي حرام إلى أن تقوم الساعة، لم تحل لأحد قبلي ولن تحل لأحد بعدي ولم تحل لي إلا ساعة من نهار، فلا يعضد شجرها ولا يختلي خلاها ولا ينفر صيدها ولا تحل لقطتها إلا لمنشد»، فقال العباس: يا رسول الله إلا الإذخر فإنه لقيوننا وقبورنا وبيوتنا، فقال ﷺ: «إلا الإذخر» فإن قلت: أين نظير قوله وأنت حلٌّ في معنى الاستقبال؟ قلت: قوله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ (٣) ومثله واسع في كلام العباد تقول لمن تعده الإكرام والحباء أنت مكرم محبوب، وهو في كلام الله

(١) سورة البلد: الآيات: (١، ٢، ٣، ٤).

(٢) تفسير الكشاف تأليف أبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي الجزء الرابع ص (٢٥٥)، وما بعدها.

(٣) سورة الزمر: الآية: (٣٠).

أوسع لأن الأحوال المستقبلية عنده كالحاضرة المشاهدة، وكفالك دليلاً قاطعاً على أنه للاستقبال وأن تفسيره بالحال محال أن السورة بالاتفاق مكية وأين الهجرة عن وقت نزولها فما بال الفتح؟^(١) فإن قلت: ما المراد بـ «ووالد وما ولد»؟ قلت: رسول الله ﷺ ومن ولده، أقسم ببلده الذي هو مسقط رأسه وحرّم أبيه إبراهيم ومنشأ أبيه إسماعيل وبمن ولده وبه فإن قلت: لم نكر؟ قلت: للإبهام المستقلّ بالمدح والتعجب. فإن قلت: هلاً قيل ومَن ولد؟ قلت: فيه ما في قوله - ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ -^(٢) أي بأي شيء وضعت: يعني موضوعاً عجيب الشأن، وقيل هما آدم وولده، والكبد أصله من قولك كبد الرجل كبدًا فهو أكبد إذا وجعت كبده وانتفخت فاتسع فيه حتى استعمل في كل تعب ومشقة، ومنه اشتقت المكابدة كما قيل كَبَّتْهُ بمعنى أهلكه وأصله كبده إذا أصاب كبده، قال لييد:

يا عين هل بكيت أريد إذ قمنا وقام الخصوم فى كبد
 أي في شدة الأمر وصعوبة الخطب، والضمير في «أيحسب» لبعض صناديد قريش الذين كان رسول الله ﷺ يكابد منهم ما يكابد والمعنى: أظنّ هذا الصنديد القويّ في قومه المتضعف للمؤمنين أن لن تقوم^(٣) قيامة ولن يقدر على الانتقام منه وعلى مكافأته بما هو عليه، ثم ذكر ما يقوله في ذلك اليوم وأنه يقول: «أهلكت مالا لبدا» يريد كثرة ما أنفقه فيما كان أهل الجاهلية يسمونها مكارم ويدعونها معالي ومفاخر «أيحسب أن لم يره أحد» حين كان ينفق ما ينفق رثاء الناس وافتخاراً بينهم: يعني أن الله كان يراه وكان عليه رقيباً. ويجوز أن يكون الضمير للإنسان على أن يكون المعنى: أقسم بهذا البلد الشريف ومَن شرفه إنك حلُّ به ممّا يقترفه أهله من المآثم متحرّج بريء، فهو حقيق بأن أعظمه بقسمي به - لقد خلقنا الإنسان في كبد - أي في مرض، وهو مرض القلب وفساد الباطن. يريد الذين علم الله منهم حين خلقهم أنهم لا يؤمنون ولا يعملون الصالحات. وقيل الذي يحسب أن لن يقدر

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) سورة آل عمران: الآية: (٣٦).

(٣) المصدر السابق.

عليه أحد - هو أبو الأشدّيين، وكان قوياً ييسط له الأديم العكاظي فيقوم عليه ويقول: مَنْ أزالني عنه فله كذا، فلا ينزع إلا قطعاً ويبقى موضع قدميه. وقيل الوليد بن المغيرة. (لبدا)، قرأ الجمهور بضم اللام وفتح الباء مخففاً، وقرأ أبو جعفر بضم اللام وفتح الباء مشدداً^(١) ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ﴾ يبصر بهما المرثيات ﴿وَلِسَانًا﴾ يترجم به عن ضمائره ﴿وَشَفَتَيْنِ﴾ يطبقهما على فيه ويستعين بهما على النطق والأكل والشرب والنفخ وغير ذلك ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ أي طريقي الخير والشر، وقيل الثديين^(٢).

مثل آخر من هذه السورة: قال تعالى: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾^(١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ^(١٢) فَكُرْبَةَ^(١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ^(١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ^(١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ^(١٦) ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ الاقتحام: الرمي بالنفس في شيء من غير روية، يقال منه قحم في الأمر قحوماً: أي رمى بنفسه فيه من غير روية، وتقحيم النفس في الشيء: إدخالها فيه من غير روية، والقحمة بالضم المهلكة. والعقبة في الأصل: الطريق التي في الجبل، سميت بذلك لصعوبة سلوكها، وهو مثل ضربه سبحانه لمجاهدة^(٤) النفس والهوى والشيطان في أعمال البر، فجعله كالذي يتكلف صعود العقبة. قال الفراء والزجاج: ذكر سبحانه هنا «لا» مرة واحدة والعرب لا تكاد تفرد لا مع الفعل الماضي في مثل هذا الموضع حتى يعيدوها في كلام آخر كقوله - ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى﴾^(٥) وإنما أفردها هنا لدلالة آخر الكلام على معناه، فيجوز أن يكون قوله ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾^(٦) قائماً مقام التكرير كأنه قال: فلا اقتحم العقبة، ولا آمن.

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) سورة البلد: الآيات: (١١، ١٢، ١٣، ١٤، ١٥، ١٦).

(٤) انظر فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير تأليف محمد بن علي بن محمد الشوكاني الجزء الخامس ص (٤٤٤، ٤٦٥).

(٥) سورة القيامة: الآية (٣١).

(٦) سورة البلد: الآية (١٧).

قال المبرد وأبو علي الفارسي: إن «لا» هنا بمعنى لم: أي فلم يقتحم العقبة، وروي نحو ذلك عن مجاهد، فلهذا لم يحتج إلى التكرير ومنه قول زهير:

وكان طوى كشحا على مستكنة فلا هو أبداها ولم يتقدم

أي فلم يبدها ولم يتقدم، وقيل هو جار مجرى الدعاء كقولهم: لانجاء، قال أبو زيد وجماعة من المفسرين: معنى الكلام هنا الاستفهام الذي بمعنى الإنكار، تقديره: أفلا اقتحم العقبة، أو هلاً اقتحم العقبة^(١). ثم بين سبحانه العقبة فقال ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعُقْبَةُ﴾^(٢). أي أي شيء أعلمك ما اقتحامها ﴿فَكُ رُقْبَةً﴾^(٣) أي هي إعتاق رقبة وتخليصها من أسار الرق، وكل شيء أطلقته فقد فككته، ومنه: فك الرهن، وفك الكتاب، فقد بين سبحانه أن العقبة هي هذه القرب المذكورة التي تكون بها النجاة من النار قال الحسن وقتادة: هي عقبة شديدة في النار دون الجسر، فافتحموها بطاعة الله. وقال مجاهد والضحاك وغير واحد: هي الصراط الذي يضرب على جهنم كحدّ السيف. وقال كعب: هي نار دون الجسر. قيل وفي الكلام حذف: أي وما أدراك ما اقتحام العقبة؟ قرأ أبو عمرو وابن كثير والكسائي ﴿فَكُ رُقْبَةً﴾ على أنه فعل ماض ونصب رقبة على المفعولية، وهكذا قرأ أو أطعم: على أنه فعل ماض. وقرأ الباقون ﴿فَكُ رُقْبَةً أَوْ إِطْعَامًا﴾ على أنهما مصدران وجرّ رقبة بإضافة المصدر إليها، فعلى القراءة الأولى يكون الفعلان بدلاً من اقتحم أو بياناً له كأنه قيل: فلا فك ولا أطعم، والفك في الأصل: حلّ القيد^(٤)، سمي العتق فكأن الرق كالقيد، وسمي المرقوق رقبة لأنه بالرق كالأسير المربوط في رقبته

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) سورة البلد: الآية (١٢).

(٣) سورة البلد: الآية (١٣).

(٤) نفس المصدر السابق.

﴿أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾^(١) المجاعة، والسغب الجوع، والساغب الجائع. قال الرَّاغِب: يقال منه سغب الرجل سغباً وسغبوا فهو ساغب وسغبان، والمسغبة مفعلة منه، وأنشد أبو عبيدة:

فَلَوْ كُنْتُ حَرًّا يَاقِيسُ بْنُ عَاصِمٍ لَمَابَتْ شَبْعَانًا وَجَارِكُ سَاغِبًا
قال النخعي ﴿فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾ أي عزيز فيه الطعام ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾^(٢) أي قرابة، يقال: فلان ذو قرابتي وذو مقربتي، واليتيم في الأصل: الضعيف يقال: يتم الرجل: إذا ضعف، واليتيم عند أهل اللغة: مَنْ لَا أَبَ لَهُ، وقيل: هو مَنْ لَا أَبَ لَهُ وَلَا أُمَّ، ومنه قول قيس بن الملوِّح:

إِلَى اللَّهِ أَشْكُو فَقَدْ لِيَلَى كَمَا شَكَا إِلَى اللَّهِ فَقَدَ الْوَالِدِينَ يَتِيمٍ
﴿أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ أي لا شيء له كأنه لصق بالتراب لفقره، وليس له مأوى إلاَّ التراب، يقال ترب الرجل يترب ترَبًا ومتربة: إذا افتقر حتى لصق^(٣) بالتراب ضربًا، قال مجاهد: هو الذي لا يقيه من التراب لباس ولا غيره. وقال قتادة: هو ذو العيال. وقال عكرمة: هو المديون. وقال ابن جبير: هو الذي ليس له أحد. وقال عكرمة: هو البعيد التربة الغريب عن وطنه، والأول أولى، ومنه قول الهذلي:

وَكُنَّا إِذَا مَا الضيف حلَّ بأرضنا سفكنا دماء البُدنِ في تربة الحال
قرأ عامة القراء: «ذي مسغبة» على أنه صفة ليوم، ويتيما هو مفعول إطعام وقرأ الحسن: «ذا مسغبة» بالنصب على أنه مفعول إطعام: أي يطعمون ذا مسغبة، ويتيماً بدل منه وهذه القراءة وإن كانت شاذة إلاَّ أنَّ لها وجهاً جيداً في اللغة. ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾^(٤) عطف على المنفي بلا، وجاء بثم للدلالة على تراخي رتبة الإيمان ورفعة محلِّه وفيه دليل على أنَّ هذه القُرْبَ إنما تنفع مع الإيمان، وقيل المعنى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بأنَّ هذا نافع لهم. وقيل المعنى: أنه أتى بهذه

(١)، (٢) سورة البلد الآيتان: (١٤، ١٥).

(٣) نفس المصدر السابق.

(٤) سورة البلد الآية: (١٧).

القرب لوجه الله ﴿ وَتَوَاصُوا بِالصَّبْرِ ﴾ معطوف على آمنوا: أي أوصى بعضهم بعضاً بالصبر على طاعة الله وعن معاصيه. وعلى ما أصابهم من البلياء والمصائب (١) ﴿ وَتَوَاصُوا بِالْمَرْحَمَةِ ﴾ أي بالرحمة على عباد الله فإنهم إذا فعلوا ذلك رحموا اليتيم والمسكين، واستكثروا من فعل الخير بالصدقة ونحوها، والإشارة بقوله ﴿ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴾ (٢) إلى الموصول باعتبار اتصافه بالصفات المذكورة «هم أصحاب الميمنة» أي أصحاب جهة اليمين، أو أصحاب اليمين. أو الذين يعطون كتبهم بأيمانهم، وقيل غير ذلك. ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴾ (٣) أي كفروا بالقرآن، أو بما هو أعم منه، فتدخل الآيات التنزيلية والآيات الكونية التي تدل على الصانع سبحانه ﴿ هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴾ أي أصحاب الشمال، أو أصحاب الشؤم، أو الذين يعطون كتبهم بشمالهم. أو غير ذلك ﴿ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ ﴾ (٤) أي مطبقة مغلقة، يقال: أصدت الباب وأوصدته إذا أغلقته وأطبقتة (٥)، ومنه قول الشاعر:

تَحْنُ إِلَى أَجْبَالِ مَكَّةَ نَاقَتِي وَمِنْ دُونِهَا أَبْوَابُ صِنْعَاءِ مُؤَصَّدَةٌ
 قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وأبو بكر والكسائي بالواو، وقرأ أبو عمرو
 وحمزة وحفص بالهمزة مكان الواو، وهما لغتان، والمعنى واحد.

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) (٣) (٤) سورة البلد الآيات: (١٨، ١٩، ٢٠).

(٥) نفس المصدر السابق.

(سورة الشمس)

قال الله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا (١) وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَاهَا (٢) وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّاهَا (٣) وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا (٤) وَالسَّمَاءُ وَمَا بَنَاهَا (٥) وَالْأَرْضُ وَمَا طَحَاهَا (٦) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ (١) قال الزجاج وغيره: جواب القسم ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ (٢) ولَمَّا طَالَ الْكَلَامَ حَسُنَ حَذْفُ اللَّامِ مِنَ الْجَوَابِ. وقد تضمن هذا القسم الأقسام بالخالق، والمخلوق، فأقسم بالسماء وبانيها، والأرض وطاحيها، والنفس ومسويها. . فيكون الإقسام بنفس فعله تعالى، فيكون قد أقسم بالمصنوع الدال عليه، وبصنعه الدالة على كمال علمه وقدرته وحكمته وتوحيده، ولما كانت حركة الشمس والقمر، والليل والنهار أمراً يشهد الناس حدوثه شيئاً فشيئاً، ويعلمون أنَّ الحادث لا بدُّ له محدث، كان العلم منزلاً منزلاً ذَكَرَ المَحْدَثَ له لفظاً، فلم يذكر الفاعل في الأقسام الأربعة (٣).

ولهذا سلك طائفة من النظائر طريق الاستدلال بالزمان على الصانع وهو استدلال صحيح قد نبه عليه القرآن في غير موضع، كقوله ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (٤). ولما كانت السماء والأرض ثابتتين حتى ظنَّ مَنْ ظَنَّ أَنَّهُمَا قَدِيمَتَانِ ذَكَرَ مَعَ الْأَقْسَامِ بِهِمَا بَانِيَهُمَا وَمَبْدِعَهُمَا، وكذلك النفس، فإنَّ حدوثها غير مشهود، حتى ظنَّ بعضهم قَدَمَهَا فذَكَرَ مَعَ الْأَقْسَامِ بِهَا مُسَوِّبَهَا وَفَاطَرَهَا، مع ما في ذكر بناء السماء وطحو الأرض وتسوية النفس من الدلالة على الرحمة والحكمة والعناية بالخلق، فإنَّ بناء السماء يدل على أنها كالقبة العالية على الأرض، وجعلها سقفا لهذا العالم، والطحو هو مد الأرض وبسطها، وتوسيعها ليستقر عليها الأنام والحيوان، ويمكن فيها البناء والغراس والزرع، وهو متضمن لنضوب الماء عنها، وهو مما حير عقول الطبائعيين، حيث

(١) سورة الشمس الآيات: (١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦، ٧، ٨، ٩).

(٢) سورة الشمس: الآية (٢).

(٣) انظر التبيان في أقسام القرآن للعلامة شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن القيم الجوزية ص (١٣) وما بعدها).

(٤) سورة آل عمران: الآية (١٩٠).

كان مقتضى الطبيعة أن يغمرها كثرة^(١) الماء، فيروز جانب منها على الماء على خلاف مقتضى الطبيعة وكونه هذا الجانب المعين دون غيره، مع استواء الجوانب في الشكل، يقتضي تخصيصاً. فلم يجدوا بدءاً أن يقولوا: عناية الصانع اقتضت ذلك. . ولكن عناية مَنْ لا مشيئة له، ولا إرادة ولا اختيار، ولا علم بمعين أصلاً، كما تقولونه فيه محال، فعنايته تقتضي ثبوت صفات كماله ونعوت جلاله، وأنه الفاعل يفعل باختياره ما يريد. وكذلك النفس أقسم بها وبمن سواها وألهمها فجورها وتقواها، فإنَّ من الناس مَنْ يقول قديمة لا مبدع لها. ومنهم مَنْ يقول بل هي التي تبتدع فجورها وتقواها، فذكر سبحانه أنه هو الذي سواها وأبتدعها، وأنه هو الذي ألهمها الفجور والتقوى فأعلمنا أنه خالق النفوس وأعمالها. وذكر لفظ التسوية، كما ذكر في قوله - ﴿مَا عَرَفَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمَ﴾ ﴿٦﴾ ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ﴾ ﴿٢﴾ وفي قوله - فإذا ﴿سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ الآية^(٣) إيذاناً بدخول البدن في لفظ النفس. كقوله - ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ ﴿٤﴾ وقوله - ﴿فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ ﴿٥﴾ ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ ﴿٦﴾ ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ ﴿٧﴾ ونظائره. وباجتماع الروح مع البدن تصير النفس فاجرة أو تقية. وإلا فالروح بدون البدن لا فجور لها. وقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ الضمير مرفوع في «زكاهها» عائد على (مَنْ) وكذلك هو في «دسأها» المعنى قد أفلح من زكَّى نفسه. وقد خاب من دسأها هذا هو القول الصحيح، وهو نظير قوله - ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ ﴿٨﴾ وهو سبحانه إذا ذكر الفلاح علّقه بفعل المفلح، كقوله - ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٩﴾ ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ ﴿٩﴾ إلى آخر الآيات، وقوله:

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) من مواضع سورة الأعراف الآية (٢٩) وسورة ص الآية (٧٢) - نفس المصدر السابق.

(٣) سورة الأعراف: الآية: (١٨٩). (٤) سورة النور: الآية: (٦١).

(٥) سورة النساء: الآية (٢٩). (٦) سورة النور: الآية: (١٢).

(٧) سورة الأعراف: الآية: (١٤).

(٨) سورة المؤمنون: الآيات (١، ٢) إلى آخر الآيات.

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ (٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ (٤) أَوْلَيْكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأَوْلَيْكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١) وقوله: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَوْلَيْكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٢) ونظائره. قال الحسن: قد أفلح من زكّى نفسه وحملها على طاعة الله، وقد خاب من أهلكها وحملها على معصية الله. وقاله قتادة وقال ابن قتيبة: يريد أفلح من زكّى نفسه، أي تمّأها وأعلاها بالطاعة والبر والصدقة واصطناع المعروف. وقد خاب من دسّأها أي نقصها وأخفاها بترك عمل البر وركوب المعاصي، والفاجر أبدا خفي المكان، عديم المروءة، غامض الشخص، ناكس الرأس. فكأن المتصف بارتكاب الفواحش دسّ نفسه، وقمعها. ومصطنع المعروف شهر نفسه ورفعها، وكانت أجواد العرب تنزل الربى ويفاع الأرض لتشهر أنفسها. وتوقد النيران في الليل للطارقين. وكانت اللئام تنزل الأولاج والأطراف والأهضام (٣) لتخفي أماكنها على الطالبين. فأولئك أعلّوا أنفسهم وزكّوها، وأولئك أخفوا أنفسهم ودسّوها وأنشد:

وبوأت بيتك في معلم رحيب المباحات والمسرح
كفيت العفاة طلاب القرى ونبح الكلاب لمستنبح (٦)

وقال أبو العباس: سألت ابن الأعرابي عن قوله: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّأَهَا﴾ فقال دسّ معناه دسّ نفسه مع الصالحين وليس منهم، وعلى هذا فالمعنى أخفى نفسه في الصالحين، يرى الناس أنه منهم وهو منطوي على غير ما ينطوي عليه الصالحون. وقالت طائفة أخرى: الضمير يرجع إلى الله سبحانه قال ابن عباس، في رواية

(١) سورة البقرة الآيات: (٣، ٤، ٥) نفس المصدر السابق.

(٢) سورة النور الآية: (٥١).

(٣) اليفاع: المكان المرتفع، والولج: موضع أو كهف تستتر فيه المادة - الجمع أولاج، والهضم بكسر الضاد - المطمئن من الأرض.

(٤) نفس المصدر السابق.

عطاء: قد أفلحت نفس زكّاه الله وأصلحها. وهذا قول مجاهد، وعكرمة وغيرهما: قالوا: سعدت نفس وأفلحت نفس أصلحها الله وطهرها ووفقها للطاعة، حتى عملت بها، وخابت وخسرت نفس أضلّها الله وأغواها وأبطلها وأهلكها.

قال أرباب هذا القول: قد أقسم الله بهذه الأشياء التي ذكرها، لأنّها تدلُّ على وحدانيته، وعلى فلاح مَنْ طهره، وخسارة مَنْ خذله، حتى لا يظنّ أحد أنّه هو الذي يتولّى تطهير نفسه وإهلاكها بالمعصية من غير قدر سابق، وقضاء متقدّم. قالوا: وهذا أبلغ في التوحيد الذي سيقت له هذه السورة. قالوا ويدلّ عليه قوله ﴿فَالْتَمَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾^(١) قالوا: ويشهد له حديث نافع عن ابن عمر أبي مليكة^(٢) عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: انتبهت نفسي ليلة فوجدت رسول الله ﷺ وهو يقول: «ربّ أعط نفسي تقواها، وزكّتها أنت خير من زكّاه أنت وليّها ومولاها» قالوا فهذا الدعاء هو تأويل الآية، بدليل الحديث الآخر: أن النبي ﷺ كان إذا قرأ «قد أفلح من زكّاه» وقف ثم قال «اللهم آت نفسي تقواها، أنت وليّها ومولاها، وزكّتها أنت خير من زكّاه»^(٣) قالوا: وفي هذا ما يبيّن أنّ الأمر كله له سبحانه، فإنّه هو خالق النفس وملهمها الفجور والتقوى. وهو مزكّيها ومدسيها، فليس للعبد في الأمر شيء ولا هو مالك من أمر نفسه شيئاً.

قال أرباب القول الأوّل: هذا القول، وإن كان جائزاً في العربية، حاملاً للضمير المنصوب على معنى مَنْ، وإن كان لفظها مذكراً^(٤)، كما في قوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾^(٥) جمع الضمير، وإن كان

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) كذا هنا. وفي تفسير ابن كثير قال الإمام أحمد حدثنا وكيع عن نافع عن ابن عمر عن صالح بن سعيد عن عائشة وذكره. ثم قال ابن كثير: تفرد به.

(٣) رواه الحافظ ابن كثير في تفسيره من طريق الطبراني وابن أبي حاتم.

(٤) نفس المصدر السابق.

(٥) سورة يونس الآية: (٤٢).

لفظ مَنْ مفرداً، حملاً على نظمها. فهذا إنما يحسنُ حيث لا يقع لبس في مفسر الضمائر، وهاهنا قد تقدّم لفظ مَنْ، والضمير المرفوع في «زكّأها» يستحقه لفظ ومعنى، فهو أولى، ثم يعود الضمير المنصوب على النفس التي هي أولى به لفظاً ومعنى فهذا هو النظم الطبيعي الذي يقتضيه سياق الكلام ووضعه. وأمّا عود الضمير الذي يلي مَنْ على الموصول السابق وهو قوله - وما سواها - وإخلاء جاره الملاصق له وهو «مَنْ» ثم عود الضمير المنصوب وهو مؤنّت على مَنْ، ولفظه مذكّر دون النفس المؤنّثة. فهذا يجوز، لو لم يكن للكلام محمل غيره وأحسن منه. فأمّا إذا كان سياق الكلام ونظمه يقتضي خلافاً ولم تدعُ الضرورة إليه، فالحمل عليه ممتنع. قالوا: والقول الذي ذكرناه أرجح من جهة المعنى لوجوه:

(أحدها) أنّ فيه إشارة إلى ما تقدّم من تعليق الفلاح على فعل العبد واختياره، كما هي طريقة القرآن. (الثاني) أنّ فيه زيادة فائدة وهي إثبات فعل العبد^(١) وكسبه، وما يثاب وما يعاقب عليه، وفي قوله «فألهمها فجورها وتقواها» إثبات القضاء والقدر السابق. فتضمّنت الآيتان هذين الأصلين العظيمين، وهما كثيراً ما يقترنان في القرآن كقوله - ﴿كَلَّا إِنَّهُ تَذَكَّرَةٌ (٥٤) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ (٥٥) وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾^(٢) ، ﴿لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾^(٣) فتضمّنت الآيتان. الرد على القدرية والجبرية (الثالث) أنّ قولنا يستلزم قولكم، دون العكس. فإنّ العبد إذا زكّى نفسه ودسّأها فإنّما يزكّيها بعد تزكية الله لها بتوفيقه وإعانتته، وإنّما يدسّيها بعد تدسية الله لها بخذلانه، والتخلية بينه وبين نفسه، بخلاف ما إذا كان المعنى على القدر السابق المحصن، لم يبق للكسب وفعل العبد ها هنا ذكر البتّة^(٤).

وذكر في هذه السّورة ثمود، دون غيرهم من الأمم المكذّبة فقال شيخنا^(٥): هذا

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) سورة المدثر: الآيات: (٥٤، ٥٥، ٥٦).

(٣) سورة التكوير: الآيتان: (٢٨، ٢٩).

(٤) نفس المصدر السابق:

(٥) المراد به شيخ الإسلام: تقي الدين أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام بن تيمية رحمه الله.

- والله أعلم - من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى . فإنه لم يكن في الأمم المكذبة أخف ذنبا وعذابا منهم ، إذ لم يذكر عنهم من الذنوب ما ذُكرَ عن عاد، ومدين، وقوم لوط، وغيرهم . ولهذا لَمَّا ذُكرهم وعادا قال: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ (١) ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةٌ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٢) وكذلك إذا ذُكرهم مع الأمم المكذبة لم يذكر عنهم ما ذكر عن أولئك من التجبر والتكبر، والأعمال السيئة، كاللواط، وبخس المكيال والميزان، والفساد في الأرض، كما في سورة هود والشعراء وغيرهما، فكان في قوم لوط - مع الشرك - إتيان الفاحشة التي لم يسبقوا إليها . وفي قوم عاد - مع الشرك - التجبر والتكبر والتوسع (٣) في الدنيا، وشدة البطش، وقولهم «من أشد منا قوة؟» وفي أصحاب مدين - مع الشرك - الظلم في الأموال . وفي قوم فرعون - مع الشرك - الفساد في الأرض والعلو . وكان عذاب كل أمة بحسب ذنوبهم وجرائمهم . فعذب قوم عاد بالريح الشديدة العاتية، التي لا يقوم لها شيء . وعذب قوم لوط بأنواع من العذاب لم يعذب بها أمة غيرهم . فجمع لهم بين الهلاك والرجم بالحجارة من السماء، وطمس الأبصار، وقلب ديارهم عليهم بأن جعل عاليها سافلها، والخسف بهم إلى أسفل سافلين . وعذب قوم شعيب بالنار التي أحرقتهم وأحرقت تلك الأموال التي اكتسبوها بالظلم والعدوان: وأما ثمود فأهلكوا بالصيحة فماتوا في الحال، فإذا كان عذاب هؤلاء - وذنوبهم مع الشرك عقر الناقة التي جعلها الله آية لهم - فمن انتهك محارم الله واستخف بأوامره ونواهيهِ وعقر عباده، وسفك دماءهم، كان أشد عذابا . ومن اعتبر أحوال العالم قديما وحديثا، وما يعاقب به من سعى في الأرض بالفساد، وسفك الدماء (٤) بغير

(١) سورة فصلت « الآية: (١٥) .

(٢) سورة فصلت « الآية: (١٧) .

(٣) نفس المصدر السابق .

(٤) نفس المصدر السابق .

حق، وأقام الفتن واستهان بحرمات الله، علم أن النجاة في الدنيا والآخرة للذين آمنوا وكانوا يتقون.

(قلت) وقد يظهر في تخصيص ثمود ههنا بالذكر، دون غيرهم ممن هو أشد منهم جرماً، معنى آخر، وهو أنهم ردوا الهدى بعدما تيقنوه وكانوا مستبصرين به، قد تلجت له صدورهم، واستيقظت له أنفسهم، فاختاروا عليه العمى والضلالة، كما قال تعالى: في وصفهم ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ وقال: ﴿وَأَتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ (١) أي موجبة لهم التبصرة واليقين، وإن كان جميع الأمم المهلكة هذا شأنهم. فإن الله لم يهلك أمة إلا بعد قيام الحجة عليها لكن خصت ثمود من ذلك بمزيد الهدى والبصيرة. ولهذا لما قرنهم بقوم عاد قال «فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة؟» ثم قال «وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى» ولهذا أمكن عاداً المكابرة، وأن يقولوا لنبئهم ﴿مَا جِئْنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ (٢) ولم يكن ذلك لثمود، وقد رأوا البينة عياناً (٣)

وصارت لهم بمنزلة رؤية الشمس والقمر، فردوا الهدى بعد تيقنه والبصيرة التامة، فكان في تخصيصهم بالذكر تحذير لكل من عرف الحق ولم يتبعه. وهذا داء أكثر الهالكين، وهو أعم الأدواء وأغلبها على أهل الأرض. والله أعلى وأعلم بالصواب.

(١) سورة الإسراء: الآية: (٥٩).

(٢) سورة هود: الآية: (٥٣).

(٣) نفس المصدر السابق.

(سورة الليل)

قال الله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۝٣﴾
 ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾^(١) فهو سبحانه يقسم بالليل في جميع أحواله، إذ هو من آياته
 الدالة عليه. فأقسم به وقت غشيانه، وأتى بصيغة المضارع لأنه يغشى شيئاً بعد
 شيء. وأمّا النهار فإنه إذا طلعت الشمس ظهر وتجلّى وهلة واحدة. ولهذا قال في
 سورة الشمس ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۝١ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ۝٢ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ۝٣ وَاللَّيْلِ
 إِذَا يَغْشَاهَا﴾ وأقسم به وقت سريانه كما تقدّم. وأقسم به وقت إدباره. وأقسم به
 إذا عسعس فليل معناه أدبر، فيكون مطابقاً لقوله ﴿والليل إذا أدبر، والصبح إذا
 أسفر﴾ وقيل: معناه أقبل، فيكون كقوله «والليل إذا يغشى. والنهار إذا تجلّى»
 فيكون قد أقسم بإقبال الليل والنهار. وعلى الأول يكون القسم واقعا على انصرام
 الليل ومجيء النهار عقيبها، وكلاهما من آيات ربوبيته. ثم أقسم بخلق الذكر
 والأنثى وذلك يتضمن الإقسام بالحيوان كلّ على اختلاف أصنافه، ذكره وأنثاه،
 وقابل بين الذكر والأنثى، كما قابل بين^(٢) الليل والنهار. وكل ذلك من آيات
 ربوبيته. فإن إخراج الليل والنهار بواسطة الأجرام العلوية، كإخراج الذكر والأنثى
 بواسطة الأجرام السفلية. فأخرج من الأرض ذكور الحيوان وإنثاه على اختلاف
 أنواعها، كما أخرج من السماء الليل والنهار، بواسطة الشمس فيها. قوله «إن
 سعيكم لشتى» هذا جواب القسم، وهو المقسم عليه، ولفظ السعي هو العمل.
 لكن يراد به العمل الذي يهتم به صاحبه ويجتهد فيه بحسب الإمكان. فإن كان
 يفتقر إلى عدو بدنه عدا، وإن كان يفتقر إلى جمع أعوانه جمع، وإن كان يفتقر
 إلى تفرغ له وترك غيره فعل ذلك. فلفظ السعي في القرآن جاء بهذا الاعتبار، ليس
 هو مرادفاً للفظ العمل، كما ظنّه طائفة. بل هو عمل مخصوص، يهتم به صاحبه

(١) سورة الليل الآيات: (١، ٢، ٣، ٤).

(٢) التبيان في أقسام القرآن العلامة شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن القيم الجوزية ص (٣٥) وما
 بعدها).

ويجتهد فيه . ولهذا قال في سورة الجمعة: «فاسعوا إلى ذكر الله» وهذه أحسن من قراءة مَنْ قرأ «فامضوا إلى ذكر الله»^(١) وهذه شاذة وإن كانت مفسرة للقراءة المتواترة، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال «إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها تسعون، وأتوها تمشون، وعليكم السكينة، فما أدركتم فصلوا، وما فاتكم فأتموا»^(٢) فلم ينفه عن السعي إلى الصلاة فإن الله أمر بالسعي إليها، بل نهاهم أن يتأوا إليها يسعون، فنهاهم عن الإتيان المتصف بسعي صاحبه، والإتيان فعل البدن، وسعيه عدو البدن، وهو منهي عنه . وأما السعي المأمور به في الآية فهو الذهاب إليها على وجه الاهتمام بها والتفرغ لها عن الأعمال الشاغلة، من بيع وغيره، والإقبال بالقلب على السعي إليها . وهو العمل الذي يقصده صاحبه ويعتني به، ليرتب عليه ثواب أو عقاب، بخلاف المباحات المعتادة، فإنها لم تدخل في هذا السعي كما أقسم سبحانه بزمان السعي وهو الليل والنهار والساعي، وهو الذكر والأنثى، على اختلاف السعي، كما اختلف الليل والنهار، والذكر والأنثى وسعيه وزمانه مختلف، وذلك دليل على اختلاف جزائه وثوابه، وأنه سبحانه لا يسوي بين من اختلف سعيه في الجزاء، كما لم يسو بين الليل والنهار والذكر والأنثى^(٣) .

ثم أخبر عن تفريقه بين عاقبة سعي المحسن وعاقبة سعي المسيء فقال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (٤) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٥) فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى (٦) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى﴾^(٤) فتضمنت الايتان ذكر شرعه، وذكر الأعمال وجزائها، وحكمة القدر في تيسير هذا اليسرى، وهذا للعسرى، وأن العبد ميسر بأعماله لغاياتها، ولا يظلم ربك أحدا، وذكر للتيسير اليسرى ثلاثة أسباب (أحدها) إعطاء العبد، وحذف مفعول الفعل إرادة الإطلاق والتعميم، أي أعطى ما أمر به

(١) نفس المصدر السابق .

(٢) رواه البخارى ومسلم .

(٣) نفس المصدر السابق .

(٤) سورة الليل الآيات: (٥، ٦، ٧، ٨، ٩، ١٠) .

وسمحت به طبيعته، وطاوعته نفسه، وذلك يتناول إعطاءه من نفسه الإيمان والطاعة، والإخلاص، والتوبة، والشكر، وإعطاءه الإحسان، والنفع بماله، ولسانه، وبدنه، ونيته، وقصده، فتكون نفسه نفساً مطيعة باذلة، لا لئيمة مانعة، فالنفس المطيعة هي النافعة المحسنة، التي طبعها الإحسان وإعطاء الخير اللازم والمعدى، فتعطى خيرها لنفسها ولغيرها، فهو بمنزلة العين التي ينتفع الناس بشربهم منها. وسقي دوابهم^(١) وأنعامهم وزرعهم، فهم ينتفعون بها كيف شاءوا فهي ميسرة لذلك، وهكذا الرجل المبارك ميسر للنفع حيث حل. فجزاء هذا أن ييسره الله لليسرى كما كانت نفسه ميسرة للعطاء.

(السبب الثاني) التقوى، وهي اجتناب ما نهى الله عنه، وهذا من أعظم أسباب التيسير، وضده من أسباب التعسير، فالمتقي ميسر عليه أمور دنياه وآخرته، وتارك التقوى وإن يسرت عليه بعض أمور دنياه تعسر عليه من أمور آخرته بحسب ما تركه من التقوى. وأما تيسير ما تيسر عليه من أمور الدنيا، فلو اتقى الله لكان تيسيرها عليه أتم، ولو قدر أنها لم تيسر له فقد يسر الله له من الدنيا ما هو أنفع له مما ناله بغير التقى، فإن طيب العيش، ونعيم القلب، ولذة الروح، وفرحها وابتهاجها من أعظم نعيم الدنيا، وهو أجل من نعيم أرباب الدنيا بالشهوات واللذات. وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾^(٢) فأخبر أنه ييسر على المتقي ما لا ييسر على غيره،^(٣) وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾^(٤) وهذا أيضاً ييسر عليه بتقواه. وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾^(٥) وهذا يتيسر عليه بإزالة ما يخشاه، وإعطاءه ما يحبه ويرضاه. وقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(٦) والفلاح غاية اليسر، كما أن

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) سورة الطلاق الآية: (٤)

(٣) نفس المصدر السابق.

(٤، ٥) سورة الطلاق الآيتان: (٢، ٤، ٥).

(٦) سورة آل عمران الآية: (١٣٠).

الشقاء غاية العسر، والآيات في هذا أكثر من أن تحصى فمن أراد إحصاءها فليراجعها في مواضع سورها.

فقد جعل سبحانه التقوى سبباً لكل يسر، وترك التقوى سبباً لكل عسر.
(السبب الثالث) التصديق بالحسنى، وفسرت بلا إله إلا الله، وفسرت بالجنة، وفسرت بالخلف، وهي أقوال السلف، واليسرى صفة لموصوف محذوف أي الحالة والخلة اليسرى، وهي فعلى من اليسر. والأقوال الثلاثة ترجع إلى أفضل الأعمال، وأفضل الجزاء فمن فسرها بلا إله إلا الله فقد فسرها بمفرد يأتي بكل جمع^(١) فإن التصديق الحقيقي بلا إله إلا الله يستلزم التصديق بشعبها وفروعها كلها، وجميع أصول الدين وفروعه من شعب هذه الكلمة ومن فسرها الحسنى بالجنة فسرها على أنواع الجزاء وكماله، ومن فسرها بالخلف ذكر نوعاً من الجزاء فهذا جزاء ذنوبي، والجنة الجزاء في الآخرة فرجع التصديق بالحسنى إلى التصديق بالإيمان وجزائه.

والتحقيق أنها تتناول الأمرين.

قال ابن عباس: (فسنيسره لليسرى) أي نهيته لعمل الخير، نيسر عليه أعمال الخير. وقال مقاتل، والكلبي، والفراء: نيسره للعود إلى العمل الصالح. وحقيقة اليسرى أنها الخلة الحالة السهلة النافعة الواقعة له، وهي ضد العسرى. وذلك يتضمّن تيسيره للخير وأسبابه، فيجري الخير، وييسر على قلبه ويديه ولسانه، وجوارحه. فتصير خصال الخير ميسرة عليه، مذلة له منقادة، لا تستعصى عليه، ولا تستصعب، لأنه مهياً لها، ميسر لفعالها. يسلك سبلها ذللاً، وتقاد له علماً وعملاً فإذا خالته قلت هو الذي قيل فيه: (٢)

مبارك الطلعة ميمونها يصلح للدنيا والدين

«وأما من بخل» فعطل قوة الإرادة والإعطاء عن فعل ما أمر به (استغنى) بترك

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) نفس المصدر السابق.

التقوى عن ربه، فعطلَّ الانكشاف والترك عن فعل ما نهى عنه (وكذب بالحسنى) فعطلَّ قوة العلم والشعور عن التصديق بالإيمان وجزائه (فسيِّره للعسرى) قال عطاء: سوف أحول بين قلبه وبين الإيمان بي وبرسولي، وقال مقاتل: يعسر عليه أن يعطى خيراً.

وقال عكرمة، عن ابن عباس: نُسيَّره للشرِّ، قال الواحدي: وهذا هو القول. لأنَّ الشرَّ يؤدي إلى العذاب، فهو الخلة العسرى والخير يؤدي إلى اليسر، والراحة في الجنة، فهو الخلة اليسرى يقول سنهيوه للشرِّ، بأن يجريه على يديه. قال الفراء: العرب تقول قد يسرت غنم فلان إذا تهيأت للولادة، وكذلك إذا ولدت وغزرت ألبانها، أي يسرت ذلك على أصحابها. انتهى.

والتيسير للعسرى يكون بأمرين: (أحدهما) أنه يحول بينه وبين أسباب الخير (١) فيجري الشرَّ على قلبه ونيته ولسانه وجوارحه (والثاني) أن يحول بينه وبين الجزاء الأيسر، كما حال بينه وبين أسبابه، فإن قيل: كيف قابل اتقى باستغنى؟ وهل يمكن للعبد أن يستغني عن ربه طرفة عين؟

قيل: هذا من أحسن المقابلة، فإنَّ المتقي لما استشعر فقده وفاقته وشدة حاجته إلى ربه اتقاه، ولم يتعرض لسخطه وغضبه ومقته بارتكاب ما نهاه عنه. فإن من كان شديد الحاجة والضرورة إلى شخص، فإنه يتقي غضبه وسخطه عليه غاية الاتقاء، ويجانب ما يكرهه غاية المجانبة، ويعتمد فعل ما يحبه ويؤثره. فقابل التقوى بالاستغناء تبشيعاً لحال تارك التقوى، ومبالغة في ذمه، بأن فعل المستغني عن ربه، لا فعل الفقير المضطر إليه الذي لا ملجأ له إلا إليه، ولا غنى له عن فضله وجوده وبره طرفة عين. فله ما أحلى هذه المقابلة وما أجمع هاتين الآيتين للخيرات كلها وأسبابها، والشروع كلها وأسبابها. (٢)

فسبحان من تعرف إلى خصائص عباده بكلامه، وتجلّى لهم فيه، فهم لا يطلبون أثراً بعد عين، ولا يستبدلون الحق بالباطل، والصدق بالكذب.

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) نفس المصدر السابق.

وقد تضمنت هاتان الآيتان فصل الخطاب في مسألة القدر، وإزالة كل لبس وإشكال فيها. وذلك بين بحمد الله لمن وُقِّق لفهمه. ولهذا أجاب بها النبي ﷺ مَنْ أورد عليه السؤال الذي لا يزال الناس يلهجون به في القدر. فأجاب بفصل الخطاب وأزال الإشكال. ففي الصحيحين من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ: ما منكم من أحد إلا وقد علم مقعده من الجنة والنار قيل: يا رسول الله، أفلا ندع العمل ونتكل على الكتاب؟ قال «اعملوا، فكلّ ميسرٍ لِمَا خَلَقَ لَهُ» ثم قرأ ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى. فَسَنِيسِرُّهُ لِلْيَسْرَى﴾ فقد تضمّن هذا الحديث الرد على القدرية والجبرية، وإثبات القدر والشرع، وإثبات الكتاب الأوّل^(١) المتضمن لعلم الله سبحانه الأشياء قبل كونها، وإثبات خلق الفعل الجزائي. وهو يبطل أصول القدرية الذين يمنعون خلق الفعل مطلقاً، ومَنْ أقرّ منهم بخلق فعل الجزاء دون الابتداء هدم أصله، ونقص قاعدته.

والنبي ﷺ أخبر بمثل ما أخبر به الربّ تعالى أنّ العبد ميسرٍ لِمَا خَلَقَ لَهُ لا مجبور. فالجبر لفظ بدعي. والتيسير لفظ القرآن والسنة. وفي الحديث دلالة على أنّ الصحابة كانوا أعلم الناس بأصول الدين. فإنهم تلقوها عن أعلم الخلق بالله على الإطلاق. وكانوا إذا استشكوا شيئاً سألوه عنه. وكان يجيبهم بما يزيل الإشكال. ويبين الصواب. فهم العارفون بأصول الدين حقاً، لا أهل البدع والأهواء من المتكلمين ومن سلك سبيلهم.

فإن قيل: فالإعطاء، والتقوى، والتصديق بالحسنى، هي من اليسرى، بل من أصل اليسرى، من يسرها للعبد أو لا؟ وكذلك أضدادها؟^(٢)

قيل: الله سبحانه هو الذي يسرّ للعبد أسباب الخير والشرّ وخلق خلقه قسمين:

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) نفس المصدر السابق.

أهل سعادة، فيسّرهم لليسرى، وأهل شقاوة، فيسّرهم للعسرى. واستعمل هؤلاء في الأسباب التي خلقوا لغاياتها، لا يصلحون لسواها، وهؤلاء في الأسباب التي خلقوا لغاياتها لا يصلحون لسواها، وحكمته الباهرة تأبى أن يضع عقوبته في موضع لا تصلح له. كما يأبى أن يضع كرامته وثوابه في محل لا يصلح لهما، ولا يليق بهما. بل حكمة آحاد خلقه تأبى ذلك. ومن جعل محلّ المسك والرجيع واحداً فهو من أسفه السفهاء. ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ (٢) وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ﴾ (١) قيل: معناه، إن علينا أن نبيّن طريق الهدى من طريق الضلال. قال قتادة: على الله البيان، بيان حلاله وحرامه، وطاعته ومعصيته اختاره أبو إسحق، وهو قول مقاتل، وجماعة، وهذا المعنى حق ولكن مراد الآية شيء آخر. وقيل: المعنى إن علينا للهدى والإضلال. (٣)

قال ابن عباس رضي الله عنهما، في رواية عطاء: يريد، أرشد أوليائي إلى العمل بطاعتي، وأحول بين أعدائي وبين أن يعملوا بطاعتي.

قال الفراء: فترك ذكر الإضلال، كما قال ﴿سرابيل تقيمكم الحر﴾ أي والبرد. وهذا أضعف من القول الأول. وإن كان معناه صحيحاً. فليس هو معنى الآية. وقيل، المعنى: من سلك الهدى فعلى الله سبيله، كقوله ﴿وعلى الله قصد السبيل﴾ وهذا قول مجاهد، وهو أصح الأقوال في الآية. قال الواحدي: إن علينا للهدى، أي إن الهدى يوصل صاحبه إلى الله، وإلى ثوابه وجنته. وهذا المعنى في القرآن في ثلاثة مواضع:

هاهنا، وفي النحل في قوله ﴿وعلى الله قصد السبيل﴾ وفي الحجر في قوله - «هذا صراط عليّ مستقيم» وهو معنى شريف جليل، يدلّ على أن سالك طريق الهدى يوصله طريقه إلى الله ولا بد، والهدى هو الصراط المستقيم فمن سلكه

(١) سورة الليل الآيتان: (١٢، ١٣).

(٢) نفس المصدر السابق.

أوصله إلى الله ، فذكر الطريق والغاية ، فالطريق الهدى ، والغاية الوصول إلى الله . فهذه أشرف الوسائل ، وغايتها أعلى الغايات^(١)

ولما كان مطلوب السالك إلى الله تحصيل مصالح دنياه وآخرته لم يتم له هذا المطلوب إلا بتوحيد طلبه والمطلوب منه . فأعلمه سبحانه أن سواه لا يملك من الدنيا والآخرة شيئاً . وأن الدنيا والآخرة جميعاً له وحده ، فإذا تيقن العبد ذلك اجتمع طلبه ومطلوبه على مَنْ يملك الدنيا والآخرة وحده ، فتضمنت الآيتان أربعة أمور ، هي المطالب العالية : ذكر أعلى الغايات . وهو الوصول إلى الله سبحانه ، وأقرب الطرق والوسائل إليه ، وهي طريقه الهدى . وتوحيد الطريق فلا يعدل عنها إلى غيرها . وتوحيد المطلوب ، وهو الحق . فلا يعدل عنه إلى غيره . فاقتبس هذه الأمور من مشكاة هذه الكلمات ، فإن هذه غاية العلم والفهم وباللله التوفيق .

والهدى التام يتضمّن توحيد المطلوب ، وتوحيد الطلب ، وتوحيد الطريق الموصلة . والانقطاع وتخلّف الوصول يقع من الشركة في هذه الأمور ، أو في بعضها ، فالشركة في المطلوب تنافي التوحيد والإخلاص ،^(٢) والشركة في الطلب تنافي الصدق والعزيمة ، والشركة في الطريق تنافي اتباع الأمر . فالأول يوقع في الشرك والرياء . والثاني يوقع في المعصية والبطالة . والثالث يوقع في البدعة ومفارقة السنة فتأمله .

فتوحيد المطلوب يعصم من الشرك . وتوحيد الطلب يعصم من المعصية وتوحيد الطريق يعصم من البدعة . والشيطان إنما ينصب فخه بهذه الطرق الثلاث .

ولما أقام سبحانه الدليل ، وأثار السبيل ، وأوضح الحجة ، وبيّن المحجة ، أذّر عباده عذابه الذي أعدّه لمن كذّب خبره ، وتولى عن طاعته . وجعل هذا الصنف من الناس هم أشقاهم ، كما جعل أسعدهم أهل التقوى والإحسان والإخلاص . فهذا

(١) نفس المصدر السابق .

(٢) نفس المصدر السابق .

الصف هو الذي يجنب عذابه كما قال ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾ (١) فهذا المتقي المحسن لا يفعل ذلك إلا ابتغاء وجه ربه، فهو مخلص في تقواه وإحسانه. (٢)

وفي الآية الإرشاد إلى أن صاحب التقوى لا ينبغي له أن يتحمل من الخلق ونعمهم، وإن حمل منهم شيئاً بادر إلى جزائهم عليه، لئلا يتبقى لأحد من الخلق عليه نعمة تجزى، فيكون بعد ذلك عمله كله لله وحده، ليس للمخلوق جزاء على نعمته.

ونبه بقوله (تجزى) على أن نعمة الإسلام التي لرسول الله ﷺ على هذا الأتقى لا تجزى، فإن كل ذي نعمة يمكن جزاء نعمته إلا نعمة الإسلام، فإنها لا يمكن المنعم بها عليه أن يجزى بها، وهذا يدل على أن الصديق رضي الله عنه أول وأولى من ذكر في هذه الآية، وأنه أحق الأمة بها. فإن علياً رضي الله عنه تربى في بيت النبي ﷺ. فلرسول الله ﷺ عنده نعمة غير نعمة الإسلام، يمكن أن تجزى. ونبه سبحانه بقوله: ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾ (٣) على أن من ليس لمخلوق عليه نعمة تجزى لا يفعل ما يفعله إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى، بخلاف من تطوق نعم المخلوقين ومنهم، فإنه مضطراً إلى أن يفعل لأجلهم، (٤) ويترك لأجلهم، ولهذا كان من كمال الإخلاص ألا يجعل العبد عليه منة لأحد من الناس، لتكون معاملته كلها لله ابتغاء وجهه، وطلب مرضاته. فكما أن هذه الغاية أعلى الغايات وهذا المطلوب أشرف المطالب فهذا الطريق أقصر الطرق إليه، وأقربها وأقومها. (٥)، وبالله التوفيق.

(١) سورة الليل الآيتان: (١٧، ١٨).

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) سورة الليل الآية: (٢٠).

(٤) نفس المصدر السابق.

(٥) نفس المصدر السابق.

(سورة الضحى)

قال الله تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ (١) أقسم سبحانه، ﴿وَالضُّحَىٰ﴾، ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَىٰ﴾ على إنعامه على رسوله ﷺ، وإكرامه له، وإعطائه ما يرضيه، وذلك متضمن لتصديقه له، فهو قسم على صحة نبوته، وعلى جزائه في الآخرة، فهو قسم على النبوة والمعاد، وأقسم بأيتين عظيمتين من آياته دالتين على ربوبيته، وحكمته، ورحمته، وهما الليل والنهار فتأويل مطابقة هذا القسم، وهو نور الضحى الذي يوافق بعد ظلام الليل للمقسم عليه، وهو نور الوحي الذي وافاه بعد احتباسه عنه، حتى قال أعداؤه: ودّع محمداً ربّه. فأقسم بضوء النهار بعد ظلمة الليل على ضوء الوحي ونوره، بعد ظلمة احتباسه واحتجابه. وأيضا فإن فالق ظلمة الليل عن ضوء النهار هو الذي فلق ظلمة الجهل والشرك بنور الوحي والنبوة فهذان للحسن، وهذان للعقل. وأيضا فإنّ الذي اقتضت رحمته ألا يترك عباده في ظلمة الليل سرمداً، (٢) بل هداهم بضوء النهار إلى مصالحهم ومعاشهم، لا يليق به أن يتركهم في ظلمة الجهل والغى، بل يهديهم بنور الوحي والنبوة إلى مصالح دنياهم وآخرتهم.

فتأمل حسن ارتباط المقسم به بالمقسم عليه، وتأمل هذه الجزالة والرونق الذي على هذه الألفاظ، والجلالة التي على معانيها. قوله: «ما ودّعك ربك وما قلى» نفى سبحانه أن يكون ودّع نبيّه أو قلاه، فالتوديع الترك، والقلى البغض فما تركه منذ اعتنى به وأكرمه، ولا أبغضه منذ أحبه. وأطلق سبحانه أن الآخرة خير له من الأولى وهذا يعمّ كلّ حالة يرقيه إليها هي خير له ممّا قبلها، كما أن الدار الآخرة خير له مما قبلها. ثم وعده بما تقرُّ به عينه، وتفرح به نفسه، وينشرح به صدره، وهو أن يعطيه فيرضى وهذا يعم ما يعطيه من القرآن، والهدى، والنصر، وكثرة

(١) سورة الضحى : (١، ٢، ٣).

(٢) التبيان في أقسام القرآن تأليف العلامة شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن القيم الجوزية ص٤ وما بعدها.

الأتباع، ورفع ذكره، وإعلاء كلمته، وما يعطيه بعد مماته، وما يعطيه في موقف القيامة، وما يعطيه في الجنة وأما ما يغتر به الجهال، من أنه لا يرضى وواحد من أمته في النار،^(١) أو لا يرضى أن يدخل أحد من أمته النار فهذا من غرور الشيطان لهم، ولعبه بهم، فإنه صلوات الله وسلامه عليه يرضى بما يرضى به ربه تبارك وتعالى، وهو سبحانه يدخل النار مَنْ يستحقها من الكفَّار والعصاة، ثم يحدُّ لرسوله حدًّا يشفع فيهم، ورسوله أعرف به وبحقه من أن يقول: لا أرضى أن يدخل أحد من أمتي النار على أن يدعه فيها، بل ربه تبارك وتعالى يأذن له، فيشفع فيمن شاء الله أن يشفع فيه، ولا يشفع في غير مَنْ أذن له فيه ورضيه.

ثم ذكر سبحانه نعمه عليه من إيوائه بعد يتمه، وهدايته بعد الضلالة، وإغنائه بعد الفقر فكان محتاجا إلى مَنْ يؤويه ويهديه ويغنيه، فأواه ربه، وهداه، وأغناه. فأمره سبحانه أن يقابل هذه النعم الثلاث بما يليق بها من الشكر فنهاه أن يقهر اليتيم، وأن ينهر السائل، وألا يكتم النعمة، بل يحدث بها. فأوصاه سبحانه باليتامى والفقراء والمتعلمين. قال مجاهد، ومقاتل: لا تحقر اليتيم، فقد كنت يتيمًا. وقال الفراء: لا تقهره على ماله،^(٢) فتذهب بحقه لضعفه. وكذلك كانت العرب تفعل في أمر اليتامى، تأخذ أموالهم وتظلمهم فغلظُ الخطاب في أمر اليتيم وكذلك مَنْ لا ناصر له يغلظُ في أمره، وهو نهى لجميع المكلفين.

﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾^(٣) قال أكثر المفسرين: هو سائل المعروف والصدقة لا تنهره، إذا سألك. فقد كنت فقيرًا، فلما أن تطعمه. وإما أن تردّه ردًّا لئنا. قال الحسن: أما إنه ليس بالسائل الذي يأتيك، ولكن طالب العلم. وهذا قول يحيى ابن آدم قال: إذا جاءك طالب العلم فلا تنهره. والتحقيق أن الآية تتناول النوعين. وقوله ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾^(٤) قال مجاهد: بالقرآن. وقال الكلبي: بمعنى

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣، ٤) سورة الضحى الآيتان: (١٠، ١١).

أظهرها، والقرآن أعظم ما أنعم الله به عليه، فأمره أن يقرئه ويعلمه. وروى أبو بشر، عن مجاهد: حدّث بالنبوة التي أعطاك الله. وقال الزجاج: بلّغ ما أرسلت به وحدّث بالنبوة التي أتاك، وهي أجل النعم، وقال مقاتل: ^(١) أشكر هذه النعمة التي ذكرت في هذه السورة، والتحقيق أنّ النعم تعم هذا كله؛ فأمر ألا ينهر سائل المعروف، والعلم وأن يحدث بنعم الله عليه في الدين والدنيا. ^(٢) هذا ولله الحمد والمنّة

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) نفس المصدر السابق.

(سورة الشرح)

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۖ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۚ﴾ (٢) الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ
(٣) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۚ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿١﴾.

إن قلت: ما فائدة «لك» مع أن الإضافة تغني عنها؟ قال أحمد: وقد تقدّم عند الكلام على نظيرها في قوله - ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢﴾ قريب من هذا المعنى، والله أعلم.

والإيضاح كأنه قيل. ألم نشرح لك ففهم أن ثم مشروحا، ثم قيل صدرك فأوضح ما علم مبهماً، وكذلك لك ذكرك، وعنك وزرك. فإن قلت: كيف تعلق قوله: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ بما قبله؟ قلت: كان المشركون يعيرون رسول الله ﷺ والمؤمنين بالفقر والضييق حتى سبق إلى وهمه أنهم رغبوا عن الإسلام لافتقار أهلهم (٣) واحتقارهم فذكره ما أنعم به عليه من جلائل النعم ثم قال - فإن مع العسر يسرا - كأنه قال: خوئناك ما خوئناك فلا تيأس من فضل الله فإن مع العسر الذي أتم فيه يسرا. فإن قلت: إن مع للصحبة فما معنى اصطحاب اليسر والعسر؟ قلت: أراد أن الله يصيبيهم بيسر بعد العسر الذي كانوا فيه بزمان قريب، فقرب اليسر المترقب حتى جعله كالمقارن للعسر زيادة في التسلية وتقوية القلوب. فإن قلت: ما معنى قول ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهما: لن يغلب عسر يسرين، وقد روي مرفوعاً «أنه خرج ﷺ ذات يوم وهو يضحك ويقول: لن يغلب عسر يسرين؟» قلت: هذا عمل على الظاهر وبناء على قوة الرجاء، وأن موعد الله لا يحمل إلا على أوفى ما يحتمله اللفظ وأبلغه، والقول فيه أنه يحتمل أن تكون

(١) سورة الشرح» الآيات (١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦).

(٢) سورة طه الآيتان: (٢٥، ٢٦).

(٣) تفسير الكشاف. تأليف أبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي الجزء الرابع ص

(٢٦٦، ٢٦٧) الطبعة الأخيرة سنة ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٦ م.

الجملة الثانية تكريرا للأولى كما كرر قوله: «ويل يومئذ للمكذبين» لتقرير معناها في النفوس وتمكينها في القلوب، وكما يكرر المفرد في قولك جاءني زيد وزيد،^(١) وأن تكون الأولى عدة بأن العسر مردوف بيسر لا محالة والثانية عدة مستأنفة بأن العسر متبوع بيسر فهما يسران على تقدير الاستئناف، وإنما كان العسر واحداً لأنه لا يخلو إما أن يكون تعريفه للعهد وهو العسر الذي كانوا فيه فهو هو؛ لأن حكمه حكم زيد في قولك: إن مع زيد مالا إن مع زيد مالا، وإما أن يكون للجنس الذي يعلمه كل أحد فهو هو أيضاً، وأما اليسر فمكرر متناول لبعض الجنس، فإذا كان الكلام الثاني مستأنفاً غير مكرر فقد تناول بعضاً غير البعض الأول بغير إشكال. فإن قلت: فما المراد باليسر؟ قلت: يجوز أن يراد بهما ما تيسر لهم من الفتوح في أيام الرسول ﷺ وما تيسر لهم في أيام الخلفاء، وأن يراد يسر الدنيا ويسر الآخرة كقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبُّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ﴾ -^(٢) وهما حسنى الظفر وحسنى الثواب. فإن قلت: فما معنى هذا التنكير؟ قلت: التفخيم كأنه قيل إن مع العسر يسرا^(٣) عظيماً وأي يسر، وهو في مصحف ابن مسعود مرة واحدة. فإن قلت: فإذا ثبت في قراءته غير مكرر فلم قال: «والذي نفسي بيده لو كان العسر في جحر لطلبه اليسر حتى يدخل عليه، إنه لن يغلب عسر يسرين» قلت: كأنه قصد باليسرين ما في قوله يسرا من معنى التفخيم فتأوله بيسر الدارين وذلك يسران في الحقيقة. فإن قلت: فكيف تعلق قوله- ﴿فَإِذَا فَرَعْتَ فَانصَبْ﴾ -^(٤) بما قبله؟ قلت: لما عدد عليه نعمه السالفة ووعدته الآئفة بعثه على الشكر والاجتهاد في العبادة والنصب فيها، وأن يواصل بين بعضها وبعض ويتابع ويحرص على ألا يخلي وقتاً من أوقاته منها، فإذا فرغ من عبادة ذنبها بأخرى. وعن ابن عباس: فإذا فرغت من صلاتك فاجتهد في الدعاء. وعن الحسن: فإذا فرغت من الغزو فاجتهد

(١) المصدر السابق.

(٢) سورة التوبة الآية: (٥٢)

(٣) نفس المصدر السابق.

(٤) سورة الشرح الآية: (٧).

في العبادة، وعن مجاهد: فإذا فرغت من دنياك فانصب في صلاتك^(١). وعن الشعبي أنه رأى رجلا يشيل حجرا فقال: ليس بهذا أمر الفارغ. وعود الرجل فارغا من غير شغل أو اشتغاله بما لا يعنيه في دينه أو دنياه من سفه الرأي وسخافة العقل واستيلاء الغفلة. ولقد قال عمر رضي عنه: إني لأكره أن أرى أحدكم فارغا سهللا لا في عمل دنيا ولا في عمل آخرة. وإلى ربك فارغب^(٢) واجعل رغبتك إليه خصوصا ولا تسأل إلا فضله متوكلا عليه.

عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من قرأ ألم نشرح فكأنما جاءني وأنا مغتمّ ففرّج عني»

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) نفس المصدر السابق.

(سورة التين)

قال الله تعالى: ﴿وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونَ (١) وَطُورِ سِينِينَ (٢) وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (١) فأقسم سبحانه بهذه الأمكنة الثلاثة العظيمة التي هي مظاهر أنبيائه ورسله، أصحاب الشرائع العظام، والأمم الكثيرة.

فالتين والزيتون المراد بهما نفس الشجرتين المعروفتين، ومنبتهما وهو أرض بيت المقدس فإنها أكثر البقاع زيتونا وتينا.

وقد قال جماعة من المفسرين: إنه سبحانه أقسم بهذين النوعين من الثمار لمكان العزة فيهما. فإن التين فاكهة مخلصنة من شوائب التنغيص، لا عجم له (٢) وهو على مقدار اللقمة، وهو فاكهة وقوت وغذاء وأدم. ويدخل في الأدوية، ومزاجه من أعدل الأمزجة، وطبعه طبع الحياة الحرارة، والرطوبة، وشكله من أحسن الأشكال، ويدخل أكله والنظر إليه في باب المفرحات. وله لذة يمتاز بها (٣) عن سائر الفواكه، ويزيد في القوة، ويوافق الباءة وينفع من البواسير والنقرس، ويؤكل رطبا ويابساً. وأما الزيتون ففيه من الآيات ما هو ظاهر لمن اعتبر. فإن عوده يخرج ثمرا، يعصر منه هذا الدهن الذي هو مادة النور وصنغ للأكلين، وطيب ودواء، وفيه من مصالح الخلق ما لا يخفى. وشجره باق على ممر السنين المتطاولة. وورقه لا يسقط. وهذا الذي قالوه حق، ولا ينافي أن يكون منبته مرادا. فإن منبت هاتين الشجرتين حقيق بأن يكون من جملة البقاع الفاضلة الشريفة. فيكون الإقسام قد تناول الشجرتين ونبتهما، وهو مظهر عبد الله ورسوله وكلمته وروحه عيسى بن مريم، كما أن طور سينين مظهر عبده ورسوله وكليمه موسى، فإنه الجبل الذي كلمه عليه وناجاه، وأرسله إلى فرعون وقومه. ثم أقسم بالبلد الأمين، وهو مكة وهي مسقط رأسه ﷺ وترقى في هذا القسم من الفاضل إلى الأفضل.

(١) سورة التين الآيات: (١، ٢، ٣، ٤).

(٢) العجم محركا، وكغراب، نوى كل شيء

(٣) التبيان في أقسام القرآن للعلامة شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن القيم الجوزية ص ٢٨ وما بعدها.

وأقسم بها على بداية الإنسان ونهايته. فقال: ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ أي في أحسن صورة وشكل واعتدال، معتدل القامة، مستوي الخلقة، كامل الصورة، أحسن من كل حيوان سواه. (١)

والتقويم تصيير الشيء على ما ينبغي أن يكون في التأليف والتعديل وذلك صنعته تبارك وتعالى، في قبضة من تراب وخلقه بالمشاهدة من نطفة من ماء. وذلك من أعظم الآيات الدالة على وجوده، وقدرته، وحكمته، وعلمه، وصفات كماله. ولهذا يكررها كثيرا في القرآن لمكان العبرة بها. والاستدلال بأقرب الطرق على وحدانيته وعلى المبدأ والمعاد.

وتضمن إقسامه بتلك الأمكنة الثلاثة الدالة عليه وعلى علمه وحكمته - عنايته بخلقه بأن أرسل منها رسلا أنزل عليهم كتبه، يعرفون العباد بربهم، وحقوقه عليهم، وينذرونهم بالله ونعمته، ويدعونهم إلى كرامته وثوابه. ثم لما كان الناس في إجابة هذه الدعوة فريقين، منهم من أجاب ومنهم من أبى، ذكر حال الفريقين. فذكر حال الأكثرين، وهم المردودون إلى أسفل سافلين. والصحيح أنه النار. قاله مجاهد، والحسن وأبو العالية. قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: هي النار (٢) بعضها أسفل من بعض، وقالت طائفة، منهم قتادة، وعكرمة، وعطاء وغيرهم: إنه أرذل العمر، وهو مروى عن ابن عباس. والصواب القول الأول لوجوه: (أحدها) أن أرذل العمر لا يسمى أسفل سافلين، لا في لغة ولا عرف، وإنما أسفل سافلين هو سجين الذي هو مكان الفجار، كما أن عليين مكان الأبرار. (الثاني) أن المردودين إلى أسفل العمر بالنسبة إلى نوع الإنسان قليل جداً، فأكثرهم يموت ولا يرد إلى أرذل العمر. (الثالث) أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يستوون هم وغيرهم في رد من طال عمره منهم إلى أرذل العمر. فليس ذلك مختصاً بالكفار، حتى يستثنى منهم المؤمنون. (الرابع) أن الله سبحانه لما أراد ذلك لم

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) نفس المصدر السابق.

يخصه بالكفار بل جعله لجنس بني آدم، فقال: ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَقَّىٰ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمْرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ (١) فجعلهم قسمين: قسما متوقى قبل الكبر، وقسما مردودا إلى أردل العمر، (٢) ولم يسمه أسفل سافلين. وفي هذا القدر كفاية وغنى مما يغنينا عن الإطالة بذكرها. وإن أردت زيادة فعليك بالرجوع إلى التبيان في أقسام القرآن تأليف العلامة شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن القيم الجوزية.

وقوله ﴿غير ممنون﴾ أي غير مقطوع ولا منقوص، ولا مكدر عليهم، وهذا هو الصواب. وقالت طائفة: غير ممنون به عليهم بل هو جزاء أعمالهم ويذكر هذا عن عكرمة ومقاتل، وهو قول كثير من القدرية. قال هؤلاء: إن المنة تكدر النعمة. فتمام النعمة أن يكون غير ممنون بها على المنعم عليه (٣) وهذا القول خطأ قطعاً، أتى أربابه من تشبيهه نعمة الله على عبده بإنعام المخلوق على المخلوق. وهذا من أبطل الباطل. فإن المنة التي تكدر النعمة هي منة المخلوق على المخلوق. وأما منة الخالق على المخلوق فيها تمام النعمة ولذتها وطيبها. فإنها منة حقيقية. قال تعالى: ﴿يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٤) وقال تعالى ﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (١١٤) وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكُرْبِ الْعَظِيمِ﴾ (٥)

فتكون منة عليهما بنعمة الدنيا دون نعمة الآخرة. وقال لموسى: ﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ﴾ (٦) وقال أهل الجنة: ﴿فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَّانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ (٧) ونحو ذلك، وفي الصحيح أن النبي ﷺ قال للأَنْصَار: «ألم أجدكم ضالاً فهداكم الله

(١) سورة الحج الآية: (٥).

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) نفس المصدر السابق.

(٤) سورة الحجرات الآية (١٧).

(٥) سورة الصافات الآيات: (١١٤، ١١٥).

(٦) سورة طه الآية: (٣٧).

(٧) سورة الطور الآية: (٢٧).

بي؟ ألم أجدكم عالة فأغناكم الله بي؟ فجعلوا يقولون له: الله ورسوله أمنّ. فهذه جواب العارفين بالله ورسوله. وهل المنة كلّ المنة إلا لله المانّ بفضلته الذي جميع الخلق في منته؟ وإنما قبحت منّة المخلوق لأنّها منّة بما ليس منه، وهي منّة يتأدّى بها الممنون عليه. وأمّا منّة المنان بفضلته التي مطاب العيش إلا بمنته، وكلّ نعمة منه في الدنيا والآخرة فهي منّة يمنُّ بها على مَنْ أنعم عليه، فتلك لا يجوز نفيها. وكيف يجوز أن يقال إنّه لا منّة لله على الذين آمنوا وعملوا الصالحات في دخول الجنة؟ وهل هذا إلا من أبطل الباطل؟ (١) فإن قيل: هذا القدر لا يخفى على مَنْ قال هذا القول من العلماء، وليس مرادهم ما ذكر، وإنما مرادهم أنّه لا يمنُّ عليهم به، وإن كانت لله فيه المنّة عليهم، فإنّه لا يمنُّ عليهم به، بل يقال: هذا جزاء أعمالكم التي عملتموها في الدنيا وهذا أجركم، فأنتم تستوفون أجور أعمالكم لأنّ عليكم بما أعطيناكم. قيل: وهذا أيضا هو الباطل بعينه، فإن ذلك الأجر ليست الأعمال ثمنا له، ولا معاوضة عنه وقد قال أعلم الخلق بالله ﷺ: «لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال «ولا أنا إلا أن يتغمّدني الله برحمته منه وفضل (٢)» فأخبر أن دخول الجنة برحمته الله وفضله، وذلك محض منته عليه وعلى سائر عباده، وكما أنه سبحانه المانُّ بإرسال رسله، وبالتوفيق لطاعته وبالإعانة عليها، فهو المانُّ بإعطاء الجزاء وذلك كله محض منته وفضله وجوده، (٣) لا حق لأحد عليه، بحيث إذا وقاه إيّاه لم يكن له عليه منّة. فإن كان في الدنيا باطل فهذا ليس منه في شيء.

فإن قيل: كيف تقولون هذا وقد أخبر رسوله عنه بأنّ حق العباد عليه إذا وحدوه ألا يعذبهم (٤) وقد أخبر عن نفسه أن حقا عليه نصر المؤمنين؟ قيل لعمر الله هذا من أعظم منته على عباده، أن جعل على نفسه حقا بحكم وعده

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) نفس المصدر السابق.

(٤) في حديث معاذ المتفق عليه: «هل تدري يا معاذ ما حق الله على عباده وما حق العباد على الله؟» قلت:

الله ورسوله أعلم. قال: «حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا. وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئا».

الصادق: أن يثبتهم ولا يعذبهم إذا عبدوه ووحدوه. فهذا من تمام مئته، فإنه لو عذب أهل سماواته وأرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولكن مئته اقتضت أن أحقَّ على نفسه ثواب عابديه وإجابة سائله.

ما للعباد عليه حق واجب كلا، ولا سعي لديه ضائع
إن عذبوا فبعده، أو نُعموا فبفضله، فهو الكريم الواسع (١)

وقوله سبحانه: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالذِّينِ﴾ (٢) أصحَّ القولين أن هذا خطاب للإنسان، أي فما يكذبك بالجزاء والمعاد بعد هذا البيان وهذا البرهان؟ فتقول إنك لا تبعث ولا تحاسب، ولو تفكرت في مبدأ خلقك، وصورتك لعلمت أن الذي خلقك أقدر على أن يعيدك بعد موتك، وينشئك خلقا جديدا، وأن ذلك لو أعجزه لأعجزه وأعياه خلقك الأول. وأيضاً فإن الذي كمل خلقك في أحسن تقويم بعد أن كنت نطفة من ماء مهين، كيف يليق به أن يترك سدى، لا يكمل ذلك بالأمر والنهي، وبيان ما ينفعك ويضرك، ولا تنقل لدار هي أكمل من هذه، ويجعل هذه الدار طريقا لك إليها فحكمة أحكم الحاكمين تأبى ذلك وتقتضي خلافه، قال منصور: قلت لمجاهد: «فما يكذبك بعد بالدين» عني به محمد؟ فقال: معاذ الله، إنمأ عني به الإنسان. وقال قتادة: الضمير للنبي ﷺ، واختاره الفراء. وهذا موضع يحتاج إلى شرح وبيان. (٣)

يقال: كذب الرجل، إذا قال الكذب، وكذبتة أنا إذا نسبته إلى الكذب ولو اعتقدت صدقه. وكذبتة إذا اعتقدت كذبه وإن كان صادقا. قال تعالى: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ (٤) وقال ﴿فَإِنَّهُمْ لَا

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) سورة التين الآية (٧).

(٣) نفس المصدر السابق.

(٤) سورة آل عمران الآية : (١٨٤).

يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ^(١) ﴿فالأول بمعنى وإن ينسبوك إلى الكذب، والثاني بمعنى لا يعتقدون أنك كاذب، ولكنهم يعاندون ويدفعون الحق بعد معرفته. ، جحودا وعنادا، هذا أصل هذه اللفظة، ويتعدى الفعل إلى الخبر بنفسه، وإلى خبره بالباء، وبفي. فيقال: كذبت بكذا، وكذبت فيه، والأول أكثر استعمالا ومنه قوله: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾^(٢) وقوله: ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كَذَابًا﴾^(٣) إذا عرف هذا، فقوله (فما يكذبك) اختلف في «ما» هل هي بمعنى أي شيء يكذبك، أو بمعنى من الذي يكذبك؟ فمن جعلها بمعنى أي شيء، تعين على قوله أن يكون الخطاب للإنسان. أي فأي شيء يجعلك بعد هذا البيان^(٤) مكذبا بالدين، وقد وضحت لك دلائل الصدق والتصديق؟ ومن جعلها بمعنى فمن الذي يكذبك، جعل الخطاب للنبي ﷺ.

قال الفراء: كأنه يقول، من يقدر على تكذيبك بالثواب والعقاب، بعد ما تبين له من خلق الإنسان ما وصفناه؟ وقال قتادة: فمن يكذبك أيها الرسول. بعد هذا بالدين؟

وعلى قول قتادة والفراء إشكال من وجهين: (أحدهما) إقامة «ما» مقام «من» وأمره سهل. (والثاني) أن الجار والمجرور يستدعي متعلقاً وهو يكذبك أي فمن يكذبك بالدين؟ فلا يخلو إما أن يكون المعنى فمن يجعلك كاذبا بالدين، أو مكذبا به، ولا يصح واحد منهما.

أما الثاني والثالث فظاهر. فإن كذبت ليس معناه جعلته مكذبا، أو مكذبا. وإنما معناه نسبه إلى الكذب. فالعنى على هذا فمن يجعلك بعد كاذبا بالدين، وهذا إنما يتعدى إليه بالباء الفعل المضاعف لا الثلاثي، فلا يقال: كذب كذا، وإنما يقال كذب به.^(٥)

(١) سورة الأنعام الآية: (٣٣).

(٢) سورة الأنعام الآية: (٥).

(٣) سورة النبا الآية: (٢٨).

(٤) نفس المصدر السابق.

(٥) نفس المصدر السابق.

وجواب هذا الإشكال أن قوله: كَذَّبَ بكذا معناه كذب المخبر به ثم حذف المفعول به لظهور العلم به، حتى كأنه نسي، وعدوا الفعل إلى المخبر به، فإذا قيل مَنْ يَكْذِبُكَ بكذا؟ فهو بمعنى كذبوك بكذا سواء، أي نسبوك إلى الكذب في الإخبار به، بل الإشكال في قول مجاهد والجمهور، فإنَّ الخطاب إذا كان للإنسان، وهو المكذَّب، أي فاعل التكذيب، فكيف يقال له: ما يكذبك؟ أي يجعلك مكذَّبًا والمعروف كذبه إذا جعله كاذبًا لا مكذَّبًا. ومثل فسقه إذا جعله فاسقًا، لا مُفسِّقًا لغيره.

وجواب هذا الإشكال: أن صدق وكذب - بالتشديد - يراد به معنيان: (أحدهما) النسبة. وهي إنمَّا تكون للمفعول كما ذكرتم. (والثاني) الداعي والحامل على ذلك، وهو يكون للفاعل. قال الكسائي: يقال، ما صدقك بكذا، أو ما كذبك بكذا، أي ما حملك على التصديق والتكذيب؟ قلت: وهو نظير ما أجركَ على هذا، أي ما حملك على الاجترار عليه،^(١) وما قدّمك وما أخرك، أي ما دعاك وحملك على التقديم والتأخير. وهذا استعمال سائغ موافق للعربية وبالله التوفيق والسداد. ثم ختم السورة بقوله ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ﴾^(٢) وهذا تقرير لمضمون السورة، من إثبات النبوة، والتوحيد، والمعاد، وحكمه بتضمّن نصره لرسوله على مَنْ كذَّبه، وجحد ما جاء به. بالحجة والقدرة والظهور عليه وحكمه بين عباده في الدنيا بشرعه وأمره، وحكمه بينهم في الآخرة بثوابه وعقابه، وإنَّ أحكم الحاكمين لا يليق به تعطيل هذه الأحكام بعد ما ظهرت حكمته في خلق الإنسان في أحسن تقويم، ونقله في أطوار التخليق، حالاً بعد حال، إلى أكمل الأحوال. فكيف يليق بأحكم الحاكمين ألا يجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته؟ وهل ذلك إلا قدح في حكمه وحكمته؟ فله ما أخصر لفظ هذه السورة، وأعظم شأنها، وأتم معناها.^(٣) والله أعلى وأعلم بالصواب.

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) سورة التين الآية : (٨).

(٣) نفس المصدر السابق.

(سورة العلق)

عن ابن عباس ومجاهد: هي أول سورة نزلت، وأكثر المفسرين على أن الفاتحة أول ما نزل ثم سورة القلم. وليس الصواب دائما بجانب الكثرة.

محلّ ﴿بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ النصب على الحال: أي اقرأ مفتتحا باسم ربك. قل بسم الله ثم اقرأ. فإن قلت: كيف قال «خلق» فلم يذكر له مفعولا ثم قال ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾؟ قلت: هو على وجهين: إما أن لا يقدر له مفعول وأن يراد أنه الذي حصل منه الخلق واستأثر به لا خالق سواه، وإما أن يقدر ويراد خلق كل شيء فيتناول كل مخلوق لأنه مطلق فليس بعض المخلوقات أولى بتقديره من بعض، وقوله ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ تخصيص للإنسان بالذكر من بين ما يتناوله الخلق لأن التنزيل إليه وهو أشرف ما على الأرض. ويجوز أن يراد الذي خلق الإنسان كما قال: ﴿الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ فقيل الذي خلق مبهما ثم فسره بقوله ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ تفخيماً لخلق الإنسان ودلالة على عجب فطرته. فإن قلت: لم قال ﴿مِنْ عَلَقٍ﴾ (١) على الجمع وإنما خلق من علقه كقوله ﴿مِنْ نَظْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾؟ قلت: لأن الإنسان في معنى الجمع كقوله - ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ﴾ (٢).

﴿الْأَكْرَمُ﴾ الذي له الكمال في زيادة كرمه على كل كرم ينعم على عباده النعم التي لا تحصى، ويحلم عنهم فلا يعجلهم بالعقوبة مع كفرهم وجحودهم لنعمه وركوبهم المناهي وأطراحهم الأوامر ويقبل توبتهم ويتجاوز عنهم بعد اقرار العظائم، فما لكرمه غاية ولا أمد، وكأنه ليس وراء التكرم بإفادة الفوائد العلمية تكرم حيث قال الأكرم ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (٣) فدل على كمال كرمه بأنه علم عباده ما لم يعلموا، ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم

(١) تفسير الكشاف. تأليف أبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي الجزء الرابع ص

(٢٧٠، ٢٧١، ٢٧٢). الطبعة الأخيرة سنة ١٣٨٥هـ = ١٩٦٦م.

(٢) سورة العصر الآية: (٢).

(٣) سورة العلق الآيتان: (٤، ٥).

والمعرفة، ونبه على فضل علم الكتابة لما فيه من المنافع العظيمة التي لا يحيط بها إلا هو، وما دونت العلوم ولا قيّدت الحكم ولا ضبّطت أخبار الأوّلين ومقالاتهم ولا كتب الله المنزلة إلا بالكتابة، ولولا هي لما استقامت أمور الدين والدنيا، ولو لم يكن على دقيق حكمة الله ولطف تدبيره دليل إلا أمر القلم والخط لكفى به (١) ﴿كَلَّا﴾ ردع لمن كفر بنعمة الله عليه بطغيانه وإن لم يذكر لدلالة الكلام عليه (أن رآه) أن رأى نفسه، يقال في أفعال القلوب رأيتني وعلمتني وذلك بعض خصائصها، ومعنى الرؤية العلم، ولو كانت بمعنى الإبصار لامتنع في فعلها الجمع بين الضميرين، و﴿استغنى﴾ هو المفعول الثاني ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ﴾ (٢) واقع على طريقة الالتفات إلى الإنسان تهديدا له وتحذيرا من عاقبة الطغيان والرجعى مصدر كالبشرى بمعنى الرجوع، وقيل نزلت في أبي جهل وكذلك ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ﴾ (٣) وروى أنه قال لرسول الله ﷺ: أتزعم أن من استغنى طغى فاجعل لنا جبال مكة فضة وذها لعلنا نأخذ منها فنطغى فندع ديننا ونتبع دينك، فنزل جبريل قال: إن شئت فعلنا ذلك، ثم إن لم يؤمنوا فعلنا بهم ما فعلنا بأصحاب المائدة، فكفّ رسول الله ﷺ عن الدّعاء إبقاء عليهم، وروى عنه لعنه الله أنه قال: هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟ قالوا: نعم، قال: فو الذي يحلف به لئن رأيت توطأت عنقه، (٤) فجاءه ثم نكص على عقبيه فقالوا له: مالك يا أبا الحكم، فقال: إن بينى وبينه لخندقاً من نار وهولاً وأجنحة، فنزلت - أرايت الذي ينهى - ومعناه: أخبرني عمّن ينهى بعض عباد الله عن صلّاته، إن كان ذلك النّاهي على طريقة سديدة فيما ينهى عنه من عبادة الله، أو كان آمراً بالمعروف والتقوى فيما يأمر به من عبادة الأوثان كما يعتقد، وكذلك إن كان على التّكذيب للحق والتولي عن الدين الصحيح كما نقول نحن ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾ (٥) ويطلع على أحواله

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) سورة العلق الآيات: (٨، ٩).

(٤) نفس المصدر السابق.

(٥) سورة العلق الآية: (١٤).

من هداه وضلاله فيجازه على حب ذلك وهذا وعيد. فإن قلت: ما متعلّق
 رأيت؟ قلت: ﴿الَّذِي يَنْهَى﴾ مع الجملة الشرطية وهما في موضع المفعولين. فإن
 قلت: فأين جواب الشرط؟ قلت: هو محذوف تقديره: إن كان على الهدى أو أمر
 بالتقوى ألم يعلم بأن الله يرى، وإنما حذف لدلالة ذكره في جواب الشرط الثاني.
 فإن قلت: فكيف صح أن يكون ألم يعلم جواباً للشرط؟ قلت: كما صح في
 قولك إن أكرمتك أكرمني؟^(١)، وإن أحسن إليك زيد هل تحسن إليه؟ فإن قلت:
 فما رأيت الثانية وتوسطها بين مفعول رأيت؟ قلت: هي زائدة مكررة للتوكيد.
 وعن الحسن أن أمية بن خلف كان ينهى سلمان عن الصلاة. ﴿كَلَّا﴾ رد لأبي
 جهل وخسوء له عن نهيه عن عبادة الله تعالى وأمره بعبادة اللات ثم قال لئن لم
 ينته عما هو فيه ﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ لناخذن بناصيته ولنسجنه بها في النار. والسفع:
 القبض على الشيء وجذبه بشدة، قال عمرو بن معد يكرب:

قوم إذا يقع الصرّيح رأيتهم من بين ملجم مهره أو سافع

﴿نَاصِيَةٍ﴾ بدل من الناصية، وجاز بدلها عن المعرفة وهي نكرة لأنها وصفت
 فاستقلت بفائدة. وقرئ شاذاً بالنصب على الشتم، ووصفها بالكذب والخطأ على
 الإسناد المجازي وهما في الحقيقة لصاحبها، وفيه من الحسن والجزالة ما ليس في
 قولك ناصية كاذبٍ خاطيء. والنادي المجلس الذي يتتدى فيه القوم أي يجتمعون،
 والمراد أهل النادي كما قال جرير:

(لهم مجلس صهب السبال أذلة) وقال زهير: وفيهم مقامات حسان وجوههم^(٢)
 والمقامة المجلس. روي أن أبا جهل مرّ برسول الله ﷺ وهو يصلي فقال: ألم
 أنهك؟ فأغلظ له رسول الله ﷺ، فقال: أتهدّدي وأنا أكثر أهل الوادي ناديا؟
 فنزلت. وقرأ ابن أبي عبله: «سُيدعي الزبانية» على البناء للمفعول وهي شاذة،
 والمراد ملائكة العذاب، وعن النبي ﷺ لو دعا ناديه لأخذته الزبانية عيانا، ﴿كَلَّا﴾

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) نفس المصدر السابق.

ردع لأبي جهل ﴿لَا تُطَعُهُ﴾ أي اثبت على ما أنت عليه من عصيانه كقوله - ﴿فَلَا تُطَعِ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (١) ﴿وَأَسْجُدْ﴾ ودُمَّ على سجودك يريد الصلاة ﴿وَأَقْتَرِبْ﴾ وتقرَّب إلى ربك، وفي الحديث «أقرب ما يكون العبد إلى ربه إذا سجد».

عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة العلق أعطي من الأجر كأنما قرأ المنفصل كله» (٢).

(١) سورة القلم: الآية (٨).
(٢) نفس المصدر السابق.

(سورة القدر)

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنْزِيلُ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴿١﴾.

قوله ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ عظم القرآن من ثلاثة أوجه: (أحدها) أنه أسند إنزاله إليه وجعله مختصا به دون غيره. (والثاني) أنه جاء بضميره دون اسمه الظاهر شهادة له بالنباهة والاستغناء عن التنبيه عليه. (والثالث) الرفع من مقدار الوقت الذي أنزل فيه. روي أنه أنزل جملة واحدة في ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا وأملاه جبريل على السفارة، ثم كان ينزله على رسول الله ﷺ نحو ما في ثلاث وعشرين سنة.

وعن الشعبي: المعنى إنا ابتدأنا إنزاله في ليلة القدر. واختلفوا في وقتها، فأكثرهم على أنها في شهر رمضان في العشر الأواخر في أوتارها (٦)، وأكثر القول أنها السابعة منها. ولعل الداعي إلى إخفائها أن يحيى من يريد لها الليالي الكثيرة طلبا لموافقتها فتكثر عبادته ويتضاعف ثوابه، وألا يتكل الناس عند إظهارها على إصابة الفضل فيها فيفراطوا في غيرها. ومعنى ليلة القدر: ليلة تقدير الأمور وقضائها من قوله تعالى - ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ (٧) وقيل سميت بذلك لخطرها وشرفها على سائر الليالي ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾ يعني ولم تبلغ درايتك غاية فضلها ومنتهى علو قدرها. ثم بين له ذلك بأنها خير من ألف شهر.

وسبب ارتقاء فضلها إلى هذه الغاية ما يوجد فيها من المصالح الدينية التي ذكرها من تنزل الملائكة والروح وفصل كل أمر حكيم، وذكر في تخصيص هذه المدة أن رسول الله ﷺ ذكر رجلا من بني إسرائيل لبس السلاح في سبيل الله ألف شهر،

(١) سورة القدر.

(٢) تفسير الكشاف. تأليف أبي القاسم جبار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي الجزء الرابع ص ٢٧٣

الطبعة الأخيرة سنة ١٣٨٥هـ = ١٩٦٦م

(٣) سورة الدخان الآية: (٤).

فعجب المؤمنون من ذلك وتقاشرت إليهم أعمالهم، فأعطوا ليلة هي خير من مائة
 ذلك الغازي وقيل إنَّ الرجل فيما مضى ما كان يقال له عابد حتى يعبد الله ألف
 شهر^(١)، فأعطوا ليلة إن أحيوها كان أحق بأن يسموا عابدين من أولئك العباد
 ﴿تَنْزَلُ﴾ إلى السماء الدنيا، وقيل إلى الأرض ﴿وَالرُّوحُ﴾ جبريل، وقيل خلق من
 الملائكة لا تراهم الملائكة إلا تلك الليلة ﴿مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ أي تنزل من أجل كل أمر
 قضاه الله لتلك الحسنة إلى قابل. وقرئ شاذًا: «من كل امريء»: أي من أجل
 كل إنسان، قيل لا يلقون مؤمنًا ولا مؤمنة إلا سلموا عليه في تلك الليلة ﴿سَلَامٌ
 هِيَ﴾ ما هي إلا سلامة: أي لا يقدر الله فيها إلا السلامة والخير ويقضى في غيرها
 بلاء وسلامة، أو ماهي إلا سلام لكثرة ما يسلمون على المؤمنين. وقرئ مطلع
 بفتح اللام وكسرهما. عن رسول الله ﷺ: (مَنْ قرأ سورة القدر أعطي من الأجر
 كمن صام رمضان وأحيا ليلة القدر)^(٢).

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) نفس المصدر السابق.

(سورة البينة)

قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾^(١) رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً (٢) فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ (٣) وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ (٤) وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيمَةِ﴾^(١) قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ﴾ الآيات. قيل: كان الكفار من الفريقين أهل الكتاب وعبدة الأوثان يقولون قبل مبعث النبي ﷺ لا ننفك مما نحن عليه من ديننا ولا نتركه حتى يبعث النبي الموعود الذي هو مكتوب في التوراة والإنجيل وهو محمد ﷺ، فحكى الله تعالى ما كانوا يقولونه ثم قال - وما تفرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يعني أنهم كانوا يعدُّون اجتماع الكلمة والاتفاق على الحق إذا جاءهم الرسول، ثم ما فرَّقهم عن الحق ولا أقرهم على الكفر إلا مجيء الرسول (٢) ﷺ. ونظيره في الكلام أن يقول الفقير الفاسق لمن يعظه: لست بمنفك مما أنا فيه حتى يرزقني الله الغنى، فيرزقه الله الغنى فيزداد فسقا، فيقول واعظه: لم تكن منفكا عن الفسق حتى توسر وما غمرت رأسك في الفسق إلا بعد اليسار، يذكره ما كان يقوله توبيخا وإلزاما. وانفكاك الشيء من الشيء أن يزايله بعد التحامه به كالعظم إذا انفك من مفصله، والمعنى: أنهم متشبثون بدينهم لا يتركونه إلا عند مجيء البينة، و(البينة) الحجّة الواضحة، و(رسول) بدل من البينة. وفي قراءة عبد الله: رسولا حال من البينة، وهي شاذة (صحفا) قراطيس (مطهرة) من الباطل (فيها كتب) مكتوبات (قيمة) مستقيمة ناطقة بالحق والعدل. والمراد بتفرَّقهم تفرَّقهم عن الحق وانقشاعهم عنه، أو تفرَّقهم فرقا، فمنهم من آمن، ومنهم من أنكر وقال ليس به،

(١) سورة البينة الآيات: (١، ٢، ٣، ٤، ٥).

(٢) تفسير الكشاف تأليف أبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي الجزء الرابع ص (٢٧٤)، (٢٧٥) الطبعة الأخيرة سنة ١٣٨٥ هـ = ١٩٦٦ م.

ومنهم مَنْ عرف وعاند، فإن قلت: لِمَ جمع بين أهل الكتاب والمشرّكين أوّلاً ثم أفرد أهل الكتاب في قوله ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ ؟ (١) قلت: لأنّهم كانوا على علم به لوجوده في كتبهم، فإذا وصفوا بالتفرّق عنه كان من لا كتاب له أدخل في هذا الوصف ﴿وَمَا أُمِرُوا﴾ يعني في التوراة والإنجيل إلّا بالدين الحنيفيّ ولكنّهم حرّفوا وبدّلوا ﴿وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ أي دين المِلَّةِ القيّمة، وقرئ وذلك الدّين القيّمة على تأويل الدين بالملّة، وهي شاذّة جائزة لغة لا قراءة، فإن قلت: ما وجه قوله ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ﴾؟ قلت: معناه وما أمروا بما في الكتابين إلّا لأجل أن يعبدوا الله على هذه الصّفة. وقرأ ابن مسعود إلّا أن يعبدوا بمعنى بأن يعهدوا، وهذه شاذّة أيضاً تجوز لغة لا قراءة.

والبرية قرأ نافع وابن ذكوان، بياء ساكنة بعد الرّاء وبعد الياء همزة مفتوحة وحينئذ يكون المدّ متصلاً، فكلّ يمدّ على حسب مذهبه وقرأ الباقر بياء مشدّدة بعد الرّاء وبدون همز في الموضعين.
والنبيّ والبرية ممّا استمرّ الاستعمال على تخفيفه ورفض الأصل (٢).

عن رسول الله ﷺ: «مَنْ قرأ لم يكن كان يوم القيامة مع خير البرية مساء ومقبلاً»

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) نفس المصدر السابق.

(سورة الزلزلة)

قال الله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زُلْزَالَهَا (١) وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (٢) وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا (٣) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا (٥) يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾ (١) فإن قلت: ما معنى زلزالها بالإضافة؟ قلت: معناه زلزالها الذي تستوجهه في الحكمة وهو مشيئة الله وهو الزلزال الشديد الذي ليس بعده، ونحوه قولك أكرم التقي إكرامه وأهن الفاسق إهانته، تريد ما يستوجبانه من الإكرام والإهانة. أو زلزالها كله وجميع ما هو ممكن منه. الأثقال جمع ثقل: وهو متاع البيت ﴿وتحمل أثقالكم﴾ جعل ما في جوفها من الدفائن أثقالا لها ﴿وقال الإنسان ما لها﴾ زلزلت هذه الزلزلة الشديدة ولفظت ما في بطنها، وذلك عند النفخة الثانية حين تزلزل وتلفظ أمواتها أحياء فيقولون ذلك لما يهرهم من الأمر الفظيع كما يقولون ﴿من بعثنا من مرقدنا﴾ وقيل هذا قول الكافر لأنه كان لا يؤمن بالبعث، فأما المؤمن فيقول: (٢)

﴿هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون﴾ فإن قلت: ما معنى تحديث الأرض والإحياء لها؟ قلت: هو مجاز عن إحداث الله تعالى فيها من الأحوال ما يقوم مقام التحديث باللسان حتى ينظر من يقول مالها إلى تلك الأحوال فيعلم لم زلزلت ولم لفظت الأموات وأن هذا ما كانت الأنبياء يندرونه ويحذرون منه. وقيل ينطقها الله على الحقيقة وتخبر بما عمل عليها من خير أو شر. وروي عن رسول الله ﷺ: «تشهد على كل أحد بما عمل على ظهرها». فإن قلت: إذا ويومئذ ما ناصبهما؟ قلت: يومئذ بدل من إذا وناصبهما تحدث، ويجوز أن يتصب إذا بمضمر ويومئذ - ب- تحدث. فإن قلت: أين مفعولا تحدث؟ قلت: قد حذف أولهما والثاني أخبارها، وأصله تحدث الخلق أخبارها إلا أن المقصود ذكر تحديثها الأخبار

(١) سورة الزلزلة الآيات (١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦).

(٢) تفسير الكشاف. تأليف أبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي الجزء الرابع ص-

(٢٧٥، ٢٧٦، ٢٧٧) الطبعة الأخيرة سنة ١٣٨٥ هـ = ١٩٦٦ م.

لا ذكر الخلق تعظيماً لليوم . فإن قلت : بِمَ تَعَلَّقْتَ الْبَاءَ فِي قَوْلِهِ ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ﴾ ؟ قلت : بـ- تَحَدَّثُ ، معناه : تَحَدَّثَ أَخْبَارَهَا بِسَبَبِ إِحْيَاءِ رَبِّكَ لَهَا وَأَمْرِهِ إِيَّاهَا بِالتَّحْدِيثِ . ويجوز أن يكون المعنى : (١) يَوْمَئِذٍ تَحَدَّثُ بِتَحْدِيثِ أَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا أَخْبَارَهَا عَلَى أَنْ تَحْدِيثُهَا بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا تَحْدِيثَ بِأَخْبَارِهَا ، كما تقول نصحتني كلُّ نَصِيحَةٍ بِأَنَّ نَصَحْتَنِي فِي الدِّينِ . ويجوز أن يكون بِأَنَّ رَبَّكَ بَدَلًا مِنْ أَخْبَارِهَا كَأَنَّهُ قِيلَ : يَوْمَئِذٍ تَحَدَّثُ بِأَخْبَارِهَا بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا لِأَنَّكَ تَقُولُ حَدِيثَهُ كَذَا وَحَدِيثَهُ بِكَذَا ، وَأَوْحَى لَهَا بِمَعْنَى أَوْحَى إِلَيْهَا وَهُوَ مُجَازٌ كَقَوْلِهِ : ﴿أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ قال . أَوْحَى لَهَا الْقَرَارَ فَاسْتَقَرَّتْ . وَقَرَأَ ابْنُ مَسْعُودٍ تَنْبِيءَ أَخْبَارِهَا ، وَسَعِيدُ بْنُ جَبْرِ تَنْبِيءَ بِالتَّخْفِيفِ ، وَكِلْتَاهُمَا شَاذَتَانِ إِلَّا أَنَّهُمَا أَفَادَتَا تَفْسِيرَ الْقِرَاءَةِ الْمُتَوَاتِرَةَ - يَصْدُرُونَ عَنِ مَخَارِجِهِمْ مِنَ الْقُبُورِ إِلَى الْمَوْقِفِ ﴿أَشْتَاتًا﴾ بِيضِ الْوَجْهِ آمِنِينَ وَسُودِ الْوَجْهِ فَرِيعِينَ ، أَوْ يَصْدُرُونَ عَنِ الْمَوْقِفِ أَشْتَاتًا يَتَفَرَّقُ بِهِمْ طَرِيقًا الْجَنَّةِ وَالنَّارِ . لِيُرَوْا جِزَاءَ أَعْمَالِهِمْ ، وَفِي قِرَاءَةِ النَّبِيِّ ﷺ لِيُرَوْا بِالْفَتْحِ (٢) وَهَذِهِ أَيْضًا فَسَّرَتِ الْقِرَاءَةَ الْمُتَوَاتِرَةَ .

مثل آخر من هذه السورة : قال تعالى : ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (٣) والذرة : النملة الصغيرة ، وقيل الذر ما يرى في شعاع الشمس من الهباء . فإن قلت : حسنات الكافر محيطة بالكفر وسيئات المؤمن معفوّة باجتنب الكبائر فما معنى الجزاء بمثاقيل الذرّ من الخير والشرّ؟ قلت : المعنى فمن يعمل مثقال ذرة خيراً من فريق السعداء ومن يعمل مثقال ذرة شراً من فريق الأشقياء لأنّه جاء بعد قوله ﴿يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا﴾ .

عن رسول الله ﷺ : (مَنْ قَرَأَ سُورَةَ إِذَا زَلَزَلَتْ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ كَانَ كَمَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ كُلَّهُ) (٤) .

(١) نفس المصدر السابق .

(٢) نفس المصدر السابق .

(٣) سورة الزلزلة الآيتان : (٧ ، ٨) .

(٤) نفس المصدر السابق .

(سورة العاديات)

قال الله تعالى: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا (١) فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا (٢) فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا (٣) فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا (٤) فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا (٥) إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ (١).

قوله - ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا (١) فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا (٢) فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا﴾ وقد اختلف الصحابة ومن بعدهم في ذلك، فقال علي بن أبي طالب، وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهما: هي إبل الحاج، تعدو من عرفة إلى مزدلفة، ومن مزدلفة إلى منى، وهذا اختيار محمد بن كعب، وأبي صالح، وجماعة من المفسرين. وقال عبد الله بن عباس: هي خيل الغزاة، وهذا قول أصحاب ابن عباس، والحسن، وجماعة، واختاره الفراء، والزجاج، قال أصحاب الإبل: السورة مكية، ولم يكن ثم جهاد ولا خيل تجاهد. وإنما أقسم بما يعرفونه ويألفونه، وهي إبل الحاج إذا عدت من عرفة إلى مزدلفة، فهي عاديات، والضبح والضبع مدّ الناقة ضبعها في السير، يقال ضبحت وضبعت (٢) بمعنى واحد، وأنشد أبو عبيدة، وقد اختار هذا القول:

فكان لكم أجرى جميعاً وأضبحت بي البازل الوجناء في الآل تضبح

قالوا فهي تعدو ضبحا، فتوري بأخفافها النار من حكّ الأحجار بعضها ببعض فتشير النقع - وهو الغبار - بعدوها، فيتوسط جمعا، وهي المزدلفة، قال أصحاب الخيل: المعروف في اللغة أن الضبح أصوات أنفاس الخيل إذا عدّون، والمعنى والعاديات ضابحة، فيكون ضبحا مصدرا على الأوّل، وحالا على الثاني. قالوا: والخيّل هي التي تضبح في عدوها ضبحا، وهو صوت يسمع من أجوافها، ليس بالصهيل ولا الحمحمة، ولكن صوت أنفاسها في أجوافها من شدة العدو، وقال الجرجاني: كلاً القولين قد جاء في التفسير، إلا أن السياق يدلّ على أنها الخيل،

(١) سورة العاديات الآيات: (١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦).

(٢) التبيان في أقسام القرآن للعلامة شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن القيم الجوزية ص ٤٨، ٤٩، وما بعدها. دار الكتاب العربي.

وهو قوله تعالى ﴿فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا﴾ والإيراء لا يكون إلاً للحافر، لصلابته. وأما الخف ففيه لين واسترخاء. أهـ

قالوا: والضبح في الخيل أظهر منه في الإبل، والإيراء لسنايك الخيل أبين^(١) منه لأخفاف الإبل. قالوا: والسنع هو الغبار، وإثارة الخيل بعدوها له أظهر من إثارة أخفاف الإبل، والضمير في به غائد على المكان الذي تعدو فيه. قالوا وأعظم ما يثير الغبار عند الإغارة إذا توسطت الخيل جمع العدو لكثرة حركتها واضطرابها في ذلك المكان. وأما حمل الآية في إثارة الغبار في وادي محسّر عند الإغارة، فليس بالبين، ولا يثور هناك غبار في الغالب، لصلابة المكان. قالوا: وأما قولكم إنه لم يكن بمكة حين نزول الآية جهاد ولا خيل تجاهد، فهذا لا يلزم، لأنه سبحانه أقسم بما يعرفونه من شأن الخيل إذا كانت في غزو، فأغارت فأثارت السنع، وتوسطت جمع العدو. وهذا أمر معروف. وذكر خيل المجاهدين أحق ما دخل في هذا الوصف، فذكره على وجه التمثيل لا الاختصاص. فإن هذا شأن خيل المقاتلة. وأشرف أنواع الخيل خيل المجاهدين. والقسم إنما وقع بما تضمّنه شأن هذه العاديات من الآيات البيّنات من خلق هذا الحيوان الذي هو من أكرم البهيم وأشرفه، وهو الذي يحصل^(٢) به الغزو والظفر، والنصر على الأعداء، فيعدو طالبة للعدو وهاربة منه فيثير عدوها الغبار لشدّته، وتُوري حوافرها وسنايكها النار من الأحجار، لشدّة عدوها، فتدرك الغارة التي طلبتها حتى تتوسّط جمع الأعداء، فهذا من أعظم آيات الربّ تعالى، وأدلة قدرته وحكمته، فذكّرهم بنعمه عليهم في خلق هذا الحيوان الذي ينتصرون به على أعدائهم، ويدركون به ثأرهم كما ذكرهم سبحانه بنعمه عليهم في خلق الإبل التي تحمل أثقالهم من بلد إلى بلد، فالإبل أخصّ بحمل الأثقال، والخيل أخصّ بنصرة الرجال، فذكّرهم بنعمه بهذا وهذا، وخصّ الإغارة بالضبح، لأن العدو لم ينتشروا إذ ذاك ولم يفارقوا محلهم،

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) نفس المصدر السابق.

وأصحاب الإغارة حامون مستريحون، يبصرون مواقع الغارة والعدو لم يأخذوا أهبتهم بل هم في غرتهم وغفلتهم، ولهذا كان النبي ﷺ إذا أراد الغارة صبر حتى يطلع الفجر، فإن سمع مؤذناً أمسك، وإلا أغار ولماً علم أصحاب الإبل أن أخفأها أبعث شيء من وري النار تأولوا^(١) الآية على وجوه بعيدة. فقال محمد بن كعب: هم الحاج إذا أوقدوا نيرانهم ليلة المزدلفة، وعلى هذا فيكون التقدير: فالجماعات الموريات وهذا خلاف الظاهر. وإنما الموريات هي العاديات، وهي المغيرات. وروى سعيد بن جبيرة عن ابن عباس: هم الذين يغيرون، فيورون بالليل نيرانهم لطعامهم وحاجتهم، كأنهم أخذوه من قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ﴾^(٢) وهذا إن أريد به التمثيل، وأن الآية تدلّ عليه فصحيح، وإن أريد به اختصاص الموريات فليس كذلك، لأن الموريات هي العاديات بعينها. ولهذا عطفها عليه بالفاء التي للتسبب فإنها عدت فأورت. وقال قتادة: الموريات هي الخيل توري نار العداوة بين المقتتلين، وهذا ليس بشيء، وهو بعيد من معنى الآية وسياقها. وأضعف منه قول عكرمة: هي الألسنة توري نار العداوة بعظيم ما تتكلم به، وأضعف منه ما ذكر عنه مجاهد: هي أفكار الرجال، توري نار المكر والخديعة في الحرب.^(٣) وهذه الأقوال إن أريد أن اللفظ دلّ عليها، وأنها هي المراد فغلط. وإن أريد أنها أخذت من طريق الإشارة والقياس فأمرها قريب. وتفسير الناس يدور على ثلاثة أصول: تفسير على اللفظ. وهو الذي ينحو إليه المتأخرون. وتفسير على المعنى. وهو الذي يذكره السلف. وتفسير على الإشارة والقياس وهو الذي ينحو إليه كثير من الصوفية وغيرهم. وهذا لا بأس به إن توقّر فيه أربعة شرائط: أن لا يناقض معنى الآية، وأن يكون معنى صحيحاً في نفسه، وأن يكون في اللفظ إشعار به، وأن يكون بينه وبين معنى الآية ارتباط وتلازم. فإذا اجتمعت

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) سورة الواقعة الآية: (٧١).

(٣) نفس المصدر السابق.

هذه الأمور الأربعة كان استنباطا حسنا. وأضعف من ذلك كسله قول ابن جريج: قدحا، يعني: فالمنجّحات أمراً، يريد البالغين ينجحهم فيما طلبوه، وعطف قوله «فأثرن، فوسطن، وهما فعلان على العاديات، والموريات لما فيه من معنى الفعل. وكان ذكر الفعل في أثرن، ووسطن أحسن من ذكر الاسم لأنه سبحانه قسم أفعالنا إلى قسمين: وسيلة، وغاية؛ فالوسيلة هي العدو وما يتبعه من الإيراء، والإغارة، والغاية هي توسط الجمع وما يتبعه من إثارة النقع. فهنّ عاديات موريات مغيرات حتى يتوسطن الجمع ويثرن النقع. فالأول شأنهنّ الذي أعددن له، والثاني فعلهن الذي انتهين إليه والله أعلى وأعلم بالصواب.

فهذا شأن القسم، وأما شأن المقسم عليه فهو حال الإنسان، وهو كون الإنسان كنوداً بشهادته على نفسه، أو شهادة ربّه عليه، وكونه بخيلاً لحبه المال. والكنود للنعمة، وفعله كند يكند كنوداً، مثل كفر يكفر كفوراً، والأرض الكنود التي لا تنبت شيئاً، وامرأة كندی أي كفور للمعاشرة، وأصل اللّفظ منع الحق والخير، ورجل كنود إذا كان مانعاً لما عليه من الحق. وعبارات المفسّرين تدور على هذا المعنى. قال ابن عباس رضي الله عنهما، وأصحابه: هو الكفور، وقيل هو البخيل الذي يمنع رفته، ويججع عبده، ولا يعطي في النائبة. وقال الحسن: ^(١) هو اللوأم لربّه، يعدّ المصائب، وينسى النعم:

وأما قوله ﴿وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ ^(٢) فقال ابن عباس: يريد أن ربّه على ذلك لشهيد، وقيل إن الإنسان لشهيد على ذلك، إن أنكر بلسانه أشهد ربّه عليه حاله، ويؤيد هذا القول سياق الضمائر فإنّ قوله «وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ» للإنسان فافتتح الخبر عن الإنسان بكونه كنوداً، ثمّ ثنّاه بكونه شهيداً على ذلك، ثمّ ختمه بكونه بخيلاً بما له لحبه إيّاه. ويؤيد قول ابن عباس رضي الله عنهما أنّه أتى بعليّ فقال: ﴿وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ أي مطلع عالم به. كقوله - ﴿ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) سورة العاديات الآية : (٧).

يَفْعَلُونَ ﴿١﴾ ولو أريد شهادة الإنسان لأتى بالباء. فقيل: وإنه بذلك لشهيد. كما قال تعالى ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَيْهِمْ أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ﴾ ﴿٢﴾ فلو أراد شهادة الإنسان لقال: وإنه على نفسه لشهيد. فإن كنوده المشهود به، ونفسه هي المشهود عليها. ﴿٣﴾ مثل آخر من هذه السورة: قال تعالى ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ ﴿٤﴾ والخير هنا المال باتفاق المفسرين. والشديد البخل من أجل حبّ المال، فحبّ المال هو الذي حمّله على البخل. وهذا قول الأكثرين. وقال ابن قتيبة: بل المعنى: إنّه لشديد الحبّ للخير، فتكون اللّام في قوله «الحبّ الخير متعلّقة بقوله ﴿لشديد﴾ على حدّ تعلق قولك: إنه لزيد لضارب، ومنعت طائفة من النحاة أن يعمل ما بعد اللّام فيما قبلها، وهذه الآيات حجة على الجواز فإن قوله ﴿لربّه﴾ معمول ﴿لكنود﴾ وقوله - على ذلك - معمول - لشهيد - ولا وجه لتكلف البارد في تقدير عامل مقدّم محذوف يفسره هذا المذكور. فالحق جواز إن لزيد لضارب. فوصف سبحانه الإنسان بكفران نعم ربّه، وبخله بما آتاه من الخير فلا هو شكور للنعم، ولا محسن إلى خلقه. بل ببخل بشكره، ببخل بماله، ﴿٥﴾ وهذا على خلاف المؤمن الكريم، فإنه مخلص لربّه، محسن إلى خلقه. فالمؤمن له الإخلاص والإحسان، والفاجر له الكفر والبخل. وقد ذمّ الله سبحانه هذين الخلقين المهلكين في غير موضع من كتابه.

كقوله - ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿٦﴾ فالرياء ضد الإخلاص. ومنع الماعون ضد الإحسان. وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ ﴿٣٦﴾ الَّذِينَ يَخْلُونِ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٧﴾ فاختياله وفخره

(١) سورة يونس الآية: (٤٦).

(٢) سورة التوبة الآية: (١٧).

(٣) نفس المصدر السابق.

(٤) سورة العاديات الآية: (٨).

(٥) نفس المصدر السابق.

(٦) سورة الماعون الآيات: (٤، ٥، ٦، ٧).

(٧) سورة النساء الآيتان: (٣٦، ٣٧).

من كفره وكنوده، وهذا ضد قوله - ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾^(١) وقوله: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ الآية،^(٢) وكذلك ذكر الخلقين الذميين^(٣) في قوله ﴿وَالَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ الآية^(٤) ونظيره، ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾^(٥) ونظيره ما تقدم في سورة الليل من ذم المستغني البخيل، ومدح المعطي المصدق بالحسنى. ونظيره قوله - ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ﴾^(٦) فإن الهمزة واللُّمزة من الفخر والكبر، وجمع المال وتعد يده من البخل. وذلك منافٍ لسر الصلاة والزكاة ومقصودهما.

ثم خوف سبحانه الإنسان الذي هذا وصفه حين يعثر ما في القبور، ويحصل ما في الصدور، أى ميز، وجمع، وبين، وأظهر، ونحو ذلك، وجمع سبحانه بين القبور والصدور، كما جمع بينهما النبي ﷺ في قوله (ملأ الله أجوافهم وقبورهم ناراً)^(٧) فإن الإنسان يوارى^(٨) صدره ما فيه من الخير والشر، ويوارى قبره جسمه، فيخرج الرب جسمه من قبره وسره من صدره، فيصير جسمه بارزاً على الأرض، وسره بادياً على وجهه) كما قال تعالى: ﴿يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ﴾^(٩)، و﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرطوم﴾^(١٠)

(١) سورة البقرة الآية: (٣).

(٢) سورة النساء الآية: (٣٦).

(٣) نفس المصدر السابق.

(٤) سورة النساء الآيات: (٣٨، ٣٩).

(٥) سورة الهمزة الآيات: (١، ٢).

(٦) رواه البخاري وغيره وذلك في غزوة الأحزاب، وهي الخندق حين شغل المشركون النبي ﷺ عن صلاة العصر.

(٨) نفس المصدر السابق.

(٩) سورة الرحمن الآية: (٤١).

(١٠) سورة القلم الآية: ١٦.

ومفعول العلم ﴿إِنَّ﴾ علمت فيه وكسرت لمكان اللّام. وقيد سبحانه كونه خبيراً
بهم ذلك اليوم - وهو خبير بهم في كلّ وقت - إيذاناً بالجزاء، وأنّه يجازيهم في
ذلك اليوم بما يعلمه منهم. فذكر العلم والمراد لازمه. والله سبحانه وتعالى أعلى
وأعلم بالصواب. (١).

(١) نفس المصدر السابق.

(سورة القارعة)

قال الله تعالى: ﴿ الْقَارِعَةُ ١ مَ الْقَارِعَةُ ٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ٣ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ٤ ﴾ (١).

قوله: القارعة، من أسماء يوم القيامة كالحاقة، والطامة، والصاخة، والغاشية وما أشبه ذلك. ثم قال تعالى معظماً أمرها ومهولاً لشأنها. ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ٤ ﴾، ثم فسّر ذلك: ﴿ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ٤ ﴾ أي في انتشارهم وتفرقهم وذهابهم ومجيئهم من حيرتهم ممّا هم فيه كأنهم فراش مبثوث كما قال تعالى في الآية الأخرى ﴿ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ٥ ﴾ (٢).

مثل آخر من هذه السورة: قال تعالى: ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ٦ ﴾ (٣) يعني قد صارت كأنها الصوف المنفوش الذي قد شرع في الذهاب والتمزق. وقال مجاهد وعكرمة وغير واحد: (الْعِهْنُ) الصوف ثم أخبر تعالى: عمّا يؤول إليه عمل العاملين وما يصيرون إليه من الكرامة والإهانة بحسب (٤) أعمالهم ﴿ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ٥ ﴾ (٥) أي رجحت حسناته على سيئاته ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ٦ ﴾ (٦) يعني في الجنة، ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ٧ ﴾ (٧)، أي رجحت سيئاته على حسناته. وقوله تعالى: ﴿ فَأَمَّهُ هَٰوِيَةٌ ٨ ﴾ (٨) قيل معناه: فهو ساقط هاو بأمر رأسه في نار جهنم، وعبر عنه بأمة يعني دماغه، روي نحو هذا عن ابن عباس وغير واحد: يهوي في النار على رأسه، وكذا قال أبو صالح يهون في النار على رءوسهم، وقيل معناه: فأمة التي

(١) سورة القارعة الآيات: (١، ٢، ٣، ٤).

(٢) سورة القمر الآية: (٧٧).

(٣) سورة القارعة الآية: (٥).

(٤) تفسير القرآن العظيم للإمام الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي ج٤ ص (٤٩٥) الطبعة الأولى ١٤٣ هـ - ١٩٨٣ م.

(٥، ٦، ٧، ٨) سورة القارعة الآيات: (٦، ٧، ٨، ٩).

يرجع إليها ويصير في المعاد إليها هاوية، وهي اسم من أسماء النار، قال ابن جرير: وإنما قيل للهاوية أمه لأنه لا مأوى له غيرها، وقال ابن زيد: الهاوية النار هي أمه ومأواه التي يرجع إليها ويأوي إليها وقرأ ﴿ومأواهم النار﴾.

قال ابن أبي حاتم: ورؤي عن قتادة أنه قال: هي النار وهي مأواهم، ولهذا قال مفسراً للهاوية ﴿وما أدراك ماهيه﴾ (١) ﴿نار حاميه﴾ (٢).

(١، ٢) نفس المصدر السابق.

(سورة التكاثر)

قال الله تعالى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢) كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤) كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ (١).

قوله - ألهاكم التكاثر، يقول تعالى: أشغلكم حب الدنيا ونعيمها وزهرتها عن طلب الآخرة وابتغائها، وتمادى بكم ذلك حتى جاءكم الموت وزرتم المقابر وصرتم من أهلها.

قال ابن أبي حاتم: عن ابن زيد بن أسلم عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ «ألهاكم التكاثر - عن الطاعة - حتى زرتم المقابر - حتى يأتيكم الموت» وقال الحسن البصري: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ في الأموال والأولاد، وفي صحيح البخاري في الرقاق منه عن أبي بن كعب قال كنا نرى هذا من القرآن حتى نزلت ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ يعني (لو كان لابن آدم واد من ذهب) (٢).

وقال الإمام أحمد عن ابن عبد الله بن الشخير عن أبيه قال: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقول ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ يقول ابن آدم مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت؟ ورواه مسلم والترمذي والنسائي من طريق شعبة به وقال مسلم في صحيحه: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ (يقول العبد مالي مالي، وإنما له من ماله ثلاث: ما أكل فأفنى أو لبس فأبلى أو تصدق فأمضى . وما سوى ذلك فذاهب وتاركة للناس) تفرّد به مسلم.

وقال البخاري: عن أنس بن مالك يقول: قال رسول الله ﷺ: (يتبع الميت ثلاثة فيرجع اثنان ويبقى معه واحد: يتبعه أهله وماله وعمله فيرجع أهله

(١) سورة التكاثر الآيات: (١، ٢، ٤، ٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم للإمام الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي المجلد الرابع ص (٤٩٦، ٤٩٧). الطبعة الأولى سنة ١٤٠٣ هـ = ١٩٨٣ م.

وماله ويبقى عمله) وكذا رواه مسلم والترمذي والنسائي من حديث سفيان ابن عيينه به (١).

وقال الإمام أحمد: عن أنس أن النبي ﷺ قال: (يهرم ابن آدم ويبقى معه اثنتان: الحرص والأمل) أخرجاه في الصحيحين وذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة الأحنف بن قيس واسمه الضحاك أنه رأى في يد رجل درهماً فقال: لمن هذا الدرهم؟ فقال الرجل: لي، فقال: إنما هو لك إذا أنفقته في أجر أو ابتغاء شكر، ثم أنشد الأحنف متمثلاً قول الشاعر:

أنت للمال إذا أمسكته فإذا أنفقته فالمال لك

وقال ابن أبي حاتم: عن ابن بريدة في قوله ﴿أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ﴾ قال: نزلت في قبيلتين من قبائل الأنصار في بني حارثة وبني الحارث تفاخروا وتكاثروا فقالت إحداهما: فيكم مثل فلان بن فلان وفلان وقال الآخرون مثل ذلك، تفاخروا بالأحياء ثم قالوا انطلقوا بنا إلى القبور فجعلت إحدى الطائفتين تقول: فيكم مثل فلان يشيرون إلى القبور، ومثل فلان، وفعل الآخرون مثل ذلك فأنزل الله: ﴿أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ﴾ (٢) ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ لقد كان لكم فيما رأيتم عبرة وشغل: وقال قتادة: ﴿أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ كانوا يقولون: نحن أكثر من بني فلان، ونحن أعدّ من بني فلان وهم كل يوم يتساقطون إلى آخرهم، والله ما زالوا كذلك حتى صاروا من أهل القبور كلهم، والصحيح أن المراد بقوله: زرتم المقابر أي صرتم إليها ودفنتم فيها، كما جاء في الصحيح أن رسول الله ﷺ دخل على رجل من الأعراب يعودته فقال: (لا بأس طهور إن شاء الله) فقال: قلت طهور بل هي حمى تفور، على شيخ كبير، تزيه القبور، قال: (فنعم إذن).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، عن زر بن حبيش عن عليّ قال:

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) نفس المصدر السابق.

مازلنا نشكُّ في عذاب القبر حتى نزلت: ﴿أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ ورواه الترمذي عن أبي كريب عن حكام بن سالم به، وقال غريب. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي عن ميمون بن مهران قال: كنت جالسا عند عمر بن العزيز قرأ ﴿أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾^(١) فلبثَ هنيهة ثم قال: يا ميمون ما أرى المقابر إلا زيارة، وما للزائر بدُّ من أن يرجع إلى منزله. قال أبو محمد: يعني أن يرجع إلى منزله أي إلى جنَّة أو إلى نار، وهكذا ذكر أن بعض الأعراب سمع رجلا يتلو هذه الآية: ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ فقال بعث اليوم وربَّ الكعبة أي إن الزائر سيرحل من مقامه ذلك أو إلى غيره. وقوله تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ، ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ قال الحسن البصري: هذا وعيد بعد وعيد، وقال الضحَّاك: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ يعني أيها الكفار ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ يعني أيها المؤمنون، وقال تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ أي لو علمتم حق العلم لَمَا أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ عن طلب الدار الآخرة حتى صرتم إلى المقابر^(٢).

مثل آخر من هذه السورة: قال تعالى: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾^(٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ^(٧) ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ^(٣) قوله: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾^(٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ هذا تفسير الوعيد المتقدم، وهو قوله ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ، ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ توعدهم بهذا الحال، وهو رؤية أهل النار التي إذا زفرت زفرة واحدة خرَّ كلُّ ملكٍ مقربٍ ونبيٍّ مرسلٍ على ركبتيه من المهابة والعظمة ومعاناة الأهوال على ما جاء به الأثر المروي في ذلك، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ أي ثم لتسألن يومئذ عن شكر ما أنعم الله به عليكم من الصحة والأمن والرزق وغير ذلك ما إذا قابلتم به نعمه من شكره وعبادته^(٤).

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) سورة التكاثر الآيات: (٦، ٧، ٨).

(٤) نفس المصدر السابق.

(سورة العصر)

قال الله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ (١).

أقسم الله تعالى: ﴿بِالْعَصْرِ﴾ على حال الإنسان في الآخرة، هذه السورة على غاية اختصارها لها شأن عظيم، حتى قال الشافعي رحمه الله: لو فكر الناس كلهم فيها لكفتهم.

والعصر المقسم به، قيل: هو أول الوقت الذي يلي المغرب من النهار، وقيل: هو آخر ساعة من ساعاته، وقيل المراد صلاة العصر وأكثر المفسرين على أنه الدهر. وهذا هو الراجح. وتسمية الدهر عصراً أمر معروف في لغتهم. قال الشاعر:

ولن يلبث العصران يوم وليلة
إذا طلبا أن يدركا ما تيمما
ويوم وليلة بدل من العصران، فأقسم سبحانه بالعصر لمكان العبرة والآية فيه. فإن مرور الليل والنهار على تقدير قدرة العزيز العليم (٢) منتظم لمصالح العالم على أكمل ترتيب ونظام. وتعاقبهما واعتدالهما تارة، وأخذ أحدهما من صاحبه تارة، واختلافهما في الضوء، والظلام، والحر، والبرد، وانتشار الحيوان، وسكونه، وانقسام العصر إلى القرون، والسنين، والأشهر، والأيام، والساعات، وما دونها - آية من آيات الربّ تعالى، ودليل قاطع وبرهان ساطع من براهين قدرته وحكمته.

فأقسم بالعصر الذي هو زمان أفعال الإنسان ومحلها على عاقبة تلك الأفعال وجزائها، ونبه بالمبدأ وهو خلق الإنسان، والفاعلين وأفعالهم على المعاد، وأن قدرته كما لم تقصّر عن المبدأ لم تقصّر عن المعاد، وأن حكمته التي اقتضت خلق الزمان وخلق الفاعلين وأفعالهم، وجعلها قسمين خيراً وشرّاً تأبى أن يسوّي بينهم،

(١) سورة العصر.

(٢) التبيان في أقسام القرآن للعلامة شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن القيم الجوزية ص ٥٣، ٥٤، ٥٥. دار الكتاب العربي.

(٣) نفس المصدر السابق.

وَأَلَّا يَجَازِي الْمَحْسَنَ بِإِحْسَانِهِ وَالْمُسِيءَ بِإِسَاءَتِهِ، وَأَنْ يَجْعَلَ النُّوعَيْنِ رَابِحِينَ أَوْ خَاسِرِينَ، بَلِ الْإِنْسَانُ مِنْ حَيْثُ هُوَ إِنْسَانٌ خَاسِرٌ، ^(٥) إِلَّا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، فَهَدَاهُ وَوَفَّقَهُ لِلْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ فِي نَفْسِهِ، وَأَمْرٌ غَيْرُهُ بِهِ، وَهَذَا نَظِيرُ رَدِّهِ الْإِنْسَانَ إِلَى أَسْفَلِ سَافِلِينَ، وَاسْتِثْنَاءِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُرْدُودِينَ. وَتَأَمَّلْ حِكْمَةَ الْقُرْآنِ لَمَّا قَالَ ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ﴾ فَإِنَّهُ ضَيَّقَ الْإِسْتِثْنَاءَ وَخَصَّصَهُ، فَقَالَ ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ لَمَّا قَالَ ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ وَسَّعَ الْإِسْتِثْنَاءَ وَعَمَّمَهُ، فَقَالَ ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وَلَمْ يَقُلْ ﴿وَتَوَاصَوْا﴾ فَإِنَّ التَّوَاصِيَّ هُوَ أَمْرُ الْغَيْرِ بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَهُوَ قَدْرٌ زَائِدٌ عَلَى مَجْرَدِ فَعْلِهِ. فَمَنْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ فَقَدْ خَسِرَ هَذَا الرَّبْحَ، فَصَارَ فِي خَسْرٍ وَلَا يَلْزَمُ، أَنْ يَكُونَ فِي أَسْفَلِ سَافِلِينَ. فَإِنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يَقُومُ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِ وَلَا يَأْمُرُ غَيْرَهُ، فَإِنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ مَرْتَبَةٌ زَائِدَةٌ. وَقَدْ تَكُونُ فَرْضًا عَلَى الْأَعْيَانِ. وَقَدْ تَكُونُ فَرْضًا عَلَى الْكُفَايَةِ وَقَدْ تَكُونُ مُسْتَحَبَّةً ^(١)

والتواصي بالحق يدخل فيه الحق الذي يجب، والحق الذي يستحب والصبر والصبر الذي يجب، والصبر الذي يستحب. فهؤلاء إذا تواصوا بالحق وتواصوا بالصبر حصل لهم من الربح ما خسره أولئك الذين قاموا بما يجب عليهم في أنفسهم، ولم يأمرُوا غيرهم بهم، وإن كان أولئك لم يكونوا من الذين خسروا أنفسهم وأهلهم. فمطلق الخسار شيء والخسار المطلق شيء وهو سبحانه إنما قال ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ﴾ ومن ربح في سلعة وخسر في غيرها قد يطلق عليه أنه في خسر وأنه ذو خسر، كما قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: لقد فرطنا في قراريط كثيرة ^(٢) فهذا نوع تفريط، وهو نوع خسر بالنسبة إلى من حصل ربح ذلك.

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) رواه البخاري في باب فضل اتباع الجنّاة. قال الحافظ: أي من عدم المواظبة على حضور الدفن. لأن ابن عمر كان يصلي على الميت ثم ينصرف.

ولما قال في سورة التين: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ قال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فقسّم الناس إلى هذين القسمين فقط. ولما كان الإنسان له قوتان قوة العلم وقوة العمل. وله حالتان حالة يأتمر فيها بأمر غيره، ^(١) وحالة يأمر فيها غيره، استثنى سبحانه من كمل قوته العلمية بالإيمان، وقوته العملية بالعمل الصالح، وانقاد لأمر غيره له بذلك، وأمر غيره به من الإنسان الذي هو في خسر. فإنَّ العبد له حالتان حالة كمال في نفسه، وحالة تكميل لغيره، وكماله وتكميله موقوف على أمرين: علم بالحق، وصبر عليه. فتضمّنت الآية جميع مراتب الكمال الإنساني، من العلم النافع، والعمل الصالح، والإحسان إلى نفسه بذلك، وإلى أخيه به، وانقياده وقبوله لمن يأمره بذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ إرشاد إلى منصب الإمامة في قوة الدين. كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ ^(٢) فبالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين. والصبر نوعان: نوع على المقذور، كالمصائب: ونوع على المشروع. وهذا النوع أيضا نوعان: صبر على الأوامر، وصبر عن النواهي. فذاك صبر على الإرادة والفعل. وهذا صبر عن الإرادة والفعل. ^(٣) فأما النوع الأوّل من الصبر فمشارك بين المؤمن والكافر، والبرّ والفاجر، لا يثاب عليه لمجرده إن لم يقترن به إيمان واختيار. قال النبي ﷺ في حق ابنته (مرها فلتصبر ولتحتسب) ^(٤) وقال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ ^(٥) وقال تعالى: ﴿بَلَىٰ إِنْ تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ ^(٦) وقال ﴿وَإِنْ تَصَبَرُوا

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) سورة السجدة الآية: (٢٤).

(٣) نفس المصدر السابق.

(٤) ابنته هي زينب. بعثت إليه أن ابناً لها قبض، . . . فأرسل يقريء السلام ويقول: «إن لله ما أخذ وله ما

أعطى وكل عندة بأجل مسمى» الحديث رواه البخاري وغيره في كتاب الجنائز عن أسامة بن زيد.

(٥) سورة هود: الآية: (١١).

(٦) سورة آل عمران: الآية: (١٢٥).

وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١﴾ فالصبر بدون الإيمان والتقوى بمنزلة قوة البدن الخالي عن الإيمان والتقوى، وعلى حسب اليقين بالمشروع يكون الصبر على المقدور. وقال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ (٢) فأمره أن يصبر ولا يتشبه بالذين لا يقين عندهم في عدم الصبر فإنهم لعدم يقينهم عدم صبرهم وخفوا واستخفوا قومهم، ولو حصل لهم اليقين والحق لصبروا، (٣) وما خفوا ولا استخفوا. فمن قلّ يقينه قلّ صبره، ومن قلّ صبره خفّ واستخفّ، فالموثق الصابر رزين، لأنّه ذو لبّ وعقل، ومن لا يقين له ولا صبر عنده خفيف طائش تلعب به الأهواء والشهوات، كما تلعب الرياح بالشيء الخفيف. والله المستعان (٤).

(١) سورة آل عمران: الآية : (١٢٠).

(٢) سورة الروم الآية : (٦٠).

(٣) نفس المصدر السابق.

(٤) نفس المصدر السابق.

(سورة الهمة)

قال الله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ (١) الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ (٢) يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ (٣) كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ (٤) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ (٥) نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ (٦) الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ (٧) إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّؤَصَّدَةٌ (٨) فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴿ (١)

سبب النزول:

جاء في سبب نزول هذه السورة أقوال:

قيل: نزلت في الأخنس بن شريق وكانت عاداته الغيبة والوقية، وقيل في أمية ابن خلف، وقيل في الوليد بن المغيرة واغتيابه لرسول الله ﷺ ورضبه منه . ويجوز أن يكون السبب خاصاً والوعيد عاماً ليتناول كل من باشر ذلك القبيح وليكون جارياً مجرى التعريض بالوارد فيها فإن ذلك أزجر له وأنكى فيه (الذي) بدل من كل أو نصب على الذم . (٢) قرأ بن عامر، وحمزة، والكسائي، وأبو جعفر المدني، وروح، وخلف في اختياره (جمع) بتشديد الميم على المبالغة وهو مطابق لعدده، وقيل عدده جعله عدة لحوادث الدهر . وقرئ وعدده: أي جمع المال وضبط عدده وأحصاه، أو جمع ماله وقومه الذين ينصرونه من قولك فلان ذو عدد وعدد إذا كان له عدد وافر من الأنصار وما يصلحهم . وقيل وعدده معناه وعدده على فك الإدغام نحو ضننوا، ﴿أخْلده﴾ وخذله بمعنى أي طول المال أمله ومناه الأمانى البعيدة حتى أصبح لفرط غفلته وطول أمله يحسب أن المال تركه خالداً في الدنيا لا يموت، أو يعمل من تشييد البنيان الموثق بالصخر والأجر وغرس الأشجار وعمارة الأرض عمل من يظن أن ماله أبقاه حياً، أو هو تعريض بالعمل الصالح وأنه هو الذي أخلد صاحبه في النعيم، فأما المال فما أخلد أحداً فيه . وروى أنه كان للأخنس أربعة آلاف دينار، وقيل عشرة آلاف وعن الحسن أنه

(١) سورة الهمة.

(٢) تفسير الكشاف . تأليف أبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي الجزء الرابع ص

٢٨٣، ٢٨٤ ط: مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر الطبعة الأخيرة ١٣٨٥ هـ: ١٩٦٦ م.

عاد موسراً فقال: ^(١) ما تقول في ألوف لم أفتد بها من لئيم ولا تفضلت على كريم؟ قال: ولكن لماذا؟ قال: لنبوة الزمان وجفوة السلطان ونوائب الدهر ومخافة الفقر، قال: إذن تدعه لمن لا يحمدك وتُردُّ على مَنْ لا يعذرك، (كلاً) ردع له عن حسابنه. وقريء شاذاً لينبذان بالثنوية أي هو وماله، ولينبذن بضم الذال: أي هو وأنصاره، ولينبذنه، (في الحطمة) أي في النار التي من شأنها أن تحطم كل ما يلقي فيها، ويقال للرجل الأكلول إنه لحطمة، وقريء الحاطمة: وهي شاذة أيضاً يعني أنها تدخل في أجوافهم حتى لا تصل إلى صدورهم وتطلع على أفتدتهم وهي أوساط القلوب ولا شيء في بدن الإنسان ألطف من الفؤاد ولا أشدّ تألماً منه بأدنى أذى يمسه، فكيف إذا اطلعت عليه نار جهنم واستولت عليه؟! ويجوز أن يخصّ الأفتدة لأنها مواطن الكفر والعقائد الفاسدة والنيّات الخبيثة. ومعنى اطلاع النار عليها أن تعلوها وتغلبها وتشتمل عليها أو تطالع على سبيل المجاز معادن موجبها، (مؤصدة) مطبقة، قال: ^(٢)

تَحْنُ إِلَى أَجْبَالِ مَكَّةَ نَاقَتِي
 وَمِنْ دُونِهَا أَبْوَابُ صِنْعَاءِ مَوْصِدَةٍ
 وَقَرَأَ حَمَزَةَ وَالْكَسَائِيَّ وَأَبُو بَكْرٍ (شَعْبَةَ) وَخَلَّفَ فِي اخْتِيَارِهِ (عَمِدَ) بَضْمَ الْعَيْنِ
 وَالْمِيمِ جَمَعَ عَمُودَ مِثْلَ رَسُولٍ وَرَسَلٌ، أَوْ جَمَعَ عَمَادَ مِثْلَ كِتَابٍ وَكُتِبَ. وَقَرِئَ
 شَاذًا بِسُكُونِ الْمِيمِ، أَمَّا الْقِرَاءَةُ الْمُتَوَاتِرَةُ فَهِيَ بِفَتْحِ الْعَيْنِ وَالْمِيمِ، وَالْمَعْنَى: أَنَّهُ يُؤَكِّدُ
 بِأَسْهُمٍ مِنَ الْخُرُوجِ وَتَيَقَّنُهُمْ بِحَبْسِ الْأَبَدِ فَتَوْصِدُ عَلَيْهِمُ الْأَبْوَابُ وَتَمُدُّ عَلَى الْأَبْوَابِ
 الْعَمِدَ اسْتِثْقَا فِي اسْتِثْقَا. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى: إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مَوْصِدَةٌ، مُوثِقِينَ
 فِي عَمِدٍ مَمْدُودَةٍ مِثْلَ الْمَقَاتِرِ الَّتِي تَقَطَّرُ فِيهَا اللَّصُوصُ. اللَّهُمَّ أَجْرْنَا مِنَ النَّارِ يَا خَيْرَ
 مُسْتَجَارٍ ^(٣).

عن رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْهَمْزَةِ أَعْطَاهُ اللَّهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ بَعْدَ مَنْ اسْتَهْزَأَ بِمُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ»

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) نفس المصدر السابق.

(سورة الفيل)

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضَلُّيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ (١)﴾.

﴿أَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ هم أبرهة الحبشي وجيشه الذين جاءوا لهدم الكعبة. ﴿كَيْدَهُمْ﴾: الكيد: هو تدبير أمر مضر بالغير. وأكثره يكون في الخفاء. ويكون بالحق وبالباطل، فإذا كان بالحق فهو خير وإذا كان بالباطل فهو شر. فالكيد لإيقاع المجرمين في الفخ وإنزال العقوبة بهم هو كيد في الخير، والكيد لإبطال الحق وإحراق الباطل، أو لقتل البراءة وأكل أموال الناس بالباطل، هو شر. قال الله تعالى ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا (١٦) فَمَهْلُ الْكَافِرِينَ أَمَهُلُهُمْ رُوَيْدًا﴾ (٢). ﴿فِي تَضَلُّيلٍ﴾: أي في تضيق وإبطال. وكذلك ضاعت جهود أبرهة (٣).

وتبدد كيده، وعاقبه الله ومن معه عقاباً شديداً، فأهلكهم. «طيراً أبابيل»: طيراً: أي نوعاً من الطيور. أبابيل: أي جماعات متفرقة، تتتابع عليهم لتعمهم بما ترمي عليهم من قوatl. قيل: هو جمع واحدته (إبالة). وقيل: واحدته (إبول) كَعَجْوَلٍ وَعَجَاجِيلٍ. وقيل هو جمع لا واحد له. ﴿تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾: سِجِّيلٍ: جاء في تفسير هذه الكلمة أقوال أقربها: أن السجِّيل نوع من الطين يتحجر بالنار. ويقال لغة: سجَّله بالشيء إذا رماه به من فوق ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ العصف: هو ورق الزرع. والعصف المأكول: هو الزرع الذي أكل حبه وترك ورقه، أو ترك منه مالا تأكله الدواب عادة، فهي تدوسه بأقدامها. أو هو الزرع الذي أكلته الدواب وخرج روئاً.

(١) سورة الفيل.

(٢) سورة الطارق الآيات: (١٥، ١٦، ١٧).

(٣) الأمثال القرآنية: تأملات عبد الرحمن حسن حنكة الميداني ص (١٢٥، ١٢٦) الطبعة الأولى سنة ١٤٠٠هـ

- ١٩٨٠م. دار القلم بيروت - لبنان.

في هذه السورة ضرب الله مثلاً لصورة أصحاب الفيل بعد هلاكهم بصورة العصف المأكول . لقد رمتهم الطير الأبابيل بالحجارة التي كانت ^(١) تحملها لإهلاكهم بأرجلها ومناقيرها، فما تصيب واحداً منهم إلاّ أهلكه وقتلته، وقد جاء في الخبر أنّ الحجر من هذه الحجارة الصغيرة التي لا يتجاوز كبيرها مقدار الحمصة، كان يصيب أحدهم على رأسه فيخترقه حتى يخرج من أسفله . وعن سعيد بن جبير أنّ هذه الحجارة كانت تحمل داء الجدري، فما تصيب أحداً منهم إلاّ نفض جلده وثار به الجدري حتى يهلكه .

إنّ هؤلاء الذين أهلكهم الله بهذا النوع من الإهلاك قد ترامت جثثهم في الرمال والوديان، فكانت صورة كلّ جثة من جثثهم المصابة بالوباء الفتاك كالعصف المأكول، أي كروث البهائم التي تأكل العصف، وهذا المعنى أرجح عندي لاسيما إذا أخذنا بعين الاعتبار أنّ الداء الذي أهلكهم هو داء الجدري .

فالتصوير مع الاحتشام في اللفظ تصوير دقيق .^(٢)

(١) نفس المصدر السابق .

(٢) نفس المصدر السابق .

(سورة قريش)

قال الله تعالى: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا

الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَأَمَّنَّهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ (١).

﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾ متعلق بقوله ﴿فَلْيَعْبُدُوا﴾ أمرهم أن يعبدوه لأجل إيلافهم الرحلتين. فإن قلت: فَلِمَ دخلت الفاء؟ قلت: لِمَا في الكلام من معنى الشرط لأن المعنى إمَّا لا فليعبدوه لإيلافهم على معنى أن نعم الله عليهم لا تحصى فإن لم يعبدوه لسائر نعمه فليعبدوه لهذه الواحدة التي هي نعمة ظاهرة، وقيل المعنى: عجبوا لإيلاف قريش، وقيل هو متعلق بما قبله: أي فجعلهم كعصف مأكول لإيلاف قريش، وهذا بمنزلة التضمين في الشعر. وهو أن يتعلق معنى البيت بالذي قبله لا يصح إلا به، وهما في مصحف أبي سورة واحدة بلا فصل. وعن عمر أنه قرأهما في الثانية من صلاة المغرب، وقرأ في الأولى والتين، والمعنى: أنه أهلك الحبشة الذين قصدوهم ليتسامع الناس بذلك فيتهيبوهم زيادة تهيب ويحترموهم فضل احترام حتى ينتظم لهم الأمن في رحلتهم فلا يجترىء أحد (٢) عليهم وكانت لقريش رحلتان: يرحلون في الشتاء إلى اليمن، وفي الصيف إلى الشام فيمتارون ويتجرون، وكانوا في رحلتهم آمنين لأنهم أهل حرم الله وولاء بيته، فلا يتعرض لهم والناس غيرهم يتخطفون ويغار عليهم. والإيلاف من قولك آلفتُ المكانَ أَلِفُهُ إيلاف: إذا ألفتَه فأنا مؤلف، قال. من المؤلفات الزهو غير الأوارك... وقرئ لثلاف قريش، قرأ ابن عامر، بغير ياء بعد الهمزة، مثل لعلاف مصدر أَلَفَ ثلاثياً، يقال أَلَفَ الرجلُ إلفاً وإلفاً، وقرأ أبو جعفر بياء ساكنة من غير همز وقيل: إنه أتبع لما أبدل الثانية ياء جرياً على مذهبه حذف الأولى حذفاً على غير قياس، ويحتمل أن يكون الأصل عنده ثلاثياً، كقراءة ابن عامر، ثم خفف كإبل ثم أبدله على أصله ويدلُّ على ذلك قراءته الحرف الثاني، كذلك، إيلافهم.

(١) سورة قريش.

(٢) الكشاف. تأليف أبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي الجزء الرابع ص ٢٨٧-٢٨٨.

ط: مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر الطبعة الأخيرة ١٣٨٥هـ-١٩٦٦م.

قرأ أبو جعفر بهمزة مكسورة من غير ياء، وقرأ الباقون بإثبات ياء بعد الهمزة في
الموضعين. ﴿رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ وقريش: ولد النضر بن كنانة، سموا بتصغير
القرش، وهو دابة عظيمة في البحر^(١) تعبت بالسفن ولا تطاق إلا بالنار. وعن
معاوية أنه سأل ابن عباس رضي الله عنهما بم سميت قريش؟ قال: بدابة في البحر
تأكل ولا تؤكل وتعلو ولا تعلق وأنشد:

قريش هي التي تسكن البحـ
ر بها سميت قريش قريشا
والتصغير للتعظيم. وقيل من القرش وهو الكسب لأنهم كانوا كسابين لتجاراتهم
وضربهم في البلاد. وأطلق الإيلاف ثم أبدل عنه المقيد بالرحلتين تفخيما لأمر
الإيلاف، وتذكيرا بعظيم النعمة فيه، ونصب الرحلة بإيلافهم مفعولا به كما نصب
يتيما بإطعام. وأراد رحلتي الشتاء والصيف فأفرد لأمن الإلباس، كقوله كلوا في
بعض بطنكم. وقريء شاذا رحلة بالضم وهي الجهة التي يرحل إليها. والتكثير في
جوع وخوف لشدتهما: يعني أطعمهم بالرحلتين من جوع شديد كانوا فيه قبلهما
وآمنهم من خوف عظيم، وهو خوف أصحاب الفيل أو خوف التخطف في بلدهم
ومسايرهم، وقيل: كانوا قد أصابتهم شدة حتى أكلوا الجيف والعظام المحرقة^(٢)
وآمنهم من خوف الجذام فلا يصيبهم بلدهم. وقيل ذلك كله بدعاء إبراهيم
صلوات الله عليه، ومن بدع التفسير: وآمنهم من خوف من أن تكون الخلافة في
غيرهم. وقرأ أبو جعفر المدني من خوف بإخفاء النون عند الخاء، وهي قراءة في
غاية الصحة والكمال^(٣) ويشهد بذلك تواترها.

عن رسول الله ﷺ: «مَنْ قرأ سورة لإيلاف قريش أعطاه الله عشر
حسنة بعدد مَنْ طاف بالكعبة واعتكف بها».

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) وإن خالفت بعض أحكام التجويد.

(سورة الماعون)

قال الله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَكْذِبُ بِالذِّينِ (١) فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ (٢) وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ (٣) فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (٦) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ (١) ﴿أَرَأَيْتَ﴾ قرأ الكسائي بحذف الهمزة الثانية التي هي عين الكلمة في الميزان الصرفي لوقوعها بعد همزة الاستفهام، وليس بالاختيار لأن حذفها مختص بالمضارع، ولم يصح عن العرب ريت ولكن الذي يسهل من أمرها وقوع حرف الاستفهام في أول الكلام، ونحوه:

صاح هل ريت أو سمعت براع رد في الضرع ماقرى في العلاب
 وقرأ بن مسعود أرايتك بزيادة حرف الخطاب كقوله - ﴿أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلِيَّ﴾ (٢) والفرق في القراءة بين الكلمتين أن قراءة ابن مسعود في الكلمة الأولى شاذة وهي جائزة لغة لا قراءة وأما قراءة عامة القراء في الكلمة الثانية فهي قراءة متواترة جائزة لغة وقراءة والمعنى: هل عرفت الذي يكذب بالجزاء من هو إن لم تعرفه ﴿فَذَلِكَ الَّذِي﴾ يكذب بالجزاء هو الذي ﴿يَدْعُ الْيَتِيمَ﴾ أي يدفعه دفعا عنيفا بجفوة وأذى ويرده رداً قبيحا بزجر وخشونة، ﴿وَلَا يَحْضُ﴾ ولا يبعث أهله على بذل طعام المسكين، جعل علم التكذيب بالجزاء منع المعروف والإقدام (٣) على إيذاء الضعيف: يعني أنه لو آمن بالجزاء وأيقن بالوعيد لخشى الله تعالى وعقابه ولم يقدم على ذلك، فحين أقدم عليه علم أنه مكذب فما أشده من كلام وما أخوفه من مقام وما أبلغه في التحذير من المعصية، وإنها جديرة بأن يستدل بها على ضعف الإيمان ورخاوة عقد اليقين ثم وصل به قوله ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ كأنه قال: فإذا كان الأمر كذلك فويل للمصلين الذين يسهون عن الصلاة قلة مبالاة بها حتى

(١) سورة الماعون.

(٢) سورة الإسراء: الآية: (٦٢).

(٣) نفس المصدر السابق.

تفوتهم أو يخرج وقتها، أو لا يصلونها كما صلاها رسول الله ﷺ والسلف، ولكن ينقرونها نقراً من غير خشوع وإخبات ولا اجتناب لِمَا يكره فيها من العبث باللحمة والثياب وكثرة الثأوب والالتفات، لا يدري الواحد منهم عن كم انصرف ولا ما قرأ من السور، وكما ترى صلاة أكثر من ترى الذين عادتهم الرياء بأعمالهم ومنع حقوق أموالهم، والمعنى: أن هؤلاء أحق بأن يكون سهوهم عن الصلاة التي هي عماد الدين والفارق بين الإيمان والكفر والرياء الذي هو شعبة الشرك ومنع (١) الزكاة التي هي شقيقة الصلاة، وقنطرة الإسلام علما على أنهم مكذبون بالدين، وكم ترى من المتسمين بالإسلام بل من العلماء منهم من هو على هذه الصفة فيا مصيبتاه. وطريقة أخرى أن يكون فذلك عطفاً على الذي يكذب، إمّا عطف ذات على ذات أو صفة على صفة، ويكون جواب رأيت محذوفاً لدلالة ما بعده عليه كأنه قيل: أخبرني وما تقول فيمن يكذب بالجزاء وفيمن يؤدي اليتيم ولا يطعم المسكين أنعم ما يصنع، ثم قال فويل للمصلين: أي إذا علم أنه مسيء فويل للمصلين على معنى فويل لهم، إلا أنه وضع صفتهم موضع ضميرهم لأنهم كانوا مع التكذيب، وما أضيف إليهم ساهين عن الصلاة مرثيين غير مزكّين أموالهم. فإن قلت: كيف جعلت المصلين قائماً مقام ضمير الذي يكذب وهو واحد؟

قلت: معناه الجمع لأن المراد به الجنس. فإن قلت: أي فرق بين قوله عن صلاتهم وبين قولك في صلاتهم؟ قلت: معنى ﴿عن﴾ أنهم ساهون عنها سهو ترك لها وقلة التفات إليها وذلك فعل المنافقين أو الفسقة (٢) ومعنى ﴿في﴾ أن السهو يعتر بهم فيها بوسوسة شيطان أو حديث نفس، وذلك لا يكاد يخلو منه مسلم، وكان رسول الله ﷺ يقع له السهو في صلاته فضلاً عن غيره، ومن ثمّ أثبت الفقهاء باب سجود السهو في كتبهم. وعن أنس رضي الله عنه: الحمد لله على أن لم يقل في صلاتهم. وقرأ ابن مسعود لاهون، وهي شاذة، فإن قلت: ما معنى المرأة؟ قلت: هي مفاعلة من الإراءة، لأن المرثيين يري الناس عمله وهم يرونه

(١) نفس المصدر السابق..

(٢) نفس المصدر السابق..

الثناء عليه والإعجاب به، ولا يكون الرجل مرآيا بإظهار العمل الصالح إن كان فريضة، فمن حقّ الفرائض الإعلان بها وتشهيرها لقوله عليه الصلاة والسلام «ولا غمة في فرائض الله» لأنها أعلام الإسلام وشعائر الدين، ولأنّ تاركها يستحقّ الذمّ والمقت فوجب إماطة التهمة بالإظهار، وإن كان تطوعاً فحقه أن يخفي لأنّه مما لا يلام بتركه ولا تهمة فيه، فإن أظهره قاصداً الاقتداء به كان جميلاً، وإنما الرياء أن يقصد بالإظهار أن تراه الأعين (١) فيثنى عليه بالصلاح وعن بعضهم أنّه رأى رجلاً في المسجد قد سجد سجدة شكر وأطالها فقال: ما أحسن هذا لو كان في بيتك. وإنما قال هذا لأنّه توسّم فيه الرياء والسمعة، على أن اجتناب الرياء صعب إلاّ على المرتاضين بالإخلاص؛ ومن ثمّ قال رسول الله ﷺ: (الرياء أخفى من ديب النملة السوداء في الليلة المظلمة على المسح الأسود). (الماعون) الزكاة، قال الراعي: قوم على الإسلام لما يمنعوا ماعونهم ويضيّعوا التهليلاً وعن ابن مسعود. ما يتعاور في العادة من الفأس والقدر والدلو والمقدحة ونحوها. وعن عائشة: الماء والنار والملح، وقد يكون منع هذه الأشياء محظوراً في الشريعة إذا استعيرت عن اضطرار وقبيحا في المروءة في غير حال الضرورة. (٢)

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من قرأ سورة أرايت غفر الله له إن كان للزكاة مؤدياً».

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) نفس المصدر السابق.

(سورة الكوثر)

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (١) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (٢) إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ (١).

(الْكَوْثَرُ) فوعل من الكثرة وهو المفرط الكثرة، قيل لأعرابية رجع ابنها من السفر: بم آب ابنك؟ قالت: آب بكوثر.
وقال:

وأنت كثير يا ابن مروان طيب وكان أبوك ابن العقائل كوثر
وقيل الكوثر نهر في الجنة. وعن النبي ﷺ أنه قرأها حين أنزلت عليه فقال
(أتدرون ما الكوثر؟ إنه نهر في الجنة وعدنيه ربي فيه خير كثير) وروى في صفته
«أحلى من العسل وأشدّ بياضا من اللبن وأبرد من الثلج وألين من الزبد، حافته
الزبرجد وأوانيه من فضة عدد نجوم السماء» وروى «لا يظمأ من شرب منه أبدا،
أول وارد به فقراء المهاجرين الدنسو الثياب الشعث الرءوس الذين لا يزوجون
المنعمات ولا تفتح لهم أبواب السدد، يموت أحدهم وحاجته (٢) تتلجلج في صدره
لو أقسم على الله لأبره». وعن ابن عباس أنه فسّر الكوثر بالخير الكثير، فقال له
سعيد بن جبير: إن ناساً يقولون هو نهر في الجنة، فقال: هو من الخير الكثير
والنحر: نحر البدن. وعن عطية: هي صلاة الفجر بجمع والنحر بمنى، وقيل
صلاة العيد والتضحية، وقيل هي جنس الصلاة، والنحر وضع اليمين على
الشمال، والمعنى: أعطيت ما لا غاية لكثرة من خير الدارين الذي لم يعطه أحد
غيرك، ومعطي ذلك كله إله العالمين فاجتمعت لك الغبطتان السنتان إصابة أشرف
عطاء وأوفره من أكرم معطٍ وأعظم منعم، فاعبد ربك الذي أعزك بإعطائه وشرّفك
وصانك من منن الخلق مرأغما لقومك الذين يعبدون غير الله، وانحر لوجهه

(١) سورة الكوثر

(٢) تفسير الكشاف تأليف أبي القاسم جبار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي الجزء الرابع ص—
٢٩٠، ٢٩١ ط: مصطفى الباهي الحلبي وأولاده بمصر الطبعة الأخيرة ١٣٨٥هـ: ١٩٦٦م.

وباسمه إذا نحرت مخالفا لهم في النحر للأوثان، ﴿إِنَّ﴾ من أبغضك من قومك لمخالفتك لهم ﴿هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ لأنَّ كلَّ مَنْ يولد إلى يوم القيامة من المؤمنين فهم أولادك وأعقابك وذِكْرُكَ مرفوع على المنابر والمنار وعلى لسان كلِّ عالم وذاكر إلى آخر الدهر، (١) يبدأ بذكر الله ويثني بذكرك ولك في الآخرة ما لا يدخل تحت الوصف، فَمَثَلُكَ لا يقال له أبتر، وإنما الأبتر هو شانتك المنسي في الدنيا والآخرة، وإنْ ذُكِرَ ذِكْرًا بِاللَّعْنِ، وكانوا يقولون: إنَّ محمداً صنبور إذا مات مات ذكراه. وقيل نزلت في العاص بن وائل وقد سمَّاه الأبتر، والأبتر: الذي لا عقب له، ومنه الحمار الأبتر: الذي لا ذنب له. عن رسول الله ﷺ: «مَنْ قرأ سورة الكوثر سقاه الله مِنْ كلِّ نهر في الجنة، ويكتب له عشر حسنات بعدد كلِّ قربان قرَّبه العباد في يوم النحر أو يقربونه» (٢).

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) نفس المصدر السابق.

(سورة الكافرون)

قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا

أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (٤) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (١)

ويقال لها ولسورة الإخلاص المقشقتان: أي المبرئتان من النفاق المخاطبون كفره مخصوصون قد علم الله منهم أنهم لا يؤمنون. روي «أن رهطاً من قريش قالوا: يا محمد هلمّ فاتبع ديننا ونتبع دينك، تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة، فقال: معاذ الله أن أشرك بالله غيره، فقالوا: فاستلم بعض آلهتنا نصدقك ونعبد إلهك فنزلت، فغدا إلى المسجد الحرام وفيه الملاء من قريش فقام على رؤوسهم فقرأها عليهم فأيسوا، «لا أعبد» أريدت به العبادة فيما يستقبل لأن «لا» لا تدخل إلا على مضارع في معنى الاستقبال، كما أن «ما» لا تدخل إلا على مضارع في معنى الحال، ألا ترى أن لن تأكيد فيما تنفيه لا. وقال الخليل في لن: إن أصله لا أن، والمعني: (٢) لا أفعل في المستقبل ما تطلبونه مني من عبادة آلهتكم، ولا أنتم فاعلون فيه ما أطلب منكم من عبادة إلهي «ولا أنا عابد ما عبدتم» أي وما كنت قط عابداً فيما سلف ما عبدتم فيه: يعني لم تعهد مني عبادة صنم في الجاهلية، فكيف ترجى مني في الإسلام «ولا أنتم عابدون ما أعبد» أي وما عبدتم في وقت ما أنا على عبادته. فإن قلت: فهلاً قيل ما عبدت كما قيل ما عبدتم؟ قلت: لأنهم كانوا يعبدون الأصنام قبل المبعث وهو لم يكن يعبد الله تعالى في ذلك الوقت. فإن قلت: فلم جاء على ما دون من؟ قلت: لأن المراد الصفة كأنه قال: لا أعبد الباطل ولا تعبدون الحق. وقيل: إن ما مصدرية أي لا أعبد

(١) سورة الكافرون.

(٢) تفسير الكشاف للزمخشري الجزء الرابع ص (٢٩٢، ٢٩٣). الطبعة الأخيرة ١٣٨٥هـ. ١٩٦٦م.

عبادتكم ولا تعبدون عبادتي، ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ لكم شرككم ولي توحيدي،
والمعنى: أني نبيٌ مبعوث إليكم لأدعوكم إلى الحق والنجاة، فإذا لم تقبلوا
مني ولم تتبعوني فدعوني كفافاً ولا تدعوني إلى الشرك. عن رسول الله ﷺ:
«مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْكَافِرُونَ فَكَأَنَّهَا قَرَأَ رُبْعَ الْقُرْآنِ وَتَبَاعَدَتْ مِنْهُ مَرْدَةُ الشَّيَاطِينِ
وَبَرِيءٌ مِنَ الشَّرْكِ وَيَعَافَى مِنَ الْفِرْعِ الْأَكْبَرِ»^(١)

(١) نفس المصدر السابق.

(سورة النصر)

قال الله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۚ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ (١).

إذا ظرف لما يستقبل من الزمان خافض لشرطه منصوب بجوابه منصوب بسبب وهو لما يستقبل، والإعلام بذلك قبل كونه من إعلام النبوة. روي أنها نزلت في أيام التشريق بمنى في حجة الوداع. فإن قلت: ما الفرق بين النصر والفتح حتى عطف عليه؟ قلت: النصر الإغاثة والإظهار على العدو ومنه نصر الله الأرض غائها، والفتح فتح البلاد، نصر رسول الله ﷺ على العرب أو على قريش وفتح مكة. وقيل جنس نصر الله للمؤمنين وفتح بلاد الشرك عليهم، وكان فتح مكة لعشر مضي من شهر رمضان سنة ثمان ومع رسول الله ﷺ عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار وطوائف العرب، وأقام بها خمس عشرة ليلة ثم خرج إلى هوازن، وحين دخلها وقف على باب الكعبة ثم قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده ونصر عبده،^(١) وهزم الأحزاب وحده، ثم قال: يا أهل مكة ماترون أنني فاعل بكم؟ قالوا: خيرا، أخ كريم وابن أخ كريم، قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء، فأعتقهم رسول الله ﷺ وقد كان الله تعالى أمكنه من رقابهم عنوة وكانوا له فيئا، فلذلك سمي أهل مكة الطلقاء ثم بايعوه على الإسلام.

«في دين الله» في ملّة الإسلام التي لادين له يضاف إليه غيرها «ومن يتبع غير الإسلام دينا فلن يقبل منه».

«أفواجا» جماعات كثيفة، كانت تدخل في القبيلة بأسرها بعدما كانوا يدخلون فيه واحداً واحداً واثنين اثنين. وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنه بكى ذات يوم فقيل له، فقال: سمعت رسول الله ﷺ وسلم يقول: «دخل الناس في

(١) سورة النصر.

(٢) تفسير الكشاف للزمخشري الجزء الرابع ص (٢٩٣، ٢٩٤) ط: مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر الطبعة الأخيرة سنة ١٣٨٥هـ. (١٩٦٦م).

دين الله أفواجا وسيخرجون منه أفواجا» وقيل: أراد بالناس أهل اليمن. قال أبو هريرة «لما نزلت قال رسول الله ﷺ: الله أكبر، جاء نصر الله والفتح وجاء أهل اليمن قوم رقيقة قلوبهم، الإيمان يمان والفقه يمان والحكمة يمانية، وقال: أجد نفيهم ربكم من قبل اليمن» وعن الحسن: لما فتح رسول الله ﷺ مكة أقبلت العرب بعضها على بعض^(١) فقالوا: أما إذا ظفّر بأهل الحرم فليس به يدان، وقد كان الله أجارهم من أصحاب الفيل وعن كل من أرادهم، فكانوا يدخلون في الإسلام أفواجا من غير قتال. وقرأ ابن عباس فتح الله والنصر. وهذه القراءة شاذة فهي جائزة لغة لا قراءة فتكون من قبيل التفسير. وقرئ يُدخلون على البناء للمفعول وهي شاذة أيضاً. فإن قلت: ماحلّ يدخلون؟ قلت: النصب إمّا على الحال على أن رأيت بمعنى أبصرت أو عرفت، أو هو مفعول ثان على أنّه بمعنى علمت.

«فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ» فقل سبحان الله حامداً له؛ يكون تسيحك بالحمد، لأنّ التسبيح هو ذكر، فقال يكون ذكرك بالحمد على ما أعطيتك من فتح مكة وغيره. ويقول الرجل قضيت سبحتي من الذكر.^(٢) أي فتعجب لتيسير الله ما لم يخطر ببالك وبال أحد من أن يغلب أحد على أهل الحرم وأحمده على صنعه، أو فاذكره مسبّحاً حامداً زيادة في عبادته والثناء عليه لزيادة إنعامه عليك أو فصلّ له. روت أم هانئ أنه لما فتح باب الكعبة صَلَّى صلاة الضحى ثماني ركعات^(٣) وعن عائشة «كان عليه الصلاة والسلام يكثر قبل موته أن يقول: سبحانك اللهم وبحمدك استغفرك وأتوب إليك»، والأمر بالاستغفار مع التسبيح تكميل للأمر بما هو قوام أمر الدين من الجمع بين الطاعة والاحتراس من المعصية وليكون أمره بذلك مع عصمته لطفاً لأمته، ولأن الاستغفار مع التواضع لله وهضم النفس فهو عبادة في

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) معاني القرآن صنفه الأخفش الأوسط الإمام أبو الحسن سعيد بن مسعدة المَجَاشِعِيُّ البَصْرِيُّ (المتوفى سنة ٥١٢هـ) الجزء الثاني تحقيق الدكتور فائز فارس الطبعة الأولى سنة ١٤٠٠هـ. — ١٩٧٩م. الطبعة الثانية سنة

١٤٠١هـ. ١٩٨١م.

(٣) نفس المصدر السابق.

نفسه. وعن النبي ﷺ: «إني لأستغفر في اليوم والليله مائة مرّة» وروى أنه لما قرأها رسول الله ﷺ على أصحابه استبشروا وبكى العباس، فقال ﷺ: «مايكيك يا عم؟» قال: نعت إليك نفسك، قل: «إنها لكما تقول»، فعاش بعدها سنتين لم ير فيها ضاحكا مستبشرا. وقيل إن ابن عباس هو الذي قال ذلك، فقال رسول الله ﷺ: «لقد أوتي هذا الغلام علماً كثيراً» وروى أنها لما نزلت خطب رسول الله ﷺ فقال: «إن عبداً خيره الله بين الدنيا وبين لقاءه فاختار لقاء الله»، فعلم أبو بكر رضي الله عنه فقال: فدينك بأنفسنا وأموالنا وأبائنا وأولادنا. وعن ابن عباس أن عمر رضي الله عنهما كان يدينه^(١) ويأذن له مع أهل بدر، فقال عبد الرحمن: أتأذن لهذا الفتى معنا وفي أبائنا من هو مثله؟ فقال: إنه ممن قد علمتم. قال ابن عباس: فأذن لهم ذات يوم وأذن لي معهم، فسألهم عن قول الله تعالى: «إذا جاء نصر الله...» - ولا أراه سألهم إلا من أجلي - فقال بعضهم: أمر الله نبيه إذا فتح عليه أن يستغفره ويتوب إليه، فقلت: ليس كذلك، ولكن نعت إليه نفسه، فقال عمر: ما أعلم منها إلا مثل ما تعلم، ثم قال: كيف تلوموني عليه بعد ماترون؟! وعن النبي ﷺ أنه دعا فاطمة رضي الله عنها فقال: «يا ابتاه إنه نعت إلي نفسي». فبكت فقال: «لا تبكي فإنك أول أهلي لحوقا بي». وعن ابن مسعود أن هذه السورة تسمى سورة التوديع.

(إنه كان تواباً) أي كان في الأزمنة الماضية منذ خلق المكلفين تواباً عليهم إذا استغفروا، فعلى كل مستغفر أن يتوقع مثل ذلك، عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة إذا جاء نصر الله أعطي من الأجر كمن شهد مع محمد يوم فتح مكة»^(٢)

(٢، ١) نفس المصدر السابق.

(سورة المسد)

قال الله تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۚ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۚ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۚ (٣) وَأَمْرَاتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۚ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۚ (٥) ﴾ .

التبّاب: الهلاك، ومنه قولهم أشابة أم تابة: أي هالكة من الهرم والتعجيز، والمعنى: هلكت يدها، لأنه فيما يروى أخذ حجرا ليرمي به رسول الله ﷺ، (وتبّ) وهلك كلّه، أوجعلت يدها هالكيتين، والمراد هلاكه جملة كقوله تعالى: «بما قدّمت يداك» - ومعنى وتبّ: وكان ذلك وحصل كقوله:

جزاني جزاه الله شرّ جزائه جزاء الكلاب العاويات وقد فعل

ويدلُّ عليه قراءة ابن مسعود: وقد تبّ، وهي شاذة على سبيل التفسير، وروي أنه لما نزل: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (٢) رقى الصفا وقال: يا أصحاباه، فاستجمع إليه الناس من كلّ أوب فقال: يا بني عبد المطلب يا بني فهر إن أخبرتك أن بسفح هذا الجبل خيلا أكتتم مصدّقي؟ قالوا: نعم، قال: فإنّي نذير لكم بين يدي الساعة، فقال أبو لهب: تبّ لك ألهذا دعوتنا؟ فنزلت.

فإن قلت: لم كنّاه والتكنية تكرمه؟ قلت: فيه ثلاثة أوجه: أحدها أن يكون مشتهرا بالكنية دون الاسم. فقد يكون الرجل معروفا بأحدهما ولذلك تجري الكنية على الاسم أو الاسم على الكنية عطف بيان، فلما أريد تشهيره بدعوة السوء وأن تبقى سمة له ذكر الأشهر من علميه، ويؤيد ذلك قراءة من قرأ: «يدا أبو لهب»، وهي شاذة كما قيل: عليّ بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان لثلايغير منه شيء فيشكل على السامع، ولفليته بن قاسم أمير مكة ابنان: أحدهما عبدالله بالجرّ والآخر عبدالله بالنصب، وكان بمكة رجل يقال له عبدالله بجرّ الدال لا يعرف إلا هكذا. والثاني أنّه كان اسمه عبد العزّي فعُدل عنه إلى كنيته. والثالث أنه لما كان من أهل النار وماله إلى نار ذات لهب وافقت حاله كنيته فكان جديراً

(١) سورة المسد.

(٢) سورة الشعراء: الآية: (٢١٤).

بأن يذكر بها و يقال: أبو لهب كما يقال أبو الشرّ للشرير^(١) وأبو الخير للخير، وكما كنى رسول الله ﷺ أبا المهلب أبا صفرة بصفرة في وجهه. وقيل كنى بذلك لتلهب وجتته وإشراقهما فيجوز أن يُذكر بذلك تهكُّماً به وبافتخاره بذلك. قرأ ابن كثير أبي لهب - بإسكان الهاء - وهو من تغيير الأعلام كقولهم شمس بن مالك بالضم. «ما أغنى» استفهام في معنى الإنكار ومحله النصب أو نفي.

«وما كسب» مرفوع وما موصولة أو مصدرية بمعنى ومكسوبه أو وكسبه، والمعنى: لم ينفعه ماله وما كسب بماله: يعني رأس المال والأرباح، أو ماشيته وماكسب من نسلها ومنافعها وكان ذا سبياء، أو ماله الذي ورثه من أبيه والذي كسبه بنفسه أو ماله التالد والطَّارف. وعن ابن عباس: ما كسب ولده. وحكي أن بني أبي لهب احتكموا إليه فاقتلوا فقام يحجز بينهم، فدفعه بعضهم فوق فغضب فقال: أخرجوا عني الكسب الخبيث. ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «إن أطيّب ما يأكل الرجل من كسبه وإن ولده من كسبه» وعن الضحّاك: ما ينفعه ماله وعمله الخبيث: يعني كيده^(٢) في عداوة رسول الله ﷺ. وعن قتادة: عمله الذي ظنّ أنّه منه على شيء كقوله: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِن عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾^(٣) روي أنّه كان يقول: إن كان ما يقول ابن أخي حقاً فأنا أفتدي منه نفسي بمالي وولدي.

«سيصلى» والسين للوعيد: أي هو كائن لامحالة وإن تراخى وقته. «وامرأته» هي أم جميل بنت حرب أخت أبي سفيان، وكانت تحمل حزمة من الشوك والحسك والسعدان فتترها بالليل في طريق رسول الله ﷺ. وقيل كانت تمشي بالنميمة، ويقال للمشاء بالتّمائم المفسد بين الناس: يحمل الخطب بينهم: أي يوقد بينهم النائرة ويورث الشرّ، قال الشاعر:

من البيض لم تصطد على ظهر لأمة ولم تمش بين الحيّ بالخطب الرطب
جعله رطباً ليدلّ على التدخين الذي هو زيادة في الشرّ، ورفعت (امرأته) عطفاً على الضمير في سيصلى: أي سيصلى هو وامرأته، و«في جيدها» في موضع

(٢، ١) تفسى الكشاف للزمخشري الجزء الرابع ص (٢٢٥ ، ٢٩٦ - ٢٩٧) ط: مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر الطبعة الأخيرة سنة ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٦ م.

(٣) سورة الفرقان: الآية: (٢٣).

الحال أو على الابتداء وفي غيرها الخبر^(١). وقرأ عاصم «حمالة الخطب» بنصب التاء على الشتم وأنا أستحب هذه القراءة، وقد توسّل إلى رسول الله ﷺ بجميل من أحبّ شتم أم جميل. وقرأ الباقر برفعها على أنّها خبر لمبتدأ محذوف والتقدير هي حمالة الخطب.

«المسد» الذي قُتل من الحبال فتلاً شديداً من ليف كان أو جلد أو غيرهما، يقال رجل ممسود الخلق مجدوله، والمعنى: في غيرها جبل مما مسد من الحبال، وأنها تحمل تلك الحزمة من الشوك وتربطها في غيرها كما يفعل الخطّابون تخسيساً لحالها وتحقيراً لها وتصويراً لها بصورة بعض الخطّابات من المواهن لتمتعض من ذلك ويتمتعض بعلمها وهما في بيت العزّ والشرف وفي منصب الثروة والجدّة، ولقد عير بعض الناس الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب بحمالة الخطب فقال:

ماذا أردت إلى شتمي ومنقصتي أم ماتعير من حمالة الخطب
غراء شاذخة في المجد غرّتها كانت سليلة شيخ ثاقب الحسب

ويحتمل أن يكون المعنى: أنّ حالها تكون في نار جهنم على الصورة التي كانت عليها^(٢) حين كانت تحمل حزمة الشوك، فلا تزال على ظهرها حزمة من حطب النار من شجرة الزقوم أو من الضريع، وفي غيرها جبل مما مسد من سلاسل النار، كما يعذب كل مجرم بما يجانس حاله في جرمه. عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من قرأ سورة تبت رجوت أن لا يجمع الله بينه وبين أبي لهب في دار واحدة»

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) نفس المصدر السابق.

(سورة الإخلاص)

قال الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ (١).

هو: ضمير الشأن، و«الله أحد» هو الشأن، كقولك هو زيد منطلق قيل: الشأن هذا وهو أن الله واحد لا ثاني له. فإن قلت: ماحل هو؟ قلت: الرفع على الابتداء والخبر الجملة. فإن قلت: فالجملة الواقعة خبراً لا بد فيها من رابط يربطها بالمبتدأ فأين الرابط؟ قلت: حكم هذه الجملة حكم المفرد في قولك «زيد غلامك» في أنه هو المبتدأ في المعنى، وذلك أن قوله - الله أحد - هو الشأن الذي هو عبارة عنه، وليس كذلك زيد أبوه منطلق، فإن زيدا والجملة يدلان على معنيين مختلفين فلا بد مما يصل بينهما. وعن ابن عباس: قالت قريش: يامحمد، صف لنا ربك الذي تدعوننا إليه، فنزلت. يعني الذي سألتموني وصفه هو الله. وأحد بدل من قوله: «الله»، أو على هو أحد وهو بمعنى واحد وأصله واحد. وقرأ عبدالله وأبي هو الله أحد بغير قل، وفي قراءة النبي ﷺ (٢) الله أحد بغير قل هو، وقال: «من قرأ الله أحد كان يعدل القرآن» وقرأ الأعمش: قل هو الله الواحد، وقرأ أحد الله بغير تنوين أسقط لملاقاته لام التعريف، ونحوه: ولا ذاكر الله إلا قليلاً. والجيد هو التنوين وكسره لالتقاء الساكنين، وكلُّ هذه القراءات شاذة ومعانيها متقاربة وتدور حول إثبات الوحدانية لله عز وجل.

«الصمد» فعْلٌ بمعنى مفعول من صمد إليه إذا قصده وهو السيد المصمود إليه في الحوائج. والمعنى: هو الله الذي تعرفونه وتقرؤون بأنه خالق السموات والأرض وخالقكم، وهو واحد متوحد بالإلهية لا يشارك فيها، وهو الذي يصمد إليه كلُّ مخلوق لا يستغنون عنه وهو الغني عنهم.

(١) سورة الإخلاص.

(٢) تفسير الكشاف للزمخشري الجزء الرابع ص (٢٩٨، ٢٩٩). ط: مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر.

الطبعة الأخيرة سنة ١٣٨٥هـ - ١٩٦٦م.

«لم يلد» لأنه لايجانس حتى تكون له من جنسه صاحبة فيتوالدا، وقد دلّ على هذا المعنى بقوله: ﴿أَنْتَى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً﴾ (١).

«ولم يولد» لأنّ كلّ مولود محدث وجسم وهو قديم لا أوّل لوجوده وليس بجسم ولم يكافئه أحد: أي لم يمثله ولم يشاكله، ويجوز أن يكون من الكفاءة في النكاح (٢) نفيا للصاحبة، سألوه أن يصفه لهم فأوحى إليه ما يحتوي على صفاته، فقوله - هو الله - إشارة لهم إلى من هو خالق الأشياء وفاطرها، وفي طي ذلك وصفه بأنه قادر عالم لأنّ الخلق يستدعي القدرة والعلم لكونه واقعا على غاية إحكام واتساق وانتظام وفي ذلك وصفه بأنه حيّ سميع بصير، وقوله - أحد - وصف بالوحدانية ونفي الشركاء، وقوله - الصمد - وصف بأنه ليس إلّا محتاجا إليه، وإذا لم يكن إلّا محتاجا إليه فهو غنيّ، وفي كونه غنيا مع كونه عالما أنّه عدل غير فاعل للقبائح لعلمه بقبح القبيح وعلمه بغناه عنه، وقوله - لم يولد - وصف بالقدم والأولية، وقوله - لم يلد - نفي للشبهة والمجانسة، وقوله - ولم يكن له كفواً أحد - تقرير لذلك وبت للحكم به.

فإن قلت: الكلام العربي الفصيح أن يؤخر الظرف الذي هو لغو غير مستقر ولا يقدم وقد نصّ سيبويه على ذلك في كتابه، فما باله مقدّمًا في أفصح كلام وأعربه؟ قلت: هذا الكلام إنّما سيق لنفي المكافأة عن ذات الباري سبحانه، وهذا المعنى مصبّه ومركزه (٣) هو هذا الظرف، لذلك كان أهمّ شيء وأعناه وأحقه بالتقدّم وأحراره.

قرأ حفص - كفوا - بضم الفاء وفتح الواو من غير همز، وحمزة بإسكان الفاء مع الهمز في الوصل فإذا وقف أبدل الهمزة واوا مفتوحة أتباعا للخط والقياس أن يلتقى حركتها على الفاء، والباقون بضمّ الفاء مع الهمز. وليس في الفلق والناس خلاف إلّا ما تقدّم من الأصول أي أصول القراءات الواردة في هذه الكلمة ثابتة بطريق - التواتر الصحيح - فإن قلت: لم كانت هذه السورة عدل القرآن كلّ على

(١) سورة الانعام: الآية: (١٠١).

(٢) (٣ ، ٢) نفس المصدر السابق.

قصر متنها وتقارب طرفيها؟ قلت: الأمر ما يسود من يسود، وما ذاك إلا لاحتوائها على صفات الله تعالى وعدله وتوحيده، وكفى دليلاً من اعترف بفضلها وصدق بقول رسول الله ﷺ فيها إن علم التوحيد من الله تعالى بمكان، وكيف لا يكون كذلك والعلم تابع للمعلوم يشرف بشرفه ويتضع بضعته، ومعلوم هذا العلم هو الله تعالى وصفاته^(١) وما يجوز عليه وما لا يجوز، فما ظنك بشرف منزلته وجلالة محلّه وإنافته على كل علم واستيلائه على قصب السبق دونه، ومن ازدراه فلضعف علمه بمعلومه وقلة تعظيمه له وخلوه من خشيته وبعده من النظر لعاقبته.

اللهم احشرونا في زمرة العالمين بك العاملين لك القائلين بعدلك وتوحيدك الخائفين من وعيدك.

وهذه السورة تسمى سورة الأساس لاشتمالها على أصول الدين، وروى أبي أنس عن النبي ﷺ: «أُسِّتَ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُونَ السَّبْعُ عَلَى قَلِّ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ» يعني ما خلقت إلا لتكون دلائل على توحيد الله ومعرفة صفاته التي نطق بها هذه السورة.

عن رسول الله ﷺ «أَنَّهُ سَمِعَ رَجُلًا يَقْرَأُ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فَقَالَ: «وَجِبْتَ»، قيل: يارسول الله، وما وجبت؟ قال: «وَجِبْتَ لَهُ الْجَنَّةُ»^(٢).

(٢،١) نفس المصدر السابق.

(سورة الفلق)

قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (٢) وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ

(٣) وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (٤) وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ (١).

الفلق والفرق الصبح، لأنَّ الليل يفلق عنه ويفرق فعل بمعنى مفعول، يقال له في المثل: هو أبيض من فلق الصبح ومن فرق الصبح، ومنه قولهم: سطع الفرقان إذا طلع الفجر، وقيل هو كل ما يفلقه الله كالأرض عن النبات والجبال عن العيون، والسحاب عن المطر، والأرحام عن الأولاد، والحب والنوى وغير ذلك، وقيل هو واد في جهنم أو جب فيها من قولهم لما اطمأن من الأرض الفلق والجمع فلقان. وعن بعض الصحابة أنه قدم الشام فرأى دور أهل الذمة وما هم فيه من خفض العيش وما وسَّع عليهم من دنياهم فقال: لا أبالي أليس من ورائهم الفلق؟ فقيل: وما الفلق؟ قال بيت في جهنم إذا فُتِح صاح جميع أهل النار من شدة حره.

﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ (٢) من شر خلقه، وشرهم ما يفعله المكلفون من الحيوان من المعاصي والمآثم ومضارة بعضهم بعضاً من ظلم وبغي وقتل وضرب وشتم وغير ذلك، وما يفعله غير المكلفين منه من الأكل واللدغ والعض كالسباع والحشرات، وما وضعه الله في الموات من أنواع الضرر كالإحراق في النار والقتل في السم.

والغاسق: الليل إذا اعتكر ظلامه من قوله تعالى - إلى غسق الليل - ومنه غسقت العين: امتلأت دمعاً، وغسقت الجراحة: امتلأت دماً. ووقوبه: دخول ظلامه في كل شيء، ويقال وقبت الشمس إذا غابت، وفي الحديث: «لما رأى الشمس قد وقبت قال: هذا حين حلها» يعني صلاة المغرب، وقيل هو القمر إذا امتلأ. وعن عائشة رضي الله عنها: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فأشار إلى القمر

(١) سورة الفلق.

(٢) تفسير الكشاف للزمخشري الجزء الرابع ص (٣٠٠، ٣٠١، ٣٠٢) ط: مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر:

الطبعة الأخيرة سنة ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٦ م.

فقال: تعوذِي بالله من شرِّ هذا فإنه الغاسق إذا وقب»، ووقوبه دخوله في الكسوف واسوداده، ويجوز أن يراد بالغاسق الأسود من الحيات ووقبه ضربه ونقبه والوقب النقب^(١) ومنه وقبة الثريد، والتعوذ من شرِّ الليل لأنَّ انبثائه فيه أكثر والتحرز منه أصعب، ومنه قولهم: الليل أخفى للويل، وقولهم: أغدر الليل لأنَّه إذا أظلم كثر فيه الغدر، وأسند الشرَّ إليه للملاسته له من حدوثه فيه.

«النفاثات» النساء أو النفوس أو الجماعات السواحر اللاتي يعقدن عقدا في خيوط وينفثن عليها ويرقن، والنفث: النفخ مع ريق، ولاتأثير لذلك اللهمَّ إلا إذا كان ثمَّ إطعام شيء ضارٍّ أو سقيه أو إشمامه أو مباشرة المسحور به على بعض الوجه. ولكنَّ الله عزَّ وجلَّ قد يفعل عند ذلك فعلا على سبيل الامتحان الذي يميِّز به الثبت على الحق من الحشويَّة والجهلة من العوام فينسبه الحشو والرَّعاع إليهنَّ وإلى نفثهنَّ، والثابتون بالقول الثابت لا يلتفتون إلى ذلك ولا يعباون به، فإن قلت: فما معنى الاستعاذة من شرهنَّ؟ قلت: فيها ثلاثة أوجه: أحدها أن يستعاذ من عملهنَّ الذي هو صنعة السحر ومن إثمهنَّ في ذلك. والثاني أن يستعاذ من فتنتهنَّ الناس^(٢) بسحرهنَّ وما يخدعهم به من باطلهنَّ. والثالث أن يستعاذ ممَّا يصيب الله به من الشرِّ عند نفثهنَّ، ويجوز أن يراد بهنَّ النساء الكيادات من قوله: ﴿إن كيدكنَّ عظيم﴾^(٣) تشبيهاً لكيدهنَّ بالسحر والنفث في العقد، أو اللاتي يفتنَّ الرجال بتعرُّضهنَّ لهم وعرضهنَّ محاسنهنَّ كأنهم يسحرنهم بذلك ﴿إذا حسد﴾ إذا ظهر حسده وعمل بمقتضاه من بغي الغوائل للمحسود، لأنَّه إذا لم يظهر أثر ما أضمره فلا ضرر يعود منه على من حسده بل هو الضارُّ لنفسه لاغتمامه بسرور غيره. وعن عمر بن عبد العزيز: لم أر ظالماً أشبه بالمظلوم من حاسد، ويجوز أن يراد بشرَّ الحاسد إثمه وسماجة حاله في وقت حسده وإظهاره أثره. فإن قلت: قوله - من شرِّ ما خلق - تعميم في كلِّ ما يستعاذ منه فما معنى الاستعاذة بعده من الغاسق والنفاثات والحاسد؟ قلت: قد خصَّ شرَّ هؤلاء من كلِّ شرِّ لحفاء أمره وأنه

(١، ٢، ٣) نفس المصدر السابق.

يلحق الإنسان من حيث لا يعلم كأنما يغتال به، وقالوا: شرّ العداة المداجي الذي يكيدك من حيث لا تشعر. فإن قلت: فلمَ عرّف بعض المستعاذ منه ونكّر بعضه؟ (١)

قلت عرفت النفاثات لأنّ كلّ نفاثة شريرة، ونكّر غاسق لأنّ كلّ غاسق لا يكون فيه الشرّ إنما يكون في بعض دون بعض، وكذلك كلّ حاسد لا يضرّ، وربّ حسد محمود وهو الحسد في الخيرات، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «لا حسد إلاّ في اثنتين» وقال أبو تمام: وما حاسد في المكرمات بحاسد. وقال. إنّ العُلاحسن في مثلها الحسد. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ المعوذتين فكأنما قرأ الكتب التي أنزلها الله تعالى كلّها». (٢)

(٢، ١) نفس المصدر السابق.

(سورة الناس)

قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَهِ النَّاسِ (٣) مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (٤) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (٥) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ (١).

فإن قلت: لِمَ قيل ﴿بِرَبِّ النَّاسِ﴾ مضافاً إليهم خاصة؟ قلت: لأن الاستعاذة وقعت من شرّ الموسوس في صدور الناس فكأنه قيل: أعوذ من شرّ الموسوس إلى الناس برّبهم الذي يملك عليهم أمورهم وهو إلههم ومعبودهم، كما يستغيث بعض الموالى إذا اعتراهم خطب بسيدهم ومخدومهم ووالي أمرهم. فإن قلت: ﴿مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَهِ النَّاسِ﴾ ماهما من ربّ الناس؟ قلت هما عطف بيان كقولك: سيرة أبي حفص عمر الفاروق، بين بملك الناس ثم زيد بياناً بإلنه الناس لأنّه قد يقال لغيره ربّ الناس كقوله: «اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله»، وقد يقال ملك الناس، وأمّا إله الناس فخاص لاشركة فيه فجعل غاية للبيان. فإن قلت: فهلاً اكتفى بإظهار المضاف إليه (٧) الذي هو الناس مرّة واحدة؟ قلت: لأن عطف البيان للبيان فكان مظنةً للإظهار دون الإضمار.

﴿الْوَسْوَاسِ﴾ اسم بمعنى الوسوسة كالزلزال بمعنى الزلزلة وأمّا المصدر فوسواس بالكسر كزلزال، والمراد الشيطان، سمي بالمصدر كأنه وسوسة في نفسه لأنها صنعتته وشغله الذي هو عاكف عليه، أو أريد ذو الوسواس، والوسوسة: الصوت الخفي ومنه وسواس الحلي.

و﴿الْخَنَّاسِ﴾ الذي عادته أن يخنس منسوب إلى الخنوس وهو التأخر كالعوّاج، والبتات، لمّا روي عن سعيد بن جبير: «إذا ذكر الإنسان ربّه خنس الشيطان وولّى، فإذا غفل وسوس إليه».

﴿الَّذِي يُوسْوِسُ﴾ يجوز في محله الحركات الثلاث، فالجرّ على الصفة، والرفع

(١) سورة الناس.

(٧) تفسير الكشاف للزمخشري الجزء الرابع ص (٣٠٢، ٣٠٣) ط: مصطفى الباي الحلبي بمصر الطبعة الأخيرة

سنة ١٣٨٠هـ - ١٩٦٦م.

والنصب على الشتم، ويحسن أن يقف القارئ على الخناس ويبتدئ الذي يوسوس إلى أحد هذين الوجهين.

﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ بيان للذي يوسوس على أن الشيطان ضربان: جنيّ وإنسي كما قال «شياطين الإنس»^(١) والجنّ» وعن أبي ذرّ رضي الله عنه أنه قال لرجل: هل تعوذت بالله من شيطان الإنس؟، ويجوز أن يكون «من» متعلقا بـ «يوسوس» ومعناه ابتداء الغاية: أي يوسوس في صدورهم من جهة الجنّ ومن جهة الناس. وقيل من الجنّة، والناس بيان للناس، وأنّ اسم الناس ينطبق على الجنّة، واستدلوا بنفر ورجال في سورة الجنّ، وما أحقه لأنّ الجنّ سمّوا جنّاً لاجتئانهم، والناس ناسا لظهورهم من الإيناس وهو الإبصار كما سمّوا بشرا، ولو كان يقع الناس على القبيلين وصح ذلك وثبت لم يكن مناسبا لفصاحة القرآن وبُعده من التصنع، وأجود منه أن يراد بالناس الناسي كقوله: ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ﴾،^(٢) وقوله: ﴿مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾^(٣). ثم يبيّن بالجنّة والناس لأنّ الثقلين هما النوعان الموصوفان بنسيان حق الله عزّ وجلّ.

عن رسول الله ﷺ: «لقد أنزلت عليّ سورتان ما أنزل مثلهما، وإنك لن تقرأ سورتين أحبّ ولا أرضى عند الله منهما» يعني المعوذتين، ويقال للمعوذتين^(٤) المقشقشان.

تمت سور القرآن ولله الحمد والمنة

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) سورة القمر: الآية: (٦).

(٣) سورة البقرة: الآية: (١٩٩).

(٤) نفس المصدر السابق.

خاتمة

هذا ما فتح الله به عليّ في كتابنا هذا الموسوم بـ «غاية البيان في أمثال القرآن» بعد عمل متواصل وجهد جهيد لإخراج هذا الكتاب في أبهى حلة وأكمل وجه وأتمه، وقد جاء والحمد لله كما أردنا.

وقد نظرت في كتب التفسير وفيما قاله المفسرون، ولم أستقل بالرأى وأما علوم القرآن، وما كتب الكاتبون حول إعجاز القرآن البياني فقد كان عندي رصيد علم أفدت منه كثيرا في بحثي هذا.

وأرجو الله أن أكون قد وفقت في بحثي هذا لخدمة كتاب الله عزّ وجلّ وأضفت إلى المكتبة القرآنية بعض ما هو نافع وجديد.

وما أحسنت فيه فهو توفيق من الله ونفحة من نفحات جوده، وما أخطأت فيه فهو من كبوات فكري، وقصور فهمي.

والحمد لله على ما أعطى، وأسأله أن يغفر زلاتي، ويعفو عن سيئاتي وينفع بهذا العمل أهل القرآن العظيم في سائر الأقطار الإسلامية، والله أسأل أن يكتب لهذا الكتاب حسن القبول، ونيل الرضا، وأن يشينني عليه ويجعله عملا خالصا لوجهه الكريم إنّه جواد كريم، كما أسأله تعالى أن يغفر لي ولوالديّ وأن يجعله في ميزان أعمالهما يوم التناد. كما أسأله تعالى أن يغفر لمشايخي ولأصحاب الحقوق عليّ إنه على كلّ شيء قدير، وبالإجابة جدير، وهو نعم المولى ونعم النصير.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وكان الفراغ منه ظهر يوم الخميس المبارك الموافق ٨ من شهر صفر

سنة ١٤١٦هـ - الموافق ٦ من شهر يوليو سنة ١٩٩٥م.

مراجع كتاب غاية البيان في أمثال القرآن

المؤلف	اسم المرجع
لابن قيم الجوزية تحقيق سعيد محمد نمر الخطيب ط: دار المعرفة بيروت - لبنان	القرآن الكريم الأمثال في القرآن الكريم
لأبي عبد الله محمد بن علي الحكيم الترمذي من علماء القرن الثالث الهجري. تحقيق علي محمد البجاوي مكتبة دار التراث - القاهرة	الأمثال من الكتاب والسنة
عبد الرحمن حسن حنبكة الميداني ط: دار القلم دمشق بيروت. الطبعة الأولى سنة ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م	الأمثال القرآنية
لأبي الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري الماوردي تحقيق الأستاذ مصطفى السقاط: دار إحياء العلوم الطبعة الأولى سنة ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م	أدب الدنيا والدين
للإمام بدر الدين محمد بن الله الزركشي تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ط: دار إحياء الكتب العربية الطبعة الأولى سنة ١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م	البرهان في علوم القرآن
للإمام الحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل ابن كثير القرشي الدمشقي المتوفى سنة ٤٧٤هـ ط: دار الفكر.	تفسير القرآن العظيم

المؤلف	اسم المرجع
<p>جلال الدين محمد بن أحمد بن محمد المحلي و جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ط: دار ابن كثير - بيروت الطبعة السابعة سنة ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م تأليف الإمام أبي عمرو عثمان بن سعيد الداني - دار الكتاب العربي الطبعة الثانية سنة ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م</p>	<p>تفسير الجلالين التيسير في القراءات السبع</p>
<p>للإمام الفخر الرازي - الناشر دار الكتب العلمية - طهران - الطبعة الثانية تأليف شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن القيم الجوزية، المتوفى سنة ٧٥١هـ ط: دار الكتاب العربي</p>	<p>التفسير الكبير التبيان في أقسام القرآن</p>
<p>تأليف عمدة النحاة والمفسرين أثير الدين أبي عبدالله محمود بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الأندلسي الشهير بأبي حيان المولود في سنة ٦٥٤هـ المتوفى بالقاهرة سنة ٧٥٤هـ الناشر مكتبة النصر الحديثة تأليف محب الدين أفندي - دار الحضرمة للنشر والتوزيع</p>	<p>تفسير البحر المحيط تنزيل الآيات على الشواهد من الأبيات شرح شواهد الكشاف</p>

المؤلف	اسم المرجع
<p>للشيخ السيد معين الدين محمد بن عبد الرحمن الحسنى الحسيني الأيجي الشافعي المولود سنة ٨٣٢هـ المتوفى سنة ٨٩٤ ط: دار نشر الكتب الإسلامية - كوجرا نواله باكستان الطبعة الثانية سنة ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م وتمتاز بمزيد الاهتمام والصحة تأليف عبدالله بن الحسين بن نايقا المتوفى ٤٨٥هـ تحقيق الدكتور محمود حسن أبو ناجي الشيباني.</p>	<p>جامع البيان في تفسير القرآن الجمان في تشبيهات القرآن</p>
<p>تأليف الإمام الكبير والمحدث الشهير أبي جعفر محمد بن جرير الطبري ط: دار المعرفة بيروت - لبنان الطبعة الثانية سنة ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م</p>	<p>جامع البيان في تفسير القرآن</p>
<p>لأبي عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري - الجزء التاسع عشر مصورة عن طبعة دار الكتب. الناشر دار الكتاب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م</p>	<p>الجامع لأحكام القرآن</p>
<p>للإمام الشاطبي تأليف الفريق يحيى عبدالله المعلمي ط: دار الاعتصام بالقاهرة.</p>	<p>حزب الأمانى ووجه التهاني - المسمى بالشاطبية الشواهد والأمثال في القرآن الكريم</p>

المؤلف	اسم المرجع
بقلم الشهيد سيد قطب ط: دار الشروق الطبعة الرابعة سنة ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م	في ظلال القرآن
للحافظ أبي بكر أحمد بن الحسين بن مهران النيسابوري - المتوفى سنة ٨٣١هـ تحقيق محمد غياث الجنباز.	الغاية في القراءات العشر
تأليف محمد بن علي بن محمد الشوكاني ط: دار المعرفة - بيروت - لبنان	فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير
تأليف أبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي ط: شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر الطبعة الأخيرة سنة ١٣٨٥هـ - ١٩٦٦م	الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأفاويل في وجوه التأويل
للأخفش الأوسط أبي الحسن سعيد بن مسعدة المجاشعي البلخي البصري المتوفى سنة ٢١٥هـ الجزء الثاني تحقيق الدكتور فائز فارس الطبعة الثانية سنة ١٤٠١هـ - ١٩٨١م	معاني القرآن
تأليف صابر حسن محمد أبو سليمان ط: الدار السلفية - الهند الطبعة الأولى سنة ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م	مورد الظمآن في علوم القرآن
للإمام العلامة أبي الفضل جمال الدين محمد ابن مكرم بن منظور الإفريقي المصري	لسان العرب

الفهرس

١٢٥	سورة الزمر	٥	المقدمة
١٣٠	سورة غافر	٦	مقدمة الكتاب
١٣٣	سورة فصلت	٨	أهمية استعمال الأمثال
١٣٨	سورة الشورى	١٣	أمثال سورة البقرة
١٤٠	سورة الزخرف	٣٠	سورة آل عمران
١٤١	سورة الدخان	٣٣	سورة الأنعام
١٤٣	سورة الجاثية	٣٩	سورة الأعراف
١٤٥	سورة الأحقاف	٤٦	سورة يونس
١٤٦	سورة محمد	٥١	سورة هود
١٥٣	سورة الفتح	٥٢	سورة الرعد
١٦٢	سورة الحجرات	٥٦	سورة إبراهيم
١٦٤	سورة ق	٦٠	سورة النحل
١٦٥	سورة الذاريات	٦٦	سورة الكهف
١٧٠	سورة الطور	٧٥	سورة الأنبياء
١٧٢	سورة النجم	٧٧	سورة الحج
١٧٤	سورة القمر	٨٢	سورة النور
١٨٠	سورة الرحمن	٩١	سورة النمل
١٨٦	سورة الواقعة	٩٥	سورة العنكبوت
١٩٢	سورة الحديد	٩٩	سورة الروم
١٩٨	سورة المجادلة	١٠١	سورة الأحزاب
٢٠١	سورة الحشر	١٠٤	سورة سبأ
٢٠٥	سورة الممتحنة	١١١	سورة فاطر
٢٠٩	سورة الصف	١١٣	سورة يس
٢١١	سورة الجمعة	١٢٠	سورة الصافات

٣١٥	سورة الفجر	٢١٣	سورة المنافقون
٣٢٤	سورة البلد	٢١٦	سورة التغابن
٣٣١	سورة الشمس	٢١٨	سورة الطلاق
٣٣٧	سورة الليل	٢٢٠	سورة التحريم
٣٤٦	سورة الضحى	٢٢٤	سورة الملك
٣٤٩	سورة الشرح	٢٢٨	سورة القلم (ن)
٣٥٢	سورة التين	٢٣٣	سورة الحاقة
٣٥٩	سورة العلق	٢٣٧	سورة المعارج
٣٦٣	سورة القدر	٢٤٠	سورة نوح
٣٦٥	سورة البينة	٢٤٢	سورة الجن
٣٦٧	سورة الزلزلة	٢٤٤	سورة المزمل
٣٦٩	سورة العاديات	٢٤٧	سورة المدثر
٣٧٦	سورة القارعة	٢٥١	سورة القيامة
٣٧٨	سورة التكاثر	٢٥٤	سورة الدهر (الإنسان)
٣٨١	سورة العصر	٢٦٣	سورة المرسلات
٣٨٥	سورة الهمزة	٢٧٠	سورة النبأ
٣٨٧	سورة الفيل	٢٧٣	سورة النازعات
٣٨٩	سورة قريش	٢٧٧	سورة عبس
٣٩١	سورة الماعون	٢٨٠	سورة التكويد
٣٩٤	سورة الكوثر	٢٨٣	سورة الانفطار
٣٩٦	سورة الكافرون	٢٨٧	سورة المطففين
٣٩٨	سورة النصر	٢٩٢	سورة الانشقاق
٤٠١	سورة المسد	٢٩٤	سورة البروج
٤٠٤	سورة الإخلاص	٣٠١	سورة الطارق
٤٠٧	سورة الفلق	٣٠٨	سورة الأعلى
٤١٠	سورة الناس	٣١٢	سورة الغاشية
٤١٢	خاتمة		
٤١٣	مراجع		

• نبذة عن حياة المؤلف •

- * وُلد المؤلف ببلدة سنديس - مركز القناطر الخيرية - بنها محافظة القليوبية .
- * التحق بقسم القراءات - في كلية اللغة العربية - جامعة الأزهر سنة ١٩٤٤م .
- * حصل على إجازة (حفص) سنة ١٩٤٦م .
- * حصل على الشهادة العالية في القراءات سنة ١٩٥٠م .
- * حصل على شهادة تخصص القراءات وعلوم القرآن سنة ١٩٥٤م وفي نفس العام انتدب للتدريس بالمملكة العربية السعودية - معهد عنيزة العلمي .
- * انتدب للتدريس بالمملكة الليبية المتحدة آنذاك - معهد سيدي عبد الوهاب الأسمرى الإسلامي - فرع معهد محمد بن علي السنوسي الديني - مركز زليطن ولاية (طرابلس) سنة ١٩٥٨م .
- * عين مدرسا بمعهد كفر الشيخ الديني الإعدادي والثانوي - محافظة كفر الشيخ سنة ١٩٦١م .
- * انتدب للتدريس بالجمهورية العربية اليمنية - معهد تعز الديني سنة ١٩٦٤م .
- * انتدب للتدريس بمعهد القراءات بالقاهرة سنة ١٩٧٠م .
- * انتدب للتدريس بالجمهورية الجزائرية - معهد أدرار الإسلامي محافظة بشار - سنة ١٩٧١م .
- * انتدب للتدريس - مرة أخرى - بالمملكة العربية السعودية . مدرسة تحفيظ القرآن الكريم وعلومه بالرياض - مكث بها خمس عشرة سنة .
- * انتدب للتدريس بكلية إعداد المعلمين - شعبة علوم القرآن التابعة لوزارة المعارف بالرياض .
- * عين مدرسا بكلية أصول الدين - قسم القرآن وعلومه بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض .
- * شارك في دورة أئمة المساجد التابعة لوزارة الحج والأوقاف بالرياض .
- * انتدب إمام وخطيب مسجد العبيكان بالرياض .
- * عين إمام مسجد الرشودي في الرياض قرابة عشر سنوات .
- * شارك في المراكز الصيفية لتحفيظ القرآن التابعة لوزارة المعارف بالرياض سنين عديدة . وكذا المركز الصيفي لتحفيظ القرآن - بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - معهد إمام الدعوة العلمي بالرياض .
- * شارك في دورة المعلمين بوزارة المعارف بالرياض .
- * شارك في الجماعة الخيرية لتحفيظ القرآن بالرياض واحداً وعشرين عاما ولا يزال إلى الآن .
- * شارك في برنامج نور على نور في إذاعة تعز بالجمهورية العربية اليمنية .
- * شارك في التعليق في برنامج ناشيء في رحاب القرآن في إذاعة الرياض .
- * اختير عضواً تحكيم في مسابقة القرآن الكريم الثالثة ضمن نشاطات مهرجان الوطني العاشر والتي عقدت بمدينة الرياض في الفترة من ٢٣ إلى ٣٠ / ١٠ / ١٤١٥ هـ بالحرس الوطني .

* انتدب لتدريس علوم القرآن في الدورة التأسيسية للأئمة والخطباء بوزارة الشؤون الإسلامية
فرع وزارة الأوقاف في القاعة الكبرى بمدينة الرياض في الفترة من ٦/٢٨ إلى
١٤١٧/٨/٨هـ.

• له مصنفات عدة:

- ١ - أضواء البيان في تاريخ القرآن .
 - ٢ - إرشاد المرید- إلى أحكام التجويد .
 - ٣ - غاية البيان- في أمثال القرآن .
 - ٤ - التيسير في القراءات السبع المشهورة وتوجيهها .
 - ٥ - التبيان- في أحكام القرآن .
 - ٦ - تبصرة المرید في علم التجويد .
 - ٧ - الجواهر الفريد في علم التجويد .
 - ٨ - روائع البيان في علوم القرآن .
 - ٩ - عمدة البيان في تجويد القرآن .
 - ١٠ - الفريد في علم التجويد .
 - ١١ - كشف الضياء في تاريخ القراءات والقراء .
 - ١٢ - مورد الظمان في علوم القرآن .
 - ١٣ - النجوم الزاهرة في تاريخ القراء الأربعة عشر ورواتهم وطرقهم .
 - ١٤ - نهاية البيان في تجويد القرآن .
 - ١٥ - كشف الغطاء في الوقف والابتداء .
 - ١٦ - الدر الثمين في أصول التفسير ومناهج المفسرين .
 - ١٧ - رونق البيان في إعجاز القرآن .
 - ١٨ - الضوء اللامع في قراءة قالون وورش عن نافع .
 - ١٩ - الطريق الواضح في قراءة شعبة وحفص عن عاصم .
 - ٢٠ - القراءات القرآنية - ومناهج القراء .
 - ٢١ - هداية المرید في وجوب التجويد .
 - ٢٢ - الكوكب المنير - في قراءة البزي وقنبل عن ابن كثير .
 - ٢٣ - المقتبس في علوم القرآن .
 - ٢٤ - القراء العشر ورواتهم ورجالهم وأسانيد قراءاتهم .
 - ٢٥ - المنتقى في علوم القرآن
- هذا ونسأل الله تعالى أن يوفقنا لأحب الأعمال إليه ولأنفع العلوم لديه، فإنه مالك ذلك
والقادر عليه .

والله أعلى وأعلم وأحكم وأعدل